السلوك الإنساني

نظرة علمية

دكتور عبد الستار ابراهيم
مدرس علم النفس
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتور محمد فرغلي فراج
مدرس علم النفس
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتورة سلوى عبد الرحمن الملا
مدرس علم النفس
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

طبعة أولى
١٩٧٤

دار الكتب الجامعية



السلوك الإنسانى

نظرة علميـة

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي)

السلوك الإنساني

نظرة علمية

دكتور محمد فرغلي فراج

مدرس علم النفس

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتور عبد الستار ابراهيم

مدرس علم النفس

بكلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتورة سلوى عبد الرحمن الملا

مدرس علم النفس

بكلية الآداب - جامعة القاهرة



مقدمة

رسمنا سياسة هذا الكتاب بحيث نستطيع ـ من خلال أبوابه الثلاثة ـ أن نطلع القارىء على جوانب التقدم ببعض موضوعات علم النفس الحديث . وقد حرصنا أن يكون تركيزنا على التراث العلمى بشكل خاص . كما حرصنا على أن يكون متسقاً فى هذه الناحية ؛ فلم نلجأ لمفاهيم أو مصطلحات غيبية ، بل اعتمدنا على تلك المفاهيم التى تبعت أساساً من تقاليد البحث فى علم النفس العلمى وحده . أى العلم الذى يؤكد على الملاحظة المضبوطة والتجريب .

وقد دفعنا إلى تلك السياسة سببان أحدهما عالمى والآخر قومى. فمن الناحية العالمية لا يزال علم النفس بالرغم ـ من غلبة المنهج العلمى فى دراسة مشكلات السلوك الإنسانى ـ يعيش فى حالة فريدة إذا قورن بغيره من العلوم الأخرى . فالمائة عام التى تشكل التاريخ العلمى لهذا العلم ، لم نستطع فيما يبدو القضاء على الثنائية المعرفية فى تناول قضايا السلوك . فمن ناحية لا زال التشكك فى الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية قائماً ولا زال من يقول بالاعتماد على الخبرة بالانسان . وبالرغم من أن لكل أسلوب أنصاره والمدافعون عنه فإننا نؤمن بأن الخبرة وحدها لا يمكن أن تقيم علماً . قد تكسبنا الخبرة المهارة ، والتفهم ، وكلها لا تسمح بإقامة بنـــاء علمى متماسك من الحقائق . وبالخبرة لا نستطيع أن ننقل تنبؤاتنا بمسار الأشياء . لهـذا فإن احترام الملاحظة والقياس والتجربة لا تزال قيمةً لها اعتبارها لتحقيق رؤيا متماسكة منظمة للواقع بحيث تكون تنبؤاتنا على قدر كبير من الثقة. ومن الناحية القومية فإن صدى هذه الثنائية كبير بصورة مخيفة . لا تزال نسبة كبيرة من جمهورنا ـ بسبب عدم انتشار الثقافة السيكلوجية ـ تقول بأن ما يصلح للعلوم الطبيعية لا يصلح للانسان . ولا يوجد حتى الآن ما يكفى لكسر حدة هذا العناد . حتى النتائج المأساوية لهذا التخلف لم تشفع لمزيد من إعادة النظر ، ونقد الذات .

لحرصنا إذن على اتساق فصول هذا الكتاب بحيث تكون لها نبرة علمية واحدة له ما يبرره غير أننا مع هذا الحرص على اتساق الأهداف والمسلمات ، فإننا نعتبر لهذا الكتاب مجرد بداية صغيرة فى هذا الاتجاه . ولعل هذا يشفع لنا لدى القارىء عدم استيفاء كل موضوعات علم النفس، أو غالبيتها فى الأبواب الثلاثة لهذا الكتاب

وبعد ، فإننا نكون قد نجحنا إذا استطعنا أن ندفع نحو مواصلة السير فى هذا الطريق قراءة ، وتذوقاً وإبداعاً ؟

المؤلفون

نوفمبر ١٩٧٣

الباب الأول

النظرة العلمية للسلوك

الفصل الأول

السلوك الإنسانى بين النظرة الدارجة والنظرة العلمية

السلوك كموضوع لعلم النفس :

يدور جدل كثير حول علم النفس يمس بعضه شرعية هذا العلم وكيانه . ومن المؤسف أن كثيراً من تلك الأفكار قد لا تتصل بهذا العلم ، ولا بأسلوب بحثه من قريب أو بعيد .

ويمس ذلك الجدل ـ أحيانا ـ أكثر الجوانب خصوصية فى أى علم من العلوم ونعنى بذلك موضوعات بحث هذا العلم ، ونطاقه . إذ لا يكاد يوجد إلا عدد قليل ممن نسميهم بالمتخصصين ، أو من أصحاب الثقافة الجادة ممن يعرفون مثلا أن علم النفس ليس هو علم قراءة الأفكار ، ولا هو الفلسفة (وإن كان بالطبع يستفيد من الفلسفة) ولا هو التحليل النفسى كما أراده « فرويد » بكتاباته فى اللاشعور منذ النصف الأول من هذا القرن .

لكن أخطر أنواع ذلك الجدل تلك التى تمس شرعية استخدام المنهج العلمى — كما ورثناه من خلال تقاليد العلوم الطبيعية — فى موضوعات هذا العلم . فالنفس كائن أثيرى يتعذر إخضاعه للمنهج العلمى ، وإنه لوهم ذلك الذى يحاول أن يدعو له أنصار هذا المنهج من إمكانية إخضاع الظاهرة النفسية للدراسة العلمية .

هذا هو الاتجاه العام الذى يتبلور حوله الكثير من الأخطاء التى تمس مسلمات العلم الأساسية . ولكننا نتفق مع ليستر (٦) فى « أن أفضل شىء يستطيع الإنسان عمله — بعد نشر الحق — هو المجاهرة بالرجوع عن الخطأ » :

وهذا الفصل والفصل الذى يليه يعتبر محاولة لإثبات أخطاء هذه الأراء من خلال التعريف المنهجى بعلم النفس ·

ما هو إذن علم النفس ؟ إن نظرة متأنية لبعض الموضوعات التى تنتمى إلى هذا العلم من تفكير وإدراك ، وإبداع ، وتخيل ، ومرض عقلى ، وصحة عقلية ، وتعلم ·· وغيرها ؛ تبين لنا أن تلك الموضوعات تتعرض جميعها لقضايا متعلقة بالإنسان ، وتلتزم فى نظوتها بما يسمى بالدراسة العلمية ، وتهدف من ذلك إلى الوصول إلى القوانين المنظمة لطاقاته وسلوكه ·

وعلى هذا فإن التعريف العام لعلم النفس الذى قد نقبله ليعطى تلك الموضوعات معنى مشتركا هو أن علم النفس هو العلم الذى ينظر إلى الإنسان نظرة علمية بهدف الوصول إلى القوانين الأساسية المنظمة لحركته ·

غير أن التعريف على هذا النحو يثير عدداً من الأسئلة فما هو الإنسان ؟ وما هو المقصود بالنظرة العلمية ؟

إجابة تلك الأسئلة هى موضوع هذا الفصل ، ولنبدأ بالعنصر الأول للتعريف السابق وهو : الإنسان ·

مفهوم الإنسان بصفته موضوع لعلم النفس :

قد يبدو مفهوم الإنسان لأول وهلة مفهوما يصلح لتحديد موضوع علم النفس · ولكننا لو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن هذا التحديد لا تنطبق عليه الأسس المنطقية فى التعريف العلمى كما يعرفها المناطقة فهو تعريف جامع ولكنه غير مانع ، فالإنسان فى الحقيقة هو موضوع كل العلوم على الإطلاق سواء مباشرة أو بشكل غير مباشر · فلو سألت عالما فى الأحياء لأجابك بأن موضوعه هو الإنسان : ألا يدرس تطور الكائنات الحية — بما فيها الإنسان ؟ ولو سألت طبيبا أو فسيولوجيا لأجابك بأن موضوعه هو الإنسان أيضاً : ألا يدرس وظائف الأعضاء المختلفة ، وبنائها وانتظامها، وعلاقاتها فيما بينها كما تظهر فى الإنسان وغيره من الكائنات الحية ؟ ولو سألت أنثروبولوجيا لأجابك نفس الإجابة : ألايدرس موقع الإنسان فى الطبيعة ، وتكيفه

لها سواء كانت تلك الطبيعة مادية أم حضارية ؟ ولو سألت عالما إجتماعيا ، أو مؤرخا أو رجل اقتصاد ، أو جغرافيا ، أو حتى كيميائيا لأجابوك نفس الإجابة تقريباً ، ولكن باتجاهات مختلفة ، ستجد أن جميعهم يدرسون جزءاً من الإنسان أو بيئته . . وستجد أن هدفهم جميعا – فى النهاية – هو زيادة سيطرة الإنسان على بيئته (الطبيعية أو الاجتماعية) أو على نفسه .

ضرورة تحديد « الإنسان » كموضوع لعلم النفس :

إذن فهل نرفض هذا التعريف ؟ نبادر بالقول بأن الإجابة هى السلب . لسنا نحتاج إلى إنكار هذا التعريف الذى يجمع بين علم النفس وغيره من العلوم الطبيعية أو الإجتماعية . إنما نحتاج إلى مزيد من الدقة والتحديد . نحتاج إلى توضيح هذا الجانب من الإنسان الذى يشكل موضوع هذا العلم . فكما استطاعت البيولوجيا أن تحدد لنفسها زاوية تهتم فيها بالإنسان : وهى تطوره العضوى ، وكما استطاعت الفسيولوجيا أن تحدد لنفسها موضوعا هو : وظائف الأعضاء فى الكائنات الحية ، وكما استطاعت الأنثربولوجيا أن تحدد لنفسها موضوعا وهو : تفاعل الإنسان ببيئته المادية والحضارية ، وكما استطاع عالم الاجتماع أن يحدد لنفسه موضوعا وهو : الظواهر الإجتماعية ، والمؤسسات الإجتماعية وآثارها على الإنسان . كذلك يستطيع عالم النفس أن يقيم لنفسه موقعاً محدداً دقيقا يطل منه على إنسانه .

وإن من تتاح له فرصة الإطلاع على بعض كتب علم النفس العام ، أو على عدد من الكتب المتخصصة فى هذا الموضوع فسيرى أن علماء النفس قد نجحوا بالفعل فى تحديد هذا الموقع . فيعلم أنهم يركزون دراستهم على السلوك* الإنسانى والحيوانى . ويرى أنهم يعنون بالسلوك الإشارة إلى مختلف نواحى النشاط التى يمكن ملاحظتها أو ملاحظة نتائجها (٧ ، ١١) بعبارة أخرى فالسلوك يشير إلى كل ما يصدر عن الفرد من استجابات** حركية أو عقلية ، أو إجتماعية عندما تواجه الكائن أى منبهات***

* Behaviour ** responses *** Stimuli

مواقف* الكل والتحليل .

أما إذا تحرى القارىء مزيداً من التفاصيل بالاطلاع على مزيد من الكتب والنظريات فسيلمس تلك الحيرة التى تنتاب علماء النفس فى نظرتهم للسلوك الإنسانى فهم يعرفون أن الشخص كائن متكامل له ماضيه وخبراته الخاصة ، ويتصرف فى بعض الأحيان بوحى من عالمه الخاص . وهذه المعرفة تزيد من حيرة عالم النفس .

هل يدرس السلوك هكذا كوحدة متكاملة كلية ، أم يدرسه بطريقة متدرجة جزئية : جزءا فجزءا . والأخذ بأى الرأيين ليس يسيراً . فالدراسة الجزئية لا يمكن أن تتم دون الوقوع فى عدد من الأخطاء لعل أهمها : إفقاد الإنسان وحدته المتكاملة . ولكن عالم السلوك يعلم أيضا أنه لا يستطيع التوصل إلى معرفة حقيقية بالسلوك مالم يتقدم فى دراسته له كما لو كان أجزاءاً (١٤) . ليس له اختيار فى هذا لأن السلوك (هكذا وبشكل عام) موضوع ضخم لايستطيعه الذين يريدون التفاعل مع الحقيقة فى شكلها العلمى . بعبارة أخرى فإن التعامل مع الأشياء دون تحليلها ليس من عمل العالم . العالم فى كل موضوع وفى كل مجال لايتعامل إلا مع جزئيات لكى يلقى بضوئه المكثف على كل منها على حده : يحدد معالمه الأساسية تحديداً كاملا . . وينتقل بعد ذلك إلى الأجزاء الأخرى . . وتتكون حصيلتنا العلمية من تراكم تلك المعرفة على مر التاريخ .

هذا المنهج التدريجى فى تناول مسائل السلوك منهج شائع فى كل العلوم . ويسمى بمنهج التحليل** (Ibid) إذن فنحن لاندرس الإنسان ككل إنما ندرس فى الحقيقة أجزاءاً من النشاط تصدر منه ، ندرس كل جزء منها على حده . وهو ما نسميه بلغة علم النفس : إستجابة . وهناك قطاعات أكبر من السلوك تنتظم تلك الجزئيات . وهى التى تتشكل حولها نشاطات علماء النفس فى الوقت الراهن . عدد هذه القطاعات يتوقف على أسس التصنيف التى يتخذها هذا العالم أو ذاك لكتابه . لكن لايوجد إتفاق عام على تصنيف محدد لموضوعات علم النفس . وعلى هذا فإننا

---

* Situation

** analysis method

سنلتجىء لأسلوب أخر فى تحـــديد تلك الموضوعات وهو عرض موضوعات واهتمامات علماء النفس فى الوقت الراهن كما تنشرها مجلة الملخصات السيكلوجية(*) الأمريكية (١٨) .

تصنيف لموضوعات علم النفس :

وعجلة الملخصات السيكلوجية لها أكثر من اعتبار .. فهى تعتبر بمثابة الرأى الرسمى لعلماء النفس فى العالم إذ تصدرها أكبر جمعية عالمية لعلم النفس وهى جمعية علم النفس الأمريكية(**) . وتقوم وظيفتها على تلخيص شهرى لكل بحوث ، ومقالات وكتب علم النفس فى العالم . لهذا نجد أن التصنيف الذى تتبعه المجلة فى عرض موضوعاتها يعطى صورة واضحة لمجالات هذا العلم وموضوعاته . ويوضح الجدول(١) عرضا لتلك المجالات مع إيراد بعض الموضوعات التى تختص بكل مجال منها كما وردت فى أحد أعداد المجلة .

جدول (١) موضوعات علم النفس المعاصر

كما يبينها فهرس لموضوعات مجلة « الملخصات السيكلوجية » (١٦ ، ١٨)

١ — علم النفس الفسيولوجى : ومن موضوعاته :

سيكلوجية الجهاز العصبى . آثار العقاقير على السلوك . آثار الغدد والهرمونات التنبيه الكهربائى والكيميائى للمخ .

٢ — علم النفس التجريبى : ومن موضوعاته :

الإدراك — الحواس — الدوافع

---

* Psychological Abstracts

** ويرمز لها باسم الـ A.P.A.

— الانفعالات — الإنتباه — التعلم — التآزر الحركى — الذاكرة — التفكير ... إلخ .

٣ — علم النفس الحيوانى : ومن موضوعاته :

المقارنة بين سلوك الإنسان والحيوان — الخبرات المبكرة — الغرائز — الدوافع — التعلم البسيط — السلوك الإجتماعى — السلوك الجنسى .

٤ — علم النفس الارتقائى : ومن موضوعاته :

سيكلوجية الطفولة — المراهقة — البلوغ — الشيخوخة — النضوج والتعلم — القدرات — العلاقات بالوالدين .

٥ — علم النفس الإجتماعى : ومن موضوعاته :

الآثار الحضارية والإجتماعية على السلوك — السلوك التفاعلى كالسلوك الجنسى ، واللغة والإتصال ، والإتجاهات والآراء ، والعلاقات الشخصية ... إلخ .

٦ — علم النفس الاكلينيكى : ومن موضوعاته :

العلاج النفسى — العلاج الجمعى — العلاج بالعقاقير — التشخيص — اضطرابات السلوك : كالإدمان على العقاقير والكحول ، الانتحار ، الجريمة وجناح الأحداث ، التوجيه والإرشاد النفسى — التخلف العقلى — إضطرابات اللغة — الاضطرابات العصبية — الصحة العقلية ... إلخ .

٧ — علم النفس التربوى : ومن موضوعاته :

التوافق الدراسى — القياس — التربية الجسمية — التربية الخاصة — التعلم وطرق التدريس — التوجيه النفسى والإرشاد فى المدرسة .

٨ — علم النفس الحربى والصناعى : ومن موضوعاته :

التوجيه المهنى — الإختيار المهنى — التدريب الصناعى — تحليل العمل —

إشباع العمل — الدعاية والإعلام — الهندسة البشرية — حوادث وإصابات العمل .. إلخ .

٩ — سيكلوجية الشخصية : ومن موضوعاتها :

الذكاء — الإبداع — قياس الشخصية — سمات الشخصية .

١٠ — المناهج وفن البحث : ومن موضوعاتها :

النظم الرياضية والإحصائية — تصميم التجارب والتحليلات الإحصائية — إستخدام الحاسب الإلكترونى والبرمجة — تصميم الإختبارات والصدق والثبات — التجريب والملاحظة — إستخدام الأجهزة .

هل هناك أساس أخر للتصنيف ؟

يمكن بالفعل إختصار الموضوعات العشرة السابقة إلى فئتين كبيرتين من الموضوعات :

١ — الموضوعات الأساسية أو الأكاديمية . *

٢ — الموضوعات التطبيقية . **

وتتضمن الطائفة الأولى مجموعة الميادين التى تولى إهتمامها لصياغة القوانين الأساسية للسلوك كما يتشكل من خلال الأنواع المختلفة من المنبهات أو العلاقات بينها . ويمكن بناءا على هذا التصور الوصول إلى خمسة ميادين رئيسيه هى :

١ — علم النفس التجريبى أو العام : وهو الذى يصوغ قوانيين السلوك كما ينتظم من خلال تأثير المنبهات الفيزيقية الخارجية أو العلاقات بينها .

٢ — علم النفس الإرتقائى : وهو الذى يصوغ قوانيين السلوك كما ينتظم من خلال المنبهات المتعلقة بالنضوج العضوى .

---

* accademical or basic Psychology

** applied Psychology,

٣ — علم النفس الفسيولوجى : وهو الذى يصوغ قوانين السلوك كما ينتظم من خلال المنبهات العضوية الداخلية للفرد والعلاقات بينها وذلك كالغدد .. أو المخ .. إلخ .

٤ — علم النفس الإجتماعى : وهو الذى يصوغ قوانيين السلوك كما ينتظم من خلال التأثيرات الإجتماعية أو الحضارية على الشخص . (٧)

٥ — سيكلوجية الشخصية : وتشير إلى الاهتمام بتأثير التفاعل بين كل العوامل والمنبهات السابقة من حيث تأثيراتها على تشكيل سمات الشخصية المزاجية* (كالانطواء والانبساط) أو المعرفية** (كالذكاء والإبداع) أو الاجتماعية*** (كالدفء ، والإحتواء ، والتسلطية) .

أما الطائفة الثانية : فتتضمن مجموعة الميادين التطبيقية التى تستثمر فيها قوانين العلم كما تستخلص من الطائفة الأولى . وبناء على هذا التصور يمكن تحديد ثلاثة ميادين أساسية لعلم النفس هى :

١ — علم النفس الأكلنيكى + : وهو الذى يولى إهتمامه لتطبيق قوانين علم النفس الأساسى فى مجال إضطرابات السلوك : تشخيصا وعلاجا .

٢ — علم النفس التربوى : وهو الذى يولى إهتمامه لتطبيق القوانين الأساسية فى مجال الكفاءة التربوية والتعليمية والتحصيل ، فضلا عن الصحة العقلية والنفسية المرتبطة بهذه العوامل :

٣ — علم النفس الحربى والصناعى : وهو الذى يولى إهتمامه لتطبيق القوانين الأساسية فى مجال الصناعة والجيش .

ويعطى الجدول (١) السابق بيانا ببعض الموضوعات التى تدرس فى كل ميدان :

---

* temperamental ** Cognitive *** Social + Clinical

أما المناهج وفن البحث : فهذه موضوعات تمثل القاسم المشترك بين كل الميادين . . وهى تتعلق أساساً بأساليب الدراسة . صحيح أن كل ميدان قد يتطلب متخصصيه من علماء المناهج والبحث ، غير أن هناك جانبا مشتركا بين كل هذه الميادين وهو : الدراسة العلمية . لذلك فقد يتطلب الأمر بالفعل إقامة ميدان مستقل من ميادين البحث فى علم النفس : هو ميدان المناهج وفن البحث العلمى السيكولوجى. ويعتبر التفات مجلة الملخصات السيكولوجية لهذ الموضوع إرهاصا بذلك .

النظرة العلمية والسلوك

قلنا بأن علم النفس هو العلم الذى ينظر للسلوك الإنسانى نظرة علمية . . وعرفنا ما هو المقصود بالسلوك . . وقادنا هذا إلى الحديث عن السياسة العامة التى يتبعها علماء النفس فى دراستهم لهذا السلوك وقادنا هذا بدوره إلى تحديد الميادين الرئيسية لهذا العلم النامى . وتبقى الآن الإجابة عن العنصر الثانى من السؤال ما هى النظرة العلمية ؟

وإجابة هذا السؤال هى الموضوع الأساسى لهذا الفصل .

ضرورة توضيح المقصود بالنظرة العلمية :

فلأسباب متعددة يصبح توضيح هذا المفهوم ضرورة إجتماعية تفرضها ظروف واقعنا فى اللحظة الراهنة . إن نظرة متأنية لواقعنا اليوم — كمجتمعات نامية تحاول أن تأخذ طريقها فى وسط جو من أجواء التقدم السريع — تبين لنا بوضوح— أننا نعيش موقفا غامضا . هذه حقيقة فرضتها ظروفنا التاريخية والاجتماعية والسياسية الراهنة . وقد فرض هذا الغموض نفسه على كثير من مفاهيمنا العقلية والعلمية للأشياء فأصبحت صياغاتنا أيضا غامضة . ومن الممكن التسامح مع هذا الغموض لكننا نعلم — معشر السلوكيين — أن الغموض الذى يحيط بمفاهيم الناس يفرض

أحيانا تمسكا متصلبا ببعض الحقائق الجزئية فبعضهم — بحسن نية — فى موقف المقاومة العنيدة لما هو صواب .

ومفهوم النظرة العلمية هو من بين تلك المفاهيم التى احتواها — بدورها — هذا الغموض . وتزداد حدة هذا الغموض عند محاولة الأخذ بالنظرة العلمية للسلوك الإنسانى :

صحيح أن هذا موقف مشترك بيننا وبين كثير من دول العالم فى مراحل تطورها التاريخى المختلفة . وصحيح أن كثيراً من علماء السلوك فى الدول المتقدمة يواجه بمقاومة شديدة فى ترسيخ دعائم النظرة العلمية للسلوك الإنسانى . بيد أن موقفنا فريد فى هذه الناحية والعلماء فى الدول المتقدمة يتصارعون فى إطار حضارى أصبحت فيه مفاهيمهم عن الأشياء على درجة عالية من التحديد . وإذا أتيح لك الإطلاع على صفحات هذا الصراع فأنت لن تجد من بين هؤلاء من لم يتحدد مفهومه عن النظرة العلمية أو القانون ، أو النظرية . ولن تجد فيهم من يقول بأن من العبث محاولة إخضاع الإنسان للمنهج العلمى ، لأن الإنسان ذو تركيب معقد يضعه فى موقف متجاوز لكل قوانين مفسرة . أما هنا فلا يزال فى واقعنا أشخاص نجلهم — بفضل نظرتهم التقدمية للحياة — ومع ذلك تراهم ينظرون نظرة الشك والأسى لمحاولات التجريب والقياس فى علم النفس . وتثور شكوكهم عند أى بادرة من بوادر الالتزام بالنظرة العلمية للسلوك الإنسانى .

فما هو المقصود بالنظرة العلمية ؟

مدخلان للتعريف بالنظرة العلمية :

هناك مدخلان يمكن أن نحددهما للتعريف بالنظرة العلمية . المدخل الأول هو المدخل التاريخى أو الخارجى ؛ أما المدخل الثانى فهو المدخل الداخلى . ويقصد

المدخل الخارجى : التعريف بالنظرة العلمية من خلال تحديد علاقاتها * بالنسبة للتصورات الأخرى غير العلمية . أما المدخل الداخلى للتعريف فنقصد به الأشارة إلى المتعلقات** الأساسية التى تكون المنهج العلمى فى تناول السلوك الإنسانى .

ولنتجه الآن إلى مزيد من التفاصيل .

أولا : المدخل الخارجى فى تعريف النظرة العلمية :

يقصد بالنظرة العلمية وفق هذا المدخل أى معرفة نستخدم فى تحصيلها المنهج العلمى . وهى بهذا المعنى النظرة المعارضة لما يسمى بالتفكير الشعبى الدارج*** . ولكى يتضح الفرق بين النظرتين : العلمية والدراجه سنتجه الآن إلى ذكر عدد من الأمثلة من الموضوعات التى تعرضت — تاريخيا — لكثير من الأفكار الدارجة ثم خضعت بعد ذلك للنظارة العلمية .

النظره الدارجة والنظرة العلمية فى نماذج :

من أمثلة التفكير الدارج ما يسمى بالفراسة ، أى الإعتقاد بأنه يمكن فهم شخصية الفرد من خلال بناء أعضاء جسمه الخارجيه كشكل الجمجمة ، والأذن ، وحجم الكف وغيرها . فيقال أن الشخص الكريم مثلا ذو كف كبيرة الحجم ، وأن الأذنين الكبيرتين يكون صاحبها مجرم فيما بعد ، وأن الجبهة العريضة الممتدة إلى الأمام تكون علامة على سعة الخيال ، وأن الرأس عندما تمتد إلى خلف تكون علامة على قوة الذاكرة . . . إلخ .

وقد شاعت هذه الأفكار فى بعض كتابات الفلاسفة اليونانيين ، كما روج لها بعض الفلاسفه العرب . وامتد هذا التأثير بصورة متقدمة نسبيا عندما ظهر «جال» Gall فى ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر (١٥ ، ١٧) ودعا إلى ما يسمى بتأسيس علم

---

* Correlates ** Corollaries

*** Common Sense thinking

الملكات أو الفرينولوجى * . ونظرة « جال » فى هذا المجال ترى أن العقل يتكون من عدد كبير من الملكات أو الوظائف . وأن كل وظيفة يمكن تحديد موقعها فى المخ فى منطقة معينة منه . وقد أشار « جال » إلى حوالى ٦٠ ملكة عقلية تتوزع على مناطق وأركان المخ المختلفة. فملكة الذاكرة تقع فى مقدمة المخ (أى الجبهة) ، ومثلها ملكة التخيل . أما وظائف العدوان ، والمحاكاة ، والموهبة الشعرية فموقعها فى التلافيف الدقيقة من المخ .

أما عن أساس هذه الملكات فإن « جال » يرى بأنها موروثة . ويرى فضلا عن هذا أن نمو أى ملكة من هذه الملكات تترك نتوءات فى الجمجمة الخارجية . وعلى هذا فإنه يمكن إحصاء ملكات كل شخص بإحصاء عدد النتوءات الخارجية للجمجمة بطريق اللمس باليد (١٥) .

كان هذا هو التصور الدارج فى فهم الشخصية ، والذى ظل مسيطرا على تصورات الناس فترة طويلة . وقد اتضح فيما بعد أن هذا التصور لا يستقيم ومنطق الواقع .

ما هى مظاهر الخطأ فى مثل هذا التصور ؟

قد يكون هذا التصور الدارج لملكات العقل صحيحا أو غير صحيح . وقد يكون المجرم ذا إذن كبيرة ، ويكون العبقرى ، المشبوب الخيال ذا جبهة عريضة ، وذو الرأس الممتدة إلى الخلف رجلا يمكن الوثوق به عندما تكون بصدد إستعادة حدث كامل بحذافيره . . وقد . . وقد لكن العالم لا يعنيه هذا الأمر أساساً . . وهو يتساءل بادىء ذى بدء عن الأسلوب الذى توصلنا به إلى هذه الوقائع . إن اليوم بدأ السؤال: كيف نعرف ؟ يحظى بأهمية أكبر من السؤال ماذا نعرف : هكذا يقول العالم الانجليزى والرياضى الفيلسوف وايتهيد (١) .

إذن هذه نقطة الخلاف الأساسية بين التفكير الدارج والتفكير المنصب على النظارة العلمية .

---

* Phrenology

النظرة العلمية لا يهمها الاهتمام بتأكيد التصورات الشائعة بقدر ما يهمها أسلوب الوصول إلى هذه الوقائع أى النهج العلمى* . أى مقدار الوقائع التى تؤكد التصور والدقة فى قياس الظواهر : ومقدار الضبط فى الملاحظات المتبعة . أما التفكير الدارج فيقوم أساساً على جاذبية هذا الشيوع : قدر قليل من الوقائع ، ومقدرة أكبر على التميز والتعميم .

وتؤدى هذه النقطة الخلافية الأساسية إلى نقاط أخرى من الخلاف . لعل أبسطها أننا نعجز وفق التصور الدارج عن بناء استنتاجات على قدر كبير من الدقة بحيث نستطيع التنبؤ بالوقائع المستقبلة . وهذه نقطة أساسية فى أى معرفة علمية : الاستدلال من الماضى والحاضر على المستقبل . ولكى تكون للعلم قيمة ينبغى عليه أن يتنبأ(7) وأن يستدل — من المعطيات التى حصل عليها عن طريق الملاحظة الدقيقة والقياس — على معالم المستقبل . أما نقص المعلومات ، والوقائع فى التفكير الدارج فيجعلنا غير واثقين من المستقبل . لا نستطيع مثلا أن نتنبأ بناءاً على ملاحظة الجبهة العريضة لمجموعة من التلاميذ فى إحدى المدارس بأنهم سيكونون فيما بعد من ذوى الخيال المشبوب ، ومن قادة الفكر والفن . لا يكفى أن يكون شكسبير عريض الجبهة حتى نستدل من ذلك على أن كلّ عريض الجبهة سيكون يوما « شكسبير » آخر . فلابد أن تكون الوقائع التى نجمعها كافية قبل تبنى أى تصور . وهذا مبدأ أساسى أيضاً من مبادىء النظرة العلمية .

أمثلة أخرى من التفكير الدارج :

ولعل حساسيتنا الآن قد أصبحت قادرة على أن نمتحن — بيسر — الفروق الأساسية بين التفكير الدارج والتفكير العلمى . ولا يوجد ما هو أكثر فاعلية على

---

* Scientific method

زيادة تلك الحساسية من الإطلاع على تاريخ بعض الموضوعات السلوكية التى تعرضت للتصورات الدارجة ثم خضعت بعد ذلك للتصور العلمى ·

١ — الفروق بين المرأة والرجل :

ومن أمثلة التصورات الدارجة الآراء التى سادت تاريخ المعرفة البشرية عن الفروق بين المرأة والرجل(٥) . فلقد كان يعتقد — وما زالت بعض هذه الاعتقادات تسود الخيال الشعبي حتى الآن — أن المرأة تختلف اختلافا شاسعا عن الرجل · فمزاجها أكثر غموضا منه ، وأكثر اصطناعا ، وأفكارها تعتبر لغزاً ، أو سراً مستعصيا على الفهم . وببساطة فإن التصور الدارج ينظر للمرأة على أنها لغز محير لا يمكن الوصول إلى طلاسمه ·

وهذا الاعتقاد قديم . والغريب أن كثيرا من الفلاسفة ، والمفكرين قد وقعوا فى مثل تلك التصورات ، وصاغوا كثيراً من النظريات ، بل إن بعضهم حاول أن يكسب نظرياته شكلا علميا ، من خلال بعض المفاهيم البيولوجية ، وعلم الوراثة . وهذا الشكل من التفكير الدارج من أخطر أشكال التفكير على الإطلاق ، ومن أكثرها مقاومة للتغيير بسبب الشكل العلمى المضلل الذى يصوغ به تصوراته ·

ومن أمثلته فى تعليل الفروق الجنسية ما ينسب إلى « هربرت سبنسر » (ونحن نهل هنا من « سيريل بيرت » C. Burt (٥)) . أن كلا الجنسين يرث تكوينا جسميا متشابها ، ولكن التغير الذى يطرأ عند البلوغ على الجهاز التناسلى فى الأنثى يجلب معه وقوفا مبكراً فى تطورها · وعلى هذا فالمرأة عند « سبنسر » رجل ساذج أو ناقص التطور وهى تبقى طوال حياتها أشبه بالطفل وأقرب إلى الطبيعة المتوحشة .(٥)

ومن أمثلته أيضاً الصورة الغريبة التى يبنيها فرويد لتلك الفروق(٩) :

« حظ النساء من النرجسية وحب الذات أكثر من حظ الرجال وهذا يؤثر فى

اختيارهن لموضوع حبهن ، بحيث أن حاجتهن إلى أن يكن موضوع محبة من الغير أقوى من حاجتهن إلى أن يحببن الغير . وأن ما يتسمن به من زهو وعجب هو إلى حد ما أثر من آثار حسد القضيب . فهن مدفوعات إلى الغلو فى إظهار محاسنهن الجسمية ، كما لو كان ذلك تعويضاً لاحقاً عما لديهن من نقص جنس أصيل . أما الحياء فهو ذريعة تصطنع أصلا لستر ما بأعضائهن التناسلية من نقص » . ويستمر فرويد بهذا المنطق مفسراً أوجه الخلاف فى عجز النساء عن الابتكار وميلهن للغموض ، وتحيزهن ، وتوقف قدرتهن على التغيير فى سن مبكرة(٩) .

مرة أخرى لا يعنينا إن كانت تلك الوقائع صحيحة أو غير صحيحة . إن النظرة العلمية لهـــذا الموضوع تؤثر أن تعرض كل الأراء على محك الملاحظة والتجربة . صحيح أن المعطيات التى نحصل عليها بهذا الطريق قد تقضى على متعتنا بكثير من التصورات التى تزهو بجاذبيتها لنا ، ومعرفتنا بها ولكن هذا هو نفسه ما يميز العالم . ويمكن للقارئ فى هذا الصدد أن يطلع على بعض السير الشخصية للعلماء لكى يستنتج هذه القدرة بوضوح أى التخلى عن الأفكار — مهما بدت جميلة أو مريحة — حالما يتضح خطؤها . وفى هذا يقول هكسلى Huxley (7) :

« إن من أكبر مآسى العلم هو ذبح الفروض الجميلة بالوقائع الصارمة » .

ويذهب « داروين » إلى أبعد من هذا حين يقول :

« لقد كنت أسعى كى يظل ذهنى حراً فى التخلى عن أى فرض مهما كان أثيرا لدى (مع أننى لا أستطيع مقاومة الرغبة فى وضع فرض لكل موضوع) حالما يتضح لى أن الوقائع تخالفه . ولست أذكر فرضاً واحداً وضعته فى أول الأمر ، دون أن أجد نفسى مضطرا بعد وقت قليل إلى التخلى عنه ، أو إلى تعديله تعديلا كبيرا » Ibid.

ومن الغريب أن تجد أن التفكير الذى لا يبنى على الملاحظات ليس كذلك ، بل إنك لو أظهرت العجب أمام أحد هؤلاء الأشخاص الذين يتبنون مثل تلك الأراء عن المرأة ، أو أنك أبديت عجزك عن التيقن من صحة هذه التصورات إلا إذا تجمع لدينا

من الوقائع ما يكفى ، لربما نظر إليك نظرة استغراب وإنكار من بطء تفكيرك ، ومحاولتك إقحام العلمية فى أمور واضحة بهذا الشكل .

ب — الإبداع والعبقرية : مثال آخر من التفكير الدارج :

وتعد المحاولات الأولى فى تفسير العبقرية الفنية (أو ما يعرف فى لغة علم النفس الحديث بالإبداع) وهى المحاولات التى سادت الفكر البشرى فى العصر اليونانى وما بعده أمثلة أخرى لهذا التفكير الدارج .

وقد تمثلت هذه المجالات فى تصور أفلاطون للمبدع على أنه فى حالة لبس شيطانى . كذلك التصورات التى شاعت بعد هذا ، وامتدت على مر التاريخ الفكرى للإنسان حتى العقود المبكرة من القرن العشرين عندما تصدى علم النفس لبحث هذه المشكلة ، وأخضعها لأسلوب البحث العلمى .

ولعل أهم مايعبر عن هذه التصورات عند أفلاطون مايرد فى محاورة «أيون» حيث يقول سقراط للشاعر :

« إن الهبة التى تملكها ليست فناً ، ولكنها ألهام . إن هناك شيطانا يحركك . يشبه تماماً ما يحتويه ذلك الحجر الذى يسميه « أوربيدس » مغناطيسيا . ليس بالفن يشدو الشاعر بل بقوة شيطان الشعر » .

فهنا نجد أفلاطون يركز على وجود شيطان عبقرى ـ بلغة العرب بعد هذا ـ وينفى أى أثر من أثار الصنعة أو الفن .

وتتفق كل التصورات التالية بعد هذا مع هذا التصور فالفنان عند « كارلايل » T.Carlyle لا يستطيع أن يعرف مايفعله وكيف يفعله ، ولايجد مايفسر به عمله إلا على أنه إلهام ، أو هبة من شيطان الشعر . وعند سوروكن Sorokin تكون أعظم الابداعات منحة بفعل قوة خارقة للطبيعة ، وبعيدة تماماً عن مجال الحس . ويتفق جاك ماريتان ، وسيزار لمبروزو Lombroso مع نفس الاتجاه بصور مختلفة .(٢ ، ١٣)

وفى القرن التاسع عشر ، ومشارف القرن العشرين استمرت تلك التصورات مرة فى ربط العبقرية بالجنون(*) ، (عند لامارتين وجانبه janct وايكباوم Eichbaum) ومرة فى التصور بأن الفنان العبقرى يجد فى الفن منطلقا للتعبير عن صراعاته الداخلية ــ التى يعمل بعضها لاشعوريا ــ والتى قد تظهر فى شكل المرض النفسى (العصاب)(**) إن لم تظهر بهذه الصورة . وقد دعا لبعض هذه التصورات أصحاب المدرسة التحليلية النفسية لفرويد .

كل هذه التصورات مع ما تنسجه من خيال جميل أصبحت بعد إخضاع تلك العمليات الإنسانية المعقدة للبحث العلمى جزءاً من الخيال الشعبى الذى يفتقر إلى الدليل . ولسنا نغالى إن كنا نحكم بأن كل قيمتها فى الفكر تتبلور فيما نستمدهمنها من أفكار لفروض علمية فى تجارب حديثة ، وفيما تمنحه لنا من بصيرة بمستقبل الفكر الإنسانى . إنها باختصار تقف كشاهد على مقدار التطور الهائل الذى تستطيع البشرية تحقيقه .

الفرق بين النظرة العلمية والنظرة الدارجة فى نقاط :

آن الأوان بعد تلك الأمثلة من التفكير الدارج أن نتساءل ماهى إذن النظرة العلميــة . . وكيف تنظر لنفس تلك الموضوعات وهل تختلف نظرتها عن ذلك ؟

إن إجابة هذه الأسئلة تعتبر فى الحقيقة بمثابة السياسة العامة القائمة وراء وضع هذا الكتاب . . وإننا نعتبر كل فصل من فصوله إجابة ــ من نوع أخر ــ عن تلك الأسئلة .

أما الآن فعلينا أن نكتفى بعرض ما نجده هاماً للتمييز بين النظرة العلمية ، والنظرة الدارجة :

---

* Psychosis ** neurosis

١ — تبنى النظرة العلمية على المنهج العلمى بعناصره التي سنعرض لها ومن أهمها اللاحظة والتجربة ، والقياس ، أما النظرة الدارجة فتبنى على الخبرة العامة بالحياة(١٢) ولا تولى إهتماماً للأسلوب العلمى .

٢ — إن الظواهر التى يتضمنها التفكير الدارج ليست واضحة بالشكل الكافى ، فأنا لا أستطيع فى النهاية أن أعرف مثلا ماهو شيطان الشعر هذا الذى تحدث عنه أفلاطون . . ولا أستطيع أن أترجمه إلى شىء واضح وملحوظ .

٣ — التفكير الدارج لايهتم بامتحان أفكاره كثيرا .. وهذا مايجعله ثابتاً متصلبا ورافضاً لكل جديد .. أما إمتحان الأفكار العلمية ، وإعادة التجارب فهى هدف العلماء القدس والنظر العلمى بهذا الفن قابل للإمتحان ، وقابل للتعديل ، والتغيير .

٤ — إن مقدمات التفكير الدارج لاتؤدى حتما إلى الاستنتاجات المساغة ، فظهور بضعة من المبدعين بمظهر التوتر النفسى ، أو المرض العقلى ، لايعنى أن المرض النفسى سبب من أسباب الإبداع ، بل قد يعنى العكس.. وقد يعنى أن المبدعين يبدعون بالرغم من أمراضهم ، وتوتراتهم وليس بسببها .

٥ — التفكير الدارج يقفز إلى التعميم السريع إذ يكفى ـ بالنسبة لهذا النوع من التفكير أن يلاحظ أن طه حسين وأن أبا العلاء المعرى مثلا كفيفان ، أو أن أوسكار وايلد شاذ جنسيا ، أو أن « هيمنجواى » قد أنهى حياته منتحراً بطلق نارى . . أو غير ذلك حتى يتصور أن كل مبدع يعانى من مرض أو نقص ما .

٦ — وينتج عن هذا أن يقع التفكير الدارج دائما فى التناقض(٣) . ونعنى بالتناقض هنا أن تفسر الظاهرة ونقيضها بنفس السبب الواحد . وهناك أمثلة كثيرة على هذا التناقض فى نظرية التحليل النفسى لفرويد منها :

— مفهوم تكوين رد الفعل* وهذا المفهوم كما ذكره فرويد ميكانزم لاشعورى يظهر أحيانا فى صورة أفعال قوية عنيفة فى الاتجاه المضاد للرغبة أو الدفعة المكبوته ، أو محاوله من الفرد للدفاع عن ميل يعانيه ، ولكنه يرفضه .

---

* reaction formation

فقد استخدم المحللون النفسيون هذا المفهوم فى تفسير ظواهر متناقضة كالعدوان ، أو الأدب المفرط . . فكلاهما رد فعل لنوع من التربية القاسية .

— مفهوم الكبت** وقد استخدمه المحللون النفسيون فى تفسير ظواهر متناقضة مثل : الإقبال الشديد على الجنس الآخر ، أو النفور الشديد من الجنس الآخر .

ويلاحظ أن كثيراً من المفاهيم التحليلية من هذا النوع المضلل وسنرى فيا بعد أن جزءاً كبيراً من سياسة العلماء يتجه أساساً لتجنب هذا التناقض فى الفكر البشرى .

٧ — ونتيجة لكل الفروق السابقة نجد أن التنبؤات التى نشتقها من التفكير الدارج دائما ما تكون غير صحيحه . أنظر مثلا إلى تصور « فرويد » الذى جارى فيه الخيال الشعبي عن وجود فروق نوعية بين المرأة والرجل ، والتى أرجعها إلى شعور دفين بالنقص لدى المرأة بسبب افتقارها إلى العضو الذكرى ، ثم قارن بعد ذلك بعض البحوث العلمية الحديثة عن هذه الفروق حتى يتضح لك أن نسبة كبيرة من هذه التوقعات التى ذكرها فرويدلم يمكن إثبات صحتها . وقارن هذا أيضاً ببعض التنبؤات التى كان يضعها « أيزنك » Eysenck عن الشخصية (٤ ، ١٢ ، أنظر كذلك فصل الشخصية فى الكتاب الحالى) حتى يتضح لك مقدار ما يجب أن تكون عليه النظرة العلمية فى هذه النقطة .

نكتفى بهذا القدر عن التعريف الخارجى للنظرة العلمية . . وننتقل الآن إلى بعض التفاصيل المتعلقة بالحد الأدنى من العناصر التى يجب توافرها فى النظرة العلمية ، أى التعريف الداخلى موضوع الفصل القادم .

الخــــلاصة

هناك فرق أساسى بين النظرة العلمية ، والنظرة الدارجة تتبدى فى الأساس الذى تبنى عليه النظره العلمية أو الدارجة محكات قبولهما للمعرفة أو رفضهما . فقوة التقاليد ، والخبرة ، أو جاذبية شيوع معرفة معينة ، تعتبر أساسا مقبولا لتكوين المعرفة الدارجة

** repression

ولـكنها ليست مقبولة لتـكوين المعرفة العلمية. فالسلطة الأساسية للعلم تعتمد على البرهان الفعلى القائم على الملاحظة المنظمة والمتـكررة . وهناك مثال على ذلك فى مجال العلوم الطبيعية فسلطة الـكنيسة ، وهيبتها ، وقوة الرأى العام . . كلها لم تقف لتدحض وجهة نظر « جاليليو Galileo » فى أن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها . وبالرغم من أن « جاليليو » تحت عنف الـكنيسة ، ومحاكم التفتيش قد أعلن تنازله عن هذا الرأى ، فإن البشرية لم تتنازل عن ذلك فالواقع ، والملاحظات المتـكررة قد بينت أن الشمس هى مركز الـكون وليست الأرض .

وتؤدى الملاحظات الدقيقة لسلسلة من الحوادث المطردة ـ بصفتها الأساس الأول لأى معرفة علمية ـ إلى اكتشاف قوانين عامة بحـكم حركة الوقائع وتفاعلاتها . فالافتراض الأساسى الذى يقيم العلم عليه بناءه أن العالم مقنن ، وله نسق متسق من الحوادث . ويتعامل العلم مع علاقات متسقة . ويتعامل عالم النفس مع تلك النواحى من الاتساق فى مجال السلوك . وهو يحاول أن يجد أن القوانين العامة التى تمـكن من الفهم بالسلوك .

كما يؤدى هذا العنصران : الملاحظة ووضع القوانين إلى إمكانية التنبؤ بحوادث المستقبل . لأن القانون ما هو إلا تعميم لعلاقات بين متغيرات بحيث يساعد على التنبؤ بمتغيرات مشابهة . وبالطبع فإن تحقيق هذا الهدف يعتبر متعذراً أو مستحيلا إذا لم يخضع السلوك للاتساق . ويفترض عالم النفس أنه يستطيع من خلال الدراسة المقبولة أن يجد العوامل التى تساعده على تحسين تنبؤاته . وكلما أخذت معرفتنا بعلم النفس ـ الذى يعتمد على النظرة العلمية ـ تنمو كلما أصبحنا قادرين على اكتشاف النظام فى الفوضى ، والبعثرة فى تفسير الظواهر السلوكية المحيطة بنا بسبب التفسيرات الخاطئة الدارجة .

مراجع الفصل الأول

(أ) المراجع العربية

١ — إبراهيم ؛ عبد الستار ؛ بين النظرية والمنهج فى علم النفس الفكر المعاصر ، فبراير ، ١٩٧٠ (ص ٣٥ — ٤٦) .

٢ — ———— ؛ الأصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية كما يتكشف فى عدد من أساليب الإستجابة ، رسالة دكتوراه ، ١٩٧٢ . غير منشورة

٣ — ———— ؛ محاضرات فى علم النفس المعملي ، محاضرات غير منشورة ، ألقيت على طلاب علم النفس بجامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

٤ — أيزنك ، هانز ، الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة : قدرى حفنى ورؤوف نظمى. القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٦٥ .

٥ — بيرت ، سيريل ، كيف يعمل العقل . الكتاب الثانى ؛ ترجمة محمد خلف الله، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤

٦ — بيفردج ، و ، ا ، ب ، فن البحث العلمى ؛ ترجمة : زكريا فهمى ، القاهرة : دار النهضة المصرية، مجموعة الألف كتاب ، ١٩٦٣ .

٧ — سويف ، مصطفى ؛ مقدمة لعلم النفس الإجتماعى ؛ القاهرة : الأنجلو ١٩٧٠ .

٨ — ———— ؛ العبقرية فى الفن ، القاهرة — مطبوعات الجديد ، ١٩٧٣

٩ — فرويد ، سيجمند ؛ محاضرات تمهيدية حديثة فى التحليل النفسى (١٩٣٢) ترجمة أحمد عزت راجح ، القاهرة : مكتبة مصر (بدون تاريخ للترجمة العربية) .

(ب) المراجع الأجنبية

10 — Andreas , B . Experimental Psy-chology , New York : Wiley , 19.:0

11 — Drever, J. , Dictionary of Psychology , London : Penguin, 1962.

12 — Eysenck , H. ; The Scientific Study of Personality , London : Routledge and Kegan Paul, 1958

13 — Kneller, G.F. , The Art and Science of Creativity, New York : Holt and Co. , 1965.

14 — Krech, D. , & Crutchfield, R. S., Elements of Psychology New York : Knopf, 1958

15 — Misiak, H., & Sexton,; History of Psychology, Hewyork : Grune & Stratton, 19.5

16 — Munn , N. L. , Introduction to Psychology , Calcutta : oxford & IBH, 1969.

17 — Murphy G. , An Historical Introductien to Modern Psychology. Londen : Routedge and Kegan Paul, 1949.

18 — Psychologi Cal Abstracts (several No s.) Washington : The American Psychological Corporatian.

الفصل الثانى

مسلمات النظرة العلمية وعناصرها

المسلمة العامة فى المعرفة البشرية :

يقول جورج سانتيانا G. Santyana :

« إن الذين يستمرون فى جهلهم بمنطق التاريخ ، عادة ما يتجهون إلى إعادته بحذافيره »(١٦) .

تكمن فى هذه العبارة الإجابة الأساسية ، لكل سؤال عن أهمية المعرفة البشرية. فلعل كثيراً من الأشخاص الذين تتاح لهم قراءة بعض الفصول العلمية يدهش للتفاصيل المتعددة التى تهتم بها تلك العلوم . وقد يتساءل ما الذى يجنيه من هذه المعرفة بتلك الأشياء ؟

والجواب على ذلك يكون سريعا وحاسماً بالنسبة للعلوم التى أمكن استغلالها فى مجالات التطبيق العملى (والحقيقة أن البشرية قد خطت فى هذا المجال خطوات هائلة واستطاعت بالفعل أن تستفيد ببعض أجزاء المعرفة العلمية فى مجالات الحياة المختلفة بجوانبها الطبيعية والاجتماعية ، والسلوكية) ولكن ـ بغض النظر ـ عن الاستغلال التطبيقى للعلم فإنه تبقى للمعرفة البشرية مسلمتها الأساسية والأولى وهى مجرد المعرفة . فالمعرفة مجرد المعرفة فى حد ذاتها تشحذ المهارة الإنسانية ، وتجنب إعادة الأخطاء ، ولهذا السبب ـ فوق أى اعتبارات أخرى ـ تكون حاجتنا إليها . ولعل هذا ماتوضحه عبارة « سانتيانا » السابقه بأن الجهل تؤدى إلى أعادته الأخطاء بحذافيرها .

هذا الاهتمام بالمعرفة نجده بمثابة القاسم المشترك لأى رجل يتصدى نحو إلقاء الضوء على جوانب الحياة ، سواء كان هذا رجل أدب أو فن ، أو علم .

فرجل الأدب والشاعر يحاول كلاهما أن يصل إلى معرفة الإنسان من خلال مواقفه الذاتية ، وتفرده ، والحقيقة أن من العسير حقا أن نجد قدرة على فهم الموقف الإنسانى ، والإحاطة بشموله كما نجدها فى مجال الأدب . وفى هذا المجال ندين نحن ـ أنصار المعرفة العلمية بالسلوك الإنسانى ـ بكثير من الاستعارات العميقة ، والفروض الثرية التى يقدمها لنا مثلا « شكسبير » ، و « هيمنجواى » ، و « دستويفسكى » . . وغيرهم عن الحب ، والكراهية والحسد ، والغيرة ، والجنس ، والقوة ، والمعرفة وغيرها من الدوافع البشرية والعواطف المعقدة .

والفيلسوف أيضاً بمحاولاته فى تنظيم الخبرة الإنسانية فى مبادىء عامة يتجه أيضاً إلى مجرد المعرفة فوق أى اعتبار آخر . والمؤرخ ورجل الدين ، جميعهم يحدوهم هذا الهدف .

والعلوم الطبيعية والإنسانية تقاسم تلك المعارف السابقة مسلمتها العامة وهى حب المعرفة . لكن هناك مسلمات أخرى تنتظم المعرفة العلمية بجانبيها . كما أن هناك مسلمات للعلوم الطبيعية تختلف عن مسلمات العلوم الإنسانية . . وفى داخل كل علم فى كل طائفة توجد له أيضاً مسلماته العلمية . لكن الإغراق فى تفاصيل تلك الفروق ليس من شأننا فى هذا المجال . لهذا نكتفى بذكر المسلمات التى تقوم عليها المعرفة العلمية فى علم النفس . وهى موضوع هذا الفصل .

مسلمات النظرة العلمية للسلوك :

النظرة العلمية للسلوك تقوم على مسلمات أساسية ، ولها عناصر ومن خلال النماذج السابقة فى الفصل السابق ، نستطيع أن نقرر تلك المسلمات .

(ا) إن أول المسلمات التى تنطلق منها النظرة العلمية للسلوك الإنسانى ، أننا بصدد موضوع قابل للتفسير : فالإبداع ، والفروق الفردية ، والجنسية . . كل

هذه مظاهر من السلوك يمكن تفسيرها بمعنى أن لها أسبابا وشروطا ، وعلاقات بين هذه الأسباب والشروط . أى أن للسلوك منطقا منسجما ينتظم من خلاله فإذا حدث هذا الانتظام حدث السلوك .

ومثل هذا الهدف (أى التعبير عن المنطق الصحيح لأنماط العلاقات بين الأشياء) هدف مشترك بين كافة العلوم . بل يمكن القول بأن صراع العلماء على مر التاريخ هو صراع يحدوه هذا الهدف : أى الوصول إلى صياغة تصف على نحو دقيق وواقعى كل أنماط العلاقات التى تربط بين الظاهرة وشروطها ، بطريقة تجعلنا قادرين على التنبؤ المضبوط .

فعلماء البيولوجيا مثلا يجاهدون لكى يصلوا إلى المنطق الذى - من خلاله - يمكن أن تنمو ساق نباتية معينة نموا قويا . وكل محاولاتهم التى تقوم على تعريض هذه الساق لشروط معزولة كأشعة الشمس ، أو طبيعة التربة ، أو كمية الهواء هى محاولة لتأكيد صحة هذا المنطق ودقته[8] .

قس على هذا أيضا ما يفعله الكيميائيون ، أو الفيزيائيون أو الفلكيون إذا قلبت فيما يفعلوه ستجد أن هذا الهدف يقفز كسياسة عامة لهم جميعا ، كذلك علماء النفس ، فكل ما ينبغى أن نطلبه من عالم النفس — الذى ألزم نفسه بالنظرة العلمية لموضوعه — أن يوضح لنا الشرط التى تجعل منا قادرين على الإدراك ، أو التفكير أو الإبداع أو الانفعال . وكسياسة عامة — أيضا لعلماء النفس — نجد أنهم استطاعوا أن يحصروا المصادر الأساسية لتلك الشروط :

١ — البيئة بعناصرها المختلفة (فيزيقية أو اجتماعية) .

٢ — الشخصية بعناصرها المختلفة (فسيولوجية ، أو مزاجية ، أو معرفية ، أو دافعية) .

٣ — التفاعل بين البيئة والشخصية .

(ب) أما المسلمة الثانية : فهى أسلوب المعرفة .[1] وقد أشرنا من خلال النماذج السابقة إلى أن المعرفة بالظواهر وإعطاء تفسير لها ليس فى الحقيقة نقطة خلافية أساسية

بين النظرة العلمية وغيرها . بل إن إعطاء تفسير للظواهر هدف إنسانى أساساً . ويعرفه بعض علماء النفس أنه حاجة إنسانية لملء الغموض ، وبإعطائه نوعا من المعنى والمنطق .

غير أن التفسير العلمى يختلف عن غيره من التفسيرات من حيث الأسلوب المستخدم فى التوصل إليه ، أى الكيفية التى يتحقق بها من تفسيراته وأفكاره .

فما هى العناصر المكونة لهذا الأسلوب ؟ أنها نفس عناصر النظرة العلمية .

طريقتان فى تناول الظواهر السلوكية :

وتتخذ النظرة العلمية طريقتين فى تناول الظواهر السلوكية هما :

(أ) التجربة العلمية (*)   (ب) المعاملات الارتباطية(**) أو ما يقوم عليها من طرق الوصف الإحصائى كتحليل التزامل+ ، أو التحليل العاملى ++ .

ولكل طريقة منهما مزاياها وعيوبها . غير أنه ينبغى علينا قبل الدخول فى هذه التفصيلات أن نوضح المقصود بكلتا الطريقتين ، وسنكتفى فى هذا الفصل بالتركيز على التجربة العلمية : عناصرها ، وضرورتها ، وشروطها ، على أن نخصص الفصل الخاص بالفروق الفردية والقياس لتوضيح أبعاد الطريقة الثانية (الفصل الثالث) .

التجربة العلمية

لنفرض أن عالم النفس الحديث تعرض لنفس التصور الدارج عن الفرق بين المرأة والرجل . وأراد أن يمتحن بعض التصورات الشائعة بأن المرأة على قدر كبير من التقلب الوجدانى . فإن التزامه بالتجربة لإثبات صحة هذا التصور يتطلب منه تعريض

---

* experiment   ** Correlatianal Coefficients

+ Cluster analysis   ++ factor analysis

مجموعة من النساء (تجريبية) فى مقابل مجموعة من الذكور (ضابطة) لعدد من المواقف من شأنها إثارة السلوك المتقلب . ثم يفحص العالم بعد هذا كلتا المجموعتين ويقارن بينهما من حيث السلوك الناشىء الذى يطلق عليه التقلب الوجدانى .

وقد تكون المواقف التى يستخدمها العالم لإثارة هذا السلوك : تطبيق اختبار للتقلب الوجدانى على كلتا المجموعتين وقد تكون فى اصطناع مواقف أقرب إلى مواقف الواقع كأن يلاحظ حماس المجموعتين للتعاون فى تجربة نفسية ، ثم يلاحظ مقدار التغيير النفسى الذى يطرأ على مجموعة الإناث فى مقابل مجموعة الذكور فى الفترات المختلفة من التجربة .. فيلاحظ مثلا أن حماس النسوة يفتر تدريجيا وبسرعة أكبر من الذكور ويستنتج من هذا أن التصور الشائع بأن المرأة متقلبة وجدانيا تصور صحيح . لأنه اتخذ الحماس وتبدده السريع كمقياس للتقلب (وبالطبع من الممكن أن تكون هناك مقاييس أخرى غير ذلك) .

تعريف :

فى هذا المثال السابق يتبلور تعريف التجربة العلمية إذن فى أنها : موقف (أو مواقف) أقرب إلى مواقف الواقع ، تصطنع بمهارة ، ويعرض لها الأشخاص بطريقة تسمح باستثارة السلوك أو الخبرات ، ثم يفحص السلوك الناشىء لهؤلاء الأشخاص ويقارن بغيرهم من الأشخاص المختلفين الذين يتعرضون لنفس هذه الظروف .

هذا هو التعريف العام للتجربة العلمية غير أن للتجربة شروطا أساسية يجب أن تتحدد مقدما فى ذهن الباحث ، قبل الدخول فى إجراءاتها . ولكى تتبين تلك الشروط نستعرض فيما يلى نموذجا لأحد التجارب الحديثة عن الطبيعة السيكلوجية للإندماج فى الدور المسرحى عند ممثلى المسرح .

نموذج تفصيلى لتجربة سيكلوجية
الإندماج المسرحى* والتأطر العقلى**

هذه التجربة قام بها العالم السوفييتى ناتادزى Natadze ، الذى استرعى اهتمامه قدرة الممثلين المسرحيين على تكييف أنفسهم للموقف التخيلى أو الدور الذى تفرضه المسرحية تكييفاً حقيقياً ، فيندمج فى أداء دوره . ويدمج فى أدائه سمات وخبرات ليست من طبيعته ، ولكنها من طبيعة الشخصية التى يقوم بأدائها . وقد حاول « ناتادزى » أن يجد تفسيرا سيكلوجيا لهذه القدرة ، ولكن سؤاله للمثلين ونقادالمسرح ، وقراءاته فى هذه الموضوع لم تمكنه من إيجاد التفسير المناسب . كان كل ما وجده مفاهيم : كالقدرة على التقليد ، أو القدرة على المحاكاة ، ولكنه رأى أن تلك المفاهيم لا تنجح فى الوصول إلى لب المشكلة . ورأى أن السبب فى فشل تلك المفاهيم فى توضيح الأسباب الحقيقية لهذا النوع من السلوك هو اعتماد صياغتها على مجرد الانطباعات الشخصية لبعض الممثلين أو مؤرخى الفن المسرحى ، دون الاعتماد على الموضوعية التى يفرضها الأسلوب العلمى .

لهذا قام « ناتادزى » بعدد من الملاحظات المضبوطة على الطلبة والممثلين بمعهد الفنون المسرحية « بتبليزى » فى الاتحاد السوفيتى ، كما قام بتحليل منظم لبعض النظريات السيكلوجية عن التمثيل من أمثال كتابات « ستانيسلافسكى » Stanislavisky عن سيكلوجية الممثل ومن خلال هذين المنصرين افترض أن الاندماج الجيد فى أداء الدور المسرحى يتحدد أساساً عندماينجح الممثل فى تكوين إطار عقلى مناسب للموقف التخيلى الذى تضعه المسرحية . أى عندما ينجح الممثل فى

---

* impersonalisation ** mental Set

تكوين تيار من التفكير ذى نبرة وجدانية واحدة ، ومماثلة لتلك النبرة التى تسيطر على الشخصية التى يمثلها .

وعندما يتحول هذا الإطار إلى إطار ثابت ، ومتوجه* ، يصبح شرطاً ضرورياً للسلوك الخاص بمطابقة الأداء للشخصية المسرحية .

كانت هذه هى الأفكار العامة التى صاغها الباحث ثم حاول بعد ذلك التحقق منها من خلال تجربة صاغ السؤال الأساسى فيها على النحو الآتى .

هل يمكن استثارة هذه القدرة (أى تكوين إطار عقلى مناسب للشخصية) على أساس موقف متخيل ، وفى شروط يعلم الشخص تماماً أنها غير صحيحة ؟ وفيما يلى توضيح لإحدى التجارب التى قام بها كنموذج جيد لما يجب أن تكون عليه التجربة السلوكية .

المشكلة الأساسية فى التجربة :

تبلورت المشكلة الأساسية لهذه التجربة كما صاغها « ناتادزى » فيما يأتى :

« إن الأشخاص القادرين على الاندماج الجيد فى الدور أى التوحد بالشخصية المتخيلة هم الأشخاص الذين يستطيعون بسرعة تكوين إطار عقلى يمكنهم من خلاله أن يصوغوا سلوكهم بحيث يكون مطابقاً للسلوك المتخيل » .

عينة البحث :

إختار المجرب عينات مختلفة ليقوم عليها بتجاربة وهى :

(ا) عشرة ممثلين مسرحيين من الدرجة الأولى ٨ منهم من مسرح «تبليزى» ، واثنين منهم متقاعدين من مسرح موسكو .

(ب) سبعة ممثلين محدثين قاموا بدورين أو ثلاثة على الأكثر . ولكن شهد لهم فيها بالكفاءة والنجاح .

---

* Fixated

(ح) عشرة طلاب بمعهد الفنون المسرحية بتبليزى ، ممن يتوقع لهم أساتذتهم بمستقبل جيد فى الأداء المسرحى .

(ى) سبعة طلاب عاديين من نفس المعهد .

(هـ) أربعة طلاب من نفس المعهد من المتخلفين ، وقد نصحوا بترك المعهد لعدم الكفاءة .

(و) ممثل كوميدى مشهور بجورجيا ، اشتهر بأدائه لنمط واحد فقط من التمثيل الكوميدى .

(ز) واحد وعشرون طالبا ليس لهم علاقة بالمسرح من بينهم ١٣ باحث نفسى ، وثمانية إداريين وكتبة . وقد أخذت هذه المجموعة لعدم ضرورة توافر خاصية الاندماج فى العمل ، بالشكل الذى تظهر فيه عند الممثلين

إجراءات التجربة :

١ — يطلب من كل شخص ـ على حده ـ أن يتناول بيديه كرتين حديديتين . فى كل يد كرة . والكرتان ذات وزنين متساويين .

٢ — يطلب من الشخص أن يتصور أن أحد هاتين الكرتين أثقل والأخرى أخف . فإذا حدث وأن أبدى أحدهم عجزه عن هذا التصور كان الباحث يشجعه بإلحاح على ذلك . حتى يقرر الشخص أنه نجح فى ذلك (أى حدثت له تلك الخبرة الشعورية بوجود كرة أثقل من الأخرى ولو أنهما متساويتان) .

٣ — يكرر هذا التمرين من جديد لمدة ١٥ مرة على أزواج من الكور المتساوية . وذلك لتدعيم الخبرة الشعورية السابقة ، وتأكيد التصور بأن هناك دائما كرة أخف ، وكرة أثقل .

٤ — تغمض ـ بعد هذا ـ عينا الشخص ، ويطلب منه المقارنة بين أوزان أخرى متساوية فى الوزن .

٥ — أذا استطاع الشخص أن يدرك بأن أحد هذين الوزنين أثقل والآخر

أخف ، فإنه هذا يعتبر دليلا على النجاح فى تكوين الإطار العقلى الذى سبق إثارته من خلال التمارين السابقة والتى قامت على الإيحاء بالتصور بأن الكرتين المتساويتين فى الوزن مختلفتين . أما إذا لم يحدث هذا الخداع ، فلم يستطع الشخص أن يدرك باستمرار أن الوزنين متساويين ، مقاوما بهذا التصور السابق الذى سبق تدعيمه ، فإن هذا يعتبر دليلا على أن الإطار العقلى الذى سبق إثارته لم يتطور فى الاتجاه المطلوب . وعلى هذا فكلما استطاع الشخص أن يدرك مبكرا الإدراك الصحيح (عدم التساوى) كلما كان هذا دليلا على ضعف تأثير الإطار العقلى المثبت من قبل .

نتائج التجربة : يبين الجدول (٢ — ٢) أهم النتائج التى أمكن ملاحظتها .

جدول (٢—٢) : عدد الذين نجحوا أو فشلوا فى تكوين الإطار العقلى

العينات	عدد الأشخاص فى كل عينة	عدد الذين فشلوا فى تكوين الإطار العقلى	عدد من نجح لديهم تأثير الإطار العقلى
ممثلين من الدرجة الأولى	١٠	١	٩
ممثلين محدثين	٧	—	٧
طلاب ممتازين	١٠	٢	٨
طلاب عاديين	٨	٢	٦
المجموع الكلى للممثلين	٣٥	٥	٣٠
طلاب علم نفس	١٣	٥	٨
الإداريين والكتبة	٨	٦	٢
الطلاب المتخلفين	٤	٣	١
الممثل الكوميدى	١	١	—
المجموع الكلى لغير الممثلين	٢٦	١٥	١١

* Quoted through Naladze, (14)

تعليق ومناقشة النتائج : يلاحظ من النتائج السابقة أن :

١ ــ النسبة المئوية لتأثير الإطار العقلى فى ظل الشروط السابقة أكبر بكثير بالنسبة للمجموعات القادرة على الإندماج الجيد فى الدور المسرحى بالمقارنة بغير الممثلين .

٢ ــ كما يلاحظ أن مجموعة غير الممثلين يفشلون باستمرار فى تكوين إطار عقلى يؤثر على الأداء ؛ فيما عدا المتخصصين فى علم النفس . فهؤلاء ينجحون فى تكوين هذا الإطار مثلهم فى ذلك مثل المسرحيين . ولكن بنسبة أقل . ويعلق « ناتادزى » على هذه النتيجة بأن الإندماج العقلى فيما يبدو شرط أيضاً من شروط النجاح فى العمل السيكلوجى .

٣ ــ من بين مجموعة السبعة عشر ممثلا وممثلة من المحترفين الناجحين لا نجد إلا شخصاً واحدا يفشل فى تكوين إطار عقلى مؤثر . وبتتبع حالة هذا الشخص تبين أنه اكتسب نجاحه فى الأدوار الكوميدية .

٤ ــ بالنسبة للطلاب العشرة الممتازين فشل منهم إثنان فقط فى تكوين الإطار المؤثر . وتتبع حالة هذين الشخصين ، وجد أن أحدهما ولنرمز له بالرمز (أ) اكتسب إمتيازه فى أداء بعض الأدوار الكوميدية . أما الشخص الأخر (ب) فقد كانت طالبة من طالبات المعهد ، وقد عرف عنها أدائها لبعض الأدوار الصغيرة . وقد جاء ترتيبها الأخير فى مجموعة الممتازين .

تعليق عام :

أعاد « ناتادزى » هذه التجربة كما صمم عددا أخر من التجارب . ووضع أساليب غاية فى الطرافة لإثارة هذا التأطر العقلى بأشكال مختلفة منها مثلا أن يطلب من نفس الأشخاص أن يركز كل واحد منهم على حده بصره على إسطوانات خشبية متفاوتة الأحجام بعضها كبير وبعضها صغير . وفى أثناء تركيز النظر يطلب من الشخص أن يتصور بكل طاقته على التصور أنه يتناول هذه الأسطوانات من خيوطها المعلقة فيها ،

وأنه فى أثناء هذا عليه أن يختبر الشعور بأن الأسطوانات الخشبية الصغيرة أثقل ، وأن الكبرى أخف وزنا (أى كما لو كانت مجوفة) . ثم يتناول - بعد إعادة التمرين خمسة عشر مرة - الأسطوانات ويقارن بينها والطريف أن النتائج سارت فى الإتجاه السابق للتجربة الأولى .. وبهـــذا أستطاع « ناتادزى » أن يتأكد بالفعل مما يأتى :

« إن القـــدرة على إستثارة إطار عقلى ثابت فى موقف متخيل »
« تشيع أكثر ما تشيع بين الأشخاص القادرين على الإندماج »
« الجيد . وتتفق هذه النتيجة مع نظريات بعض الناقدين »
« الأذكياء من أمثال نظرية ستاينسلافسكى ، والتى بمقتضاها يرى »
« أن من أهم شروط الإقناع فى أداء الدور المسرحى ، هو »
« الإعتقاد ، بحقيقة ما يقوم الشخص بتمثيله . على الرغم من »
« أن هذا لا يتضمن بالضرورة الإشارة إلى وجود أى تشويه »
« حقيقى فى إحساس الممثل » .
« أما بالنسبة لمن فشلوا من الممثلين فقـــد كان أغلبهم »
« من الكوميديين ، بما فيهم كوميدى جورجيا وتدل هذه النتيجة »
« على أن الطبيعة السيكلوجية للتمثيل الكوميدى قد تمنع من الإندماج »
« الجيد . فالممثل الذى يؤدى دورا كوميديا ، يعرض على »
« الشاهدين - فى الغالب - إتجاهه النقدى نحو الشخصية »
« التى يمثلها ، أى أنه يقـوم بالنقد وليس بالإندماج »

. نكتفى بهذا القدر من سلسلة تجارب « ناتادزى » عن سيكلوجية الأداء المسرحى كنموذج يمكننا على أساسه أن نستخلص العناصر الأساسية للتجربة .

عناصر التجربة العلمية فى ضوء النموذج السابق :

فالمغزى الأساسى للتجربة السيكلوجية بسيط ، فمثلها فى ذلك مثـــل التجربة

البيولوجية أو الطبيعية تتضمن عادة إحداث واقعة تحت ظروف معينة يستبعد فيها أكبر قدر ممكن من المؤثرات الخارجية ؛ بحيث يمكن إجراء ملاحظة دقيقة وبذلك يمكن التوصل إلى ما بين الظواهر من علاقات دقيقة(٥) .

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نحدد ثلاثة عناصر أساسية يجب أن يتضمنها أى تصميم تجريبي :

١ — وجود ظواهر أو متغيرات تحتاج للإستكشاف :

العنصر الأول منها وجود ظواهر — أو متغيرات* — نحاول إستكشاف العلاقات فيا بينها (أيها السبب وأيها النتيجة) . ويعتبر الفرض الذى تبدأ به التجربة تخمين لشكل تلك العلاقة بحيث تأتى التجربة بعد ذلك مؤكدة صحة هذا التخمين ، أو خطأه .

أنظر إلى تجربة « ناتادزى » ولاحظ أن التغيرات التى حاول إخضاعها لتجربته هى فكرة التأطر العقلى وجودة الإندماج فى الدور المسرحى .

ويسمى التغير الذى نحاول أن نستكشف تأثيراته على السلوك باسم « التغير المستقل »** ، أما السلوك نفسه ، أو الاستجابات التى نحاول أن نتثبت من تأثير التغيرات المستقلة عليها فتسمى « بالمتغير التابع*** » .

٢ — ضبط المتغيرات :

وبعد تحديد متغيرات التجربة ، وصياغة العلاقات المتوقعة فيا بينها يبقى بعد هذا الوصول إلى ما أطلقنا عليه : التحديد الدقيق للعلاقات بين الظواهر وتضمين عنصرين هما : الضبط والتغيير المنظم .

---

* Variables ** independent Variable *** dependent

(ا) الضبط وكيفية إجرائه :

أما الضبط فيقصد به إستبعاد كافة المتغيرات فيما عدا المتغير المستقل . ويتم هـذا الإستبعاد بطرق متعددة منها تعريض جماعة للمتغير المستقل وتسمى بالجماعة التجريبية ، وعدم عرض نفس المتغير فى مجموعة أخرى تسمى بالمجموعة الضابطة ، ثم يقارن بعد هذا بين سلوك الجماعتين .

ومن شأن هذا الإجراء التجريبي أن يساعد على ملاحظة التغير فى السلوك نتيجة للمتغير المستقل وحده . ومن الواضح أن وظيفة المجموعة الضابطة هنا أنها تتيح لنـا الحكم بأن التغير اللاحظ (إذا حدث أى تغير على الإطلاق) إنما يرجع لوجود المتغير المستقل . . لهـذا يتجه جزء كبير من المهارة التجريبية للمساواة بين المجموعتين التجريبية والضابطة فى كل الشروط فيما عدا المتغير التجريبي .

فإذا أردنا أن نمتحن التصور القائل بأن الإناث سريعات الإحباط .. فإن تعريض مجموعة من الإناث لموقف يستثير الإحباط(٢) كأن نعطيهم إختباراً للذكاء ثم نخبرهن أن من السهل عليهن أن ينتهين من الإجابة عنه فى خلال خمسين دقيقة ، ثم أخبرناهن قبل الإنتهاء منه ـ بقليل ـ أن الوقت المسموح به قد انتهى ، ورصدنا بعد هذا التغيرات السلوكية التى تطرأ عليهن سواء بالملاحظة الدقيقة أو بتطبيق مجموعة من الإختبارات النفسية ، فوجدنا أن هناك ميلا عاماً منهن للعدوان نحو المجرب كمظهر من مظاهر إحباط الدافع للتحصيل . . فإن من الخطأ أن نستنتج من هذا أن الإناث سريعات الإحباط . . أى من الخطأ القول بأن المرأة تعجز عن مواجهة الضغوط المحيطة بها . . فما يدرينا بأن هذا لا يسود أيضاً بين الذكور . لهذا نحتاج لمجموعة ضابطة من الذكور نعرضهـا لنفس الموقف ونلاحظ إستجاباتهم ونرصدها ونقارنها بمجموعة الإناث ثم نقرر بعد هذا أى المجموعتين أقدر على تحمل الإحباط .

لـكن يجب أن لا تـكون عينة الذكور كأى عينة بل يجب أن تـكون مماثلة مع الإناث فهذا شرط ضرورى لتحقيق مزيد من الضبط على تأثير المتغير الجنسى على

الإحباط . ومن المتغيرات التى يجب أن تراعى ضبطها فى هذه الحالة : السن والمستوى الثقافى للعينتين ، والطبقة الإجتماعية . . وغير ذلك . ولنتصور مثلا أننا لم نساوى بين المجموعتين (الذكور والإناث) من حيث السن مثلا فكانت مجموعة الإناث أكبر فى العمر من مجموعة الذكور ؛ ووجدنا أن الإناث يظهرن قدراً أكبر من العدوان . هنا أيضاً لا أستطيع القول بأن الإناث أقل قدرة على تحمل الإحباط . . فإن التصميم الذى وضعته لتجربتى لا يمكننى من هذا الحكم . فلماذا لا يكون هذ راجعاً إلى تأثير العمر فى مجموعة الإناث ؟ !

مثال على هذا النوع من الضبط :

دراسة تجريبية لأساليب علاج الفصام(١٠) .

مقــــدمة:

الفصام أو السكيزوفرينيا حالة من حالات الإضطراب العقلى أو الجنون الذى يترك أثاره فى الشخصية ، فضلا عن اضطراب التفكير . ومن أهم أعراضه فقدان الاهتمام بالعالم الخارجى ، والانسحاب ، والاتجاه إلى بناء عالم ذاتى منفصل عن قوانين الواقع . ومن مظاهره أيضاً إختفاء العلاقة بين الاستجابات الوجدانية أو العاطفية من جهة ، وبين المنبهات التى تحركها من جهة أخرى ، فتتخذ استجابات الشخص للمواقف الخارجية شكلا غير ملائم ففى المواقف التى ينبغى أن تستثير السرور تكون الاستجابة غير ذلك والعكس بالعكس . ومن مظاهره أيضاً الميل للمعاندة ، وعدم الاكتراث الشديد بالأشياء أو بالناس ، وسيطرة الأوهام والخيالات والهلاوس الخاطئة على عقل المريض .

ومن أهم المشكلات التى يواجهها الطب العقلى بالنسبة لهذا النوع من الاضطراب مسألة العلاج . إذ لا توجد حتى الآن أساليب حاسمة لعلاج المرضى بالفصام . ومن أهم أساليب العلاج : العلاج بالصدمات (*) ويمكن تحقيق الصـــدمات أما بالطرق

---

* Shock therapy

الكهربائية (أى صدمات كهربائية) أو بالعقاقير كإعطاء كميات من الإنسولين .
كذلك هناك الشكل التقليدى من العلاج المسمى بالعلاج النفسى(**) القائم على تبصير المريض لصراعاته الأساسية ، ومشكلات تطور شخصيته غير أنواع أخرى من العلاج لا محل لذكرها .

المشكلة :

ينظر بعض المتخصصين إلى الفصام على أنه نمط من العادات العقلية والوجدانية تكونت بشكل خاطىء . ويتجه علاج هذا المرض إلى إلغاء هذا النمط المتماسك من العادات المرضيـة ، وإبداله بنمط آخر من العادات التوافقية السليمة . ويفشل الأسلوب العادى للعلاج فى الوصول إلى علاج حاسم . ويعود السبب فى هذا الفشل إلى شدة التماسك فى مجموعة الأعراض الفصامية بحيث قد يعجز العلاج النفسى التقليدى فى تحرير المرضى من سيطرتها . لهذا اتجه الاهتمام إلى العلاج بالصدمات التى من شأنها أن تقضى على التماسك العصبى الكامن وراء مجموعة الأعراض الفصامية المرضية ؛ وأن تسمح بالاستجابات الإيجابية الفعالة القديمة أن تظهر مرة أخرى ، أو أن تعطى فترة من الوقت تكفى لإعادة تربية المريض بطريقة تكيفية . وقد وضعت التجربة الحالية للمقارنة بين هذين النوعين من العلاج : العلاج النفسى والعلاج بالصدمات .

العوامل التى يجب ضبطها :

تهدف هذه التجربة فيما هو واضح إلى المقارنة بين نوعين من العلاج التجريبى . لهذا من الضرورى إستخدام مجموعتين من المرضى . ومن الضرورى أن تكون هاتان المجموعتان متساويتان فى كل الظروف فيما عدا المتغير المستقل وهو نوع العلاج . ولتحقيق هذا التساوى تم اختيار المجموعتين من المرضى فى بعض المصحات العقلية . . ومن العوامل التى تم ضبطها ما يأتى .

(**) Psychotherapy

١ — محكات التشخيص (أى أن تكون المجموعتان من نوع واحد من الفصام)

٢ — الأمراض السابقة والحالية فى المجموعتين

٣ — العمر والجنس

٣ — المستوى الثقافى ، والاقتصادى والمهنى

الأسلوب المستخدم فى تقدير الفروق بين النوعين من العلاج :

أمكن تقدير الفرق بين تأثير النوعين من العلاج فى ضوء نسبة التحسن كما تظهر بعد مرور فترة الوقت بعد الخروج من المستشفى . وقد تتبع المجرب المرضي بعد خروجهم ولاحظ أنه يمكن تصنيفهم إلى الأنواع الآتية .

١ — مجموعة تحسنت تماما ، وتكيفوا لواقعهم بنفس الصورة التى كانوا عليها قبل ظهور الأعراض .

٢ — مجموعة تحسنت جزئيا ولكن بصورة أقل من المجموعة السابقة .

٣ — مجموعة لم تظهر التحسن على الإطلاق .

إجراءات التجربة :

تكونت مجموعة العلاج بالانسولين من ٦٦ مريضا بالفصام كان يعطى كل مريض منهم جرعات متدرجة من الانسولين بحيث تكفى الجرعة للوصول بالمريض إلى حالة الإغماء لمدة ساعتين أو ثلاث بعد الحقن . وقد تعرض كل مريض فى هذه المجموعة لحوالى ثلاثين مرة من الإغماء بالإنسولين على مدى ستة أسابيع .

أما المجموعة الثانية فقد تكونت من ١٣٢ مريضا خضعوا للعلاج النفسى . وقد خضع كل مريض فى هذه المجموعة للفحص النفسى لتحديد المشكلات الخاصة والصراعات النفسية التى قد تكون سببا من أسباب سوء التوافق . كذلك قامت المحاولات لفهم تطور شخصية كل مريض ، والصعوبات التى واجهته فى أثناء توافقه الاجتماعى . كذلك كان يقدم لكل مريض بجانب العلاج النفسى برنامج توجيهى لتحسين قدرته

على التوافق الاجتماعى : لمساعدته على حل صراعاته ، وتطوير استجاباته الاجتماعية بالشكل اللائق .

أما تقدير حالة كل مريض لمعرفة تطور مرضه ، فقد كان يتم من خلال عملية تتبع للمرض كل ستة شهور لفترة تراوحت بين عام إلى أربعة أعوام . ومن الجوانب التى اهتم الباحث بملاحظتها :

— وجود إضطرابات عقلية جديدة .

— نجاح المريض فى توافقه مع المجتمع ومع الأسرة .

— التدهور أو التحسن .

— حدة الأعراض .

— المستوى الحالى من التوافق بالمقارنة بالمستوى السابق فى المستشفى أو قبل العـــلاج .

النتـائج :

لم تبين النتائج وجود فروق تذكر بين المجموعتين من حيث نسبة التحسن . ويوضح الجدول الآتى الفرق بين المجموعتين .

جدول (٣ — ٢) : المقارنه بين نوعين من أنواع العلاج على مجموعتين من مرض الفصام* .

المجموعة الأولى = ٦٦ المجموعة الثانية = ١٣٢

نوع العلاج	نسبة من تحسنوا تماما أو تكيفوا إجتماعيا	نسبة من تحسنوا تحسنا أقل
الصدمة بالانسولين	٣٥	٦٤
العلاج النفسى	٣٣	٦٤

* Quo ted throug, Brown & Ghiselli, (10) .

وقد أعاد المجرب التجربة بأشكال أخرى ولكنه لم يجد أيضاً فروقا بين الجماعتين .

التعميمات النظرية التى تشير لها هذه التجربة :

١ — لا يؤدى العلاج بصدمة الأنسولين لمرضى الفصام إلى أى تحسن بالمقارنة بالأساليب الشائعة من العلاج النفسى .

٢ — إن العلاج المبكر بالصدمة لا يؤدى إلى زيادة فى نسبة التحسن بالمقارنة بالعلاج النفسى المبكر للفصام .

موجز القول :

توضح هذه التجربة السابقة ما تقصده بوظيفة ضبط المتغيرات . فمن خلال إستخدام بمجموعة ضابطة (مجموعة العلاج النفسى) المتكافئة مع المجموعة التجريبية (مجموعة العلاج بصدمة الأنسولين) استطاع المجرب أن يتوصل إلى خطأ الفرض بأن العلاج بالصدمة من شأنه أن يكسر حدة التماسك العصبى الشديد لمجموعة الأمراض الفصامية ، وهو ما يفشل فيه العلاج النفسى التقليدى .

ولعلنا نلاحظ أن محكات التكافؤ بين المجموعتين كالسن ، والمستوى الثقافى ،وهى المحكات التى عرضنا لها بالتفصيل تحت عنوان : العوامل التى يجب ضبطها كان من شأنها أن تساعد على الحسم فى الإجابة عن هذا الفرض .

صحيح أن الأمر كان يحتاج إلى مجموعتين ضابطتين آخرتين على الأقل : مجموعة لم تتلق علاج على الإطلاق ، ومجموعة عولجت بالصدمة الكهربائية وليس بالأنسولين . غير أنه دائماً ما نجد فى تطور البحث العلمى أن من المستحيل أن تجيب تجربة واحدة بمفردها على العناصر الكاملة للسؤال .. وهذه وظيفة أخرى من وظائف التجربة العلمية — لا نجد من المناسب هنا أن نستفيض فى توضيحها .

(ب) طرق أخرى من الضبط :

وهناك طرق أخرى للضبط غير استخدام المجموعات التجريبية والمجموعة الضابطة ،

وقد قامت فى الحقيقة كحلول للثغرات التى يلاحظها المجربون فى الطريقة الأولى وهى استحالة التكافؤ بين المجموعات التجريبية والمجموعات الضابطة لتعقد المتغيرات التى يجب ضبطها فى كلتا المجموعتين . من هذه الحلول المقارنة بين سلوك نفس الجماعة قبل الخضوع للمتغير التجريبى (المستقل) وبعد الخضوع له .

مثال تجريبى : الإحباط والنزعة البنائية

ومن الأمثلة على هذا النوع من الضبط التجربة التي قام بها باركر ودمبو وليمين Barker Dembo lewin سنة ١٩٤١ عن تأثير الإحباط على لعب الأطفال (١٣، ١٥) فى هذه التجربة .. أخذ المجربون مجموعة من الأطفال ووضعوا كل واحد منهم على حدة فى حجرة صغيرة بها مجموعة من اللعب البسيطة والدمى .. وكان يسمح لكل طفل بلعب حر لمدة نصف ساعة .. وفى خلال هذه الفترة كانت تسجل من قبل ملاحظين (لا يراهم الأطفال) كل التغيرات السلوكية التى تطرأ على تصرفاتهم . وكان اهتمام الملاحظين موجها فى بعض هذه الملاحظات لتقدير مدى النزعة البنائية * التى تظهر فى سلوك الأطفال .. ومضاهاة هذا السلوك بوحدات مقياس للنزعة البنائية .

وبعد تقدير درجة كل طفل فى هذه النزعة . . كانت تجمع درجته مع باقى الأطفال ويقسم المجموع الكلى على عدد الأطفال لكى نحصل على متوسط النزعة البنائية لمجموعة الأطفال أثناء اللعب الحر .

هذا فيما يتعلق بالجزء الأول من التجربة .. أما الجزء الثانى من التجربة فكان يقوم على نقل الأطفال ـ كل على حده ـ إلى مكان آخر من نفس الحجرة بها مجموعة أخرى من اللعب أكثر جاذبية من المجموعة الأولى .. ثم يسمح لهم باللعب بها . وفى أثناء اندماجهم فى اللعب كان المجرب يقوم بإبعادهم ، وإيقافهم عن اللعب . ويقودهم بيديه إلى المكان السابق من الحجرة ، ويغلق على مجموعة اللعب الجذابة باباً زجاجياً بحيث يسمح للأطفال بالاستمرار فى مشاهدة هذه اللعبات (كمحاولة لاصطناع موقف

---

* Constructiveness

إحباط تجريبى) ، وأن يستمروا فى اللعب بمجموعة الألعاب البسيطة غير الجذابة . وفى أثناء هـذا الموقف كان يتم التسجيل من جـديد للنزعة البنائية للأطفال على نفس القياس .

وقورن بين سلوك الأطفال قبل التعرض للمتغير التجريبى (الاحباط) وبعد هذا التعرض . ودلت النتائج بالفعل أن النزعـة البنائية للأطفال تتضاءل تحت تأثير الاحباط .

وفى هذا التصميم التجريبى يتحول كل فرد إلى فرد ضابط لنفسه . ويتخذ الفرق بين درجته على المتغير التابع (النزعة البنائية) قبل التعرض للمتغير التجريبى وبعده مقياساً لتأثير المتغير المستقل . وبهذا نتغلب على مشكلة الوصول إلى عينة ضابطة بنفس مواصفات العينة التجريبية(١٥) .

غير أن من عيوب هذا النوع من التصميم القبلى - البعدى* إنه يقتصر على بعض المتغيرات المستقلة . فهناك كثير من المتغيرات المستقلة يصعب تحديدها بدراسة بعدية دون أن نفسد منها . فمثلا إذا كان هدفنا موجها نحو تصميم تجربة من هـذا النوع للمقارنة بين تأثير المحاضرة والمناقشة على تدريس أحد موضـوعات علم النفس العام ، فإن تعريض الموضوع المختار للمحاضرة ثم المناقشة لن يمكّـن من العزل الجيد للمتغيرات وقد يكون الحل لهذا مثلا أن نختار موضوعا مكافئاً فى الصعوبة والوقت . . ولـكن هذا هو نفس الحل الذى تقدمه فـكرة المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة .

لهذا تتجه التصميمات التجريبية لتحقيق — أكبر قدر ممـكن من الضبط — إلى الجمع بين فـكرة الدراسة القبليـة — البعدية ، وفـكرة المجموعة التجريبية والضابطة معاً .

---

* فى نهاية التجربة كان يسمح للأطفال باللعب الحر بمجموعة الألعاب الجذابة ما شاءوا من الوقت لـكى يتخلصوا من التأثير المحيط التجربة .

* before - after

مثال تجريبي : المحاضرة والتسامح العنصري (٦)

وكمثال على الجمع بين هذين النوعين من التصميم : التجربة التي أجراها «شلورف» Schlorff سنة ١٩٣٠ بهدف زيادة درجة التسامح نحو الزنوج باستخدام محاضرات تعمل على زيادة هـذا التسامح بإظهار دور الزنوج في الحضارة ، وتاريخهم ومساهماتهم في البناء الاجتماعي . واستخدم المجرب مجموعتين من الطلاب روعي فيهما أن تكونا متكافئتين من حيث العمر ، والقومية ، والعمر العقلي ، والاستقرار الوجداني عرضت إحداهما لبرنامج من المحاضرات (١٥ محاضرة بواقع ٤٥ دقيقة للمحاضرة) ويهـدف زيادة درجة التسامح نحو الزنوج . وقد بدأت التجربة بتطبيق أحد مقاييس المسافات الاجتماعية على المجموعتين (بهدف التحديد المبدئي لدرجة التعصب نحو الزنوج ، والبعد الاجتماعي عنهم) . وقد احتل الزنوج في هذا المقياس الأول أدنى مرتبة عند المجموعتين (أي أنها كانت من أكثر المجموعات التي كان يتجه إليها التعصب) .

قورن بعد هذا باستخدام نفس المقيـــاس بين المجموعتين التجريبية والضابطة ، فلوحظ أن المجموعة الضابطة استمرت بنفس إتجاهها التعصب نحو الزنوج . أما المجموعة التجريبية فعندما طبق عليها نفس المقياس بعد تعرضها لسلسلة المحاضرات ارتفعت لديها مرتبة الزنوج ارتفاعا له دلالة جوهرية (٦) .

نكتفي بهذا القدر من التوضيح لمفهوم الضبط التجريبي . . هناك بالطبع تفاصيل متعددة وتصميمات أكثر تعقيداً يمكن للقارىء الاطلاع عليها في المراجع (٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٥) إنما نكتفي كنتيجة عامة بالقول بأن الضبط التجريبي بكل تصميماته البسيطة والمعقدة . . إنما هو محاولة لا ستبعاد كافة الشروط التي قد تؤثر في السلوك مع التحكم في متغير واحد مستقل أو أكثر بحيث تكون النتائج التي تلاحظها على أكبر درجة من الدقة واليقين .

والآن لنتجه إلى توضيح العنصر الثالث من عناصر التجربة وهو التغيير المنظم .

٣ — التفسير المنظم :

من أهم جوانب الفرق بين التفكير التجريبي والتفكير الدارج .. أن العلاقات التي يصوغها التفكير الدارج تأخذ عادة شكلا فضفاضا . لا يقف على تفاصيل تلك العلاقات .. ولا يهتم بتحديد كميتها . . ومعنى هذا أنه إذا صحت بعض النتائج العامة لفكرة دارجة فإن هذا لا يعنى أن هذه الفكرة صادقة بكل تفصيلاتها . فقد تشيع فى الأذهان فكرة أن التوتر النفسى يؤدى إلى الإبداع .. وقد يبين البحث التجريبي أن المبدعين بالفعل بمقارنتهم بغير المبدعين يحصلون على درجات أكبر من التوتر النفسى[٤] .

لكن التفكير العلمى لا يقف عند هذا المستوى فحسب بل يتجه إلى تحديد مقدار التوتر المطلوب لإثارة أكبر قدر ممكن الإبداع . فهل الدرجة المرتفعة من التوتر مثلها فى ذلك مثل الدرجات المنخفضة أو المتوسطة تثير نفس الدرجة من الإبداع .. لهذا يهتم المجرب العلمى بتحديد كم من المتغير المستقل مطلوب لإثارة « كم » من المتغير التابع — والمسلمة الرئيسية وراء هذا الهدف أن كثيراً من العلاقات بين الأشياء تتغير من خلال التغيير الكمى فى عناصرها . فإذا قلنا أن درجة الضوء ضرورية لدقة الكتابة على الآلة الكاتبة . . فإن الدرجة المرتفعة جدا من الضوء قد تؤدى إلى نتائج مختلفة كذلك الدرجة المنخفضة . ويبين لنا التفكير العلمى فى كثير من المجالات الطبيعية ضرورة تحديد المقدار الذى يحدث عنده التغير . بل إن التفاعل الكيميائى يتوقف أساساً على هذا التغيير . فالتغيير من العناصر المتجمعة يؤدى إلى وجود عناصر مختلفة نوعياً من مجرد التغييرات الطفيفة فى كمية هذه العناصر .

وإذن فالتغيير المنظم فى التجربة السيكلوجية يتجه إلى الاهتمام بالتغيير الكمى المنتظم فى المتغير المستقل تغييراً تدريجياً ثم ملاحظة التغير الكمى الذى يطرأ على المتغير التابع . بهدف تحديد مدى وكمية إعتماد التغير السلوكى على عناصر البيئة أو أو الشخصية التى تتحكم فيها التجربة .

ومن الأمثلة على تغير العلاقات بين السلوك والمتغيرات المستقلة بتغير العلاقات الكمية : العلاقة بين السمات المزاجية والسمات العقلية . فمن المعروف مثلا (تجريبيا) (٤ ، ٧ ، ١٧) أن الدرجة المنخفضة من التوتر النفسي مثلها في ذلك مثل الدرجة المرتفعة تؤدى إلى تشتيت الأداء الإبداعى ، وأن الدرجة المتوسطة هى وحدها التى تؤدى إلى زيادة هذا الأداء . ومن المعروف أيضاً(٢) أن المتوسطين فى التفكير الابتكارى والأصالة الإبداعية يتجهون إتجاها أكبر نحو التعبير عن مظاهر الاختلاف عن الجماعة ، والمخالفة ، والفردية ، وعدم المجاراة .. الخ وهم فى ذلك يختلفون عن المرتفعين الذين لا تظهر لديهم تلك الميول ، أو تظهر بشكل معاكس فى اتجاه ارتفاع الميل للمجاملة الاجتماعية ، والتوحد بالجماعة .

وكذلك أثبت جيتزيلس وجاكسون(٩) Getzels & Jackson أن العلاقة بين الذكاء والإبداع هى من هذا النوع الذى يتغير شكلها بتغير درجة الذكاء . وقد بينا فى سلسلة من التجارب أن الدرجات المرتفعة من الابداع تظهر فى الدرجات المتوسطة من الذكاء ، وتختفى فى الدرجات المتخفضة والدرجات المرتفعه . . وهكذا

ويمكن تحقيق التغيير المنظم فى المتغير المستقل بطرق متعددة منها .

١ — التغيير الكمى التدريجى فى المتغير المستقل نفسه .. كأن نحاول دراسة تأثير الضوء على أنقباض « انسان » العين .. بتعريض العين لكميات من الضوء تزاد تدريجيا وفق مقاييس القوى الكهربائية وهى الفولت . ومن الأمثلة المبكرة على هذا النوع من التغيير فى المتغير المستقل تجربة ابنجهاوس فى الذاكرة عن العلاقة بين كمية المادة والجهد المبذول لحفظها .

نموذج تجريبي من تجارب ابنجهاوس فى الذاكرة (١٢)

هدف التجربة : الكشف عن العلاقة بين كمية المادة (معبرا عنها بعدد المقاطع التى لامعنى لها) * . وبين الجهد اللازم لحفظها معبرا عنه بعدد مرات القراءة التى تلزم للشخص الواحد فى الوصول إلى محك الحفظ (وهو الاستعادة للمادة بدون أخطاء ، ومعبرا عنه كذلك بمتوسط الزمن اللازم للحفظ) .

اجراءات التجربة : أجرى ابنجهاوس هذه التجربة على نفسه مستعينا بعدد من القوائم التى لا معنى لها ، كمحاولة لاستبعاد تأثير الترابطات التى تثيرها المادة المتماسكة (ذات المعنى) فى الذهن بصورة تؤدى إلى التذكر الجيد . وكانت هذه القوائم متفاوتة الأطوال .

نتائج التجربة : فيما يلى جدول يبين العلاقة بين كمية المادة المحددة للحفظ وبين الجهد الذى لزم للحفظ .

جدول (٤ — ٢) العلاقة بين أطوال القوائم والجهد اللازم لحفظها *

أطوال القوائم	عدد مرات القراءة التى لزمت للوصول لمحك الحفظ	الزمن الذى لزم للقائمة الواحدة للوصول إلى محك الحفظ	الزمن الذى لزم لحفظ المقطع الواحد
١) ٧ مقاطع	١	٣ ثانية	٤ر٠ ثانية
٢) ١٠ مقاطع	١٣	٥٢ «	٢ر٥ «
٣) ١٢ مقطع	١٧	٨٢ «	٨ر٦ «
٤) ١٦ مقطع	٣٠	١٩٢ «	١٢ «
٥) ٢٤ مقطع	٤٤	٤٢٢ «	٦ر١٧ «
٦) ٣٦ مقطع	٥٥	٧٩٢ «	٢٢ «

نلاحظ من نتائج التجربة السابقة أن التغيير الكمى المنظم من المتغير المستقل وهو طول القائمة المعدة للحفظ قد أدى إلى نتائج كان من المستحيل استنتاجها بدون هذه التجربة . ولعل أهم تلك النتائج أن عدد المرات والزمن الذى لزم لتحقيق التسجيل لا يتناسب تناسبا طرديا بسيطا مع الزيادة فى طول أو كثرة المادة .

ومن الطريف أن كثيرا من تجارب الذاكرة التالية لتجارب « ابنجهاوس » قد

* Quoted Through Garrett, 12 .

اكتسبت أهميتها بفعل هذا النوع من « التحكيم » المنتظم وأنها استطاعت أن أن تحصر عددا من قوانين الذاكرة بهذا الطريق . فقدرة كروجر Krueger فى إحدى تجاربه المبكرة على التغيير المنظم فى عدد مرات تكرار بعض المقاطع لها معنى(*) بعد الوصول إلى حفظها وإعادتها لكى يحدد دور التكرار فى التذكر الجيد . هذه القدرة هى التى مكنته من الوصول إلى إحدى القوانين الأساسية للتذكر ومؤداه :

أن مزيداً من الحفظ للمادة اللفظية التى لها معنى حتى حوالى ٥٠٪ يكون مفيداً خصوصاً فى التذكر بعد مدة طويلة نسبياً . أما أن يزيد الحفظ أكثر من ٥٠٪ فإن الفائدة تكون أقل . بعبارة أخرى فإن تمرينات التكرار وزيادة الحفظ لا تؤدى إلى زيادة التذكر هكذا بلا حدود .

٢ — ومن طرق تحقيق التغيير المنظم تكوين مجموعات متنوعة من الأشخاص بحسب درجاتهم على أحد المقاييس ، أو على حسب خضوعهم لجوانب من التغير المستقل متفاوتة الشدة .

وكمثال على هذا : غالبية التجارب التى تحاول أن تقيس تأثير السمات المزاجية ، أو المعرفية على كفاءة الأداء العقلى . ومما هو جدير بالملاحظة أن التجارب التى قارنت بين مستويات من التفكير الابتكارى من حيث التعبير عن المجاراة أو المخالفة(٢) قد استخدمت أساليب قريبة من هذا النوع وتقوم على أساس تطبيق مجموعة من المقاييس أو مقياس ثم تقسم المجموعة بناءاً على درجات أفرادها إلى مجموعات فرعية .. ويلاحظ ويسجل سلوك كل المجموعات فى المتغير أو المتغيرات التابعة المطلوب تفسيرها ثم تقارن المجموعات على هذه المتغيرات .

وكمثال تفصيلى على هذا : التجربة التى قام فندريك(١١) Fendrik سنة ١٩٣٧ عن أثر الاستماع للموسيقى عند أشخاص مختلفين فى الذكاء على جودة الفهم .

---

* مثال : Lam, Chair, tree ... etc. *

ومما يلفت النظر فى هذه التجربة (كتأكيد لفكرة التغيير المنظم) أن المجرب أحضر مجموعتين : تجريبية · تقرأ ١٢ صفحة مأخوذة من فصل فى أحد مراجع علم النفس ، لم يسبق لهم قراءته (مدة القراءة ٣٠ ق) . وكانت تقرأ أثناء استماعها لموسيقى (نصف كلاسيك) صادرة عن جرامفون · عددهم ٦٢ .

ضابطة : تقرأ فى نفس المدة ودون موسيقى أو ضوضاء (أى تحت شرط الهدوء) · عددهم ٦١ .

وكانت المجموعتان متكافئتين من حيث العمر الزمنى ، والتعليم ، قسم كل مجموعة من المجموعتين السابقتين إلى خمسة أقسام بحسب درجاتهم على مقياس للذكاء : الخمس الأدنى والخمس الذى يليه · · وهكذا حتى الخمس الأخير ·

وبعد الانتهاء من فترة القراءة مباشرة وزع على أفراد المجموعات الخمس فى كل جماعة إختباراً ليقيس مدى ما فهموه من النص الذى طاب منهم قراءته · وقد تكون الاختبار من ٦٠ سؤال يجيب عليها الشخص بصح أو خطأ . وأتيحت لهم ١٥ دقيقة للاجابة .

النتائج : اتضح للمجرب أن الفهم والتحصيل كان أجود باستمرار عند المجموعة التى كانت تقرأ فى هدوء ·

لكنه لاحظ أن هذا الفرق يزداد فى المستويات العليا من الذكاء ويظهر هذا بوضوح شديد فى الخمس الرابع ثم يأخذ شكلا حاداً فى الخمس الأعلى : وبناءا على هذا نلاحظ أن شرطى الذكاء والهدوء ضروريان للفهم الجيد . وأن الحد الأعلى من الذكاء هو الوسط الذهبى لهذا ، وليس الدرجة المتوسطة أو الأقل من المتوسطة أو المنخفضة .

وفى هذه النتيجة الأخيرة يتضح بالفعل معنى تكوين مجموعات متدرجة لكى يلاحظ التغير التدريجى الذى يطرأ على سلوكهم .

الخلاصة

أوضحنا فى هذا الفصل المسلمات الرئيسية للنظرة العلمية والتى منها وجود إنتظام وإطراد فى حدوث الظواهر السلوك ، وإمكانية إخضاع هذا الانتظام للبحث التجريبى المنظم ·

ثم تكلمنا بعد ذلك عن عنصرى النظرة العلمية الأساسيين وهما التجربة ، والمعاملات الإرتباطية .

ثم تحدثنا بالتفصيل عن التجربة العلمية وتطبيقها فى مجال السلوك ومن خلال النماذج التجريبية المستفيضة استخلصنا أهم عناصر التجربة العلمية وهى :

١ — وجود ظواهر أو متغيرات تحتاج للاستكشاف .

٢ — القيام بضبط المتغيرات . وقد تحدثنا عن طريقتين للضبط هما :

(ا) المجموعات التجريبية والمجموعات الضابطة .

(ب) الدراسة القبلية البعدية .

٣ — التغيير المنظم من المتغير المستقل .

وقد حاولنا أن نستخدم أمثلة تجريبية مفصلة لتوضيح الأفكار التى وردت فى هذا الفصل .

أما عن النظرة العلمية التى تعتمد على معامل الارتباط فستكون موضوع إهتمامنا فى الفصل الآتى .

المراجع العربية

١ — إبراهيم ، عبد الستار : بين المنهج والنظرية فى علم النفس ، الفكر المعاصر ، فبراير ، ١٩٧٠ .

٢ — ـــــ الأصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية ، كما يتكشف فى عدد من أساليب الاستجابة . رسالة دكتوراه ، ١٩٧٢ ، غير منشورة .

٣ — أرجايل ، ميشيل ، علم النفس ومشكلات الحياة الإجتماعية ، ترجمة عبدالستار إبراهيم ، القاهرة : دار الكتب الجامعية ١٩٧٣

٤ — سلوى الملا : الإبداع والتوتر النفسى ، رسالة دكتوراه ١٩٧١ (نشرت بدار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٢) .

٥ — بيفردج ، و ، ا ، فن البحث العلمى ، ترجمة زكريا فهمى ، القاهرة : دار النهضة المصرية ، مجموعة الألف كتاب ، ١٩٦٣ .

٦ — سويف ، مصطفى : مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، القاهرة : الانجلو ، ١٩٧٠

٧ — ـــــ : التطرف كأسلوب للاستجابة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

8 — Andreas, B., Experimental Psychology, New York : John Wiley, 1960

9 — Barron, F., Creative Person and Creative Process, New york : Holt 1969

10 — Brown, E. w., & Ghiseli, E. E. Scientific Method in Psychology. New York : Mcgraw - Hill, 1955

11 — Crafts, L.W., Schneirla, T.C., Robinson, E.E., & Gilbert, R. W., Recent Experiments in Psychologx. New York : Mcgraw — Hill, 1950

12 — Garret, ; Great Experiments in Psychology, London : Vision Press, (without date).

13 — Krech, D., & Crutchfield, R. S., Elements of Psychelogy, New York : Knopf, 1958.

14 — Natadze, R., On the Psychological Nature of Stage, Impersonation, Brit. J. Psychol. 53, 4, 1962.

15 — Selltiz, C., et. al., Research Methods in Social Relations, New York : Methven, 1959.

16 — Shoben, E.J., & Ruch, F.L., Perspectives in Psychology chicago : Scott, 1963.

17 — Soueif, M. & Elsayed, A., Curvilinear Reltion - Ships Between creative thinking Abilities & Personality Traits, Acta Psychologica, 34, 1970, pp. 1 — 21



الفصل الثالث

الفروق الفردية والقياس النفسى

الفروق بين الأفراد حقيقة ملموسة من حولنـا . فالأفراد يختلفون فى بناء الجسم وملامح الوجه ولون البشرة ويختلفون فى المهارة ، والكفاءة والتوافق الدراسى ، ويختلفون فى شكل علاقاتهم بالآخرين هل هى علامات تعاون أم تنافس ، ثقة أم تشكك ، صداق أو عداوة . فهناك فروق كثيرة بين الأفراد فى مختلف الصفات الجسمية والنفسية ، وقد لفتت هذه الفروق الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور ، غير أنه لم يتسن معرفتها معرفة دقيقة إلا بعد أن تقدمت أساليب القياس النفسى والإحصاء .

والفكرة الشائعة فى المجتمع عن طبيعة الفروق الفردية تختلف عن النتائج التى توصل إليها العلم فى هذا المجال ، ويتساءل العلم عن طبيعة الفروق الفردية وأساليبها وتأثير الدراسة عليها وتأثير التدريب والتعليم والظروف البيئة والعمر الخ . ولقد نمت المناهج والدراسات التى تناولت مختلف مظاهر الفروق وتكون من ذلك كله فرع خاص من فروع علم النفس يسمى بعلم النفس الفارق(*) .

وعندما يتكلم غير المتخصصين يذكرون مثلا أن فلانا لديه موهبة موسيقية ، والأخر ليست لديه ، أو أن فلانا يستطيع التأليف وفلانا لا يستطيع . أو أن أحد الناس موهوب فى الرسم وآخر لا يعرف الرسم .

(*) علم النفس الفارق : Differental Psychology

فالصفة هنا إما أن تكون موجودة أو غير موجودة . ونحن نواجه هذه الفروق الكيفية الحادة كل يوم . ومع ذلك ، فإن الملاحظة العلمية الدقيقة تبين لنا أن كل فرد لديه قدر من كل صفة من الصفات . « فالناس لا يقعون فى أنماط متميزة تميزاً واضحاً والفروق بين الأفراد مسألة درجة degree وبهذا المعنى نقول إن الفروق الفردية كمية وليست كيفية » .

وينطبق ذلك على الفروق فى أى صفة من الصفات كالذكاء والقدرات العقلية وسمات الشخصية . كما ينطبق أيضاً على الخصائص الجسمية كالطول والوزن واللون وقوة الإبصار ، وغيرها من الصفات الانسانية التى يتصف بها الأفراد .

فكرة الامتداد أو البعد :

يمكننا النظر إلى أى صفة من الصفات أو سمة من السمات على أنها بعد(*) أو امتداد (**) . وكل شخص يقع عند نقطة معينة على هذا البعد . وإذا أردنا مثالا لذلك نستطيع أن نتصور أى صفة كأنها مسطرة متدرجة ، وكل شخص يقع عند درجة معينة على هذه المسطرة . فيمكن مثلا تصور الذكاء بالشكل التالى .

صفر ١٠٠

(١) شكل يمثل بعد الذكاء

فكل شخص يقع — حسب مقدار مايتصف به من ذكاء — عند درجة معينة على هذا البعد ، بحيث يمكن توزيع كل المجتمع على البعد .

توزيع الفروق الفردية :

يمكننا القيام بقياس إحدى السمات لدى عينة كبيرة من الأفراد بحيث يحصل كل فرد من أفراد العينة على درجة على القياس . ويمكن بعد ذلك أن نرسم منحنى يمثل توزيع أفراد العينة عند كل درجة . فمثلا ماعدد الأفراد الذين حصلوا على درجة ١٠ أو

(*) بعد : dimension (**) إمتداد : Continuum

١٧ أو ٥١ ، وهكذا . وبهذه الطريقة نعمل ما يسمى بالتوزيع التكرارى(+) فنعرف في البداية أصغر درجة وأكبر درجة ، وحجم الفرق بينهما . وبعد ذلك نعمل فئات من الدرجات ، وأمام كل فئة تكرارها . فمثلا إذا كانت الدرجات تنحصر بين ٨ ، ٥٥ فإن مدى الدرجات يكون ٤٣ ونستطيع عندئذ أن نقسم هذا العدد على ١١ فئة فيكون مدى الفئة ٤ . أى أننا نكوم الدرجات فى ١١ كومة لكى نبسط الصورة ونستطيع أن نستخلص منها نتائج سريعة .

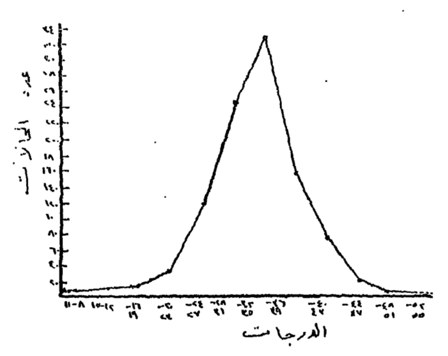
ويبين الجدول التالى (ibid,p.25) التوزيع التكرارى* للدرجات التى حصل عليها ١٠٠٠ طالب فى اختبار لتعلم الشفرة . ويلاحظ أن حجم التكرار (عدد الأفراد) يأخذ فى التزايد كلما اتجهنا نحو منتصف التوزيع .

الفئـــة	التـكرار
٨ — ١١	٢
١٢ — ١٥	٣
١٦ — ١٩	٨
٢٠ — ٢٣	٢٨
٢٤ — ٢٧	١٣٦
٢٨ — ٣١	٢٤٤
٣٢ — ٣٥	٣٢٨
٣٦ — ٣٩	١٥٦
٤٠ — ٤٣	٧٣
٤٤ — ٤٧	٢٠
٤٨ — ٥١	١
٥٢ — ٥٥	١
	ن = ١٠٠٠

جدول (١) يوضح التوزيع التكرارى للدرجات التى حصل عليها ١٠٠٠ طالب على اختبار تعلم الشفرة (A. Anastasi, 1958,p.25)

(*) توزيع تكرارى : frequency distribution

ويمكن بعد ذلك أن نقوم برسم منحنى يمثل توزيع الأفراد عند كل درجة من الدرجات .



شكل (٢) توزيع درجات الأفراد على الاختبار السابق

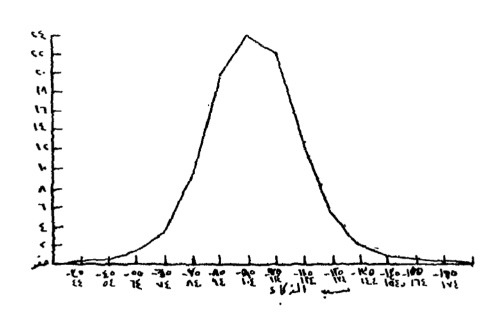
ونلاحظ من النظر فى الشكل السابق أن أعداد الأفراد تتزايد كلما اتجهنا نحو منتصف التوزيع ، وتأخذ فى التناقص كلما ابتعدنا عن المنتصف متجهين نحو طرفى التوزيع .

المنحنى الإعتدالى :

عندما نأخذ عينة كبيرة من الأفراد ممثلة تمثيلا جيداً للمجتمع الأصلى ونطبق عليها مقياساً يقيس إحدى السمات ، نستطيع أن نرسم منحنى يمثل الدرجات التى يحصل عليها أفراد العينة على القياس . وقد إتضح من الدراسات التى أجريت على مختلف السمات أن هذا المنحنى يأخذ شكلا معيناً هو ما يسمى بالمنحنى الاعتدالى(*) . فإذ كان كل من القياس والعينة جيدان حصلنا على هذا الشكل الاعتدالى عند رسم المنحنى الممثل لدرجات الأفراد . وللمنحنى الاعتدالى خصائص مميزة ، فهو مرتفع عند

(*) المنحنى الاعتدالى : normal carve

منتصف التوزيع يأخذ فى الانخفاض التدريجى كلما ابتعدنا عن المنتصف ، وهو يشبه الجرس وهو متماثل فى جانبيه ، فالناحية اليمنى من المنحنى تشبه تماماً النــاحية اليسرى منه ٠



شكل رقم (٣ — ٣)

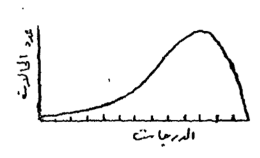
توزيع نسب الذكاء على مقياس بينيه لعينة ممثلة تعدادها ٢٩٠٤ من الأطفال

(A.Anastasi, 1958, p.31)

وقد أوضحت الدراسات التجريبية العديدة أن السمات النفسية تأخذ عادة فى توزيعها شكل المنحنى الاعتدالى ٠ وذلك بشرط أن تكون عينة الأفراد الذين أجريت عليهم الدراسة ممثلة تمثيلا جيداً للمجتمع الأصلى ، وأن يكون المقياس المستخدم جيداً وملائماً ٠ فتوزيع الفروق الفردية بالنسبة للسمات النفسية المختلفة ٠ كالذكاء والقدرات العقلية والسمات المزاجية كالانطواء والعصابية وغيرها تأخذ نفس الشكل الاعتدالى فى توزيعها بين الناس ٠

أنواع أخرى من منحنيات التوزيع :

لا يعتبر التوزيع الاعتدالى النموذج الوحيد لتوزيع السمات والخصائص النفسية . فهناك أنواع أخرى من منحنيات التوزيع تختلف عن المنحنى الاعتدالى . وهناك عدة أشكال رئيسية أخرى لمنحنيات التوزيع غير الاعتدالى . هناك ما يسمى بالتوزيع الملتوى(*) . وفى التوزيع الملتوى نجد أن قمة المنحنى بدلا من أن تكون فى المنتصف تكون إلى اليمين أو إلى اليسار من المنتصف . ويتضح ذلك من النظر فى الشكل رقم (٣—٤) ونحصل على هذا المنحنى عندما يغلب على درجات المجموعة الإرتفاع أو الإنخفاض عن المتوسط .



شكل رقم (٣ — ٤) توزيع ملتوى

وهناك نوع آخر هو المنحنى المدبب(**) وهو يتميز بضيق المنحنى ، ونحصل على هذا المنحنى عندما تتقارب درجات أفراد العينة من بعضها ويقل تشتت الدرجات .

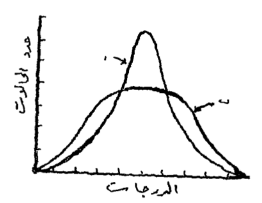
والنوع الثالث من المنحنيات هو المنحنى المفرطح(+) ، ويأخذ التوزيع شكل المنحنى المفرطح عندما يكون هناك تفاوت كبير بين الأفراد أو تشتت كبير فى

(*) توزيع ملتوى : Skewed distribution

(**) توزيع مدبب : Peaked distribution

(+) توزيع مفرطح : flat distrbvtion

الدرجات . وبذلك فإن المنحنى المفرطح يدل على أن أفراد المجموعة — التى يمثلها — بينهم تفاوت كبير .

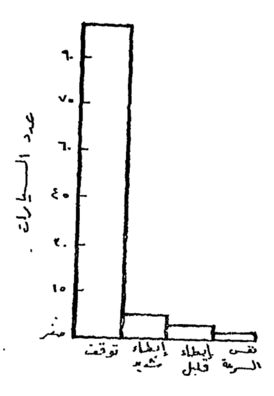


شكل (٤) ويحتوى على نوعين من المنحنيات
(ا) منحنى مدبب ، (ب) منحنى مفرطح

الضبط الاجتماعى ومنحنى التوزيع :

إذا وقفنا عند إشارة المرور عندما تتحول إلى اللون الأحمر ولاحظنا سلوك قادة السيارات عندئذ ، فإننا نلاحظ أن الأغلبية الساحقة تتوقف تماماً — عندما يكون هناك شرطى المرور — بينما أقلية صغيرة تهدىء سرعتها كثيراً ، وعدد صغير جداً لا يعبأ بإشارة المرور ، ويواصل السير . ويمكن أن نرسم منحنى يمثل هذا السلوك فنجد أنه يأخذ الشكل رقم (٣ — ٥) .

ويوضح الشكل أن الضبط الاجتماعى يميل إلى إضفاء قدر كبير من التشابه على سلوك الأفراد . ويؤدى ذلك إلى جعل الغالبية العظمى من الأفراد يتشابهون كثيراً فى سلوكهم ، ويصبح عدد الأفراد المختلفين عن المجموع العام صغيراً جداً . ويتضح هذا الأثر للضبط الإجتماعى فى مظاهر سلوكية عديدة مثل طاعة القانون ، والجريمة ، ومثل السلوك المحرم إجتماعياً أو دينياً . ففى كل هذه الجوانب يتضح أثر الضبط الاجتماعى فى خفض الفروق الفردية ، وجعلها تأخذ الشكل الذى يطلق عليه اسم المنحنى حرف ل (L) .



شكل (٣ — ٥) يبين سلوك قائدى السيارة عند إشارة المرور الحمراء

وبوجه عام فإننا نحصل عادة على التوزيع الاعتدالى بالنسبة لمعظم السمات والقدرات النفسية . بينما نحصل على التوزيعات غير الاعتدالية فى حالات معينة أهمها :

(ا) كون العينة موضع الدراسة لا تمثل المجتمع الأصلى تمثيلا جيدا كأن تكون العينة كلها من الممتازين أو من الضعاف .

(ب) أن يكون المقياس المستخدم غير جيد كأن يكون صعب جداً أو سهل جداً بالنسبة لمستوى قدرة العينة .

(حـ) أن تكون هناك ظروف خارجية مؤثرة على السمة موضع القيـــاس ، كالمجاراة الاجتماعية أو الضبط الاجتماعى أو القانون .

مدى الفروق الفردية :

عرفنا أن هناك فروقاً بين الأفراد ، ولعله ثار فى أذهاننا سؤال عن مدى الفرق بين أقوى شخص وأضعف شخص ، أو مدى الفرق بين أذكى النـــاس وأغباهم فى المجتمع . وقد اهتم كثير من العلماء بدراسة مدى الفروق بين الأفراد فى جوانب متعددة من القدرات ومن السمات ومن الإنتاج الفعلى فى مجالات العمل . وقد قام وكسلر Wechsler بجمع أنواع متعددة من المقاييس ، واستخدمها فى جمع المعلومات عن توزيع الدرجات بين الأفراد . ووجد وكسلر أن أعلى درجة تعادل ما بين مثلى وأربعة أمثال أضعف درجة . وقد نستنتج من هذه المعلومات أنه رغم الفروق فإنه لا يزال هناك تشابه ملحوظ بين الأفراد .

بعض المفاهيم الإحصائية الأساسية

أصبح للإحصاء فى وقتنا الحاضر أهمية بالغة فى جميع العلوم ، سواء فى ذلك العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإنسانية بوجه عام . ونحن نعرض هنا لبعض المفاهيم الإحصائية الأولية التى لاغنى عنها لأى شخص لكى يفهم الكثير مما يقرأه فى جميع المجالات العلمية فى حياتنا المعاصرة . فنعرض لفكرة التوزيع التكرارى وكيفية إعداده ، وللمتوسط الحسابى والانحراف المعيارى والارتباط .

التوزيع التكرارى (١) :

يهدف التوزيع التكرارى إلى تحقيق الإيجاز والتنظيم فى الأرقام التى نحصل عليها عند القياس . ولنفرض أنه كان لدينا عشرة أشخاص لدينا بيانات عن درجات كل فرد منهم على اختبار لمفردات اللغة على النحو التالى :

١٢	٥	٧	٣	٥
١	٩	٤	٨	٦

هذه البيانات نستطيع أن نضعها فى توزيع تكرارى على النحو التالى

الفئة	التكرار (عدد الحالات فى كل فئة
١ — ٢	١
٣ — ٤	٢
٥ — ٦	٣
٧ — ٨	٢
٩ — ١٠	١
١١ — ١٢	١

جدول (٢) يبين التوزيع التكرارى

فهنا قمنا بوضع الدرجات فى عدد محدود من الفئات أو الأكوام . وتتضح فائدة هذه العملية وقيمتها عندما يكون لدينا عدد كبير جدا من الدرجات عدة مئات أو عدة آلاف . كما تتضح قيمته أيضاً عندما نستفيد منه فى حساب المتوسط الحسابى مثلا لهذه الدرجات .

المتوسط الحسابى (*) :

يفيد المتوسط الحسابى فى تحقيق الإيجاز والاقتصاد فى الوصف . فعندما تكون لدينا درجات مجموعة من الأفراد ، نستطيع أن نصف هذه المجموع وصفاً دقيقاً وموجزاً برقم واحد ، وهو المتوسط الحسابى . ونعرف من هذا الرقم المستوى العام للمجموعة ، كما نستطيع بهذه الطريقة أن نقارن بين هذه المجموعة ومجموعات أخرى .

وهناك عدة طرق لحساب المتوسط الحسابى . وأبسط هذه الطرق يتم بجمع الدرجات ثم قسمة ذلك على عدد الأفراد وبالنسبة للدرجات السابقة .

$$\text{المتوسط} = \frac{\text{مجموع الدرجات}}{\text{عدد الأفراد}} \qquad \text{المتوسط} = \frac{٦}{٦} = ٦$$

على أنه فى حالة كبر حجم المجموعة يكون من الأسهل حساب المتوسط من جدول التوزيع التكرارى باستخدام المعادلة الخاصة بذلك .

(*) المتوسط الحسابى : arithmetic mean

الانحراف العيـارى (*) :

ذكرنا أن المتوسط الحسابى يفيد فى وصف المجموعة بقيمة واحدة يستعاض بها عن عدد كبير من القيم التى تتكون منها المجموعة . ولـكن المتوسط لايكفى فى توضيح التشتت أو الانتشار حول المتوسط . فقد تـكون هناك مجموعتان من الأفراد لهما نفس المتوسط . ومع ذلك فالدرجات فى إحدى المجموعتين قريبة جدا من المتوسط أما فى المجموعة الأخرى فإن الدرجات متشتة بعيداً عن المتوسط . ولاستكمال معلوماتنا لابدأن نعرف شيئاً عن تشتت الدرجات فى المجموعة . وأبسط الطرق أن نحسب المدى(**) بين أصغر قيمة وأكبر قيمة فى المجموعة . فإذا كان المدى كبيراً دل ذلك كبر التشتت فى المجموعة ، أما إذا كان المدى صغيراً فإن ذلك يدل على انخفاض التشتت .

أما الانحراف المعيارى فإنه يعطينا قياساً لدقيقاً للتشتت داخل المجموعة . فإذا كان المدى يتناول فقط الفرق بين قيمتين : أكبر قيمة وأصغر قيمة . فإن الانحراف المعيارى يعتمد على حساب مدى بعد كل قيمة عن المتوسط . وهو مايسمى بالانحراف عن المتوسط ، ثم يتم تربيع كل انحراف ويقسم مجموع المربعات على عدد الحالات . ثم نحسب الجزر التربيعى لهذا الناتج الأخير فيكون هو الانحراف المعيارى . ويبين الجدول التالى ذلك بالنسبة للدرجات السابقة وقد عرفنا أن متوسط الدرجات السابقة هو ٦ . والخطوة التالية هى حساب الفرق بين كل درجة وبين المتوسط ثم يلى ذلك تربيع هذه الفروق ، على النحو المبين .

(*) الانحراف المعيارى : standard deviation

(**) المدى : range

الدرجة	الانحراف	مربع الانحراف
١٢	+٦	٣٦
٥	−١	١
٧	+١	١
٣	−٣	٩
٥	−١	١
١	−٥	٢٥
٩	+٣	٩
٤	−٢	٤
٨	+٢	٤
٦	صفر	صفر
	+١٢	٩٠
	−١٢	

جدول (٣) يبين طريقة حساب الانحراف المعيارى من القيم المفردة ٠

$$\text{الانحراف المعيارى (ع)} = \sqrt{\frac{٩٠}{١٠}}$$

$$= \sqrt{٩}$$

$$= ٣$$

ويوفر لنا كل من المتوسط والانحراف المعيارى نتائج بالغة الأهمية تساعد على الوصف الدقيق والموجز والواضح للمجموعات ، كما تمكن من إجراء المقارنات الدقيقة

بينها. ويمكن أن نجرى المقارنة بين المجموعات باستخدام معادلات خاصة تبين هل الفرق فرق جوهرى أم يرجع للصدفة .

معامل الارتباط (*):

كثيرا مانحتاج إلى تحديد درجة العلاقة القائمة بين اختبارين يقيسان القدرات العقلية مثلا . ونستطيع فى هذه الحالة أن نستخدم أسلوب معامل الارتباط لنعرف بدقة مدى العلاقة بينهما . فمثلا هل ترتبط القدرة اللفظية بالقدرة الحسابية ؟ وما درجة العلاقة بينهما ؟ وهل يرتبط الانطواء بالتصلب ؟

هذه التساؤلات نستطيع الإجابة عنها وحسمها بتطبيق اختبارات تقيس هذه القدرات أو السمات على عينة كبيرة من الأفراد. وبعد ذلك يمكن حساب معامل الارتباط بين الدرجات على هذه الاختبارات .

ويعبر معامل الارتباط عن درجات التصاحب فى التغير (**) فإذا كان لدينا متغيران ا ، ب وجدنا أنه كلما زاد المتغير « ا » كلما زاد المتغير «ب» وكلما نقص « ا » نقص «ب» ، فإنه يكون بينهما ارتباط كبير . أما إذا كانت الزيادة أو النقص فى المتغير «ا» لايصحبها تغير متسق فى المتغير «ب» كان معنى ذلك أن الإرتباط بينهما ضعيف أو لايوجد بينهما ارتباط .

ويعبر عن معامل الارتباط عادة برقم يتراوح بين (+ ١٫٠٠) و (— ١٫٠٠) ويكون الناتج فى العادة كسراً . فإذا كان الارتباط بين المتغيرين ارتباط موجب وتام كان معامل الارتباط (+ ١٫٠٠) أما إذا كان الارتباط بينهما سلبي كامل كان معامل الارتباط (— ١٫٠٠) ويكون الارتباط صفرا (٠٫٠٠) إذا كان التغير فى « ا » لا يصحبه تغير متسق فى «ب» .

ومعنى الارتباط الموجب التام أنه كلما زاد « ا » زاد « ب » وكلما نقص « ا » نقص « ب » ، بشكل متسق وكامل .

(*) معامل الإرتباط coefficient of correlatton

(**) التصاحب فى التغير covariance

أما معنى الارتباط السلبي التام فهو أنه كلما زاد « ا » تناقص « ب » والعكس صحيح كلما تناقص « ا » تزايد «ب» . وكمثال فرضى على ذلك ، لنفرض أنه كان هناك علاقة سلبية تامة بين القلق والتحصيل الدراسى فكلما زاد القلق انخفضت درجات التحصيل الدراسى ، وكلما انخفض القلق كلما زاد التحصيل الدراسى .

وفى أغلب الأحيان يكون حجم معامل الارتباط كسراً أقل من الواحد الصحيح، كأن يكون الارتباط ٨٥ر أو ٤٣ر أو — ٥٦ر أو ٠٢ر الخ . فإذا كان حجم معامل الارتباط كبيراً يقترب من الواحد الصحيح دل ذلك على وجود علاقة قوية بين المتغيرين. وهناك معادلات خاصة تستخدم لحساب معامل الارتباط .

(أنظر : H. F. Garrett, و السيد محمد خيرى ، ١٩٥٥)

التحليل العاملى(*) :

يعتبر التحليل العاملى من أهم الأساليب الإحصائية . وهو يعتبر أساساً يقوم عليه الكثير من نظريات علم النفس المعاصر . ويستهدف التحليل العاملى الوصول إلى العوامل أو الأبعاد الاساسية فى مجال القدرات العقلية أو سمات الشخصية أو غيرها . وهو خطوة تأتى بعد حساب معاملات الارتباط بين الاختبارات .

وكمثال لما يؤديه التحليل العاملى لنفرض أنه كان لدينا عدد كبير من الاختبارات التى تقيس مختلف جوانب القدرة العقلية وليكن عددها ١٠٠ اختبار . نستطيع أن نطبق هذه المجموعة الكبيرة من الاختبارات على عينة من الأفراد ، وبعد ذلك نحسب الارتباطات بين كل اختبار والآخر . ويكون لدينا عندئذ جدول كبير نضع فيه هذه الارتباطات . ثم نجرى بعد ذلك خطوات التحليل العاملى التى تؤدى إلى استخلاص العوامل الأساسية فى القدرة العقلية . وبذلك نضع أيدينا على القدرات الأساسية ، والتى

(*) التحليل العاملى : factor analysis

يكون عددها أقل من عدد الاختبارات الأصلية التي حلت . ولنفرض أننا استخلصنا سبعة عوامل فقط نستطيع أن ننتقي أفضـــل الاختبارات التي تقيس هذه العوامل ونستعيض بها عن ذلك العدد الأصلي الـكبير من الاختبارات .

وبذلك يؤدى التحليل العاملى إلى التحديد الدقيق للأبعاد الأساسية التي تقيسها مجموعة من الاختبارات . وبهذا يعطيناصورة دقيقة وموجزه عن السمات الإنسانية ، فيتحقق الاقتصاد (*) المنشود في الوصف العلمى . كما يساعد على ضبط التفـكير العلمى لأنه يحدد المعالم الأساسية فى السمات النفسية ، ويحدد علاقات السمات النفسية ببعضها، وعلاقاتها بالاختبارات التي تقيسها . فـكأن العوامل التي يؤدى إليها التحليل العاملى بمثابة خطوط الطول والعرض على الـكرة الأرضية ، هى خطوط فرضية، لـكنها تقوم على اسس علمية وتؤدى وظيفة هامة .

القياس النفسى

يعتبر القياس من أهم المؤشرات التى تدلنا على تقدم أى علم من العلوم . فـكلما تقدم العلم كلما زاد تحوله عن الاعتماد على الوصف الـكيفى إلى الوصف الـكمى الدقيق . والواقع أن نشأة علم النفس ارتبطت بالقياس واجراء التجارب الدقيقة ، وطوال تاريخ العلم تطور القياس النفسى تطوراً كبيراً ، وتطور استخدام الأساليب الاحصائية فى تحليل نتائج القياس والوصول إلى الايجاز والوضوح والدقة .

ونجد فى وقتنا الحاضر أنواعاً شتى من المقاييس النفسية التى تقيس مختلف السمات الوجدانية والقدرات العقلية . فهناك العديد من المقياس التى تقيس سمات الشخصية كالانطواء والمجاراة الاجتماعية والعصابية . . الخ . ونجد المقاييس التى تقيس مختلف القدرات العقلية سواء منها القدرة العقلية العامة أو القدرات والاستعدادات العقلية الخاصة كالقدرة اللفظية والقدرة الحسابية والقدرات الموسيقية والقدرات الابداعية . وسوف

(*) الاقتصاد : parsimony

نعرض فيما يلى لقياس الذكاء والقدرات العقلية ، وللأسس التى تبنى على أساسها المقاييس والشروط التى ينبغى توفرها فى المقياس الجيد .

قيـاس الذكاء :

كانت البداية الحقيقية لظهور اختبارات الذكاء بشكلها التكامل على يد العالم الفرنسى ألفرد بينيه Binet . فقد قدم هذا العالم أول مقياس للذكاء ظهر فى العالم سنة ١٩٠٥ . وانتقل هذا المقياس إلى بلاد عديدة بعد ذلك ، وأدخلت عليه تطويرات وتحسينات متتالية . ولا يزال هذا المقياس حتى وقتنا الحاضر يستخدم استخداما واسعا فى المدارس ومؤسسات الأطفال المتخلفين والجانحين والعيادات النفسية .

ويتكون المقياس من أجزاء متنوعة ، فهو يحتوى على لعب مقننة (*) أى أنها لعب ذات مواصفات خاصة وتقدم للطفل بطريقة معينة وبأسئلة محددة . كما يتضمن أجزاء لفظية ، وأسئلة حول المعلومات العامة ، والفهم العام ، وأسئلة تقيس ذاكرة الشخص أو قوة ملاحظته أو قدرته على التفكير المجرد .

العمر العقلى :

بعد تطبيق (**) الاختبار على المفحوص ، يحصل على درجة تسمى بالعمر العقلى (***)

شهر سنة

فنجد أن الطفل مثلا عمره العقلى ٤ ٧ أو عمره العقلى ١١ سنة الخ . ومعنى ذلك أن مستوى ذكاء الطفل يشبه مستوى الذكاء المتوسط للأطفال فى هذه السن . ويبقى بعد ذلك أن نقارن العمر العقلى للشخص بعمره الزمنى لكى نعرف هل هو متقدم فى عمره العقلى على عمره الزمنى أم متخلف . ويمكن عمل هذه المقارنة بمعادلة خاصة نحصل بها على ما يسمى بنسبة الذكاء I. Q.(+)

(*) مقننة : standardized

(**) تطبيق : administration

(***) العمر العقلى : mental age

(+) نسبة الذكاء : Intelligence Quotient (I. Q)

نسبة الذكاء : يمكن الحصول على نسبة الذكاء بقسمة العمر العقلى للشخص على العمر الزمنى ، وضرب الناتج فى ١٠٠ على النحو التالى :

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

فإذا كان العمر العقلى للشخص مساوياً لعمره الزمنى يكون الناتج ١٠٠ . أما إذا كان العمر العقلى للشخص أدنى من عمره الزمنى يكون الناتج أقل من ١٠٠ ، وأيضا إذا كان العمر العقلى للشخص أعلى من عمره الزمنى يكون الناتج أكثر من ١٠٠ .

ومعنى ذلك أن الشخص الذى يتساوى عمره العقلى مع عمره الزمنى، وهو الشخص العادى أو متوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه ١٠٠ . أما الشخص المتخلف عقليا فإن نسبة ذكائه تنخفض عن ذلك انخفاضا كبيراً حيث تكون أقل من نسبة ذكاء ٧٠ . أما الشخص المتفوق عقلياً أو الشديد الذكاء فتكون نسبة ذكائه أعلى من ذلك كثيراً.

تفسير نسبة الذكاء :

عندما يحصل أحد الأفراد على نسبة ذكاء معينة ، فكيف نفسر هذه النسبة ؟ أو بعبارة أخرى مامعنى أن يحصل الشخص على نسبة ذكاء ١٣٠ مثلا أو نسبة ذكاء ٦٥ ؟. الواقع أن تفسير نسبة الذكاء يعتمد على معرفتنا بتوزيع الفروق الفردية فى الذكاء داخل المجتمع العام . وقد سبق أن ذكرنا أن الفروق الفردية تأخذ فى توزيعها الشكل الاعتدالى ، حيث نجد أن معظم الأفراد يحصلون على درجات متوسطة وكلما ابتعدت الدرجات عن المتوسط — بالزيادة أو بالنقص — كلما قل عدد الأفراد . والواقع أن هذا التوزيع الاعتدالى له خصائص رياضية واحصائية تحدد لنا نسبة الأفراد الذين يحصلون على درجة بعينها على مقياس الذكاء . وقد أوضحت إحدى الدراسات التجريبية نتائج تطبيق مقياس للذكاء على عينة كبيرة من الأفراد . ويوضح الجدول رقم (٤) توزيع نسب الذكاء لدى هذه العينة .

نسبة الذكاء	الوصف اللفظى	النسبة المئوية للأفراد فى كل فئة
١٣٠ فما فوق	متفوق جداً	٢ر٢
١٢٠ — ١٢٩	متفوق	٦ر٧
١١٠ — ١١٩	متوسط مرتفع	١٦ر١
٩٠ — ١٠٩	متوسط	٥٠ر٠
٨٠ — ٨٩	متوسط منخفض	١٦ر١
٧٠ — ٧٩	على هامش الضعف العقلى	٦ر٧
تحت ٧٠	ضعيف عقلياً	٢ر٢

جدول رقم (٤) يوضح تفسير نسبة الذكاء (C.T. Morgan, 19 1,p. 441)

فإذا حصل أحد الأفراد على نسبة ذكاء معينة استطعنا أن نعرف مدى تفوقه على أقرانه من أفراد المجتمع فى القدرة العقلية العامة .

فإذا حصل مثلا على نسبة ذكاء ١٣٠ عرفنا أنه يقع بين أعلى ٢ر٢ ٪ من أفراد المجتمع ، أو بعبارة أخرى أن مستوى ذكائه يفوق مستوى ذكاء ٩٧ر٨ ٪ من أفراد المجتمع . أما إذا حصل الشخص على نسبة ذكاء ٧٩ فإننا نعرف فى هذه الحالة أن مستوى ذكائه يفوق مستوى ذكاء ٨ر٩ ٪ فقط من أفراد المجتمع .

معنى نسبة الذكاء :

عندما نريد أن نفهم نسبة ذكاء حصل عليها أحد الأفراد ، يلزمنا أن نأخذ فى اعتبارنا القياس المستخدم . لأن مكونات مقاييس الذكاء تختلف من مقياس لآخر ، وبالتالى تختلف دلالة الدرجة التى يحصل عليها الفرد ، لو كان للقياس لفظياً مثلا أو عملياً أو يحتوى على عمليات للتفكير المجرد . ويجب ملاحظة أن الذكاء ليس قدرة مفردة ، آحادية ، بل هو مركب من قدرات عديدة . ونحن نستخدم اصطلاح الذكاء لكى

ينطى ترابطاً من القدرات الضرورية للبقاء وللنجاح داخل ثقافة بعينها • فالذكاء بهذا المعنى هو إجمالى مالدى الفرد من قدرات متعددة (5) •

وقد يتسائل البعض هل نسبة الذكاء التى يحصل عليها أحد الأفراد تظل ثابتة طوال حياته أم أنها عرضة للتغير ؟ وهل هى وراثية أم أنها تتعرض لتأثيرات البيئة ؟ وتلقى الدراسات التتبعية للذكاء الضوء على هذه النقطة •

الدراسات التتبعية للذكاء :

تساعد الدراسات التتبعية على فهم معنى مصطلح الذكاء . وفى هذه الدراسات التتبعية يتم تطبيق الاختبار على عينه من الأفراد ، ثم يعاد إختبارهم بعد مرور عدة سنوات • وتوضح لنا هذه الدراسات هل نسبة الذكاء ثابتة أم أنها تتعرض للتغير بالزيادة أو النقص • ولو تصورنا أن الذكاء وراثى فإننا نتوقع أن تكون نسبة الذكاء ثابتة ، أما إذا تصورنا أن مستوى الذكاء يتأثر بالعوامل البيئية فإننا نتوقع فى هذه الحالة أن يطرأ التغير على حجم نسب الذكاء مع مرور الوقت ، وذلك فى حالة تغير الظروف البيئية تغيراً كبيراً • وهناك عدد من الدراسات يوحى بأن نسب الذكاء تتصف بقدر كبير من الاستقرار ، بينما نجد دراسات أخرى توحى بالعكس ، أى بأن نسب الذكاء يمكن أن يطرأ عليها التغير . وسوف نعرض لنماذج من كلا النوعين من الدراسات ثم نناقش نتائجها .

(١) دراسات تشير إلى استقرار نسب الذكاء :

تجمع قدر كبير من المعلومات تشير إلى أن نسب الذكاء تظل مستقرة طوال فترات الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية • ومن هذه الدراسات دراسة أجريت فى السويد أجراها هوسين Husén . وفى هذه الدراسة تم قياس ذكاء مجموعة من التلاميذ عند مستوى الصف الثالث الابتدائى عددهم ٦١٣ تلميذاً • وبعد مرور ١٠ سنوات أعيد اختبار ذكائهم • فوجد أن هناك ارتباطاً كبيراً بين الدرجات التى حصلوا عليها فى المرة الأولى والدرجات التى حصلوا عليها فى المرة الثانية (حجم الارتباط ٧٢ر) •

وتوصل عدد من البحوث الأخرى إلى نتائج مشابهة

(ب) دراسات توحي بعدم استقرار نسب الذكاء :

كانت الدراسات التي أوحت باستقرار نسب الذكاء دراسات أجريت على مجموعات من الأفراد . فهي تصور مدى الاستقرار في نسب الذكاء لدى المجموعة ككل . ولكن هناك دراسات أخرى تناولت الاستقرار والتغير في نسب الذكاء لدى الحالات الفردية . وقد وجدت هذه الدراسات عدداً من الحالات الفردية طرأ على مستوى ذكائها تغيرات كبيرة بالارتفاع الحاد أو الانخفاض الحاد في نسب الذكاء . وقد لوحظ أن هذه التغيرات في مستوى ذكاء الفرد ترتبط بتغيرات بيئية كبيرة يمر بها الفرد . من أمثلة هذه التغيرات البيئية التغيرات الكبيرة في بناء الأسرة أو ظروف البيت ، أو ظروف المرض الشديد أو المستمر وكذلك المرور بخبرات علاجية أو تقويمية . وبوجه عام فإن الأطفال الذين يعيشون في بيئات غير ملائمة يغلب عليهم حدوث الانخفاض ، أما الأطفال الذين يعيشون في بيئات ممتازة فيغلب عليهم حدوث الارتفاع في نسب الذكاء .

كذلك لوحظ أن هناك بعض سمات الشخصية المميزة لهؤلاء الذين يطرأ التغير على نسب ذكائهم فمثلا اتضح في إحدى الدراسات أن الاعتماد العاطفي لدى الأطفال في سن ماقبل المدرسة يرتبط بحالة الانخفاض في نسب الذكاء . ويرتبط الارتفاع في نسب الذكاء في سن المدرسة بارتفاع الدافع للتحصيل ، وبالميل للمنافسة ، وبحب الاستطلاع (Ibid, P. 208-210) .

وتعليقاً على هذه النتائج نلاحظ أن نسب الذكاء تميل إلى الاستقرار إذا نظرنا إلى المجموع العام ، ولكن تحدث تغيرات في مستوى الذكاء لدى بعض الأفراد بالزيادة أو بالنقص كنتيجة لبعض العوامل البيئية أو الأسرية أو الشخصية . وهذه الدراسات تدعونا إلى الاهتمام بتوفير المناخ الملائم للطفل أو للشخص الراشد لكي ينمو ذكاؤه إلى أقصى إمكانية له . ويتم ذلك بحل المشكلات التي يعاني منها الشخص ، وعلاج

ما قد يتتابه من أمراض جسمية أو نفسية فى الوقت الملائم ، ولا يترك الفرد نهباً للمشكلات أو للأمراض تنخر فى طاقته وقدرته العقلية . كما توحى لنا هذه الدراسات بأن فى الإمكان زيادة القدرات العقلية للأفراد بحيث يصلون إلى تحقيق أكبر إستغلال إيجابى ممكن لطاقاتهم العقلية . ونذكر فى هذا الصدد أن هناك إهتماماً كبيراً فى البلاد المتقدمة بتنمية الطاقات العقلية للأفراد على أسس علمية سليمة .

مقاييس وكسلر للذكاء :

تعتبر مقاييس وكسلر Wechsler للذكاء من أشهر الاختبارات فى وقتنا الحاضر ، ومن أكثرها شيوعاً فى جميع أنحاء العالم . وهناك عدة صور من هذه المقاييس ، فهناك مقياس وكسلر لذكاء الراشدين ، ومقياس وكسلر لذكاء الأطفال ، ومقياس وكسلر لذكاء الأطفال فى سن ما قبل المدرسة .

وتتميز مقاييس وكسلر بأنها تقدم لنا معلومات مفصلة نوعاً عن ذكاء الشخص . فكل مقياس منها يشتمل على مقياسين فرعيين هما : المقياس اللفظى والمقياس العملى . ومكوناتهما على (١١) النحو التالى :

أولا: المقياس اللفظى: Verbal ويتكون من

١ — المعلومات information

٢ — الفهم العام comprehension

٣ — التشابهات similarities

٤ — الحساب arithmetic

٥ — إعادة الأرقام digit span

٦ — المفردات vocabulary

ثانياً : المقياس العملى : Performance ويتكون من :

١ — رموز الأرقام digit symbol

٢ — تـكميل الصور picture completion

٣ — تصميم المـكعبات block design

٤ — ترتيب الصور picture arrangement

٥ — تجميع الأشياء object assembly

ويطبق هذا القياس على المفحوص بواسطة فاحص متمرن جيداً ، ويستغرق التطبيق حوالى ساعة ونصف . وبعد التطبيق يقوم الفاحص بحساب درجات لـكل اختبار من الاختبارات الفرعية الإحدى عشر ، ثم يقوم بحساب نسبة الذكاء اللفظى ، ونسبة الذكاء العملى للشخص ، وكذلك نسبة الذكاء الـكلى . مع ملاحظة أن حساب نسب الذكاء هنا لا يعتمد على مفاهيم العمر العقلى والعمر الزمنى ، بل يتم ذلك بالرجوع إلى جداول إحصائية خاصة .

ولهذه الدرجات المفصلة أهمية فى التعرف على نواحى القوة والضعف فى القدرة العقلية للشخص . كما أنها تستخدم فى الأغراض التشخيصية للمرضى النفسيين بالعيادات النفسية .

إختبارات أخرى للذكاء :

هناك عدد كبير من اختبارات الذكاء بخلاف مقياس بينيه ومقاييس وكسلر . وكل اختبار منها يركز إهتمامه على جانب أو عدد من الجوانب الهامة فى القدرة العقلية العامة . وبعض هذه الاختبارات تعتمد على الرسم كاختبار جودانف — هاريس للرسم Goodenough - Harris Drawing test الذى يطلب فيه من الطفل أن يرسم صورة رجل ، وبعد ذلك يصحح الرسم بالرجوع إلى تعليمات خاصه مقننة يتم على أساسها تحديد مستوى النمو العقلى للطفل . (8)

وهناك إختبارات المتاهات Mazes التى تقدم للطفل عدداً من المتاهات المرسومة على الورق ، وبناء على قدرته على الحل نعرف مستوى نموه العقلى .

وهناك أيضاً إختبارات لفظية تركز إهتمامها كلية على الذكاء اللفظى . ولا شك أن للذكاء اللفظى أهميته الكبيرة فى النجاح الدراسى والمهنى للفرد . وهو يعطى الفرد القدرة على الفهم المجرد وعلى التعامل مع الأفكار المجردة .

وهذه المقاييس التى تقيس الذكاء بدرجة عالية من الدقة أصبحت إحدى الدعائم الأساسية لعلم النفس فى شقيه : النظرى والتطبيق . فأصبح تحليل مفهوم الذكاء ودراسة نموه وتدهوره والمؤثرات التى تؤثر عليه سواء كانت بيئية أو وراثية ، أصبح كل ذلك يعتمد على مقاييس الذكاء للوصول إلى نتائج نظرية سليمة مقبولة علمياً .

كذلك فإن تطبيقات علم النفس فى مجالات العيادة النفسية والتربية والصناعة أصبحت تعتمد إعتماداً كبيراً على إختبارات الذكاء . ففى أى مجال من هذه المجالات لم يعد من الممكن الاستغناء عن هذه المقاييس ، فى اتخاذ القرارات العملية . وفى العادة يطبق إختبار الذكاء جنباً إلى جنب مع بعض الاختبارات الأخرى ، ولكن فى معظم الأحوال نجد أن إختبار الذكاء يحتل مكانة هامة بين هذه الاختبارات .

الذكاء والعمر :

من التصورات الشائعة أن ذكاء الإنسان ينمو مع العمر ، لكن هناك سؤالا هاماً ، متى يصل الشخص إلى أقصى نمو عقلى له ، وهل يطرأ على الذكاء تناقص بعد ازدياد ؟

هذه أسئلة هامة أثارت اهتمام علماء النفس ، وأجروا العديد من الدراسات التجريبية حولها ، وما زالت هناك دراسات تجرى فى وقتنا الحاضر وتمس هـذا السؤال ، وتحاول التعرف على العوامل التى تتصل بنمو الذكاء أو اضمحلاله .

والواقع أن هذه الدراسات تشير فى جملتها إلى أن ذكاء الإنسان يستمر فى النمو حتى سن الرشد ويظل ثابتاً إلى حد ما عدة سنوات ثم يأخذ بعد ذلك فى التناقص التدريجى سنة بعد أخرى .

وهناك طريقتان تستخدمان لدراسة علاقة العمر بالذكاء هما :

الطريقة الطولية (التتبعية) (*) :

عند استخدام الطريقة الطولية أو التتبعية يأخذ الباحث عينة من الأفراد يطبق عليها مقياس الذكاء (أو غيره من المقاييس) ثم يتتبع بعد ذلك هذه العينة بأن يطبق عليها نفس المقاييس كل خمس سنوات مثلا أو كل عشر سنوات . وتساعد هذه الطريقة فى التعرف على التغيرات التى تحدث فى أداء الأفراد على الاختبارات مع العمر .

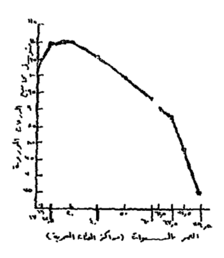
طريقة القطاع العرضى (**) :

تعتبر هذه الطريقة بديلا عن الطريقة التتبعية . فبدلا من تتبع الأفراد سنة بعد أخرى ، يتم اختيار عينات من الأفراد المتشابهين فى مستوى التعليم والثقافة ويختلفون فقط فى العمر الزمنى . فنأخذ عدة مجموعات من الأفراد (كل مجموعة عددها ١٠٠ مثلا) ، وهذه المجموعات متفاوتة فى العمر ، مثلا تكون أعمار المجموعات ١٥ سنة ، ٢٠ سنة ، ٢٥ سنة وهكذا حتى سن ٨٠ سنة . ونقوم بتطبيق الاختبار على هذه المجموعات ونقارن درجات المجموعات المختلفة ببعضها ، لكى نعرف التغير فى الدرجات المصاحب للعمر .

ومن أهم الدراسات التى استخدمت طريقة القطاع العرضى الدراسة التى أجراها وكسلر Wechsler باستخدام مقياسه الشهير . فقد طبق المقياس على ١٧٠٠ حالة من الجنسين ، موزعين على سبع فئات عمرية فيما بين سن ١٦ و٦٤ سنة ، وعينة أخرى فوق سن الستين تعدادها ٤٧٥ . وقد أوضحت هذه الدراسة أن درجات الذكاء تأخذ فى الارتفاع حتى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ، ثم تنحدر بعد ذلك ببطء حتى سن الستين . وبعد سن الستين لوحظ انحدار أكثر حدة فى عينة كبار السن (٥)

(*) الطريقة الطولية (التتبعية) : longitudinal method
(**) طريقة القطاع العرضى : cross - sectional method

ويوضح الشكل رقم (٣—٧) المنحنى الممثل لتغير الدرجات المصاحب للعمر على مقياس الوكسلر .



(شكل رقم (٣ — ٧) يمثل تغير الذكاء مع العمر

وقد ألقت الدراسات التتبعية مزيداً من الضوء على علاقة الذكاء بالعمر . فقد أظهرت هذه الدراسات التتبعية أنه يحدث تحسن مستمر فى القدرة العقلية مع تزايد السن . مثال ذلك دراسة أوينز Owens التي طبق فيها مقياس ألفا Alpha للذكاء على عينة من ١٢٧ شخصاً سبق أن طبق عليهم نفس الاختبار قبل ذلك بثلاثين عاماً . فوجد زيادة فى متوسط الدرجات بعد مرور هذه السنوات .

على أننا نلاحظ أن الذكاء مركب من قدرات متعددة . وأن بعض هذه القدرات لايطرأ عليه تناقص كبير مع العمر ، مثال ذلك الحصيلة اللغوية للشخص (مقدار مفردات اللغة والرموز التي يعرفها) بينما نجد قدرات أخرى ـ من بين مكونات الذكاء ـ يطرأ عليها تناقص مع العمر . ويظهر ذلك بوضوح فى المهام التى تعتمد على الإدراك البصرى أو السرعة .

القدرات والاستعدادات

أظهرت الدراسات التجريبية فى علم النفس أن هناك فروقاً داخل الفرد نفسه. فالفرد لا يكون عادة مرتفعاً فى كل قدراته أو منخفضاً فيها جميعاً. بل نجد عادة أن الفرد يكون مرتفعاً فى بعض القدرات ومتوسطاً فى بعضها ومنخفضاً فى بعضها الآخر. كما يتضح لنا فى مجالات العمل أن الشخص قد ينجح فى إحدى المهن ولكنه لا ينجح فى مهنة أخرى. وقد استخدم علماء النفس أساليب إحصائية متطورة لاستكشاف القدرات الأساسية وتحديد معالمها. ومن اهم هذه الأساليب أسلوب التحليل العاملى. وخطوات هذا الأسلوب تبدأ بتطبيق عدد كبير من الاختبارات (حوالى ٢٠ اختباراً مثلا) على عينة كبيرة من الأفراد. ثم تحسب بعد ذلك معاملات الارتباط بين كل اختبار والآخر، فنحصل على عدد كبير من الارتباطات، تقوم بتجميعها فى جدول خاص يسمى بمصفوفه الارتباطات. ثم نجرى على هذه المصفوفة خطوات إحصائية نستطيع بها الوصول إلى معرفة العوامل الأساسية التى تقيسها هذه الاختبارات. وقد استخدم أسلوب التحليل العاملى فى دراسات الذكاء والقدرات والشخصية، والاتجاهات وغيرها، كما استخدم فى علوم أخرى غير علم النفس. وقد ساعد هذا الأسلوب على الوصول إلى الوضوح والدقة والإيجاز المركز فى تصوراتنا لقدرات الإنسان أو لسمات شخصيته. بحيث نستطيع معرفة القدرات الأساسية أو السمات الأساسية للشخصية، وبذلك يركز العلم على ماهو أساسى، ويستبعد جانباً التكرار، أو يضع الفروع فى مكانها بين الأساسيات.

والواقع أن هناك عدة فئات من القدرات والاستعدادات نذكر منها :

١ — القدرات العامة أو الأساسية : كالقدرة اللفظية والقدرة الحسابية والفهم الميكانيكى، والإدراك المكانى. وتتضح فى القدرات العقلية الأولية لثيرستون.

٢ — القدرات الحسية والحركية : كالقدرات البصرية والسمعية، ومهارة الأيدى والأصابع، وتآزر اليدين. وزمن الرجع... الخ.

٣ — القدرات الفنية : كقدرات التذوق الفنى ، والإنتاج الفنى والاستعدادات الموسيقية .

٤ — القدرات الابداعية : (سواء فى مجالات العلم والتكنولوجيا أو الفن) . كالاصالة والمرونة .. الخ .

القدرات العقليلة الأولية :

تمكن ثيرستون L. Thurstone باستخدام التحليل العاملى من استخلاص سبعة عوامل أطلق عليها اسم القدرات العقلية الأولية(*) . وهذه العوامل السبعة على النحو التالى (٩) :

١ — الفهم اللفظى : verbal comprehension

وتمثل هذا العامل اختبارات المفردات اللغوية .

٢ — طلاقة الكلمات : Word fluency

يتطلب هذا العامل التفكير فى الكلمات بسرعة .

٣ — العدد : number

وتمثل هذا العامل اختبارات الحساب البسيطة ، خاصة تلك التى تحتاج إلى عمليات حسابية .

٤ — المكان : space

وتتناول الاختبارات الخاصة بهذا العامل علاقات الأشكال ذات البعدين أو الأبعاد الثلاثة .

٥ — الذاكرة : memory

ويتضح هذا العامل فى الاختبارات التى تتطلب تذكر أزواج من البنود .

(*) القدرات العقلية الأولية Primary Mental Abilities

٦ — العامل الإدراكى : Perceptual

وهو يتطلب إدراك التفاصيل البصرية وأوجه الشبه والاختلاف بين الأشياء المصورة .

٧ — الاستدلال : reasoning

وتمثله خير تمثيل الاختبارات التى تتطلب اكتشاف قاعدة عامة على أساس أمثلة تعرض على الشخص .

اسس القياس النفسى

يرتكز القياس النفسى على عدد من الأسس التى يجب مراعاتها عند إعداد وتقنين [1] الاختبارات النفسية . فالاختبار النفسى يختلف عن الاختبارات المدرسية المألوفة ، كما أنه ليس مجرد مجموعة من البنود أو الأسئلة اللفظية أو العملية أو المصورة أو المسموعة . فالاختبار النفسى هو « مقياس موضوعى [2] ومقنن لعينة من السلوك » (g.p.21) وتتناول عناصر هذا التعريف فيما يلى :

١ — القياس النفسى مقياس لعينة من السلوك . فالسيكولوجى يشبه الكيميائى عندما يريد تحليل كميات ضخمة من المواد ، لايقوم بتحليل كل كميات المادة بل يأخذ عينة تمثل تمثيلا دقيقاً كميات المادة الموجودة . وحسب مدى دقته فى اختيار العينة تكون سلامة النتائج التى يصل إليها . كذلك عند قياس القدرة اللفظية ، عندما نحاول معرفة مقدار رصيد الفرد من مفردات اللغة ، لانسأله عن كل مايعرفه ، بل نسأله عن عينة من المفردات التى تمثل المستويات المختلفة من المهارة ، والأنواع المختلفة من المفردات . وكذلك الحال فى قياس الذكاء أو الشخصية ، لانختبر كل استجابات الفرد ، بل نختبر عينة محدودة تمثل الاستجابات الأصلية .

---

(١) تقنين : standardization

(٢) موضوعى : objective

٢ – الموضـوعية : وتعنى الموضوعية التحرر من التحيزات الشخصية عند الحكم على المفحوص . وأن لا تتأثر نتائج القياس بآراء الفاحص الشخصية أو باختلاف الفاحص نفسه . وتتضح الموضوعية فى كل خطوات القياس ؛ فى تطبيق الاختبار وتصحيحه وتفسير نتائجه . وهى من المبادىء الأساسية التى يلتزم بها علم النفس عموما للوصول إلى المعرفة العلمية المقبولة .

٣ – التقنين : ويعنى التقنين «توحيد إجراءات تطبيق وتصحيح الاختبار» (5) فإذا كنا نرغب فى المقارنة بين الدرجات التى يحصل عليها الأفراد المختلفون ، فلا بد وأن تكون ظروف التطبيق واحدة بالنسبة للجميع . ولتحقيق ذلك يقوم مصمم الاختبار بتحديد مختلف الظروف التى يتم فى ظلها تطبيق الاختبار . فيحدد التعليمات الشفهية التى تقال قبل بدء الاختبار ، والأمثلة التوضيحية التى تقدم لشرح طبيعة الاختبار ، كما يحدد زمن تطبيق الاختبار ، وكيفية الإجابة على استفسارات المفحوصين أثناء جلسة الاختبار .

المعايير[١] : عندما نطبق الاختبار النفسى على أحد الأفراد ويحصل على درجة عاليه ، فإن هذه الدرجة الخام[٢] لا معنى لها . لا نستطيع أن نعرف مثلا إذا كانت الدرجة مرتفعة أو منخفضة وهل هى جيدة أم غير جيدة إلا إذا قارنا هذه الدرجات بدرجات الأفراد الآخرين فى المجتمع . ولذلك تشتمل عملية تقنين الاختبار على إعداد معايير له ، ويتم ذلك بتطبيق الاختبار على عينة كبيرة من الأفراد تمثل الجمهور الأصلى . وبناء على ذلك يتم إعداد المعايير ، التى تصبح بعد ذلك مرجعاً نفسر فى ضوئه الدرجة التى يحصل عليها أى فرد نقوم باختباره .

خصائص الاختبار الجيد :

هنـاك عدد من الشروط لابد من توافرها فى الاختبار الجيد . وقد تكلمنا من قبل عن بعض المتطلبات الهامة فى القياس النفسى وهى الموضوعية ، والتقنين ،

---

(١) معايير : norms (٢) الدرجة الخام : raw acore

المعايير . وإلى جانب ذلك هناك شرطان إساسيان لهما الأهمية القصوى هما شرطا الثبات[1] والصدق[2] ، نتكلم عنهما فيما يلي :

أولا : الثبات يعنى الثبات اتساق الدرجات التى يحصل عليها نفس الأفراد إذا أعدنا اختبارهم بالمقياس نفسه أو بصورة مكافئة له . ولتوضيح ذلك بمثال من المقاييس الفيزيقية ، لنفرض أنه كان لدينا متر يقيس الأطوال ، وقمنا بقياس طول منضدة ، فإننا نتوقع أن يعطينا المقياس نفس النتيجة إذا كررنا عملية القياس . فحصولنا على نفس النتيجة يدل على جودة المقياس ، أما إذا تناقضت النتيجة فإننا لا نستطيع الاعتماد على المقياس بعد ذلك . وبالطبع قد نقبل فروقاً طفيفة فى القياس عند تكراره ، عندما لا تتجاوز هذه الفروق مليمترات قليلة ، أو أجزاء من المليمتر . أما إذا زادت فروق القياس عن هذا الحد فإننا نشك فى سلامة المقياس نفسه . وهذا صحيح فى مجالات القياس الطبيعية كقياس الأوزان أو الأطوال أو الحرارة ، حيث يسمح بقدر طفيف جداً من فروق القياس أما إذا زادت الفروق عن ذلك الحد كان ذلك إشارة إلى وجود خطأ فى عمليات القياس .

ونفس هذا المطلب — وهو الثبات — لابد من توافره فى المقاييس النفسية . وهناك عدة طرق لدراسة ثبات الاختبار نذكر منها طريقتان :

(أ) إعادة تطبيق الاختبار : وذلك بتطبيق الاختبار على نفس عينة الأفراد مرتين ثم حساب معامل الارتباط بين الدرجات التى حصل عليها نفس الأفراد فى المرتين . فإذا كان الارتباط بين درجات المرة الأولى ودرجات المرة الثانية مرتفعاً دل ذلك على ثبات الاختبار .

(ب) طريقة الصور المتكافئة : وفى هذه الطريقة يكون لدينا صورتان متكافئتان من نفس الاختبار نطبقهما معاً على نفس عينة الأفراد ثم نحسب معامل الارتباط بين الدرجات على الصورتين .

---

(1) الثبات : reliability (2) الصدق : validity

ويشير ارتفــاع ثبات الاختبار إلى إمكانية الاعتماد على نتائج إستخدامه وإلى أن أخطاء القياس طفيفة جداً لا تتجاوز الحدود المقبولة علمياً .

ثانياً : الصدق : يعتبر الصدق أهم مستلزمات القياس الجيد وهو يعني « درجة قياس الاختبار فعلياً لمــا يدعى أنه يقيسه » . (ibid,p.28) فإذا كان لدينا مقياس يدعى مصممه أنه يقيس الذكاء ، فلابد من التحقق من ذلك تجريبياً ، وإذا كان لدينا مقياس يدعى أنه يقيس الانطواء أو المجاراة الاجتماعية فلابد من التأكد من سلامة وصحة ذلك الإدعاء .

وهناك عدة طرق لدراسة الصدق ، نعرض إحداها فقط كمثال يوضح طبيعة صدق الاختبار . لنفرض أنه كان لدينا مقياس يدعى أنه يقيس الاستعداد للنجاح فى قيادة الطائرات ، فإننا نستطيع التحقق من صدق الاختبار بتطبيقه على عينة من المشتغلين بهذه المهنة ، وفى نفس الوقت نستطيع الحصول — من مصادر أخرى وبطريقة مستقلة — على معلومات عن النجاح الفعلى لـكل فرد من أفراد هذه العينة فى مهنة قيادة الطائرات . وبعد ذلك نقوم بحساب معامل الارتباط بين درجات الاختبار من ناحية ودرجات النجاح الفعلى فى المهنة من ناحية أخرى . ويعبر معامل الارتباط الناتج عن صدق الاختبار ، أى عن مدى قدرته على التنبؤ بالنجاح الفعلى فى هذه المهنــة .

المراجع العربية

١ — السيد محمد خيرى الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٧ .

٢ — محمد فرغلى فراج مرضى النفس فى تطرفهم وأعتدالهم ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

3 — Anastasi, A. Differential Psychology (3rd ed.) New York : Macmillan, 1958.

4 — Anastasi, A. Individual Differences, New York : Wiley, 1965

5 — Anastasi, A. Psychologicol Testing, New York : Macmillan, 1968.

6 — Cronbach, L.J. Essentials of Psychological Testing.(3nd ed.) New York : Harper, 1969

7 — Freeman, F.S. Theory and Practice of Psychological Testing (3rd ed.) New York : Holt, Reinhart and winston. 1962

8 — Fruchter, B. Introduction to Factor Analysis Guifod psyciznulc.

9 — Harris, D.B. Childrens drawings as measures of intellectual Maturity : A revision and extension of the Goodenough Draw-a-Man Test. New York : Harcourt, Brace & World, 1963.

10 — Hilgard, E.R. Introduc'ion to Psychology. (2nd ed.) New York : Horcourt, Brace & Gompany, 1953.

11 — Morgan, C. T. Introduction to Psychology. (2nd ed.) Mc Graw - Hill company, 1961

12 — Wechsler, D. The Measurement and Appraisal of Adult Intelligence (3th ed) Baltimore : williams & wilkins, 1958

الفصل الرابع

الشخصية الإنسانية

ماهى الشخصية ؟

كلمة الشخصية من الكلمات الشائعة الاستعمال فى حياتنا اليومية . ولكن استعمالها الشائع يختلف عن الاستعمال العلمى لهذه الكلمة . فنحن فى استعمالنا العادى نقول مثلا إن فلاناً من الناس له شخصية قوية ، أو له شخصية ضعيفة أو ليست له شخصية على الإطلاق . كما أن هناك استعمالات أخرى للكلمة فى مجالات القانون أو الدين مثلا . ويركز الاستعمال الجارى للكلمة اهتمامه على التأثير الاجتماعى للشخص ، فإذا كان للفرد تأثير كبير على من هم من حوله قيل إنه قوى الشخصية أما إذا كان يتأثر تأثراً كثيراً بآراء الآخرين وأقوالهم قيل عنه أنه ضعيف الشخصية أو ليست له شخصية . والواقع أنه لا يوجد شخص بدون شخصية ، فكل إنسان له شخصيته المميزة. وهذه الشخصية المميزة تحمل قسمات وملامح خاصة تميزها عن غيرها . وكل فرد يشبه الآخرين فى بعض النواحى ويختلف عنهم فى بعضها الآخر ، ولكنه فى النهاية ينفرد بتركيبة خاصة تجمع مختلف العناصر فى كل واحد متكامل .

ولقد عرف علماء النفس كلمة الشخصية بتعريفات متعددة ، تعكس الموقف العلمى النظرى لصاحب التعريف . ولكننا نجد أن علماء النفس أميل إلى الأخذ بتعريفات سلوكية للشخصية ، هذه التعريفات السلوكية تشير إلى مظاهر من السلوك يمكن ملاحظتها وقياسها . فنجد أن جيلفورد (8) مثلا يعرف الشخصية بأن « شخصية الفرد هى طرازه الفريد من السمات » فالشخصية هنا هى مجموعة مميزة من السمات ، يمكن قياس كل سمة منها بالمقاييس الملائمة. وهذا التعريف يتصف بالبساطة ، وإن كان يحتاج

إلى مزيد من التفاصيل التي تزيده وضوحا وثراءا . وهذا ما يفعله أيزناك حين يعرف الشخصية بأنها « ذلك التنظيم ، الذى يتفاوت ثباتا واستمرارا ، للخلق ، والمزاج ، والعقلية، والبناء الجسمى،لأحد الأشخاص ، والذى يحدد توافقه الفريد مع بيئته».[6]

وهناك سؤال هام يواجهنا عند دراسة الشخصية ؟ .

هل هدفنا الإحاطة فهما واستيعاباً بتنظيم أو نمو تلك الشخصية الفريدة التى تواجهنا فى مواقف الحياة عندما يكون أمامنا زيد أو عمرو ؟ أم أن هدفنا هو البحث عن القوانين التى تفسر تنظيم الشخصية ونموها أو بعبارة أخرى هل هدف علم النفس هو الوقوف عند الشخصية الفردية لمحاولة فهمها ؟ أم ان هدفه تجاوز الشخصية الفردية للوصول إلى القوانين العامة المفسرة للشخصية بوجه عام ؟

إن منسلك الشعراء والأدباء والفنانين وذوى التفكير الرومانتيكى هو أن يقفوا أمام الشخصية الفريدة ، يحللونها ، ويلقون الأضواء على ملامحها ، وميزاتها ، ومثالبها ، ولا يودون أن يتركوا هذه الشخصية الفريدة قبل أن يأتوا على كل ماتحتويه من ملامح فريدة ، وخصائص نادرة ، كما أنهم ، عند تصويرهم لهذه الشخصية الفريدة يقدمون لنا نموذجا من التصوير الأدبى أو الفنى فريداً أيضاً فى تعبيراته ومصطلحاته .

ولا يقتصر الأمر على الأدباء والفنانين فى انتحاء هذا المنحى،وسلوك هذا المسلك بل يشاركهم فيه بعض من يتناولون الشخصية بالدراسة والبحث .

وأما وجهة النظر المقابلة فهى وجهة النظر العامة التى تحاول الوصول إلى قوانين عامة متخطية الخصائص الفريدة والملامح النادرة . ويتم ذلك عادة بدراسة أعداد كبيرة من الشخصيات ، ومحاولة التعرف على ما بينها من أوجه شبه وإختلاف ، ثم صياغة القوانين العلمية العامة التي تحكم تشكيل الشخصية بحيث تأخذ هذه الصورة أو تلك من الصور الفريدة .

والواقع أن كلتا النظرتين : العامة والفردية ضروريتان فى العلم ، وهما حلقتان

مكملتان إحداهما للأخرى . فالنظرة العامة يأخذ بها العلم الأساسى* الذى يحاول الوصول إلى القوانين العلمية العامة ، أما النظرة الفردية فيأخذ بها العلم التطبيقى** الذى يحاول الإستفادة من نتائج وقوانين العلم بتطبيقها على فهم وتناول الحالة الفردية.

فمهمة علم الشخصية إذن دراسة الحالات العديدة بهدف الوصول إلى القوانين العامة التى تفسر مظاهر السلوك المختلفة . وبالاعتماد على هذه النتائج يقوم البناء النظرى للعلم ، الذى ينظم تصوراتنا للشخصية . وبعد ذلك يأتى دور التطبيق التكنولوجى الذى يعتمد على القوانين النظرية للعلم فى فهم الحالات الفردية والتنبوء بسلوكها ومحاولة تغييره .

كيف تتشكل الشخصية ؟

يولد الطفل كائناً حياً تنحصر علاقته مع البيئة فى جوانب محدودة تنحصر أساساً فى التغذية والإخراج . ولكن سرعان ما تكتسب البيئة الاجتماعية المحيطة بالطفل أهمية بالغة . فالأم تقدم للطفل الطعام والراحة والدفء ، فيرتبط وجودها شرطياً بإرضاء حاجات الطفل ، ويصبح وجودها فى حد ذاته مطلباً هاماً عنده . كذلك الأب والراشدون المحيطون بالطفل يداعبونه ، ويعطونه الاهتمام .. ويكتسبون أيضا مع الأم أهمية كبيرة فى الحياة النفسية للطفل .

هذه البيئة الاجتماعية المحيطة بالطفل منذ الميلاد — وهى الأم والأب أساساً — يمكن النظر إليها باعتبارها ممثلة للمجتمع الأكبر تحمل قيمة ومثله ، تقاليده وعاداته. ومن خلالها يحاول المجتمع أن يشكل الطفل الوليد حسب النماذج التى يرتضيها المجتمع . فبعض التصرفات التى تصدر عن الطفل يشجعها المجتمع ويدعمها ، وبعضها يرفضها المجتمع ويعاقبها ولا يتقبل وجودها لدى الطفل .

الطفل إذن متعلق بالبيئه المحيطة به لبقائه البيولوجى ورضائه النفسى والبيئة تحاول أن تشكل هذا الطفل حسب نماذج موضوعة مسبقاً . حتى إذا شب الطفل عن الطوق

(*) العلم الأساسى : basic science
(**) العلم التطبيقى : applied science

وخرج إلى أترابه يلعب معهم وجد أن هناك قواعد تحكم اللعب والصراع ، وعندما يلتحق الطفل بالمدرسة ، يكون وجها لوجه أمام ثقافة المجتمع ومعلميه الذين يحاولون جاهدين تشكيل سلوكه وتصرفاته وتكوين فكره ومعاييره وقيمه . فإذا خرج الطفل من مدرسته واجه المؤسسات الاجتماعية الأخرى: الإعلامية ، والعقابية ، والترفيهية.. وغيرها.. كلها تحمل طابع المجتمع تقدمه للفرد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، عنيفة أو هادئة ، قاصدة أو عفوية .. هذه العملية الضخمة التى تستمر شطراً عظيماً من حياة الفرد هى ما يسمى بعملية التطبيع الاجتماعى (*) . ومن خلال عملية التطبيع الاجتماعى يشكل المجتمع أفراده حسب المعايير والقيم السائدة فى المجتمع . على أننا ننبههنا إلى التفاعل الذى يحدث بين البيئة كما تتمثل أساساً فى عملية التطبيع الاجتماعى ، وبين الوراثة ، حيث يرث الفرد جهازاً عصبيا وبناء جسميا له خصائص معينة . فيكون الفرد فى النهاية محصلة للتفاعل الذى يحدث بين خصائصه الموروثة ، وبيئته التى نما فيها .

ويتعلم الفرد خلال عملية النمو أن يسلك ويتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع . ويقبل الفرد قيم المجتمع ومعاييره دون تفكير كثير ، ودون وعى بأن هذه القيم والمعايير تختلف من مجتمع إلى آخر . فإذا كان المجتمع الذى نعيش فيه يقيم النظافة والسرعة والعمل الجاد ، فإننا نحاول أيضا أن نتحلى بهذه الخصال ، ويصبح الأفراد الذين يتحلون بها موضع تقديرنا وإعجابنا .

ومن أبرز التأثيرات التى تتركها الثقافة(**) على الفرد. فمنذ بداية الحياة يولد الولد (الذكر) فيعطى دوراً جنسياً ذكورياً ، والأنثى تعطى دوراً جنسياً أنثوياً . وتختلف متطلبات الدورين من حضارة إلى أخرى . والدور الاجتماعى المميز للجنس قوى جداً لدرجة أن البعض يظنه راجعاً إلى الطبيعة البيولوجية للذكر والأنثى . لكننا إذا دققنا النظر نجد أن الكثير من خصائص الدور الاجتماعى المميز للجنس يرجع إلى تأثير الحضارة التى يولد فيها الفرد .

وهناك أدوار اجتماعية أخرى نختارها نحن بإرادتنا ، ولكن المجتمع يشكل هذه الأدوار . ومن أمثلة هذه الأدوار : المهنة . فلكل مهنة من المهن دور اجتماعى

(*) التطبيع الاجتماعى : socialization ؛ (**) ثقافة : culture

خاص بها . فنجد أن هناك ملابس خاصة ولغة خاصة ، وأساليب مميزة فى التصرف وقيم ومعايير مميزة للمهن المختلفة نجد أن هناك مثلا رداءاً خاصا لرجل الدين يختلف عن رداء الضابط وهما يختلفان عن رداء الجرسون فى النادى، وعن رداء العامل فى المصنع . ولا يقتصر الدور على الملابس بل يمتد إلى قيم العمل وأساليب الكلام والتعامل مع الآخرين ، والاتجاهات الاجتماعية . والتعليم أو التدريب الذى يمر به الفرد قبل اشتغاله فى المهنه لا يعلمه فقط المهارات الفنية للعمل ، بل يعلمه أيضاً الدور الاجتماعى لذى يتصل بالمهنة . (٩) .

وهذه الأدوار الاجتماعية تمكننا من التنبؤ بسلوك الأفراد فى المواقف التى يمارس فيها الدور الاجتماعى . فنحن نستطيع أن نتنبأ بسلوك الراشدين فى إحدى الحفلات أو فى مباراة للكرة ، أو فى العمل ، أو فى غيرها من المواقف . وإذا كنا لا نجد أن كل فرد يشبه الآخر تماماً فى تصرفاته المتصلة بدور معين ، فإنما يرجع ذلك لوجود فروق فردية تحد من تأثير التطبيع الاجتماعى .

ولذلك نجد أن هناك أفراداً قلائل لا يشبهون المجموع العام ، أما الأغلبية العظمى من أفراد المجتمع فهم أكثر التصاقاً بالنموذج العام . ولعل ذلك يوحى بوجود طابع مميز للشخصية يميز شخصيات الأفراد فى كل مجتمع من المجتمعات . فنجد أن الطابع الغالب الشخصية فى أحد المجتمعات هو العدوانية بينما نجد أن الطابع الغالب فى مجتمع آخر برود الأعصاب وفى مجتمع ثالث السلبية .. ويتمشى ذلك مع الأفكار الشائعة عن الطابع القومى(*) ، فيقال مثلا إن الفرنسيين يختلفون عن الانجليز، وهؤلاء يختلفون عن الصينيين ، وأولئك عن العراقيين أو الهنود ... الخ . ولكن يلاحظ أنه رغم الضغوط الإجتماعية التى تحاول أن تفرض التشابه والتماثل بين أفراد المجتمع ، فإن هناك عوامل أخرى تقلل من درجة التشابه ، وتزيد من تمايز الأفراد . منها الخبرات الخاصة التى يمر بها الفرد ، ومنها الفروق بين الآباء فى قيمهم وفى أساليبهم التربوية .

فما لا شك فيه أن الرصيد الوراثى لأى فرد يختلف عما لدى غيره من الأفراد (إذا استثنينا التوائم المتماثلة(**). فاستجابات الشخص للمواقف تتأثر بخصائصه الوراثية ،

(*) الطابع القومى : national character

(**) التوائم المتماثلة : identical twins

من بيئة جسمية ، إلى ذكاء ، إلى قدرات عقلية ، إلى خصائص انفعالية . ومن خلال احتكاك الفرد بالمجتمع يحدث تفاعل بين هـذه الخصائص الوراثية والظروف البيئية ومن خلال التربية وأساليب الثواب والعقاب يتعلم الطفل أساليب السلوك المقبولة اجتماعياً ويتعلم الطفل أيضاً أن ينشد رضاء من حوله ويتحاشى عدم رضائهم . وبعد ذلك يبدأ الطفل يشعر بأنه مسئول ، ويتمثل معايير الجماعة التى يعيش فيها ، ليتخذها بعـد ذلك هادياً له فى سلوكه ليكسب رضاء من حوله ويتجنب غضبهم ، أو ليرضى ذاته التى أصبحت تؤمن بمعايير الجماعة ، وليتجنب تأنيب الذات . وعندئذ يكاد يصبح الفرد صورة من النموذج الذى ينشده المجتمع .

وبالطبع هناك من يخرجون على هذا النموذج العام لأسباب متعددة فهناك المبدع الذى يثور على المعايير السائدة لأنه يرى ما هو أفضل منها ويتمنى لو طور مجتمعة لما هو أفضل . وهناك السيكوباتى الذى لايستطيع أن يتعلم قيم مجتمعه ومعايره لأنه عاجز عن التعلم والاستفادة من التجارب . والفرق بينهما أن الأول يشعر بالمسئولية إزاء المجتمع أما الثانى فلا يشعر بالمسئولية إزاء شيء من الأشياء .

بناء الشخصية :

كان حديثنا حتى الآن — ينصب على كيفية تكون الشخصية من خلال التفاعل بين الرصيد الوراثى الذى يأتى به الكائن البيولوجى إلى الحياة وبين الخبرات والمؤثرات البيئية . وننتقل الآن إلى الحديث عن بناء الشخصية(*) . وفى هذه الحالة نكون فى موقف من يأخذ قطاعاً عرضياً من الكائن ويضعه تحت المجهر ليرى تفاصيله ومكوناته وما بينها من علاقات أو تقسيمات .

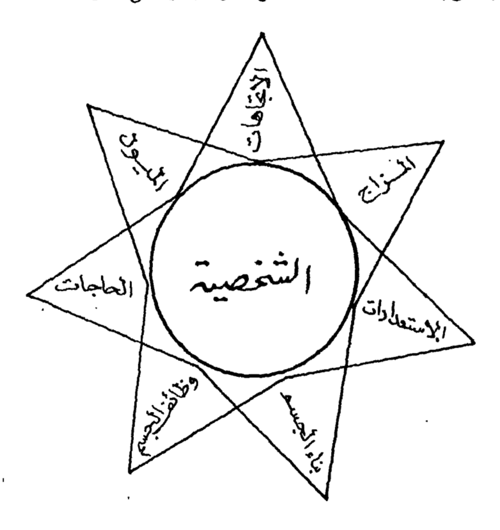
والمفهوم الأساسى فى بناء الشخصية هو مفهوم السمة (**) . والسمة هى صفة أو خاصية للسلوك تتصف بقدر من الاستمرار ويمكن ملاحظتها أو قياسها . فالعدوانية سمة والخوف من الكلاب سمة والأمانة سمة والشجاعة سمة .. إلى آخر خصائص السلوك وصفاته الأخرى . وتحتوى اللغة عادة على آلاف الكلمات التى يصلح كل منها لأن نعتبره سمة من سمات السلوك . لكننا ننبه هنا إلى أنه يوجد بين كلمات اللغة قدر كبير

(*) بناء الشخصية : Personality structure

(**) سمة : trait

جد من التداخل والترادف والتضاد ، بحيث أنه يمكن إختزال العدد الكبير من السمات إلى عدد محدود . ويتم ذلك الاختزال باستخدام الأساليب العلمية من قياس إلى تحليل إحصائى فيؤدى ذلك إلى ما يسمي بالأبعاد الأساسية للشخصية .

وهناك أنواع متعددة من سمات الشخصية ، يصنفها جيلفورد فى سبع فئات على النحو الذى يوضحه الرسم رقم (٤ — ١) وهو يبين الشخصية كـكل متكامل يمكن النظر إليه من إتجاهات مختلفة (8) والفئات التى يذكرها جيلفورد على النحو التالى :



شكل (٤-١) يمثل الفئات المختلفة من سمات الشخصية
(عن جيلفورد)

١ – بناء الجسم(*) : وهى السمات المتصلة ببناء الجسم أو الملامح كالطول والوزن واللون .. الخ .

٢ – وظائف الجسم(**) : وهى السمات المتعلقة بأداء الوظائف العضوية كسرعة النبض وحرارة الجسم .. الخ .

ويميز جيلفورد بين ثلاثة أنواع من السمات الدافعية ، وكلها تتعلق بالأشياء التى تناضل للحصول عليها وهى :

٣ – الحاجات(***) : وهى رغبات ملحة للوصول إلى ظروف معينة ، كالحاجة لأن يكون الشخص موضع إهتمام الآخرين ، أو إحترامهم أو الحاجة إلى الراحة .

٤ – الميول(+) : وهى رغبات طويلة الأمد فى الانغماس فى أنواع معينة من النشاط ، مثل العمل اليدوى أو التفكير أو النقاش مع الآخرين .

٥ – الاتجاهات(++) : وهى السمات المتعلقة باتجاهات الشخص نحو الموضوعات أو المسائل الاجتماعية .

٦ – الاستعدادات (*+) : وهى تتعلق بالقدرات . والقدرات متنوعة ومتعددة ، وهناك قدرات عقلية كثيرة كما أن هناك قدرات جسمية متعددة .

٧ – المزاج(**+) : وهى السمات المتصلة بالثقة بالنفس أو المرح أو الاندفاع أو القلق .

كيف نتوصل إلى فكرة السمة :

يعرض لنا جيلفورد التخطيط المنطقى الذى اقترحه كل من كار وكنجز بيرى Garr & Kingsbury لوصف الطريقة التي نتوصل بها إلى فكرة السمة وإلى تسميتها . ويتضمن هذا التخطيط ثلاث مراحل أو خطوات تتبع بطريقة ضمنية أكثر منها صريحة .

(*) بناء الجسم : morphology
(**) وظائف الجسم : physiology
(++) الاتجاهات : attitudes
(*+) الاستعدادات : aptitudes
(***) الحاجات : needs
(+) الميول : interests
(**+) المزاج : temperament

وتأتى أول هذه الخطوات مباشرة من ملاحظة السلوك · فنحن نلاحظ أن الناس يختلفون بطرق معينة فى الأشياء التى يعملونها وفى الأساليب التى يعملونها بها. فنلاحظ أن إحدى الصفات شائعة بين أشكال مختلفة من السلوك وتظهر بدرجات مختلفة . وتوصف هذه الخاصية بصيغة الحال ، فنقول أن أحد الأشخاص قد تصرف بحذر أو بثقة أو بكرم أو بسرعة · وعند هذه المرحلة تنسب الصفة للسلوك وليس للشخص ·

والخطوة التالية هى استخدام الصفة لوصف الفرد الذى يصدر عنه التصرف · وعند هذه المرحلة يوصف الفرد بصيغة الوصف وليس بصيغة الحال · فنقول أن هذا الشخص حذر أو واثق من نفسه أو كريم أو سريع . وهنا تكون الصفات قد انتقلت منطقياً من الفعل إلى الفاعل . والفعل أو التصرف نفسه شىء عابر ، وعندما ينتهى يدخل فى عداد التاريخ الماضى · أما الشخص فيبقى بعده ، ونحن بعد ذلك نعمم الوصف فنستخدمه على أساس أكثر دواما · فالشخص موجود هنا قبل التصرف ، كما أنه هنا أيضاً بعد التصرف . وفى خبرتنا العادية نجد أن الناس يتصرفون بقدر من الاتساق ، وعندما نرى نوعاً من السلوك يصدر عن الشخص مرة ، فاننا نميل لأن نتوقع منه سلوكاً مشابهاً فى المرات التالية · وإذا تكررت ملاحظاتنا لنفس السلوك مرة ثانية وثالثة وهكذا — فانه يكون لدينا تأكيد لوصفنا للشخص . وحتى عندما توجد استثناءات ، فاننا نقبل الوصف على أساس أنه ينطبق بالنسبة لأغلب التصرفات .

والخطوة المنطقية الثالثة ليست خطوة طويلة · فبعد تقرير أننا قد نصف شخصاً لاحظنا سلوكه ، واستنتجنا صفات تنتمى إليه ، نشير إلى الخاصية على أنها شىء ونعطيها صيغة الأسماء . فنقول أن لدى الشخص سمة الحذر أو الثقة أو الكرم أو السرعة · والأسماء ماهى إلا أسماء لتجريدات . · ويعارض بعض علماء النفس معارضة قوية إعطاء أسماء للتجريدات التى من هذا النوع ، كما لو كنا نفكر فى هذه التجريدات على أنها شىء موضوعى ، وربما شىء يمكن لمسه وملاحظته مباشرة · ومع ذلك فينبغى ألا يضايقنا إستخدام الأسماء فى وصف السمات طالما كنا متنبهين للأساس المنطقى لهذه الأسماء ·

والسمات السلوكية هى خصائص للشخص تتصف بطابع الاستمرار · وتجعلنا نتوقع صدور أنواع معينة من السلوك عن الشخص ، وعدم توقع أنواع أخرى واستمرار السمة السلوكية قد يعتمد على نفس النوع من الآليات التى يعتمد عليها استمرار إحدى العادات أو الاستجابات الشرطية ·

ويستخلص جيلفورد بناء على هذه المناقشة فكرة هامة هى أن السمات لاتلاحظ ولكن الذى يلاحظ هو السلوك ، ومن ملاحظته يستدل على السمات،ويطلق جيلفورد على السلوك الذى يلاحظ ويشير إلى وجود السمات اسم مؤشر السمة(*)

وتنتقل الآن إلى مناقشة أهم خصائص السمات .

عمومية السمات ونوعيتها :

من أهم القضايا التى أثارت الجدل بين علماء النفس قضية : عمومية ونوعية السمات(**)فهل سمات الشخصية عامة عبر مظاهر عديدة من السلوك ، أم أنها نوعية تختص بمجالات محددة جداً من السلوك · وقد استمدت دعوى نوعية السمات قوتها من عدة مصادر عرض لها أيزنك عرضاً مفصلا (6) نوجزه فى السطور التالية :

المصدر الأول الذى اعتمدت عليه دعوى نوعية السمات هو نظرية التعلم بحسب ثورنديك التى تتصور التعلم باصطلاحات الروابط بين المنبه والاستجابة الشرطية على طريقة رد الفعل أو الاستجابة الشرطية بمعنى أن السمة رابطة بين منبه واستجابة ·

والمصدر الثانى هو مشكلة انتقال أثر التدريب، حيث يقرر ثورنديك أن أى انتقال لأثر التدريب لايرجع إلى أية ملكات عقلية واسعة وإنما يرجع إلى اشتراك أوجه النشاط الأصلية ، والتدرب عليها فى عناصر متماثلة وهى نظرية العناصر المتماثلة(+)

(*) مؤشر السمة : trait indicator

(**) عمومية ونوعية (السمات) : specifity & generality

(+) نظرية العناصر المتماثلة : theory of Identical elements

والمصدر الثالث هو نتائج بحوث هارتشون وماى Hartshorne and May التى أجروها على الأطفال . فقد وجد أن الأطفال الذين كانوا أمناء أو مثابرين أو متعاونين فى أحد مواقف الاختبار لم يكونوا كذلك فى مواقف أخرى . وانتهوا إلى أن الصفات المزعومة للأمانة أو المثابرة أو غيرها ليست إلا « مجموعات من العادات النوعية وليست سمات عامة » .

على أن هذه المصادر الثلاثة قد وجهت إليها إنتقادات علمية قوية . فمثلا نظرية المنبه والاستجابة فى التعلم عارضها العلماء ذوو النظرة الجشطلتية ، أو المتأثرون بهذه النظرة كما عارض بعض علماء النفس وعلى الأخص ألبورت فكرة العناصر المماثلة فى انتقال أثر التدريب ، على أساس غموض فكرة العناصر ، كما هاجم أيضاً فكرة التماثل المزعوم بين العناصر .

ووجه أيزنك بدوره انتقادات شديدة إلى استنتاج نوعية السمات بناء على نتائج بحوث هارتشورن وماى .

فأولا : وجد هارتشورن وماى أن الطفل الذى يسلك بطريقة غير أمينة فى أحد المواقف لا يلزم بالضرورة أن يسلك بطريقة غير أمينة فى موقف آخر ، ويستنتجان أن الأمانة ليست سمة عامة ، ولكنها نوعية بالنسبة لكلا الموقفين . ويرى أيزنك أن هذا الاستنتاج ليس سليماً ، فمثلا نلاحظ فى اختبارات الذكاء أن الطفل قد يفشل على أحد بنود اختبار الذكاء وينجح على بند آخر ، ورغم ذلك فإننا لانستنتج أن الطفل يسلك بطريقة غير متسقة . كذلك فهناك أيضاً درجات من الأخلاقية ، ومن قوة الاغراء إلى غير ذلك .

ثانياً : لوحظ أنه فى الوقت الذى يظهر فيه بعض الأطفال السمة المفترضة ، ولا تظهر لدى بعض الأطفال الآخرين على الإطلاق ، فإن غالبية الأطفال تظهر لديهم السمة احياناً ، ولا تظهر أحياناً أخرى . وبناء على ذلك فإن السمة تنطبق فقط على عدد

قليل من الحالات : أولئك الذين تظهر لديهم السمة بصورة متسقة ، وأولئك الذين لا تظهر لديهم السمة ، بصورة متسقة أيضاً . ويرد أيزنك على ذلك بأننا إذا تصورنا أن الأمانة تشكل امتداداً(*) فعندئذ نجد أن أكثر الناس أمانة لن يغش أبداً بالفعل ، وأقل الناس أمانة سيغش دائماً ، بينما نجد أن معظم الناس سيظهرون السمة أحياناً ولا يظهرونها أحياناً أخرى ، وبذلك تنعكس فى تصرفاتهم درجات متوسطة من الأمانة حسب درجة الإغراء ودرجة الأخلاقية لدى الشخص .

ثالثاً : يذكرها رتشورن وماى أنهما وجدا معاملات ارتباط إيجابية منخفضة جداً بين الاختبارات المختلفة التى تقيس نفس الصفات . ولكن بمجـــــرد الحصول على معاملات ارتباط إيجابية أعلى من الصفر ولو صغيرة يناقض دعوى نوعية السمات .

رابعا : أن هارتشورن وماى استخدما فى بحثهما عن عمومية السمات مفاهيم اجتماعية وأخلاقية ، ويرى أيزنك أنه حتى ولو أظهرت الصفات المختارة أنها نوعية تماما فإنه لا يترتب على ذلك أن الصفات النفسية الأكثر أصالة ستكون نوعية . فبحث هذه الصفات ليس أنسب طريقة للإجابة عن سؤال العمومية والخصوصية .

خامساً : إن انخفاض معاملات الارتباط التى وجدها هارتشورن وماى يرجع إلى استخدامهما لعينة من الأطفال الصغار السن . ولو تكرر إجراء البحث على عينات من المفحوصين الأكبر سناً لتوقعنا بكل تأكيد معاملات ارتباط أعلى ، حيث تكون القيم قد تكونت وتبلورت .

والواقع أن السمات تتفاوت فى مدى عموميتها ، فبعض السمات تفصح عن نفسها فى كل شىء يعمله الشخص تقريباً ، بينما هناك سمات أخرى تظهر فى مدى محدود فقط من السلوك . ويذكر جيلفورد (8) أمثلة من السمات ذات العمومية العريضة كالعصبية(**) ، ومستوى النشاط العام ، وضبط النفس ، بينما يذكر كأمثلة للسمات

(*) امتداد : Continuum

(**) العصبية : nervousness

ذات العمومية المحدودة نسبياً : التحمل ، والإهتمام بالفن والمودة ، كذلك يذكر أمثلة لسمات ذات عمومية أضيق من ذلك كالخجل من الظهور على المسرح ، والخوف من قطعة معينة .

ويلاحظ أيضاً أنه يوجد تفاوت فى مدى عمومية السمة الواحدة من فرد لآخر . كذلك يختلف شكل هذه العمومية أو طرازها من فرد لآخر . ويعنى ذلك أن هناك تفاوتا بين الأفراد فى عدد المظاهر التى تتضح فيها السمة ، كما أن هناك تفاوتاً بينهم فى نوع المظاهر التى تتجلى فيها السمة ، فقد تظهر لدى أحد الأفراد فى شكل معين من السلوك بينما تظهر لدى فرد آخر فى شكل آخر أو مظاهر أخرى . إلى جانب ذلك نجد أيضاً أن هناك سمات تتصف بالترابط القوى بين مظاهرها المختلفة ، بينما توجد سمات أخرى تتصف بضعف الترابط بين مظاهرها .

وقد حدت هذه الفروق بين السمات بالبعض (مثل ألبورت) إلى أن يقول بأنه لا يوجد شخصان يتصفان بنفس السمة . إلا أن الحقيقة كما يقول جيلفورد هى أنه « رغم كل الطرق التى يمكن أن تختلف فيها نفس السمة لدى الأشخاص المختلفين ، فهناك بعد كل شىء لب مشترك إن لم تكن السمة هى هى نفسها » .

ونلاحظ أن عمومية السمات تتأثر بعوامل متعددة مثل العمر ، ومثل الصحة النفسية ، والمرض النفسى ، حيث أن هذه العوامل بما تحمله من مؤثرات قد تجعل السمة عامة شاملة لأكبر قدر من مظاهر السلوك ، أو تجعلها تنحسر فلا تغطى إلا قطاعاً ضيقاً فقط من السلوك .

وتدخلنا مشكلة عمومية ونوعية السمات فى قضية بالغة الأهمية هى قضية التنبؤ العلمى . فإذا عرفنا أن فلانا يتصف بسمة معينة ، فإلى أى حد يمكننا التنبؤ بسلوكه فى المستقبل ؟

عندما نحاول التنبؤ بسلوك معين ، فإن معرفة سمات الشخص ، ومدى عمومية هذه السمات معرفة ضرورية ، ولكن إلى جانب ذلك لابد أن نحيط علماً بالمؤثرات

الأخرى على سلوكه والتى تمتد من الظروف الفيزيقية والمادية من حوله إلى الظروف الاجتماعية العامة ، والضغوط التى تمارسها عليه الجماعات الصغيرة التى ينتمى إليها ، إلى حالته البيولوجية والفيزيولوجية عند صدور السلوك .

وهذه الشروط رغم تعددها ، وتنوعها لاتضعنا أمام المستحيل ، بل على العكس تفتح أمامنا آفاقا نحو الوصول إلى تنبؤات علمية دقيقة ، وإلى صياغة معادلات مناسبة للتنبؤ بالسلوك تأخذ فى اعتبارها مختلف العوامل المؤثرة على السلوك . وبذلك يمكن الوصول إلى أعلى مستوى ممكن من دقة التنبؤ .

وبالنسبة لشكل توزيع السمات المزاجية ، فإنها تأخذ شكل المنحنى الاعتدالى مثلها فى ذلك مثل معظم السمات الأخرى كالذكاء ، والقدرات الحركية ، والاستعداد الميكانيكى .. .. .. الخ . ولذلك فلا تخدعنا التعبيرات القطبية عن السمات مثل : انطوائى ـ انبساطى أو اجتماعى ـ انعزالى . وأدق تصوير للسمات هو أنها تشبه امتدادا أو تدريجا ويمكن وضع كل شخص عند نقطة على هذا الامتداد . ويعبر ستاجنر عن هذه الفكرة تعبيراً جيداً عندما يقول « تماماً كما أننا لانصنف سرعة تدفق الماء فى فئتين : سريع وبطىء ، بل نلجأ إلى مقاييس عددية للسرعة ، فأيضاً سنستخدم ـ كلما تيسر ذلك ـ تقديرات عددية لمدى اتصاف أحد الأفراد بأسماء السمات » (11)

وتوجد فى اللغة آلاف الكلمات التى تشير إلى خصائص أو صفات سلوكية . وفى اللغة الانجليزية ـ كما يذكر ألبورت ـ يوجد حوالى ١٨٠٠٠ مصطلح تشير كلها إلى أشكال مميزة وشخصية من السلوك (١) وفى اللغة العربية نتوقع أن نجد عدداً أكبر بالنظر إلى ماتتصف به هذه اللغة من غزارة فى الكلمات ، وإرهاف فى المعانى .

وإذا كان مفهوم السمة يغطى نطاقا من السلوك ، فإن هناك مفهوماً آخر أكثر عمومية من مفهوم السمة وهو مفهوم النمط(*) . ولهذا المفهوم تاريخ أقدم من مفهوم

(*) نمط : type

السمة ، ولذلك فقد علقت به بعض الأفكار الشائعة التى تحتاج إلى مناقشة وتفنيد لما قد يعتورها من خطأ ، حتى يستقر للمصطلح معناه العلمى .

ويرجع الحديث عن الأنماط إلى عهد أبقراط Hippocrates وجالينوس Galen وربما أقدم من ذلك . وتبعهم فى الحديث عنها فلاسفة العرب كابن سينا مثلا . وقد قسم هؤلاء الأمزجة إلى أربعة : السوداوى ، والدموى ، والبلغمى ، والصفراوى ، لكل منها خصائصه ، وهى توازى فى تصورهم العناصر الأربعة فى الطبيعة : التراب ، والنار ، الماء ، والهواء . ونجد كانت E.Kant يقول « هناك أربع وأربع فقط من الأمزجة البسيطة » .

ويضع جوردان Jordan نمطين متقابلين دون أن يفقد رؤية الحقيقة التى تشير إلى أن هناك درجات وسطى أيضاً . وهذان النمطان هما : النمط التأملى (*) والنمط النشيط ويغلب على النمط التأملى فى رأيه أن يكون أكثر وجدانية (emotional) من النمط النشيط . (ويوحد يونج Jung النمط النشيط بالمنبسط والنمط التأملى بالمنطوى)

وقدم الطبيب النمساوى أوتو جروس Otto Gross مفهومى الوظيفة الأولية والوظيفة الثانوية وهما مفهومان فزيولوجيان فى أساسهما ، ويشيران على الترتيب إلى نشاط خلايا المخ اثناء إنتاج أى شكل من أشكال المضمون العقلى ، وإلى القصور الذاتى المفترض للعمليات العصبية المتضمنة فى هذا الإنتاج . وافترض جروس أن هناك ارتباطا بين شدة أى خبرة ، وميل هذه الخبرة لأن تلح (وتستمر) ثانويا ، وأن تحدد المسار التالى من الارتباطات العقلية .

وعلى أساس قابلية الشخص لتنمية عواطف قوية يميز جروس بين نمطين : الضيق العميق ، والواسع — السطحى ، بحسب مقدار ما يحمله الشخص من عاطفة ووجدان وما يستهلكه من طاقة عصبية كبيرة ، وما يتصف به من قصور ذاتى لهذه المشاعر .

(*) النمط التأملى : reflective type

ويوحد يونج النمط الواسع — السطحى مع النمط الانبساطى ، بينما يوحد النمط العميق — الضيق مع النمط الانطوائى . ويعطى يونج وصفامستفيضنا لسمات الشخصيه التى تميز كلا من الشخص المنطوى والشخص المنبسط . فالشخص المنبسط يبرز كشخص يعطى قيمة للعالم الخارجى ، فى كل من مظاهره المادية وغير المادية ، وهو ينشد رضاء المجتمع وموافقته ويغلب عليه مجاراة تقاليد مجتمعة ، وهو اجتماعى يكون الأصدقاء بسهولة ، كذلك فهو يثق بالآخرين ، ويظهر نشاطا جسمياً خارجيا . وهو ميال للتغيير يحب الأشياء الجديدة والناس الجدد ، والانطباعات الجديدة ، وتستثار انفعالاته بسهولة دون عمق على الاطلاق ، وهو نسبياً غير حساس ، وغير شخصى وتجريبى ومادى ، ومسيطر ... وهذه القائمة من السمات ترتبط معا لتكون وتحدد النمط المنبسط فى رأى يونج .

ويربط يونج هذا التمييز لنمط الانطواء — الانبساط بتمييز آخر تبناه بيير جانيه بين الاضطرابات العصابية الرئيسية . فالمنبسط يكون فى حالة الانهيار العصابى مهيأ للهستيريا . بينما الانطوائى يكون فى حالة اضطرابه نفسيا مهيأ للسيكاسيتنيا .. أو ما يطلق عليه حاليا الانهباط الرجعى(*) . وبناء على الدراسات التجريبية اقترح ايزنك اطلاق اصطلاح الديستميا (**) على هذا النوع من الاضطرابات الوجدانية المترابطة معا . ونلاحظ فى هذا الصدد أن يونج يؤكد استقلال نمط الانطواء عن نمط العصابية .

ويتحدث كرتشمر عن نمطين : الدورى(+) والانفصامى(++) ويشبه وصف كرتشمر للنمط الدورى وصف النمط الانبساطى ، بينما يشبه وصفه للنمط الانفصامى وصف النمط المنطوى . ويمكن أن يستنتج من كتابات كرتشمر بعد آخر يمتد من السواء إلى الذهانية (×) متعامد على بعد الدورية — الفصام . ويلاحظ أن كرتشمر قد حاول أن يربط أنماطه بأساس يقوم على تصنيف البناء الجسمى إلى أنماط .

(*) الانهباط الرجعى : reactive depression

(**) الديستميا : dysthymia

(+) الدورى : cyclothyme

(++) الفصامى : schizothyme

(×) الذهانية : psychoticism

ويوجه البعض نقدا عنيفا إلى الأنماط على أساس أنها « عبارة عن صور غامضة للشخصية . . نجدها باستمرار متداخلة ، وإلى جانب كونها غامضة ومتداخلة فإنه من الصعب أن نثبت وجودها . . . إذ أن إمكانية تحقيق الشيء واختبار صحته تتوقف على مدى الدقة في تحديده . . هذا إلى أن التقسيم إلى أنماط ثنائية على هذا النحو لايتناسب مع ما عليه الشخصية الانسانية من وفرة وثراء في السمات » . (م . ع . اسماعيل ، ١٩٥٩ ، ص ٣٧) .

وهذه الانتقادات تقوم على أساس تصور شائع عن نظريات كرتشمر ويونج فكرتشمر هو « ذلك العالم . . . الذي أدت دراسته هذه إلى تقسيم الناس إلى نمطين من الشخصيات » . (المرجع السابق ص٣٢) ، كما أنه « يعتبر يونج وكرتشمر من الذين ساعدوا على نمو هذا التنظيم الثنائي » .

وهذا التصور الشائع لايصور بدقة كتابات وآراء هذين العالمين . فعند حديث يونج عن الانطواء والانبساط يقول « يمتلك كل فرد كلا من ميكانيزمي الانطواء والانبساط ، والقوة النسبية لأحدهما مقارنا بالآخر هي وحدها التي تخلق النمط . . . . والذي يميز الشخص السوي هو تبادل ايقاعي لهاتين الوظيفتين النفسيتين . . . . وكثيراً ماتحابي الظروف الخارجية أو الاستعدادات الداخلية أحد الميكانيزمين . . وتعوق الآخر أو تحد منه . ويؤدي هذا بطبيعة الحال إلى غلبة أحد الميكانيزمين على الآخر . وإذا ما أصبحت هذه الغلبة مزمنة ، لأي سبب من الأسباب ، فإننا نواجه عندئذ بالنمط ، أي بالغلبة المعتادة لأحد الميكانيزمين . . ولا يشير النمط إطلاقاً إلى أكثر من الغلبة النسبية لأحد الميكانيزمين . . ويترتب على ذلك أنه لا يمكن أبداً أن يكون هناك نمط نقي ، بمعنى أن أحد الميكانيزمين متغلب على الآخر تماماً إلى درجة استبعاده » (6) .

ويعلق أيزنك على موقف يونج قائلا : « صراحة أن وصفه يجري باصطلاحات الأنماط النموذجية أي الأفراد المنطوين تماماً أو المنبسطين تماماً ، ولكنه يؤكد مراراً

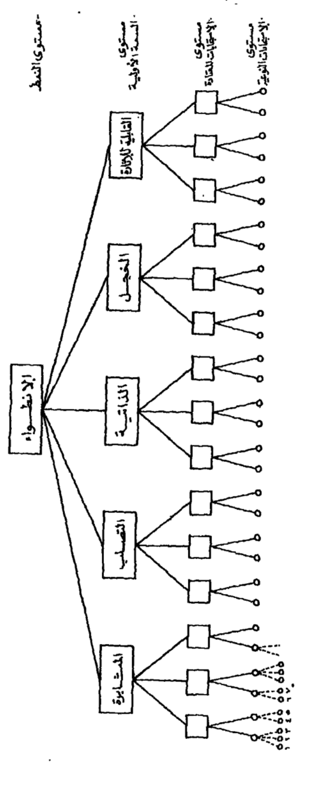
وتكراراً أن هذه تجريدات ، بنفس المعنى الذى نجد به أن قوانين نيوتن للحركة تجريدات نموذجية ، وليست مما نجده فى التجربة الفعلية » (Ibid, P. 12) .

أما كرتشمر فيقول « أن الطبيعة . . لا تعمل أبداً بتناقضات حادة ، أو بتحديدات محكمة ، وهى التى نستمدها من تفكيرنا نحن ، ومن حاجتنا إلى الفهم . ففى الطبيعة نجد أن الانتقالات المرنة هى القاعدة ، ولكن لا يصح أن يقول قائل بأنه فى هذا البحر اللانهائى من الأشكال الأمبيريقية المرنة ، لا يمكن رؤية شىء واضح وموضوعى ، بل الأمر على العكس تماماً . ففى مجالات بعينها تظهر التجمعات (الفئات) التى نواجهها مرة بعد أخرى ، وعندما ندرسها دراسة موضوعية ، نتحقق من أننا هاهنا نتعامل مع نقط بؤرية لمجموعات من الصفات يتكرر حدوثها ، أو لتركيزات من السمات .. وما نسميه رياضياً نقط الالتقاء البؤرية لمعاملات الارتباط الإحصائية ، نسميه بنثر أكثر وصفية بالأنماط الخلقية » (ibid. P. 12) .

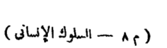
من هذا كله نرى أن النمط هو بعد (*) أو امتداد يمتد بين طرفين ، وأن الناس موزعون توزيعاً اعتدالياً على هذا البعد . ومن ثم فكل من النمط أو السمة عبارة عن مفاهيم تشير إلى أنواع أو فئات من السلوك ، هى التصرفات أو الأفعال النوعية أو العادات . والسمات والأنماط والعادات هى اللبنات الأساسية فى التصور العلمى لبناء الشخصية .

ويتفق علماء النفس على الصورة أو التنظيم الهرمى الذى يصور بناء الشخصية ، المكوّن من المفاهيم المستخدمة فى الوصف العلمى للسلوك . ويمثل الشكل رقم (٤—٢) التنظيم الهرمى للشخصيه إعتماداً على ما ورد عند كل من جيلفورد (8) وأيزنك (6) .

(*) بعد : dimension



شكل (٩-٥) رسم تخطيطي يوضح البناء الهرمي للسمات الشخصية عند المستويات المختلفة من العمومية



ويوضح هذا الرسم العلاقة بين المفاهيم المختلفة التى تستخدم فى وصف السلوك ، كما يوضح العلاقة بين السمات وبين المظاهر السلوكية التى يطلق عليها عادة مؤشرات السمة(*) ويوجد فى هذا الشكل أربع مستويات من تنظيم الشخصية .

وأدنى مستوى فى بناء الشخصية هو مستوى الاستجابات النوعية(**) وهى الاستجابات التى تكون قد لوحظت ذات مرة لدى الفرد ، وقد تكون الاستجابات مميزة للشخص ، أو لا تكون مميزة له .

والمستوى التالى هو مستوى الاستجابات المعتادة ، وهو أدنى مستوى تظهر عنده درجة من العمومية ومن التنظيم ، حيث نجد العادات التى من نطاق ضيق نسبياً . وتعتبر هذه العادات سمات محدودة ، ويستدل عليها من مجموعة صغيرة من الاستجابات النوعية . ولا يعنى تسميتنا لهذا المستوى بالاستجابات المعتادة أنها متعلمة بالضرورة ، فأنها قد تتضمن فى أصلها مؤثرات وراثية . ونحن نقول أنها استجابات معتادة ، لأنه يتكرر حدوثها أو ظهورها سواء فى مواقف الحياة العادية ، أو فى المواقف التجريبية كمواقف الاختبار .

وعند المستوى الثالث تنتظم الاستجابات المعتادة فى سمات ، وبالطبع يوجد بين هذه الاستجابات المعتادة عنصر مشترك يجعلنا نعمم ونقول أنها تشكل مظاهر تأتلف معاً فى سمة واحدة ، « فهذه السمات هى مفاهيم نظرية بنيت على أساس ما لوحظ من ارتباطات بين عدد من الاستجابات المعتادة المختلفة ، وبلغة التحليل العاملى ، قد يمكن تصورها على أنها عوامل طائفية(*) (٦) .

وعند المستوى الرابع ، نجد انتظام السمات فى النمط ، وهو هنا الانطواء . والنمط

(*) مؤشرات السمة : trait indicator

(**) مستوى الاستجابات : response level

(*) عوامل طائفية : group factors

هنا يؤخذ بمعنى مجموعة من السمات المرتبطة مع بعضها البعض ، وهو معنى قريب من مفهوم زملة الأعراض* Syndrome الشائع الاستخدام فى الطب النفسى .

ومن هنـا يتضح أن الفرق بين النمط والسمة هو فرق فى درجة العمومية ، لا أكثر وكلاهما عبارة عن بعد أو امتداد .

« وهذا النموذج المفترض للشخصية والمستدل من الخبرة الاكلينيكية ومن الاستبصار السيكولوجى المرهف يتلائم كما يقول « أيزنك » تلاؤماً كاملا تقريباً مع النموذج الإحصائى الذى يقدمه المحللون العامليون فالنظرية العاملية تميز أربعة أنواع من العوامل هى : عوامل الخطأ ، وهى تلك التى توجد فقط فى ظرف واحد ولكنها لا توجد فى غيره من الظروف ، والعوامل النوعية ، وهى الخاصة باختبار معين أو سمة معينه فى حالات ظهورها ، والعوامل الطائفية أو الأولية وهى الشائعة بين اختبارات أو سمات معينة ، ولكنها لا توجد فى غيرها . والعوامل العامة أو عوامل المرتبة الثانية ، وهى الشائعة بين كل الاختبارات أو السمات المستخدمة فى أحد البحوث . ويلاحظ أن المستويات الأربع من تنظيم الشخصية تتصل إتصالا وثيقاً بالأنماط الأربعة من العوامل . . فالاستجابة المعتادة هى مجرد « إستجابة نوعية » تم تخليصها من مكوناتها الخاطئة ، وصيغت كعامل نوعى ، والسمة هى تنظيم من « الاستجابات النوعية » تم تخليصها من تباينها الخطأ ، والنوعى ، والنمط هو تنظيم من « الاستجابات النوعية » فقدت تباينها الخطأ ، والنوعى ، والطائفى » (٤١) .

ونلاحظ أن هذا النموذج كأى تصور علمى فيه قدر من التبسيط لما فى الواقع من ثراء وتنوع وتعقد ، ولكنه بلاشك ييسر سبيل التفكير الواضح ، والفهم العلمى .

والمفاهيم المستخدمة فى هذا التصور العلمى للشخصية مفاهيم مجردة ، ليس لها وجود مادى ، ولكنها تعميمات لفظية تشير إلى الخصائص المشتركة فى السلوك ، فمثلا لا يوجد بداخل الشخص سمة إسمها الخجل أو الإنطواء ، وإنما هى تشير إلى خصائص عامة تتصف بها المظاهر السلوكية .

* زملة الأعراض : syndrome.

ذلك هو التصور العاملى للشخصية ، تصور مبنى على أساس النتائج العلمية الدقيقة ، ويبدأ من جزئيات السلوك النوعية ، لينتهى إلى أعم المبادىء المنظمة التى تأتلف هذه الجزئيات فى نظام واضح إجرائى دقيق ·

بعض أبعاد الشخصية :

أجرى أيزنك Eysenck العديد من الدراسات حول أبعاد الشخصية الأساسية، وتوصل منها إلى التعرف على الأبعاد الأساسية للشخصية وقد تأيدت نتائج أيزنك فى عدد من الدراسات أجريت فى مصر ، وغيرها من البلاد (على سبيل المثال دراسات : م . سويف ، ١٩٥٨ ، م · فرغلى ، ١٩٧٠) · وأبعاد الشخصية أشبه بخطوط الطول والعرض فى الجغرافيا ، بمثابة مفاهيم تنتظم حولها حقائق عديدة · وهى تساعد على تحقيق الفهم المنظم للواقع ، كما تساعد على الوصول إلى أحكام أو تنبؤات علمية وعملية · وتشير دراسات أيزنك إلى أربعة أبعاد أساسية · كما تشير الدراسات المصرية إلى بعد آخر من الأبعاد الأساسية للشخصية . وهذه الأبعاد هى :

١ — الانطواء ـ الانبساط (*) :

ويشيع استخدام هذا المفهوم بين غير المتخصصين ، كما يشيع أيضا الخطأ فى تصور أن الناس ينقسمون إلى فئتين إما منطوين أو منبسطين . والتصور العلمى الذى أدت إليه الدراسات التجريبية هوأن توزيع هـذه السمة بين الناس هو التوزيع الاعتدالى· أى أن أغلب الناس متوسطين فى هذه السمة وكلما ابتعدنا عن المتوسط كلما قل عدد الأفراد · بحيث أن عدد الأشخاص المنطوين جداً أو المنبسطين جدا عدد قليل إلى حد كبير . وقد تصور يونج Jung الانطواء على أنه سمة تميز الأشخاص الذى يهتمون أساساً بمشاعرهم وأفكارهم · أما الانبساط فهو سمة تتميز بتوجيه اهتمام الشخص نحو الآخرين ونحو العالم الخارجى (٥) فالشخص الانبساطى أكثر استجابة أو تأثراً بالمنبهات الاجتماعية · وهو يتصف بقدر أكبر من التلقائية ، وهو

(*) الانطواء — الانبساط : introversion - extraversion

شخص عملى لايميل إلى النظريات المجردة . أما الانطوائى فهو أكثر مثابرة وأكثر ذكاء من الانبساطى .

٢ — العصابية ـ الاتزان الوجدانى(**)

والعصابية هى المرض النفسى ، وهى تختلف عن الذهانية أو المرض العقلى الذى سنتكلم عنه بعد قليل . وقد توصل أيزنك إلى هذا البعد من خلال دراساته العديدة .

وهناك عدد من الخصائص النفسية التى تميل إلى التواجد فى حالة انخفاض موضع الشخص على هذا البعد . فالشخص المنخفض فى الاتزان الوجدانى يغلب أن يظهر عليه الميل للاعتماد على الآخرين وضيق الاهتمامات وانخفاض الطاقة . كما تنخفض حدة الحواس لديه خاصة الابصار الليلى . كما يميل إلى القلق وإلى انخفاض القدرة على تحمل الإحباط ، والمواقف التى تنطوى على ضغوط نفسية ، ويميل أيضاً إلى الشعور بالنقص .

٣ — الذهانية ـ الواقعية (*) :

تبين من دراسات أيزنك أن الذهانية بعد يقع الأسوياء عند نقط متفاوتة منه ، بينما يقع الذهانيون (المرضى العقليون) عند الطرف الأقصى لهذا البعد . ويغلب على هؤلاء الأفراد الذهانيين ظهور عدد من الخصائص المميزة منها الانخفاض الشديد فى تركيز الانتباه وضعف الذاكرة ، وانخفاض المهارة اليدوية ، وعدم الاتصال بالواقع . وهؤلاء الأفراد يثيرون عادة اهتمام المجتمع نظراً لما يصدر عنهم من تصرفات قد تكون خطره عليهم أو على غيرهم .

٤ — التطرف ـ الاعتدال(**)

أظهرت الدراسات التى أجراها الدكتور مصطفى سويف فى مصر أن التطرف والاعتدال هو أحد الأبعاد الهامة الشخصية (٢) . وقد وجد أن درجة التطرف ترتفع

(**) العصابية الاتزان الوجدانى : neuroticism - emotional stalility

(*) الذهانية — الواقعية : psychoticism - realism

(**) التطرف — الإعتدال : extremeness - moderation

لدى المراهقين عنها لدى الراشدين . ولدى الجانحين عنها لدى الأسوياء . كما تبين من الدراسات التالية أن هناك نوعان من التطرف : تطرف موجب وتطرف سالب . وأن التطرف الموجب يزيد لدى الذهانيين عنه لدى الأسوياء . ويفسر التطرف بأنه يرجع إلى التوتر النفسى فكلما كان الشخص متصفا بالتوتر النفسى كلما كان أكثر ميلا للتطرف وكلما كان الشخص منخفضاً فى التوتر كلما كان أكثر ميلا إلى الاعتدال فى مشاعره وأحكامه .

قياس الشخصية :

يوجد فى وقتنا الحاضر العديد من المقاييس التى تقيس المظاهر اللاعقلية(*) للسلوك . وتقيس هذه المقاييس سمات تتصل بالتوافق الإنفعالى ، والعلاقات الشخصية ، والدوافع والميول والاتجاهات . وهذه المقاييس ليست مجرد مجموعة من الأسئلة التى يجيب عليها المفحوص ، أو المنبهات التى يستجيب لها ، بل إن هذه المقاييس تتصف بعدد من الخصائص أو الشروط التى يلزم توفرها فى المقاييس كأداة علمية . . وهذه الشروط هى ما يسمى بالتقنين . ومن أهم ما يشتمل عليه التقنين ما يسمى بثبات الاختبار وصدقه . ويقصد بالثبات أن يعطى المقياس نفس النتائج إذا استخدم تحت نفس الظروف ، ويقصد بالصدق أن يقيس الاختبار ما يدعى أنه يقيسه .

وهناك أنواع عديدة من إختبارات الشخصية يمكن تصنيفها أساساً فى فئتين :

١ — إختبارات الشخصية المفصلة(**) .

٢ — إختبارات الشخصية الاسقاطية(+) .

أولا : إختبـــارات الشخصية المفصلة :

يتكون إختبار الشخصية المفصل من عدد من البنود أو الأسئلة المفصلة

(*) اللاعقلية : non-intellectual.

(**) مفصلة : structured

(+) اسقاطية : projective

التى يجيب عليها الشخص بحيث يصف سلوكه وتصرفاته ومشاعره وصفاً دقيقاً ، ويسمى هـذا النوع من المقاييس بالاستخبارات(*) ويقـدر عدد الاستخبارات المستخدمة فى وقتنا الحاضر بحوالى خمسمائة (7) . وبعض هـذه الاختبارات يقيس سمات محددة فى الشخصيـــة ، وبعضها يحاول أن يقيس زملة(**) من الأعراض . وتتفاوت هذه الاستخبارات فى درجة ثباتها ودرجة صدقها كما تختلف فى الأغراض التى تستخدم فيها : كالعيـــادات النفسية ، أو البحث العلمى أو غير ذلك من الأغراض .

وهناك من بين هذه المئات من الاستخبارت عدد محدود يشيع استخدامه فى كثير من بلاد العالم . ولعل أشهر المقاييس الشائعة الاستخدام مقياس مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية : Minnesota Multiphasic Personality Inventory وكذلك مجموعة مقـاييس جيلفورد للشخصية وهى مقاييس GAMIN, STDCR ومقياس أيزنك للشخصية EPI ومن أمثلة البنود التى تشتمل عليها هذه المقاييس .

هل تجرح مشاعرك بسهولة ؟	نعم	لا	؟
هل تغلب عليك السرعة فى حركاتك ؟	نعم	لا	؟
هل تتغير اهتماماتك بسهولة ؟	نعم	لا	؟

ويجيب المفحوص على هذه الأسئلة بنعم أو لا ، أما إذا لم يستطع الحسم أو تردد فإنه يضع دائرة حول « ؟ » .

وتصحح هذه الإجابات حسب مفاتيح تصحيح خاصة بحيث يحصل المفحوص بعد ذلك على درجة كلية على الاستخبار . وهذه الدرجة الكلية يلزم مقارنتها بمعايير الاختبار لمعرفة دلالتها ومغزاها . ويتم إعداد هذه المعايير عادة بتطبيق الاختبار على مجموعات متقابلة (+) كأن يطبق الاختبـــار فى مرحلة الإعداد على مرضى نفسيين

(*) استخبار: questionaire

(**) زملة : sryndrome

(+) مجموعات متقابلة : contrasted groups

وأسوياء ، ويكون لدينا معايير خاصة بالمرضى ومعايير خاصة بالأسوياء . وعند استخدام الاختبار فى فحص أحد الأشخاص نقارن الدرجة التى يحصل عليها الشخص بدرجات الأسوياء والمرضى لكى نعرف هل هو يشبه الأسوياء أم يشبه المرضى . وبدون هذا لايكون للاختبار أية قيمة .

اختبارات الشخصية الاسقاطية :

تتميز الاختبارات الاسقاطية بأنها تقدم للمفحوص منبها إجماليا يتصف بالغموض فى أغلب الأحيان ، وهذا يعطى الفرصة لكى يسقط المفحوص مشاعره وحاجاته ومخاوفه على هذا المنبه الغامض . فدور المنبه هنا يشبه شاشة السينما التى يسقط عليها المفحوص خصائص شخصية . فالشخص ينظر إلى المنبه الغامض وينسج بخياله مايملأ الثغرات لكى يزيح الغموض عن الموقف . وهذا الخيال هو انعكاس لشخصيته .

وهناك عدة أشكال من المقاييس الاسقاطية أكثرها شهرة :

٢ — اختبار رورشاخ لبقع الحبر Rorschach ink - Blot Test

٢ — اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Test (TAT)

أولا : اختبار رورشاخ لبقع الحبر :

وهو عبارة عن ١٠ بطاقات مرسوم على كل بطاقة منها بقعة حبر متماثلة (فى نصفيها الأيمن والأيسر) . وبعضها أسود ورمادى وبعضها ملون . وتعرض هذه البطاقات على المفحوص ويقال له « ماالذى تراه فى البطاقة وما الذى يمكن أن تمثله بقعة الحبر » . ويسجل كل كلام المفحوص ، ويحلل مضمونه فيما بعد حسب قواعد خاصة .

اختبار تفهم الموضوع : (TAT)

يتكون هذا الاختبار من عدد من البطاقات على كل بطاقة منها صورة تتصف بالغموض . ويطلب من المفحوص أن يقول قصة تدور حول الصورة . والمفروض أن

إدراك الشخص لعناصر الصورة ، وخياله الذى يدور حولها يعكس حاجاته النفسية أو مخاوفه ومشكلاته .

ويصحح الاختبار بعد ذلك بتحليل مضمون الاستجابات الصادرة عن المفحوص حسب قواعد خاصة .

وهناك بعض الأساليب الأخرى التى تستخدم لقياس الشخصية كالاختبارات ، الموقفية (*) ، حيث يوضع الشخص ضمن مجموعة من الأفراد لم يسبق له معرفتهم ، ويكلفون بالقيام بعمل مشروع معين كبناء كوخ مثلا ، ويلاحظ سلوك كل فرد فى هذا الموقف ، ويصنف السلوك حسب مظاهر خاصة . وتبنى على أساس هذه الملاحظات أحكام على شخصية الفرد .

ورغم كثرة اختبارات الشخصية فإن علماء النفس ينتقون من هذه الاختبارات مايستوفى الشروط العلمية للمقياس الجيد ، وهى شروط الثبات والصدق والتقنين . ولذلك نجد أن علماء النفس أكثر ميلا لاستخدام الاستخبارات الموضوعية المفصلة لأنها تستوفى هذه الشروط ونجدهم أقل ميلا لاستخدام الاختبارات الاسقاطية نظراً لضعفها من هذه الناحية .

ولهذه الاختبارات قيمتها البالغة فى البحوث العلمية فى مجال الشخصية كما أن لها قيمتها فى مجال التطبيق فى العيادات النفسية فى فحص المرضى النفسيين .

(*) الاختبارات الموقفية : situational tests

المراجع

١ — كامل (لويس) ، اسماعيل (محمد عماد الدين) ، هنا (عطية) الشخصيـــة وقياسها ، القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

٢ — سويف (مصطفى) التطرف كأسلوب الإستجابة ، القاهرة : الأنجلو ، ١٩٦٨ .

٣ — ســويف (مصطفى) إطار أساسى الشخصيه (دراسة حضارية مقـــارنة) ، المجلة الجنائية القومية ،١٩٦٢ ، ٥ ، ١ — ٤٨ .

4 — Allport, G.W. Pers-nality : A Psychological Inter pretation New York : Henry, Holt and Co., 1937.

5 — Anastasi.A.Psychological Testing, New York:Macmillon,1968

6 — Eysenck, H. J. The Structure of Human Personality, Londen : Methuen & Co., 1960.

7 — Freeman, J.P. Theory & Practice of Psychological Testing, (3 rd ed.) New York : Holt, Reinhart & Winston, 1962.

8 — Guilford, u.F. Personality, New York : Mc Graw-Hill,1959

9 — Hilgard, E.R. Introduction to Psychology (3 rd ed.) New York : Harcourt, Brace & Co, 1963.

10 — Mc Keachie, W.J. & Doyle, C.L. Psychology, London : Addison - Wisley, 1966.

الباب الثانى

ديناميات السلوك

الفصل الأول

دوافع الإنسان

يتصف السلوك البشرى بطبيعته الدينامية ، فأفعالنا نتيجة حاجات ومطالب ملحة . فالبحث عن الطعام والأمن والوصول إلى الأهداف هى أمثلة على الطبيعة المدفوعة فى كل نشاط بشرى والخبرة الإنسانية دينامية أيضاً فالدوافع تؤثر على ما نرى وكيفية شعورنا إزاءه ، على الأفكار التى تتكون لدينا والآراء التى نؤيدها والمشاعر التى تكتنفها وحل المشكلات ، والأحلام جميعها تعتبر بمعنى ما استجابات لحاجات داخلية ولهذا كان الفعل الكامل للدفع البشرى أمراً ضرورياً لفهم حياتنا الداخلية وعملياتنا العقلية .

وتندرج تحت كلمة الدوافع جميع العوامل الداخلية التى تثير النشاط وتحتفظ به مستمراً ولن تكون للمنبهات الخارجية أى تأثيرات فى إثارة الأفعال بغير تعاون من مساعدات داخلية ، فإذا لاحظنا الأشياء التى يهتم بها إنسان ما والأشياء التى يسعى إليها لأمكن أن نجزم بأن لهذه الأشياء قيمة غير عادية بالنسبة إليه ، وإذا راقبنا الأشياء التى يحاول أن يتهرب منها هذا الإنسان لعرفنا أنها تشير إلى ميل معين داخله يجعله يتجنب تلك الأشياء ، فهذا الفرد نفسه يسعى فى وقت ما وراء شىء معين بينما لا يهتم بهذا الشىء ذاته أو قد يتجنبه فى وقت آخر مما يدل على حدوث تغيير فى داخله ، فالدافع يمكن تعريفه بأنه « حالة توتر أو إستعداد داخلى يثير السلوك ذهنياً كان أم حركياً ويواصله ويسهم فى توجيهه إلى غاية أو هدف » .

فلنفرض مثلا أننا إستطعنا حجب كافة المنبهات الخارجية — ولو أن ذلك من الصعب تحقيقه — فنضع فأراً فى قفص بمفرده ونضع القفص فى حجرة لا ينفذ منها ضوء ولا صوت ومكيفة الهواء وهنا يكون المنبه الخارجى الوحيد الذى يتصل به الفأر

هو القفص ، فإذا وضعناه على جهاز يسجل كل حركة يأتيها الفأر فسنجده فى أغلب الأوقات خاملا لا يعمل شيئا ، وقد تمضى دقائق كثيرة دون أن يتحرك حركة واحدة ، لكننا سنجد كل ساعتين أو ثلاث ساعات دلائل على تجدد النشاط تتزايد فى ترددها وقوتها حتى تبلغ الذروه ثم يخمد النشاط سريعا ويعود الهدوء ، وهكذا يحدث إيقاع من النشاط ناشىء فقط عن أسباب داخلية(١٢)

وإذا وضعنا فأرة فى قفص وتركناها تجرى كما تشاء فيه لأن الجرى هو النشاط الوحيد الممكن عندئذ إلى جانب الراحة والأكل ، وإذا سجلنا عدد لفات القفص كل يوم ، فإننا نلاحظ إن كانت الفأرة من النوع العادى أنها تظهر كل رابع يوم نوبة نشاط مفاجىء فتزداد لفات القفص عن العدد المعتاد ؛ لقد بقيت المنبهات الخارجية كما هى طوال هذه المدة وبالتالى ليس أمامنا من إستنتاج معقول لسبب هذا النشاط سوى أن هناك عامل داخلى يفعل هذا .

ثم لنفترض أن الفأر الأول عندما يقترب من فترات نشاطه المنتظمة يعطى الخيار ليصنع عدة أشياء ، وعندئذ قد يختار الأكل وما يلبث بعد الأكل مباشرة أن يهدأ فنستنتج أنه كان جائعاً ، غير أنه لا يلزمنا إفتراض أنه كان يعلم حاجته إلى الطعام ولا أنه كانت لديه أية فكرة عن الطعام وقد نقول أن هدفه كان إمتلاء المعدة بالطعام ليس لأنه يريد ذلك ولكن لأن نشاطه العنيف توقف عندما بلغ هذه الحالة .

وقد إختلفت أنواع التفسيرات التى قدمت عند البحث فى دوافع الإنسان إختلافاً واسعاً من وقت لآخر . وكانت التفسيرات نابعة من الفكرة السائدة عندئذ عن طبيعة الإنسان وموقعه من الكون فقد إعتبر الإنسان فى فترة من الزمن أداة سلبية فى يد القوى الغيبية الخارجة عن ذاته واتخذت تلك القوى الغيبية فيما وراء الطبيعة أشكالا وأقنعة كثيرة لكنها تماثلت كلها فى انها إعتبرت السبب الحقيقى لدوافع الإنسان وأنها هى التى تحركه نحو العمل ، ثم أخذ مجال تحكم الإنسان فى الكون يتسع تدريجياً حتى نجد أفكاراً أخرى تلغى كل فكر غيبي الناء كليا وتجعل الإنسان يسود ويتحكم فهو سيد قدره ومطالبه ورغباته وأهدافه كلها منه وتفسير سلوكه ينبغى أن نبحث عنه

فى داخل نفسه ، أى أن الإنسان هو المفكر وهو المقرر وهو المدبر وهو الفاعل[١٩] .

ونظراً لأن الدوافع لايمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة بل تلاحظ آثارها فمن المهم منذ البداية أن نحدد بوضوح معايير السلوك المدفوع (٢٦) .

١ — الطاقة . الدفع يتناسب مع مقدار الطاقة الناتجة بالنسبة لموقف معين ، فالإنسان الذى ظل ٢٤ ساعة بغير طعام يكافح من أجله بقوة تزيد عن القوة التى يكافح بها من أجل الطعام إنسان أكل منذ ساعة واحدة .

٢ — الاستمرار : الفرد المدفوع لا يستسلم بسهولة ، أما إذا جنح الفرد إلى قبول الفشل فوراً وتخلى عن بذل الجهد فاننا نستنتج عدم وجود دافع قوى لديه عندئذ .

٣ — القابلة للتغيير : يتصل بالاستمرار ظاهرة قابلية التغير فبينما يثابر الشخص على بذل الجهد ليصل إلى إشباع معين إلا أنه لا يكرر ببساطة نفس الفعل مرة بعد مرة بل يحاول سبلا مختلفة إلى الهدف ، أى أن الهدف قد يظل واحداً ومع ذلك تتغير أساليب الوصول إليه ، ذلك أنه عندما يوجد دافع قوى تتميز عملياتنا العقلية بالتركيز والكثافة أى بمستوى عال من الطاقة ، فالأفكار المتعلقة بهدف تستمر وتصمد أى أنها لا يسهل نسيانها بل تعود إلى الذهن كلما سنحت لها الفرصة لكنها على وجه العموم قابلة للتغيير بمعنى أنها تتخذ أشكالا متعددة وقد تتكيف طبقاً للظروف المختلفة الكثيرة .

التوازن الذاتى : مفهوم الهوميوستازس : فى عام ١٩٣٢ كتب والتر كانون كتاباً ذا قيمة كبيرة عن حكمة الجسم ، وصف فيه الطريقة المدهشة التى يعمل بها الجهاز الفسيولوجى من أجل الاحتفاظ بتوازن الظروف الضرورية التى تحفظ على الكائن حياته وهذه الطريقة تسمى التوازن الذاتى[١٩] وشرح الأدوات والأجهزة الفسيولوجية التى تضبط وتثبت حجم الدم وتركيزات السكر والملح والأكسجين وثانى أكسيد الكربون كما تثبت أيضاً حرارة الجسم فى حدود ضيقة مسموح بها والتى تزيل المواد

الغريبة والكائنات الهاجمة من مجرى الدم ، وهذه الأجهزة أوتوماتيكية بمعنى أنها تعمل دون حاجة إلى إنتباه الإنسان ودون عمل إرادى منه . ومن المعروف أن مشكلة الديناميات السيكولوجية هى مشكلة تعبئة الطاقة فتحت أى ظروف تتدفق الطاقة إلى أنشطة معينة ؟ الواقع أن الفرد لا يكون على نفس المستوى من النشاط فى كل الأوقات ، فلماذا يكون مدفوعاً باهتمام كبير من أجل هدف ما بينما يكون فى أحيان أخرى كسولا مسترخيا ؟ ومن أبسط الأمثلة لتعبئة الطاقة موقف مثل ضبط درجة الحرارة[٩] ذلك أن المخ أو الهيبوتلاموس على وجه التحديد يحتوى على ضابط أوتوماتيكى لحرارة الجسم لا يسمح بتفاوت درجة حرارة الدم إلا بمقدار ضئيل مثله فى ذلك مثل الترموستات المعروف ببعض البيوت الذى يحتفظ بدرجة حرارة الحجرات عند مستوى ثابت تقريباً ، وإذا أثير جانب من هذا الضابط ترتفع درجة الحرارة وإذا أثير جانب آخر تنخفض الحرارة وفى حالة المرض ينتقل التوازن أوتوماتيكيا إلى مستوى يسمح بارتفاع درجة الحرارة مما يؤدى إلى الحمى والغرض من ارتفاع الحرارة تمثل بعض أنواع الميكروبات المعدية ، أما السلوك الناتج مباشرة عن تعارف ضابط الحرارة فى الهيبوتلاموس فيشمل إفراز العرق والارتعاد أو إشعال النار وارتداء الملابس .

وسير السلوك بهذا الشكل يوضح مبدأ التوازن الذاتى ، وطبقاً له تبدأ تعبئة الطاقة عندما يختل أى توازن داخلى ويستمر إلى أن يستعاد هذا التوازن ، فالتوازن الفسيولوجى للرغبة فى الطعام يختل بالتدريج مع إستمرار الايض ، وعند نقطة معينة يؤدى هـذا الاختلال إلى توترات عضلية معينة تؤدى بدورها إلى إستجابات مثل الصياح أو التقلب (لدى الطفل) .. الخ والإطعام يزيل التوتر ويعود الطفل إلى حالة التوازن[١٩] .

وهكذا تنبثق حاجات الجسم مثل الحاجة إلى الطعام والماء والأكسجين والإخراج والراحة والدفء عندما يبلغ النقص والاضطراب فيها مستويات خطيرة ، أى أن الحاجات عبارة عن نقص أصبح محسوساً ، والحاجات الجسمية كثيرة التنوع إلى درجة كبيرة جداً ، إذ توجد طرق كثيرة تؤدى إلى اضطراب توازن الجسم الذاتى ،

في كل حالة عندما يخرج الاتزان عن الحد فقد يثير ذلك أعمالا مدفوعة لتصحيح وضع الكائن كله ، وبعض حالات إختلال التوازن تؤدى إلى ظهور حاجات غير عادية وغير طبيعية أو مصطنعة ، فمثلا يؤدى نقص الكالسيوم فى حالات نادرة إلى جوع إلى الكالسيوم عجيب فى نوعه .

وتعبئة الطاقة بهذا الشكل عملية وظيفية ولها قيمة بقائية لأن الكائن يدفع بشدة عندما يجد ظرف داخلي يهدد بقاءه وراحته ، أى أن الكائنات البشرية قد وهبت بطبيعة تكوينها ميلا نحو الاحتفاظ ببعض الظروف البيولوجية المثلى : الطعام ، الحرارة ، الأكسجين ، الماء ... الخ ، وهذه الوظيفة من التوازن الذاتى تعتبر ظاهرة عامة فى السلوك الإنسانى والحيوانى أيضاً .

لكن يجب ملاحظة أن التوازن الذاتى يختلف عمله مما يؤدى إلى وجود مستويين مختلفين من التنظيم ، ففى المستوى الإنعكاسى البسيط نلاحظ إستعادة التوازن أوتوماتيكياً بطريقة دقيقة وبدون تعديل ناشيء عن الخبرة ، فإن الفرد لا يتحسن أداؤه للأيض أو الانتفاض لأنه يتعلم كيف يتعامل مع ظروف هبوط الحرارة ، وهذا النوع الأول من الاحتفاظ بالتوازن يسمى التوازن الذاتى الاستاتيكى(٢٦) .

ويقابل هذا النوع من السلوك عملية تحدث فى ظروف أكثر تعقيداً ، فكل اختلال فى التوازن كما فى البرودة أو الجوع لا يؤثر فقط على مراكز الأفعال المنعكسة فى أسفل المخ بل على المراكز العليا التى تدخل فى عمليات التعلم والتذكر والتفكير والتخطيط ، وهكذا يتعلم الإنسان عن طريق الخبرة أن ينظر إلى ترمومتر ويلبس معطفاً قبل الخروج ، وهذه الأنماط من السلوك تتصل بالتوازن الذاتى شأنها تماماً شأن التنفس العميق من أجل التخلص من ثانى أكسيد الكربون الزائد ، لكننا بصدد هذه الحالات المعقدة نواجه تعديلات ديناميه تداخلها الخبرة وتشمل غالباً تغييراً للبيئة قائماً على التخطيط . وهى على خلاف التغيرات الفسيولوجية البسيطة الأوتوماتيكية الخاصة بالتوازن الذاتى الأستاتيكى تتضمن جهداً نشطاً يشترك فيه الكائن كله بأجمعه

ولا يقتصر على جهاز واحد فقط من أجل مواجهة مشكلة معينة ويطلق على هذا النوع من التوازن إسم التوازن الذاتى الدينامى[٢٦] .

ويمكن بيان التغير فى الاستجابة المختارة للمنبهات بتجارب ريختر ١٩٤٢ حيث استؤصلت الغدد الأدرينالينية جراحياً فى بعض الفيران وبذلك تعرضت للموت فى خلال ١٠ إلى ١٥ يوماً ما لم تتناول كميات كبيرة من ملح الطعام نظراً لزيادة إفراز الملح عن طريق البول فكانت النتيجة إختلال معدل الصوديوم وزيادة كبيرة جداً فى الاحتياج إلى كلوريد الصوديوم وعندما سمح للفيران بتناول الماء من زجاجتين إحداهما تحتوى على ماء عادى والثانية تحتوى على محلول كلوريد الصوديوم بنسبة ٣٪ فإن الفيران أظهرت فوراً تفضيلها للماء المحتوى على الملح وزادت الكمية التى تحصل عليها من كلوريد الصوديوم ويتمثل كفاءة جهاز التوازن الذاتى هنا فى الاحتفاظ بالتوازن الداخلى العضوى ويمكن إيضاح ذلك أيضاً بأن الفئران التى أزيلت عنها الغدد الأدرينالية ولم يسمح لها بتناول الماء المحتوى على الملح قد ماتت بينما بقيت كل جماعة الفيران التى أزيلت غددها ولكن أعطيت كمية كافية من الماء المحتوى على الملح .

وتبين هذه التجارب ما عناه الفسيولوجى والتركانون بعبارة « حكمة الجسم » التى قالها وتوحى تلك التجارب بالفعل بأن الكائنات قد منحت ميلا أوتوماتيكياً للاحتفاظ بالتوازن مما يساعدها على البقاء فى مواجهة العديد من المصاعب والعقبات البيئية ، كما توحى بأن الدفع لا يمكن أن يعزى إلى مجموعة محددة من الحاجات أو الحوافز يولد بها الكائن ، بل هو وظيفة الكائن بأكمله ، وعندما يدفع الفرد فإنه يدفع ككل لا يتجزأ ، فالدافع غير مقصور على جزء محدد من الشخصية وهذا يعنى أنه حينما اختل التوازن الذاتى تميل طاقات الكائن كلها إلى تعبئة نفسها فى جهد إيجابى فعال من أجل إستعادة التوازن .

التوتر والجذب : فى المناقشة السابقة قلنا إن الكائن يستجيب متوازنا ذاتيا إزاء

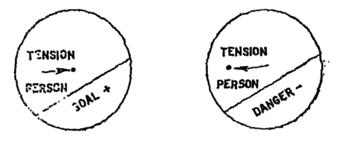
كل اضطراب سواء كان مثاراً داخلياً أو خارجياً . وإذا نظرنا إلى حالة الإضطراب الداخلية خاصة لوجدنا أن الحاجة إلى مادة معينة مثل الطعام أو الماء أو الأكسجين أو الفيتامين أو الأملاح المعدنية قد تكون وراء السلوك الباحث وقد تكون مسئولة فى النهاية عن إطلاق الطاقة فى شكل سلوك فعال مختلف الأنواع . وهذا النمط من السلوك يميل على وجه العموم للبحث عن منبه يعيد التوازن إلى حالته الأصلية من القيم المثلى اللازمة للبقاء ، لكن يجب ملاحظة أنه ليست الحاجات كلها تعمل بهذه الطريقة فقد يعانى الفرد من نقص الكالسيوم بدون أن تؤدى هذه الحاجة إلى دفع أى نشاط معين ، ولذا يجب أن ندخل فكرة إضافية أخرى فى تتابع السلوك قبل أن نتمكن من الفهم الكامل لعملية التوازن الذاتى .

فيبدو أن النتيجة المباشرة لاضطراب الاتزان لدى الكائن فى الحالات التى تؤدى إلى نشاط مدفوع هو تراكم التوتر وأسهل هذه الحالات مشاهدة ووصفا هو التوتر الخاص بالجوع حيث التوتر هو تقلص عضلى فى جدار المعدة ، ومن التوتر العضلى الذى يسهل مشاهدته ويدخل ضمن تتابع الدفع ذلك التوتر العضلى الذى يرافق محاولة الهرب من ألم جسمى كما أننا نشاهد أن الجسم يصبح متوتراً عندما نعمل بكل جهدنا فى أى ميدان ، فمثلا عند حل مسائل حسابية صعبة يصاحب ذلك توتر عضلى منتشر[٢٢] .

أما هل هذا التوتر الكامن وراء الأفعال المدفوعة لابد وأن يكون عضليا فى جميع الأحوال فمثل هذا التساؤل أصبح من الممكن الإجابة عليه الآن : فقد أصبح لمفهوم التوتر النفسى الدافع مكانا بارزاً فى دراسات الدفع أو تعبئة الطاقة ، أصبح لمفهوم التوتر النفسى أهمية كبرى فى أرتباطه بمختلف الأعمال وقد تنبه كثير من الباحثين لأهمية هذه السمه السيكولوجية الهامة ولأهمية أرتباطها بجوانب الشخصية ، وقد اتضح منها أن هناك قدراً معينا من التوتر لازم لأداء العمل سواء أكان هذا التوتر عضليا أم نفسياً ، حيث أوضحت بعض الدراسات أن هناك نسبه معينه من التوتر العضلى قد تكون لازمة لأداء بعض الأعمال وأنها تختلف من عمل لآخر بحيث أن النسبة اللازمة لأداء عمل معين قد تختلف عن النسبة اللازمه لأداء عمل آخر وأننا إذا ما تمكنا من

تحديد هذا القدر من التوتر المطلوب لكل عمل لكان الوصول إلى أحسن أداء له أمراً ميسوراً ، وقد أطلق العلماء على هذا المستوى الحد الأمثل من التوتر . كما بينت الدراسات أهمية التوتر النفسى على أداء العمل وعلى حفزه للوصول به إلى نهاية مرضية وبينت أنه إذا قل هذا التوتر عن درجة معينة وإذا زاد عن هذه الدرجة أصبح معطلا لأداء العمل بل الأكثر من هذا أننا إذا تمكنا من خلق حالة توتر فى الفرد كان هذا مساعدا له للوصول إلى حالة الحفز أو لتعبئة طاقته بحيث يصل إلى الأداء الأمثل[١] .

قوة الجذب : ليس كل الدفع ناشئا عن أصل داخلى بحت ففى كثير من الأحوال نجد المنبهات الخارجية قادرة على إثارة التوتر وابتداء حلقات متتابعة من السلوك المدفوع، فمثلا الطفل الذى لا يحس جوعا كبيراً قد يصبح متوترا ومدفوعا إيجابيا بظهور نوع يحبه من الطعام . فى هذه الحالة نجد المنبه الخارجى مسئولا مباشرة عن إيجاد التوتر . وسنشير إلى هذا المنبه الخارجى باصطلاح قوة الجذب ويعنى المنبه الخارجى الذى له قيمة إيجابية أو سلبية بالنسبة للكائن وهكذا فإن المنبهات التى يمكن أن تشبع الحاجات لها قوة جذب إيجابية والمنبهات التى تهدد بالإصابة أو عدم الارتياح لها قوة جذب سالبة .



ويوضح الرسم العلاقة بين التوتر والقوى الموجهة ، فإذا ما واجه الفرد قوى إيجابية فإنه يشعر بتوتر يدفعه تجاه الهدف ، وعلى العكس من ذلك إذا ما كانت القوى التى تواجه الفرد سلبية فإن التوتر يدفعه إلى البعد عنها[١] .

وما دام الإنسان هو الكائن الذى تتحول حاجاته إلى رغبات وتصبح محركاته بواعث فلا بد وأن تكون تلك الخاصية هى المميز لعالمه الداخلى المختلف عن عالم الحيوان فالواقع أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينشط أساسا وفق الهوميوستازس الدينامى ، أى يسلك بالبواعث ولا يتحرك بالمحركات إلا فى ظروف نادره . فعلاقة أسباب السلوك بغاياته لدى الإنسان ليست آلية بل ديناميه . وخفض التوترات لديه لا يكون مباشراً بل غير مباشر ، ولكنه رغم ذلك يشترك مع غيره من الحيوانات فى عدد من المحركات والحاجات ويختلف عنها فى مصير تلك المحركات أو الحاجات بعد أن ينشط وعيه وتتضح قدراته الفكرية لذلك يظل فى سلوك الإنسان بعض معالم حيوانيته[6] .

الدوافع الأساسية أو الأولية (البيولوجيه) .

يمكن أن نجمل الدوافع الأولية والحاجات الأساسية كالآتى :

١ — الدافع إلى الأكل وحاجته الطعام وادخار الطاقة الغذائية .

٢ — الدافع إلى الشرب وحاجته الماء ومعادلة كيميائيه الدم .

٣ — الدافع إلى التنفس وحاجته الأكسجين وإيجاد مفاعل لاستغلال الطاقة .

٤ — الدافع إلى تصريف الطاقة وحاجته الحركة .

٥ — الدافع إلى الإخراج وحاجته اللذة والبعد عن الألم . .

أولا : الدافع إلى الأكل أو حاله الجوع : تتيح لنا دراسة حاله الجوع فهم بعض مكونات الدافعية ذلك إن الحاجة للطعام تعتمد على نقص بعض المواد الغذائية فى الدم وهذه الحالة تسبب توتراً فى الإنسان والحيوان ، وكلما زادت مدة الحرمان من الطعام أدى ذلك إلى تقلص جدار المعدة[15] وتؤدى تقلصات المعدة هذه إلى استثارة الكائن للنشاط ، والبحث عن الطعام يؤدى إلى إشباع الحاجة والتخفف من حدة الدافع ، وهذه الانقباضات تأتى بمعدل ١٠ انقباضات تقريبا فى الدقيقة وتدوم نحوا من ٢٠ إلى ٢٥ دقيقة إلا إذا دخل المعده طعام[12] .

لماذا نشعر إذن بالجوع ؟ هل نجوع لتقلص عضلات المعدة أم أن الجوع ينتج عن نقص المواد الغذائية فى الدم[٢] . أدخلت بالونة من المطاط فى معدة شخص حرم من الطعام من مده وتفخت البالونة بجهاز مؤشر يتحرك كلما ضغطت جدران المعدة على البالونة . وكان هذا الجهاز بعيدا عن نظر الشخص الذى تجرى عليه التجربة . والذى كان مطلوبا منه أن يضغط على جهاز يشبه جهاز الإرسال التلغرافى كلما شعر بقرصات الجوع وقد وجد أن ضغطه على جهاز الإرسال يطابق الوقت الذى يتحرك فيه المؤشر مبينا ضغط معدته على البالونة وقد أدت هذه التجربة إلى الرأى القائل بأن دافع الجوع ينبعث عن المثيرات الناتجة عن تقلصات المعده . إلا أنه قد تبين مع ذلك أن الاحساس بالجوع لا يزول إذ استؤصلت المعـده ويدل ذلك على أن الاحساس بالجوع إحساس أولى يتصل بنقص الحاجه وتوتر الجسم نتيجة لذلك وليس الأمر قاصرا على عضو بذاته كالمعدة[٦] .

ويمكن أيضاً قياس شدة شهية حيوان جائع بمعدل الأكل أو بكمية الطعام التى يستهلكها فى مدة معينة ، فإذا أعطينا دجاجة ١٠٠ حبة من القمح فإنها ستأكل بسرعة أول الأمر ثم تبطىء حتى تتوقف عندما تكتفى ، وتعمل بعض العوامل على زيادة شهية الدجاج مثلا ومثل تلك العوامل تعمل أيضاً فى حالة الإنسان فيلاحظ إننا إذا أبعدنا الحبوب بعد أن أكلت الدجاجة كفايتها ثم أرجعناها فإن الدجاجة تأكل ثانية ، وإذا قدمت لها الحبوب عدة مرات فقد تأكل نحو ٦٧٪ . وهى تأكل من كومه كبيره أكثر مما تأكل من كومه صغيره ، وتلعب العوامل الاجتماعية دورا هاما فإن الدجاجة تعود إلى الأكل بعد أن اكتفت إذا جاءت دجاجة ثانية لتأكل[١٢] .

ثانياً : الدافع إلى الشرب : هو حالة يكون عليها الفرد عند احتياجه إلى الماء ، والواقع أن الحاجة للماء تتشابه مع الحاجة إلى الطعام إلى حد كبير[٩] فتظهر الحاجة إلى الماء فى شكل جفاف الحلق والفم رغم أن نقص الماء فى الجسم عملية أكثر تعقيدا من ذلك إذ أنها ترتبط أيضاً بمراكز معينة فى الهيبو تلاموس بحيث إنه إذا هبطت نسبة الماء فى الدم هبوطا ضئيلا فإن ذلك يحرم الغدد اللعابية من الماء فينقص إفرازها

فى الفم والحلق فيحس الإنسان بالعطش[١٢] . ورغم ذلك فقد تبين أن رفع واستئصال الغدد اللعابية لم يؤثر على الشعور بالعطش ، فالحاجة إلى الماء ترتبط بنقص كميته وليس بالإحساسات الثانوية المصاحبة له[٦] .

ثالثاً : الدافع إلى التنفس أو حالة نقص الأكسجين : إذا كان الطعام والماء مصدرين للطاقة فان الأكسجين هو العنصر الضرورى لاحتراق هذه الطاقة فى الجسم وتوليد الحرارة اللازمة له . لذلك تحتاج الخلايا إلى أن تزود بالأكسجين باستمرار . ومن ثم اصبحت الحاجة إلى الأكسجين والدافع إلى التنفس من الحاجات الأساسية وتظهر الحاجة إلى التنفس منذ لحظة الولادة ، وتعد هذه الحاجة من أكثر الحاجات التصاقا بالجانب البيولوجى ، فالقدرة على تحمل الحرمان من اشباع هـذه الحاجة لا يتجاوز ثلاث دقائق فى حين أن الحاجة إلى الماء قد تحتمل تأجيل الإشباع لبضع ساعات وأحياناً أيام ، كذلك الحاجة بالنسبة للطعام التى تحتمل التأجيل لفترات أطول كثيراً[٦] .

رابعاً : الدافع إلى تصريف الطاقة أو حالة النشاط : إن زيادة النشاط فى الجسم تولد التوتر تماما كنقصانها لذلك تنشأ الحاجة إلى الحركة والنشاط عندما يزيد قدر الطاقة فى الخلايا ويعد النشاط هو الأساس وراء الدوافع إلى تصريف الطاقة ، والحاجة إلى النشاط تتبعها الراحة ويعزوها البعض إلى تراكم الفضلات فى الدم حيث تؤدى إلى توتر تزيله الراحة ، ويعزو البعض الآخر الحاجة إلى النوم إلى وجود مركز له فى قاع المخ[٢] ولعل هذا الدافع أقرب إلى أن يكون أساساً للنشاط الهوميو ستازس الثابت وتتضح أولية هذا الدافع منذ الولادة .

خامساً : الدافع إلى الإخراج إن تفاعل عناصر الطاقة مع الأكسجين يولد الطاقة من جانب ويؤدى إلى تراكم نتاج اكسدتها فى الجسم ، لذلك تنشط منذ البداية الحاجة إلى إفراز الفضلات كالتبول والتبرز والعرق . والدافع إلى الإخراج من الأمور التى تنشط منـذ بدء الحياة ويترابط مع عملية الأكل والشرب والتنفس[٦] . والواقع أن

الدافع إلى تجنب الألم إنما ينشأ من حاجة الكائن لتجنب الألم عن طريق التخلص من الفضلات . وتماما كما يهدف دافع الأكل إلى تجنب الألم الناتج عن الجوع ويهدف دافع الشرب إلى تجنب ألم جفاف الحلق يهدف تجنب الألم إلى التخلص من عدم راحة الجسم بالتخلص من الفضلات (١٥) .

قياس الدوافع الأولية

ما هو أقوى حافز من بين الحوافز الأساسية التي أوردناها ، فبقياس الدافع يستطيع العالم التنبؤ بشدة السلوك المدفوع . لقد ابتكرت عدة طرق للاجابة على هـذا السؤال على دراسة سلوك الحيوان (١٢) .

١ — طريقة التفضيل . في هذه الطريقة نقارع حافزا بآخر ، فنأخذ فأرة جوعانة ونعطيها الخيار بين الطعام وبين العودة إلى صغارها ونتيجة الاختيار هي التي تبين أي الحافزين أقوى .

٢ — طريقة العقبات . وهى إحد الطرق الكلاسيكية لقياس حوافز الحيوان والذى يحدث فيها أن نضع حاجزاً سلبياً أو مؤلماً على طريق الهدف ثم نسجل عـدد المرات التي يتغلب فيها الحيوان على ذلك الحاجز ليصل إلى الهدف . وفى كل مرة يصل فيها للهدف يعطى مكافأة صغيرة ثم يعـاد إلى نقطة البداية . وقد أجرى وارون بجامعة كولومبيا (١٩) عدة تجارب باستخدام صندوق العقبات لقياس شدة حوافز الحيوان ، الذى يحتوى على حجرة البداية حيث يوضع الفأر وممر موضوع على أرضيته شبكة مكهربة ثم المقصورة التي يوضع فيها الهدف . ولقياس شدة حافز معين كالجوع مثلا يوضع شىء مرغوب فيه — كالطعام — فى المقصورة ويوضع الفـأر فى حجرة البداية ويسمح له بأن يجرى على الشبكة المكهربة ، وحالما يمر فوق لوحة الاطلاق يفتح الباب الموصل إلى الطعام وبمجرد أن يحصل الفأر على الطعام فإنه يؤخذ ويعـاد إلى حجرة البداية ويستمر إجراء هـذا الاختبار لمدة ٢٠ دقيقة ويقاس شدة الدافع بعدد مرات العبور خلال العشرين دقيقة المحددة .

٣ — طريقة المقاومة . وتشبه كثيراً طريقة العقبات إلا أن القياس يقوم على مقدار الصعوبة التى يتحملها الحيوان من أجل الوصول للهدف فتزداد شدة فولت التيار الكهربائى حتى يفشل فى المرور وكبديل لذلك يمكن استخدام الماء المثلج وتخفض برودته لدرجات مختلفة .

الشدة النسبية لحوافز الحيوان . نحن نعلم الشدة النسبية لدوافع الفأر ولا يمكن إجراء مقارنة ذات مغزى إلا بين حوافز الجوع والعطش والجنس والأمومة فى شدتها القصوى وبالنسبة للفأر الذكر يأتى فى المقدمة العطش ثم الجوع فالجنس وهذا الترتيب صحيح أيضاً بالنسبة للأنثى ولكن يأتى فى المقدمة حافز الأمومة قبل بقية الحوافز جميعها .

والمسألة هل ينطبق هذا الترتيب والقياس على الأنواع الأخرى لا سيما الإنسان والواقع أن النظر اليها من خلال التجربة الشخصية يدلنا على أنها ليست بعيدة كل البعد عن الصحة وخاصة عند مستوياتها القصوى فالعطش فى شدته القصوى أكثر الحاحا من الجوع فيمكننا العيش مدة أطول بغير طعام مما نستطيع بغير ماء والجوع فى شدته القصوى أقوى من الجنس لأننا لا نستطيع تحمل الجوع مدة طويلة ، أما الحاجة إلى الحركة فقد قيست بجهاز العجلة وهو مكون من عجلة تدور على محور له عداد يحصى عدد لفاتها ويوضع الحيوان مشبعا ثم تقاس عدد لفـــات العجلة التى تدور حركته فيها (٦) .

الدوافع المكتسبة الثانوية

لما كانت دراسة الدوافع تهتم أساساً بالديناميات فنوجه اهتمامنا الآن لدراسة بعض جوانب هذه الديناميات المعقدة ، فقد كانت السمة الأساسية للدوافع البيولوجية أن الطاقة تتحرك فيها لتصل إلى حالة الهوميو ستازس المستقر ، فالحرمان من الطعام والماء والأكسجين يولد توترات وسلوك مدفوع يهدف للعودة للحالة الطبيعية . أما

الهوميو ستازس الدينامى فهو يتضمن خطوة أبعد من ذلك ، خطوة نحو منع هذا الاضطراب من الحدوث فى المستقبل أو ليسرع بالعودة إلى الحالة الطبيعية ، ومن خلال هذا النوع من التعلم نصل إلى أعلى درجات الاتزان والتكيف .

فما هى أهم الدوافع المكتسبة ؟ الواقع أن هناك العديد من هذه الدوافع وأى تقسيم لها سوف يكون تقسيما تعسفيا إلى حد كبير وسوف نختار خمساً من هذه الدوافع ونناقشها باختصار:

١ — الدافع إلى الأمن security

٢ — الدافع إلى السيطرة dominance

٣ — الدافع إلى التملك acquisitivenes

٤ — الدافع إلى التوحد مع الجماعة group Identification

٥ — القيم كدافع[٢٦] .

وقبل أن نبدأ فى شرح هذه الدوافع نوضح نوعا من التصنيف قدمه Otto klineberg ١٩٤٢ للدوافع البيولوجية والمكتسبة يتلخص فى الآتى :

١ — دوافع لها أصل بيولوجى محدد ويمكن التنبؤ بها إلى حد كبير ، فالجوع مثلا له مظاهر فسيولوجية واضحة وهو يظهر بشكل عام فى كل الأفراد إلا أن اختيار نوع الطعام يختلف طبعا من جماعة لجماعة .

٢ — دوافع لها أصل فسيولوجى محدد ويمكن التنبؤ بها أيضاً إلى حد كبير وتوجد فى كل المجتمعات إلا أن الأفراد يختلفون فيها والجنس هو المثل الواضح على هذا إذ تعمل بعض المجتمعات على قمع مظاهر التعبير الجنسى لبعض الأفراد أو الجماعات .

٣ — دوافع لها أصل فسيولوجى غير واضح ، قد تكون عامة أيضاً إلى حد كبير إلا أن الفروق الفردية تظهر فيها بشكل أكثر وضوحا ، كالانفعالات مثلا مثل الخوف أو الغضب والتنبؤ بها غير ممكن إلى حد كبير كما فى النوع الأول أو الثانى .

٤ — دوافع ليس لها أصل فسيولوجي معروف إلا أنها تحدث باطراد وترتبط بخبرات الفرد والدوافع المكتسبة التي ذكرناها تدخل في هذه الفئة من الدوافع .

والواقع أن الثقافة تتدخل إلى حد كبير في تحديد هذه الدوافع باعتبار أن سلوك الإنسان منتج من منتجات المجتمع والثقافة التي يولد بها ويعيش فيها وطبقا لهذه الفكرة تكمن أصول دوافعه في مطالب جماعته الاجتماعية ، فالإنسان مرآة تظهر فيها صورة الثقافة التي ينتمي إليها ، وهكذا فإن دوافعه ورغباته وأهدافه وأغراضه هي صورة لما يحتاجه المجتمع ، وتأكيد أن الإنسان من منتجات المجتمع يجد صداه في مبدأ النسبية الثقافية الذي يبرز ضمن أشياء أخرى أن القيم الإنسانية لا يمكن فهمها إلا منسوبة للثقافة ، فلا يمكن القول بأن هذا طيب وهذا ردىء بأي معنى عام مطلق بل نقول هذا في إطار هذه الثقافة التي ينتمي إليها الإنسان . وطبقاً لهذه النظرية يتعلم الفرد وسائل الثقافة التي يعيش فيها إذ ينشد إشباع مطالبه الفسيولوجية البدائية فهو يتمثل عادات وشعائر وقيم مجتمعة ويتشكل بنيانه الدافعي أساساً بتوجيه من هذه المؤثرات وهكذا يتضاءل دور الحاجات البيولوجية فيصبح مقتصرا على تمكين الكائن من البقاء أما كل شيء آخر فيعتبر مشتقا اجتماعيا (١٩) .

أولا : الدوافع إلى الشعور بالأمن : إن الهدف الذي ترمي إليه كل الحاجات الاجتماعية هو الشعور بالطمأنينة ، وعدم إشباع هذا الدافع يؤدي إلى الشعور بالقلق والتعاسة ، وربما توجد الأصول الأولى لهذا الدافع في شعور الطفل الصغير بالعجز المطلق واحتياجه إلى مساعده الراشدون له لأداء حاجاته الأساسية وإلا هلك . وهكذا فإن وجود الأم أو من يقوم مقامها يعتبر أساسياً بالنسبة له ، وتسمى هذه الرغبة بالدافع إلى الشعور بالأمن . ويلعب التوتر دوراً في تكوين دافع الحصول على الأمن ، ذلك أن الأم تؤدي دوراً أساسياً في تخفيض التوتر الذي يتولد نتيجة للاحساسات المختلفة بالجوع والعطش والبلل ، وغير ذلك من المطالب الفسيولوجية التي تولد كما سبق أن بينا قدراً من التوتر ولهذا فليس من المستغرب أن يكون صوت الأم أو مجرد رؤيتها عاملا هاما في تخفيف حدة التوتر المتولد . كما يؤدي غيابها إلى

احباطات شديدة تتمثل فى شكل شعور بفقد الأمن من البيئة . ونظراً لأن الراشدون المحيطون بالطفل يمكن أن يشبعوا له بعض هذه الرغبات فى حالة غياب الأم فإن الطفل يحول شعوره بالأمن من مجرد وجود الأم إلى غير ذلك من المحيطين به من أفراد[26] والطفل الآمن هو الطفل الذى يحصل على غذائه عندما يجوع ويحقق معظم مطالبه الفسيولوجية بحيث يتكون لديه إنطباعا بأن البيئة المحيطة آمنه ومشبعه وذلك من خلال خبراته الأولى .

والدافع إلى الأمن يتواجد فى كل فرد منا ومن خلال هذه الخبرات الأولى يحتاج كل منا فى بعض الأحيان إلى الشعور بتقدير الجماعة وقبولها له ، والشعور بالدفء والصداقة فى علاقاته الاجتماعية ، ويحتاج إلى وسائل التعبير المختلفة عن التعاطف مع الآخرين وهكذا ، والفرق الوحيد هو أن الفرد الذى يشعر بالأمن يعتبر مسألة قبولة من الجماعة قضية مسلم بها إن لم يكن فى اللحظة الراهنة إلا أنه سيحصل عليه ، أما الفرد الذى لا يشعر بالأمن فهو فى حالة خوف دائم من فقد أهدافه وعدم قدرته على تحقيقها ويسبب له أى إحباط بسيط شعوراً شديداً بالتهديد .

ثانياً : الدافع إلى السيطرة : إذا نظرنا إلى أية جماعة إجتماعية نلاحظ أن بعض الأعضاء ظاهرون على الآخرين ، فهم يأخذون بزمام القيادة ، ويصدرون الأوامر ، ويسيطرون على أنشطة الجماعة وهم قادرون أكثر من غيرهم على إنتقاد الآخرين ولومهم دون خوف من إنتقام ، ونظرية السيطرة هذه تحددها عوامل فردية متعددة منها أن الشخص المسيطر أكبر حجماً وأعظم قوة وطاقة أو سلطة ، أو مقدرة ، ومنها الصفات الشخصية من ثقة بالنفس وقدرة على الإقناع وإتزان وقوة أثر ، كما تحددها أيضاً عدة عوامل إجتماعية تتصل بالاعتقادات الثقافية عن دور الراشد إزاء الطفل ، والذكر إزاء الأنثى ، وأفراد الطبقة العليا إزاء أفراد الطبقة الدنيا[19] . ويظهر سلوك السيطرة بوضوح عند الحيوانات إذ نجد أن الحيوانات القوية يكون لها دائماً السيطرة على الحيوانات الضعيفة[9] كما أن نظام السيطرة هذا قد يتغير من وقت

لآخر ، ففى جماعات الدواجن مثلا يظهر نظام السيطرة فى عملية النقر . كما تبدى سلماً هرمياً بين الديوك وبين الفراخ وتبدى الدجاجات رتبتها فى وقت الطعام . والسيطرة رهن بالقوة لكنها تتفاوت قليلا حسب إختلاف الظروف ففى جماعة القردة يتولى الأمر واحد منها ، وهناك ثان ليحل محله عند غيابه ولا يتحدى أحد هؤلاء الذين فى القمة كما لا يتحدى أحد الذى فى القاع لأنه أكثر القردة ضعفاً وأقلها ذكاء(١٢) .

وتوضح التجربة التالية تغيير السيطرة لدى القرود ، إذ أجرى ميللر وموروف ويرسكى تجربة(١٩) . لمحاولة تعديل نظام السيطرة الهرمى فى جماعة من القرود عن طريق تعليم بعض القرود لفعل إستجابات هروبية إزاء أحد أفراد الجماعة ، وقد راقبوا سلوك القرود طوال ٢٠ أسبوعاً وكانت الجماعة مكونة من ٨ ذكور واثنتين وتعرفوا على نظام السيطرة الهرمى لديهم فى عدد من المناسبات واتضح أن هذا النظام مستقر تماماً طوال المدة ، وأختير القرد ٥٣ الذى كان يحتل مكاناً متواضعاً فى نظام السيطرة كحيوان التجربة الخاص ؛ ووضع فى مقصوره ظاهرة للقرد رقم ٥٧ وبمجرد أن أصبح القرد ٥٣ ظاهراً أعطى القرد ٥٧ صدمة كهربائية واستمرت الصدمة إلى أن ضغط القرد على رافعة ولم تؤد هذه الضغطة إلى إيقاف التيار الكهربائى فقط بل حجبت أيضاً القرد رقم ٥٣ بإنزال باب حاجز بين القردين ، وبعد عدد من هذه المحاولات تعلم القرد ٥٧ أن يضغط على الرافعة بمجرد ظهور القرد ٥٣ أى أنه تعلم إستجابة هروبية إزاء القرد ٥٣ ، ودربت القرود كلها بعد ذلك على التهرب من القرد ٥٣ ، وكان الهدف هو معرفة كيف يؤثر تعلم التهرب من حيوان كان متواضعاً فى نظام السيطرة على علاقات السيطرة فى الموقف العادى للجماعة ، وقد اتضح أن القرد ٥٣ إرتفع فى سلم السيطرة بتقدم التدريب فضلا عن أن القرود التى لم تتكيف فى الجزء الأول من التجربة إزاء القرد ٥٣ أبدت أيضاً تغييرات واضحة فى علاقات السيطرة معه فمثلا بعد ثلاث فترات تدريبية للتكيف أجريت على فأرين فقط لتعليمهما تجنب الفأر ٥٣ إرتفع قدر هذا الفأر الأخير فى سلم السيطرة لا فوق هذين الفأرين فقط بل فوق ٤ فئران .

ثالثاً : الدافع إلى التملك : يرى البعض أن الدافع إلى التملك أساسياً فى الإنسان ، وتبعاً لهذه الفكرة فإن الإنسان يولد ولديه الرغبة فى الامتلاك . إلا أن الإعتراض على هذه الفكرة أن هناك بعض الحضارات لا تظهر فيها الرغبة فى التملك بين الأشخاص[٢٦] . بينما تظهر بوضوح شديد فى مجتمعات أخرى ، والواقع أن الرغبة فى التملك قد تكون تعبيراً عن الرغبة فى السيطرة والوصول إلى المكانة ، وقد تكون بهذا المعنى دافعاً للشعور بالأمن أيضاً ، فالأفراد يختلفون فيما بينهم فيما يسعون إليه لكسب المكانة فمصادرها متنوعة متعددة ويستمد الفرد معاييرها من الجماعة ويحاول أن يقارن نفسه بها ويسعى لاكتساب المميزات التى تجعل له مكانة[٢] . والكفاح من أجل المركز والمكانة يأخذ أشكالا عديدة معروفة جيداً فقد يكون أساسها المقتنيات المادية أو الإنجازات أو الوضع الاجتماعى ، والواقع أن المركز والمكانة تختلف من مجتمع لمجتمع ففى بعض الحضارات نجد أن لها وزناً كبيراً بينما لا تكون كذلك فى مجتمعات أخرى ، ففى دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على قبائل الهنود الحمر المعروفة باسم كواكيوتل[١٩] . وصلوا إلى نتائج أن الكفاح من أجل المركز والمكانة يصل إلى درجة شديدة فهم يجمعون الطعام والأغطية ثم يدعون منافسيهم إلى إحتفال حيث يشعلون النار فى كل مقتنياتهم والمكانة التى يصلون إليها تعادل مقدار المقتنيات التى يحرقونها ويظل المنافسون المقهورون صابرون زمناً طويلا إلى أن يتمكنوا من جمع مقتنيات يستطيعون أن يقيموا من أجل إحراقها حفلا يدعون إليه خصومهم ويجتهدون أن تكون قيمة هذه المقتنيات أكبر حجماً كى يستعيدوا مكانتهم . لكن علماء الأنثروبولوجيا يعودون فيلفتون النظر إلى أن هذه الظاهرة لا تظهر مثلا فى قبائل أرابيش فى غينيا الجديدة وكذلك لا تعرف قبائل الزونى الذين يسكنون نيومكسيكو شيئاً مطلقاً عنها . فلا تقوم بين الأفراد أية منافسة ظاهرة ولا ينشد أحد البروز فوق سائر الجماعة .

رابعاً — الدافع إلى التوحد مع الجماعة : من المسلم به أن الجماعات الإنسانية تقوم وتبقى لإرضاء حاجات الناس عن طريق تفاعلهم وتعاونهم . فلا يمكن أن يتحقق

للإنسان الشعور بالأمن والحب والصداقة إلا من خلال الجماعة . كما أنه عن طريق تعاونه مع الآخرين يمكن أن يحقق أهدافاً قد يعجز عن تحقيقها بمفرده ، والسلوك الإنسانى يكتسب معناه فقط فى موقف إجتماعى ، والإنسان بوصفه حيواناً إجتماعياً يستمد الرضا من الانتماء إلى الجماعة ، غير أن الجماعات تتفاوت فى درجة تحقيقها لهذا الشعور بالرضا ويتوقف ذلك على نوع العلاقات السائدة بين أعضائها ، فقد يشتد الصراع بين الأعضاء وقد يقل التوتر إلى الحد الأدنى وتقل حاجة الفرد إلى السلوك مسلكا دفاعياً . ومن ناحية أخرى نجد أن بعض الأعضاء يرغب لا فى الانتماء والتوحد مع الجماعة فقط ولكن فى أن يؤثر فى الآخرين أو فى أن يقودهم ، وقد تشتد هذه الحاجة لدى العضو فيصبح الانتماء إلى الجماعة مجرد وسيلة لتوجيه الآخرين والتأثير فيهم ، وفى هذه الحالة يصبح التسلط القوى الشامل هو المصدر الرئيسى للشعور بالرضا ، وتقدم الجماعة للفرد مواقف عديدة يستطيع فيها أن يظهر مهارته وأن يستغل قدراته وأن تعترف الجماعة بإمكانياته . ويتوقف شعور الفرد بالرضا الذى يستمده من انتمائه إلى الجماعة من الفرص التى تتاح له كى يلعب دوره بوصفه عضواً من أعضائها . ومن الدوافع أيضاً للانتماء للجماعة إرضاء الحاجة إلى المكانة الاجتماعية وإلى التقدير من الآخرين وهذه المكانة عامل هام فى تشكيل الصورة التى تتكون لدى الآخرين عنا وفى تشكيل الصورة التى نكونها عن أنفسنا ، ومن هـــذه الدوافع أيضاً الرغبة فى تحقيق الذات Self - Actualization وهى خاصية من خصائص الفرد السوى تتمثل فى الرغبة فى التقدم وفى إستغلال الفرد لإمكانياته إلى أقصى حد من أجل أن تتقدم الجماعة ، وكل هذه علامات على التوحد بالجماعة . فالفرد يفكر فى الجماعة لا باعتبارها شيئاً مستقلا عنه بل باعتبارها إمتداداً لذاته ، ويشعر بأن كل ما يحققه لنفسه إنما يحققه من أجل الجماعة ، أى أن توحد الفرد بالجماعة قد يحقق له المكانة والأمن والقوة وقد يكون لهذه الأشياء قيمة أكبر إذا ما فشل الفرد فى الوصول إليها بمفرده .

خامساً — القيم كدافع : يكافح الإنسان من أجل القيم التى يعتبرها هامة بالنسبة إليه ، وفى كثير من الأحيان تتداخل القيم مع التوحد مع الجماعة . فإن إعتناق الفرد

لقيم دينية أو سياسية أو أخلاقية قد ترتفع بالنسبة إليه لأنها قيم الجماعة التى ينتمى إليها وعلى العكس من ذلك قد يعتنق الإنسان قيمه أو مبدأ معيناً بدون الاعتبارات الاجتماعية ومن أهم القيم لدى الإنسان إعتبار الذات" Conscience (٢٦) فهى التى تمنع الإنسان من إرتكاب المخالفات حتى رغم علمه بأنه لن يتعرض للعقاب وقد يكون لهذه القيمة جوانب إيجابية أو سلبية ، فالطفل يثاب على الصواب ويعاقب على الخطأ من طفولته وهكذا كلما إرتبطت هذه القيمة بالإثابة أصبح لها دوافع إيجابية وكلما إرتبطت بالعقاب أصبح لها قيمة سلبية والقيم عديدة فى حياة الإنسان ويمكن أن نلخصها فى الآتى :

(أ) نظرية ·　　(ب) مادية ·　　(جـ) جمالية ·

(د) إجتماعية ·　　(هـ) سياسية .　　(و) دينية ·

تفاعل الدوافع

تحدثنا حتى الآن عن الدوافع الداخلية الفسيولوجية والدوافع المكتسبة الاجتماعية كل منها على حدة ، لكن يوجد فى الواقع تفاعل كبير جداً بين هذه الأنواع المختلفة من الدوافع فإن الأثر البالغ للدافع من منبه خارجى قد يزداد كثيراً من جراء إقترانه بأثر ناشىء عن منبه داخلى والعكس بالعكس وحتى برغم ذلك قد لا يكون أحدها على قوة كافية لتنشيط الدوافع ، كذلك يحتمل جداً أن تنتج عملية التفكير فكرة معينة مثيرة للدوافع عندما يكون التنبيه من البيئة الداخلية أو الخارجية أو منهما معاً أقل ما يمكن وعلى العكس فإن وجود هذه الفكرة قد يقوى أثر المنبهات الخارجية أو الداخلية ، ذلك أن الفكرة العابرة عن الطعام قد لا تكفى وحدها لإثارة دافع الجوع الفعال إلا إذا صاحبها تقلص المعدة قليلا ورؤية طعام . أى أنه يمكن تحريض حالات الدوافع المثارة بطرق متنوعه منها البيئة الداخلية للجسم فإن إضطراب التوازن الذاتى فى ضوابط عمليات الجسم قد يؤدى بالشخص إلى القيام بفعل موجه نحو هدف إستعادة التوازن الداخلى ومن مصادر تحريض الدوافع الأشياء والأحوال فى البيئة الخارجية وبعض الأشياء لها صفة

الحافز للشخص سواء كانت فطرية أو مكتسبة بالتعلم وعلى غرار بيئة الجسم قد يحدث فى البيئة المادية والاجتماعية إختلال فى التوازن الذاتى لضبط الأحداث كما يتطلب فعلا مدفوعاً من جانب الشخص وقد ينتج التحريض من تيار الأفكار فى الحياة العقلية ، وكل هذه الأنواع من المحرضات تتفاعل بطريقة معقدة حسب الموقف الوقتى كله . ولهذا كان تحليل الدوافع مشكلة شائكة أمام الدراسة العلمية . فعوامل التنبيه القادرة عادة على تنشيط حالة دافع معينة قد تفشل فى ذلك بسبب أن الكائن منغمس فعلا فى حالة دافع آخر مثار بشدة ويبدو أن بعض الدوافع تتقدم غيرها بمعنى أنها إذا نشطت تعذر على الأخرى الظهور بسرعة فمثلا نجد الإنسان الشديد الجوع لا يتعرض لاستثارة دافع آخر مثل التحصيل مثلا .

قياس دوافع الإنسان المكتسبة

ذكرنا أن الاضطراب فى وظائف الجسم يولد توتر ، هذا التوتر يؤدى إلى ظهور سلوك مدفوع مستمر ومتنوع ، ولا شك أن قياس الدوافع يتضمن قياس النشاط ، ذلك أن الحافز نفسه لا يبدو ظاهراً وبهذا فإن طرق القياس لابد وأن تتضمن الخواص الثلاث التى ذكرناها للسلوك المدفوع وهى الشدة ، والاستمرار ، والتنوع (٢٦) .

وقياس الدوافع من العمليات الهامة ، ذلك أننا لابد وأن نستطيع التعبير على أساس موضوعى كمى عن شدة الدافع المثار فى أى لحظة معينة ، ونعنى بشدة الدافع قوته على التأثير فى سلوك الشخص وتوجيهه . وبغير هذه المقاييس (مهما تكن غير دقيقة) لا نستطيع تقرير نتائج ذات معنى عن علاقة الدافع بمظاهر السلوك المعينة مثل كيف تؤثر درجة الدافع على التعلم ، والقياس مطلوب أيضاً لمقارنة آثار مختلف الدوافع أى ما هى الدوافع الأكثر أثراً فى التعلم ؟ وما هو الدافع الذى يحدد الفعل من بين دافعين والواقع أن قياس الدوافع أمر لا غنى عنه لفهم سلوك الفرد (١٥) .

مشاكل قياس الدوافع : قياس الدوافع من أشق الأعمال التى تواجه السيكولوجى

وتنبثق الصعوبات من تعقد وتشابك الدوافع الإنسانية ولابد لنا عند قياس الدوافع من أخذ النقاط الآتية فى الاعتبار : (١٩)

١ — يجب أن يكون القياس غير مباشر أى لابد من إستنتاجه عن طريق قياس السلوك الذى يحفزه الدافع والذى يمكن ملاحظته .

٢ — نظراً لاحتمال وجود أنواع شتى من القمــــع والكف داخلية وخارجية للتعبير المباشر للدوافع فإن قياسه لا يتأتى إلا باستخدام مؤشرات غير واضحة تظهر فى السلوك اللاشعورى للشخص .

٣ — إستنتاج شدة الدافع من السلوك تقودنا إلى صعوبة أخرى لأن هناك العديد من المظاهر السلوكية المختلفة للدافع المثار .

٤ — الدوافع المثارة لا تحدث كل بمفردها بل تتزامن دائماً فى إتساق مع بعضها ونظراً لأن الآثار المشاهدة للدوافع المتعددة قد تبدو متشابهة جداً فقد يصعب معرفة أى الدوافع هو الذى نقيسه .

٥ — وأخيراً فإن فعل القياس ذاته قد يميل إلى تغيير فى حالة الدافع أثناء قياسه فمثلا عند محاولة قياس شدة الجوع لدى الشخص بملاحظة المجهود الذى يبذله للوصول الى طعام يصبح من الضرورى وضع العراقيل فى طريقه مما يؤثر على الدافع لأن مجرد وضع العراقيل قد يجعله ينظر إلى الطعام على أنه أكثر جاذبية وهذا يدخل تغييراً على شدة الجوع .

طرق القياس

استنبطت طرق كثيرة للقياس بغرض التغلب على المشكلة وقد صادف كل منها نجاحاً كبيراً أو قليلا ويمكن أن نجملها فى الآتى :

أولا : نلاحظ أولا أن الطريقة التى يسلكها الفرد إزاء الهدف عندما يصل إليه

تعطينا فكرة عن شد الدافع ، فالرجل الذى يأكل كميات كبيرة بسرعة كبيرة يفترض أن الجوع يدفعه بشدة أكبر من آخر يأكل ببطء ، لكن الاعتراض على هذا الأسلوب أن هـذا السلوك قد لا يمثل شدة الحافز الذى لدى الانسان للوصول إلى الهدف ، ذلك أن الانسان عندما يصل إلى هدف يبدو له مختلفاً فى بعض الأحيان عما كان فقد يصبح أكثر جاذبية أو أقل جاذبية ، أى أنه بمجرد دخوله منطقة الهدف فقد لا يظهر استجابة تنفيذية عاجلة رغم أن الدافع ربما كان شديداً ، ومن العيوب العملية الخطيرة لهذا القياس أنه يتطلب وصول الفرد الى الهدف حقيقة بينما فى أغلب الحالات المطلوب قياس دوافعها لا يستطيع الفرد الوصول إلى الهدف فعلا أو على الأقل لا يمكنه الوصول إليه فى الوقت الذى يجب أن يؤخذ فيه القياس (١٩) .

ثانياً : يمكن قياس شدة الدافع من سهولة التعلم والتحصيل ، فإذا قارنا بين جماعتين من الطلاب تهدف إحداها دائما للحصول على درجات مرتفعة بينما لا تهتم الجماعة الأخرى بذلك كان لنا أن نستنتج أن الجماعة الأولى مدفوعة بشكل أقوى وأن هذا يرتبط برغبتها فى الحصول على درجات مرتفعة [٢٦] .

كما أن العمل البدنى والمجهود العضلى يعتبر أيضاً مقياساً لشدة الدافع المثار ، فإن الفرد يبذل جهداً بدنياً شديداً كلما كان الدافع الذى يهدف للوصول إليه شديداً بينما لا يبذل إلا جهداً بسيطاً إذا لم يكن مدفوعاً بدرجة كبيرة .

ثالثاً : يقدم لنا محتوى التدفق الفكرى لدى الانسان بما فيه أحلامه وتخيلاته حالات دافع مثارة بطرق غالبا ما لا يكون واعياً لها تماماً وبدراسة مدى بروز وتردد الموضوعات فى تيار سلوك تخيلى يمكن الوصول إلى تقدير لشدة حالات الدوافع المتعلقة بهذه الموضوعات وقد استخدمت فعلا طريقة تستخدم مواد مقننه لإثارة تخيلات واضحة فى قياس مختلف دوافع الانسان نذكر منها التجربة الآتية [١٩] .

استغل كابلاند وزملاؤه سلوك التخييل فوضع طرقاً لقياس مختلف الدوافع الانسانية مثل دافع التحصيل أو الانجاز ، وكمنبهات لإثارة التخييل وسلوكه قدموا

صوراً لمواقف بسيطة تماثل تلك التى استخدمها مورای فی اختبار تفهم الموضوع فمثلا كانت هناك صورة لشاب واقف فى شارع جانبي وفى يده مكنسه وهو ينظر إلى بعيد وغير ذلك من الصور ، وبعد أن يقال للشخص أن الاختبار عباره عن اختبار للخيال الابداعى يطلب منه كتابه قصة مختصرة عن كل صورة تعطى أسئلة مثل : ما الذى يحدث ؟ ما الذى أدى إلى هذا الوقف ؟ ما هو التفكير الذى يدور ؟ ماذا سيحدث ؟ وتعطى درجات للقصص حسب بروز وتوارد الأفكار الخاصة بالنجاح والتقدم فى الحياة وانجاز الأشياء الخ ... ونورد فيما يلى بعض نماذج من القصص التى كتبها بعض الأشخاص حول هذه الصورة .

« يعمل صبى فى مخزن بقالة،وقد تخرج توا من المدرسة الثانوية ولا يملك ما يكفى لذهابه إلى الكلية وهو واقف يفكر فى المدة التى يستغرقها إدخاره ما يكفى لتعليمه ، فهو لا يريد البقاء كاتباً فى مخزن طوال حياته ويريد أن يجعل من نفسه شيئاً مذكوراً » .

« يبدو أن هذا الشاب طلب منه أبوه تنظيف الطريق ومنعه هذا من الذهاب الى الشاطىء هذا اليوم مع أصدقائه وهو يراقبهم وهم ذاهبون فى سيارتهم ويشعر بأنه منبوذ وحانق على أبيه » .

القصة الأولى تستحق درجة عالية من ناحية دافع الانجاز والتحصيل وتستحق الثانية درجة منخفضة ، ووجد الباحثون بعد تطبيق هذا الاختبار على عينات مختلفة من الشباب أن هناك فروقاً واسعة ومضطرده فى درجات دافع التحصيل . وأوضحت التجارب فيما بعد أن الدرجات التى أحرزت مرتبطة ارتباطاً له معنى بسلوك الشخص التحصيلى فى مواقف أخرى وبالدرجة التى تثار بها دوافع التحصيل فى حينها وبتاريخ حياة الانسان .. الخ ...

رابعاً : التعبير الشفهى عن الدوافع : يشك علماء النفس عادة فى إمكان الاعتماد على مثل هذه الطريقة فى التعبير عن الدوافع ، ذلك أن الفرد قد يرغب فى إخفاء دوافعه عن المختبر ، كما أنه قد يخشى التعبير عنه خاصة إذا كان يعلم أن هذا الدافع غير مقبول

اجتماعياً ، أو قد لا يكون هو نفسه واعياً تماماً بوجود هذا الدافع فى نفسه (٢٦) .

قد قـــدم لنا Edwards طريقة مقننة يعتمد فيها على تقرير الفرد عن دوافعه وابتكر طريقة تتضمن ١٦ حاجة أساسية للانسان مشتقة أساساً من فكرة موراى عن الحاجات ويكون على الفرد أن يختار بين تفضيلين لدافعين وبهذا يتضح أى الدافعين أقوى بالنسبة إليه (١٥) .

ولـكن طريقة التعبير الشفهى عن الدوافع تواجه صعوبات كثيرة فنحن لا نستطيع سؤال الأطفال كى يصفوا لنا دوافعهم ولا نستطيع أن نطلب ذلك من أفراد غير قادرين على الاتصال بسبب إصابتهم بمرض أو اختلال عقلى ، وحتى إذا استطاع الفرد أن يتكلم فسنظل غير متأكدين مما إذا كان تقريره صحيحاً ويمكن الاعتماد عليه فقد يكون فى موقف معقد للغاية يتضمن العديد من محددات الدوافع فلا يستطيع إعطاء تقرير موثوق به . وقد يعمد كما ذكرنا إلى الكذب لأنه لا يريد كشف دوافعه والصعوبة الرئيسية هى أنه حتى لو أعطى تقريراً أميناً عن دوافعه كما يراها بوضوح فقد نجد دوافعه التى أدلى بها غير مطابقة لما يتكشف من سلوكه طبقاً لتحليلات المراقب الخارجى (١٩) .

خامساً : مستوى النشاط : قد يكون من مؤشرات الدوافع هو مجرد مستوى النشاط الناتج وذلك بالنسبة للحيوان عن طريق عجلة النشاط التى سبق أن ذكرناها ولـكننا لا نستطيع أن نربط الانسان بعجلة النشاط ، لـكننا نلاحظ مستوى النشاط بطريقة أخرى وكمؤشر لشدة الدافع فنحن نستنتج أن الشخص القلق الذى يتحرك باستمرار هنا وهناك يدور فى رأسه شيء ما أى أنه مدفوع بشكل أو بآخر فإذا لاحظنا القلق فى موقف معين مثلا عندما ينتظر الطالب إعلان نتيجة الامتحان فعندئذ نقترب من استنتاج أى الدوافع نقيس أى أن درجة التوتر تعتبر مؤشراً طيباً على درجة شدة الدافع .

سادساً : السلوك الواضح : ومن الطرق أيضاً أن نلجأ إلى مجرد الاستماع إلى

أحاديث الأفراد بدلا من سؤالهم مباشرة عن دوافعهم ونستنتج منها شدة الدوافع لديهم فمثلا فى تجربة أجريت على شخص جائع جداً وجد أن معظم حديثه يدور حول الطعام وذلك بدون أن يوجه إليه المجرب أى سؤال .

هذه بعض الأساليب التى تستخدم فى قياس الدوافع وكما رأينا أن كلا منها قد يواجه بعض الصعوبات وإن كان ذلك لا يعنى أنها غير صالحة وربما كان الجمع بين طريقتين أو أكثر لقياس الدوافع يقترب بها من القياس الدقيق .

دوام الدوافع واشباعها : فى حالة الحاجات العضوية تنتهى الحاجة إلى النشاط عندما يزول النبه ، وبالنسبة للدوافع الأخرى يتوقف النشاط عادة عند الوصول إلى هدف ما إلا أن هناك بعض الأنشطة التى قد نرغب فى استمرار أدائها وقد لا يكون لها نقطة توقف طبيعية مثل حل مجموعة من الألغاز مثلا ففى مثل هذه الحالات نصل عاجلا أو آجلا إلى نقطة اشباع عندها تفقد الواجبات جاذبيتها الأولى فنملها ، وإذا أجبرنا على الاستمرار فيها قد لا يكون ذلك مجلباً للسرور ولا يكون الأمر مسألة تعب . إذ قد نقبل على واجب آخر بمتعة جديدة وعلى افتراض أنه لم تدخل فى المسألة أية اعتبارات أخرى نجد أن دافع الاستمرار قد صمد فى هـذه الواجبات فلماذا يحدث لنا ذلك ؟ ولعل الرغبة فى الواجب الجديد عامل هام . وتتناول فى الفصل القادم اشباع الدوافع المباشر والرغبة فى الاشباع البديل ثم الاشباع المتزايد الذى قد يصل بنا إلى حالة التشبع التى تجعلنا نمل الاستمرار فى الواجب الأصلى . ثم ننتقل بعد ذلك إلى الآثار المترتبة على احباط الدوافع .

الفصل الثانى

الدوافع والدافعية ــ إشباع الدوافع

ينتهى القسم الأكبر من الدوافع المثاره بالوصول إلى الأهداف بدون عائق ، وقد يكون هذا من حسن حظ الكائنات وحماية لرفاهيتها ، فالهدف ظاهر بوضوح ، والطريق اليه مخطط ، والأفعال اللازمة تقع بفاعلية وبلا إزعاج . وهكذا تنتهى الحاجة إلى الأشباع . وكذلك تنتهى الرغبة ، ثم تختفى حالة الدفع تبعا لذلك . هذا النمط من ازدياد التوتر يتبعه تناقص التوتر فورا وهو نمط شائع فى التجارب قد لا يتطلب اهتماما يذكر : غير أن إشباع الدوافع المثاره يطرح أسئلة تستحق الدراسة ، فالوصول إلى الهدف وتناقص التوتر ليسا دائماً شيئيين متماثلين ، فقد يكتشف الإنسان أن الهدف لم يكن مناسباً فى الحقيقة للحاجة أو الرغبة ويظل توتره قائماً لا يزول وعلى العكس توجد طرق كثيرة لإنقاص التوتر دون الوصول للهدف(١٩) .

ولكن ما الذى يحرك النشاط ؟ وما هى النقطة التى يتوقف عندها ؟ . قد نقول أن المنبه سواء كان خارجياً أم داخلياً هو الذى يحرك النشاط ولكن هذا القول ليس جديداً الآن ولابد لنا بعد هذا العرض الذى قدمناه من أن ننظر للمنبه كشىء يثير التوتر أو كشىء يخل بتوازن الكائن ، وطالما بقى مصدره ظل الكائن فى حالة توتر. والإنسان يشعر بالتوتر ويعانيه ، وقد يدرك أيضاً المنبه الذى سببه وما يجب عمله للتخلص منه ، والطريقة الوحيدة المفيدة فى إزالة التوتر هى إزالة حالة الاقلاق أو تغييرها وقد يكون سببها الأساسى عدم توافر شىء نحتاجه أو نريده ، وقد يكون وجود شىء لا نريده أو شىء غير مرغوب أو مؤلم . والحياة العقلية تتابع طويل واحد من التوترات ومحاولات إزالتها وما يأتى فى أعقاب ذلك من نجاح أو فشل ، وفى لحظة واحدة قد

يعانى الإنسان عدداً من التوترات المتنوعة معا بعضها يمكن إزالته فوراً وبقليل من جهد بينما تستغرق الأخرى ساعات أو أيام أو سنوات (١٢) .

والبقاء على قيد الحياة معناه معاناة التوترات ، ورغم أن التوترات قد لا تكون مريحة فإنها لحسن الحظ تجعل الحياة شيقة ، وإحساسنا بالارتياح عندما نخلص أنفسنا منها يكافىء ويزيد إحساس عدم الارتياح ، ولا شك أن النشاط المدفوع هو نشاط يتضمن طاقة وكلما ازداد التوتر حدة كلما زادت طاقة النشاط فما الذى يزودنا بهذه الطاقة ليس المنبه ولا شك لأن المنبهات لا تفعل سوى إطلاق الطاقة . والحاجات الداخلية رغم أنها تولد التوترات لا تسهم فى إعطاء الطاقة بل هى فقط تقود أو توجه تفريغها ، وقد يكون فى الاستطاعة فى بعض الأحيان تصحيح النقص أو الاضطراب المسبب للحاجة بطريقة مستقلة عن كفاح الشخص من أجل الوصول للهدف . فقد تنجح طرق التوازن الذاتى فى الجسم فى سد النقص وبذلك تزول الحاجة دون القيام بأى أعمال أخرى ، وقد تتولى أحداث البيئة ذاتها تصحيح الاضطراب وهنا أيضاً تختفى الحاجة وأحيانا ما نجد الدوافع المبتورة تترك للانسان أحساساً من عدم الاتمام . فقد أجهد نفسه واتخذ طريقا من العمل الموجه نحو الهدف ثم يجد نفسه « معلقا فى الهواء » ، وأكثر ما يحدث هذا التوتر المتخلف عندما يكون الدافع مركبا بحيث يعنى الوصول للهدف أكثر من مجرد زوال الحاجة(١٩) .

إشباع الدوافع بواسطة دوافع أخرى بديلة : قد يحدث أثناء الفعل الموجه إلى هدف تغيير حاد فى الموقف يحتاج إلى تحول فى اتجاهات نشاط الفرد ، وهنا ينحاز الدافع الأصلى جانبا بتأثير دافع آخر أكثر إلحاحا ، ورغم أن التوترات المتصلة بالدافع الأول قد تدوم لقدر معين فإنها ربما تتبدد تدريجيا بمرور الوقت حتى إذا أصبح الفرد حراً للعودة للنشاط الأصلى لا يجد فى نفسه ميلا اليه . وقد يحدث طبعا أن يمتزج توتر الدافع الأصلى الذى بتر بالدافع الدخيل بحيث يزيد من شدته وهنا فإن التوصل إلى هدف جديد مختلف يمكن أن ينقص التوتر الأصلى الذى ينفرج بالتفريغ من خلال نشاط آخر .

والأفعال البديلة تنشأ عادة فى الظروف التى لايستطيع الإنسان فيها أن يصل إلى هدف معين وهى ظروف تؤدى إلى وجود توتر نفسى ، وقد تبدو هذه العبارة مفهومة لأول وهلة ولكنها ليست كذلك إذا ما نظرنا إليها من وجهة ديناميات الموقف ، فواضح أن الفعل البديل ينبثق من جهاز التوتر المقابل للفعل الأصلى ، ولذا فالمنتظر — والحالة هذه — أن يحدث تفريغ جهاز توتر الفعل الأصلى من خلال الفعل البديل سواء بصفة تامة أو جزئية ، لكن الفرد فى كثير من الأحيان لا يزداد إلا إستياء وانفعالا كما يظهر بوضوح من التجارب التى أجريت والتى سنعرض لها بعد قليل ، ولكن إذا لم يحدث تفريغ للجهاز الرئيسى من خلال الفعل البديل فليس من السهل من وجهة الديناميات أن ندرك لماذا ينشأ الفعل البديل ؟ (٢١) .

وإذا أراد الإنسان تحديد المدى الذى يحدث فيه الإبدال فإنه يواجه صعوبة كبرى ، فمثلا إذا انتزعنا دمية من طفل أثناء تجربه ، وبدأ الطفل يصنع ملابس للدمية فقد نسمى هذا نشاطاً بديلا ، أما إذا بدأ الطفل يلعب بقطار فهنا لا نستطيع الجزم بشيء من هذا القبيل ، فقد يقول أحدنا أنه نشاط بديل ويقول آخر إنه ليس كذلك ، وأن الطفل ربما يلعب بالقطار حتى ولو لم تؤخذ منه الدمية ، فما هو مدى التشابه الذى يجب أن يقوم بين الفعل الأصلى والفعل اللاحق حتى يمكن القطع يقيناً بأن الفعل اللاحق هو فعل بديل ؟

ومن المستحيل التهرب من هذه الصعوبة بقصر فكرة الإبدال على الأفعال التى تماثل فى مضمونها الفعل الأصلى ، إذ لا ريب فى وجود افعال بديلة تخالف تماماً فى شكلها الفعل الأصلى فمثلا نعلم من أعمال فاجانز Fagans (٣١) . أن الدمية قد تكون بديلا حقيقياً لطفل لم يستطع الوصول لقطعة من الحلوى ، ومن ناحية أخرى نجد فعلين متماثلين كل التماثل ومع ذلك لا يؤدى أحدهما دور البديل للآخر .

ومن الوجهة الديناميه لا يمكننا التحدث عن الإبدال سوى فى الحالات التى يرتبط الإبدال بجهاز التوتر المقابل للهدف الأصلى ، أى إذا إنبثق الفعل البديل

من هذا الجهاز الأصلي فقط وطبقاً لوجهة النظر الديناميه هذه نرى علاقة غير منتظرة بين الإبدال وبين إستخدام الأدوات أو الوسائل الأخرى لبلوغ الهدف ، فإذا أراد إنسان أن يبلغ آخر معلومات معينة وكان التليفون معطلا فإنه يرسل برقيـــة ، وإذا لم يستطع طفل سلوك سبيل مباشر إلى هدفه فإنه يحاول بلوغه بطريق آخر غير مباشر ، وفى كل هذه الحالات حيث يتغير تنفيذ النوايا حسب البيئة المحيطـة ينبثق فعل جديد من الجهاز النفسى المقابل للهدف الأصلى .

وقد دلت التجارب على أننا نجد فعلا إنتقالا مرناً بين إستخدام أدوات أو طرق جديدة وبين الفعل البديل الخاص ، فمثلا إذا إستخدم الشخص عصا ليضع الأطواق على زجاجة فاستخدام الأداه بهذا الشكل يغير معنى الواجب بحيث يصبح لدينا واجب آخر جديد ، وإذا إستخدمنا فكرة الإبدال بالمعنى الواسع نستطيع عندئذ التحدث عن إستخدام الأدوات من وجهة النظر السيكولوجية على أنها هدف بديل أو فعل بديل والموضوع الأساسي الذى نعرض له الآن هو ما إذا كان الفعل البديل يؤدى إلى إشباع بديل وتحت أى ظروف يحدث ذلك ؟

قام ليفين تجريبياً بتحديد ما إذا كان يمكن تفريغ جهاز التوتر عن طريق فعل بديل ، حيث بينت دراسات أوفسيانكينا سنة ١٩٢٨ أنه إذا قوطع نشاط كان قد بدأ يحدث ميل قوى لاستئنافه نتيجة لجهاز التوتر المقابل لشبه الحاجة إلى إكمال الواجب وهذا ما فسرته بوجود دافع نحو الإكمال «Drive toward completion» (٣٠) كما بينت ذلك دراسات زيجارنيك التى سنعرض لها بالتفصيل فى الفصل القادم، فعمد ليفين فى تجاربه إلى إعطاء الشخص واجباً جديداً يبدوا بديلا للنشاط الأول عندما يقطعه ، فمثلا إذا كان الواجب الأصلى هو تشكيل كلب من الصلصال فيكون الواجب الثانى تشكيل حيوان آخر أو كرة من الصلصال[٢١] . وإذا كان الواجب المقطوع هو حكاية قصة فقد يطلب من الشخص رسم صورة للخاتمة ، وإذا قاطع الشخص وهو يرسم صورة فقد يطلب منه إكمال الصورة بحكاية قصة .

كما قام ليفين بدراسة حالات كانت العلاقة فيها بين الأنشطة الأصلية والبديلة

قائمة فى العمل بمواد من نفس النوع ، وحالات كان مضمون النشاط فيها متماثلا لكن المادة مختلفة . فإذا كان للنشاط الثانى قيمة فعلا بصفته بديلا فلا بد وأن يحدث تفريغ كلى أو جزئى لجهـــاز التوتر الناشىء عن قطع النشاط الأصلى وعلى ذلك فإن الشخص يكون أقل إقبالا على استئناف النشاط الأصلى إذا كان للواجب الثانى قيمة بديلة بحيث تمكنه احداث إشباع بديل بينما يزيد إقبال الشخص على استئناف النشاط الأصلى إذا لم يكن للواجب الثانى قيمة بديلة .

والواقع أنه يمكن الرجوع بفكرة جهاز أو نسق للتوتر Tension System إلى كيرت ليفين ١٩٣٥(٢٣) حيث كانت فكرة جهاز التوتر تؤدى دوراً رئيسياً فى نظريته وكانت حافزاً لسلسلة من التجارب الرائدة عن الاسترجاع وإستئناف النشاط المبتور والنشاط البديل والتشبع ، ويقال إن هناك جهازاً فى حالة توتر داخل الشخص كلما وجدت حاجة أو نية (وتسمى أحيانا شبه حاجة quasineed) ويزول التوتر إذا أشبعت الحاجة أو النية ، ولهذا التوتر صفات معينة هى (ا) إنه حالة منطقه أو جهاز يحاول أن يغير ذاته بطريقة تجعله مساوياً لحالة المناطق المحيطة به بحيث إذا أصبح حجم التوتر فى أحد المناطق غير متساو لحجمه فى المناطق الأخرى ظهرت قوى عند حدود المناطق لتجعل حالة المنطقة ا مساوية لسائر المناطق(٣١) (ب) انه يتضمن قوى عند حدود المجال . ولهذا فنحن نقول إن التوتر يفرض ضغوطاً معينة وأنه يميل إلى الانتشار فتعرف الحاجة بأنها جهاز توتر داخل الفرد .

وتوجد علاقة محددة بين أجهزة التوتر فى الشخص وبعض خواص مجاله السيكولوجى وعلى وجه الخصوص يمكن أن ينسب التوتر إلى قيمة موجبة لمناطق النشاط فى المجال السيكولوجى التى تظهر عند إنقاص التوتر ، غير أن وجود منطقة مكافئة موجبـــة (منطقة هدف) يتوقف أيضاً على ما إذا كانت هناك امكانيات متوقعة لانقاص التوتر ، فالشخص الذى ليست لديه فكرة عن كيفية انقاص التوتر ولا يعرف منطقة هدف يجد سلوكه محدداً برغبته فى ترك منطقته السالبة الحالية إلى غيرها ثم يترك هذه الأخيرة إلى غيرها أيضاً وهكذا ، فيتصف سلوكه بالحركة وتغيير المكان فى اتجاه بعيد عن المنطقة الحالية أو بالحركة القلقة إذا استخدمنا وصف الحالة الملاحظة ، ويلاحظ أن

البحث الذى يحدث حين يعرف الشخص بوجود منطقه هدف لكنه لا يعرف مكانها فيه كثير من الشبه بالنشاط القلق لكنه يتميز عنه بأن الاتجاه نحو الهدف ظاهر وأن ترك المنطقة الحالية ليس إلا وسيلة لغاية. وإذا وجدت منطقة هدف خاصة بجهاز فى التوتر بمجال سيكولوجى فيمكن لنا تأكيد قوة تؤثر على النفس الساكنة لتتحرك نحو الهدف، فالتوتر الذى له هدف مدرك لا يؤدى إلى ميل للحركة الفعلية نحو منطقة الهدف فحسب بل وأيضاً إلى التفكير فى هذا النوع من النشاط ويمكن التعبير عن ذلك بأن نقول أن القوة التى تدفع الشخص نحو الهدف توجد لا على مستوى العمل (الواقع) فحسب بل وعلى مستوى التفكير أيضاً[٢٣].

ونظراً لأن بناء التوتر يعنى حالة جهاز واحد بالنسبة إلى حالة الأجهزة المحيطة به فإنه يفترض تمثيلا هندسياً للشخص، وعندما تصور ليفين (١٩٣٥) الشخص كمجموعة من الأجهزة الفرعية المتمايزة فقد رفض المبدأ القائل بأن «كل شىء متصل بكل شىء آخر» واعتبره مضللا لأن هناك مجـــالا كبيراً من التعاون بين الأجهزة الفرعية فى الشخص وكثير من بحوث ليفين وتلاميذه تهتم بمعرفة أى من العوامل هى التى تحدد تعاون أجهزة التوتر واعتماد كل منها على الآخر ومصير التوتر مع اختلاف ظروف العمل.

<u>ويمكن تلخيص مفاهيم ليفين الرئيسية فيما يختص بالتوتر فى النقاط الآتية:</u>

<u>أولا ـ الطاقة</u>: يفترض ليفين أن الشخص نظام معقد من الطاقة ويسمى نوع الطاقة التى تقوم بالأعمال النفسية باسم الطاقة النفسية وتنطلق الطاقة النفسية عندما يحاول الجهاز النفسى العودة إلى التوازن بعد أن يوضع فى حالة من انعدام التوازن، وينتج انعدام التوازن هذا عن ازدياد التوتر فى جزء من أجزاء الجهاز بالقياس إلى بقية أجزائه سواء أكان ذلك نتيجة تنبيه خارجى أم تغير داخلى، وعندما يتساوى التوتر داخل الجهاز كله مرة أخرى يتوقف توليد الطاقة ويتجه بأسره إلى الراحة[٧].

<u>ثانياً ـ التوتر</u>: وهو الحالات الانفعالية التى تصاحب الحاجات وهو حالة يكون عليها الشخص أو هو حالة المنطقة الشخصية الداخلية بالقياس إلى المنطقة الشخصية

الداخلية الأخرى وتسمى الوسيلة النفسية التى يتم عن طريقها تعادل التوتر باسم عملية process وقد تكون العملية تفكيراً أو تذكراً أو وجداناً أو إدراكاً أو عملا ، فمثلا الشخص الذى يواجهه عمل يقتضى حل مشكلة مايصبح متوتراً فى أحد نظمه ولكى يحل هذه المشكلة ومن ثم ينخفض التوتر يقوم بعملية تفكير ويستمر التفكير حتى يتسنى له الحصول على حل مقبول وفى هذا الوقت يعود الشخص إلى حالة التوازن ولا تعنى حالة التوازن أن النظام يخلو من التوتر ، فليس من المحتمل أن يستطيع كائن ما أن يصل إلى حالة من التخلص التام من التوتر وأن يظل حياً ، والتوازن يعنى إما أن التوتر داخل النظام الكلى متعادل أو أن نظاماً جزئياً يوجد به قدر غير متعادل من التوتر معزول عزلا محكما ومنفصلا عن بقية النظم الشخصية الداخلية ·

ثالثاً ـ الحاجة : وهى مفهوم ليفين الرئيسى لأية حالة دفع تثيرها حاجة فسيولوجية أو بيئية و رغبة فى الوصول لهدف معين(٨) كذلك يفرق ليفين بين الحاجات وأشباه الحاجات ، فالحاجة ترجع إلى حالة داخلية كالجوع على حين تماثل شبه الحاجة قصداً محدداً ·

رابعاً التكافؤ : التكافؤ خاصية تصورية ذهنية لمنطقة البيئة النفسية ، إنها قيمة هذه المنطقة عند الشخص ، وهنالك نوعان من القيمة ، إيجابية وسلبية فالمنطقة ذات القيمة الإيجابية هى تلك التى تحتوى على موضوع هدف يخفض التوتر إذا مادخل الشخص هذه المنطقة ، أما المنطقة السالبة فهى التى تزيد من التوتر ، إن التكافؤات الإيجابية تجذب ، أما التكافؤات السلبية فتطرد ·

ويتسق التكافؤ مع الحاجة ويعنى هذا إن حصول منطقة معينة من البيئة على قيمة إيجابية أو سلبية يعتمد مباشرة على وجود نظام من التوتر . إن الحاجات تضفى على البيئة قيمة ·





نلاحظ أن المنطقة التى تحتوى على طعام يكون لها تكافؤ إيجابى عند الشخص الجائع إما بالنسبة للشخص الذى يخاف من الكلاب فيكون لهذه المنطقة تكافؤ سلبى .

القوة أو الكمية الموجهة: يحدث التحرك عندما تؤثر قوة ذات شدة كافية على الشخص وتتسق القوة مع الحاجة إلا أنها ليست توتراً وتوجد القوة فى البيئة النفسية على حين أن التوتر خاصية من خصائص النظام الشخصى الداخلى .

ويمكننا أن نلاحظ أن مفهوم الحاجة هو المفهوم الوحيد الذى ترتبط به جميع التصورات الذهنية الأخرى ، فالحاجة تطلق القوة وتزيد التوتر وتعطى القيمة وتخلق القوة ، إنها مفهوم ليفين الرئيسى أو المركزى الذى تنتظم حوله المفاهيم الأخرى (٧) .

التحرك : لنتصور الآن الممر المعين الذى يعبره الشخص فى تحركه خلال بيئته النفسية ، فمثلا قد يمر الطفل بمحل للحلوى وينظر من خلال النافذة ويتمنى لو حصل على بعض منها ، ومرأى الحلوى يستثير الحاجة . وهذه الحاجة تفعل ثلاثة أشياء . أنها تطلق الطاقة وبذا تستثير التوتر فى منطقة شخصية داخلية وهى تضفى تكافؤاً إيجابياً على المنطقة التى توجد فيها الحلوى وتخلق قوة تدفع الطفل فى وجهة الحلوى .

العودة إلى التوازن : الهدف النهائى لجميع العمليات النفسية هو إعادة الشخص إلى حالة من التوازن — حيث يعرف إنعدام التوازن كما سبق أن بينا بأنه حالة من عدم تساوى التوتر داخل النظام الداخلى للشخص ، فلنفرض أن واحداً من النظم الشخصية الداخلية فى حالة من التوتر المرتفع على حين يكون مستوى التوتر منخفضاً فى بقية النظم الشخصية الداخلية الأخرى — ويمكن فى هذه الحالة الوصول إلى التوازن بإحدى الطرق الآتية :

أولا — أن ينتشر توتر النظام فى جميع أنحاء النظم الأخرى حتى يتعادل التوتر فى أنحاء الغلاف الشخصى الداخلى .

ثانياً — القيام بتحرك مناسب فى البيئة النفسية ، والتحرك المناسب هو ذلك الذى يقود الشخص إلى موضوع مشبع للهدف ٠

ثالثاً — قد يؤدى تحرك بديل إلى خفض التوتر واستعادة التوازن حيث تتطلب هذه العملية أن يكون هناك إعتماد متبادل وثيق بين حاجتين بحيث يؤدى إشباع إحدى الرغبتين إلى تفريغ التوتر من نظام الحاجة نفسها وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل الآن .

رابعاً — وأخيراً قد تؤدى تحركات تخيلية خالصة إلى خفض التوتر فالشخص الذى يتخيل أنه قد أنجز عملا صعباً أو أنه يشتغل منصباً مرموقاً يحصل على إشباع بديل عن طريق أحلام اليقظة ٠ وسنتناول أيضاً هذا الجزء بالتفصيل بعد قليل ٠

ومن المهم أن نبين الآن أنه من الأهمية بمكان أن يكون الفعل البديل فى حالة معينة على إتصال دينامى مباشر بالواجب الأصلى ٠ إذ نجد القيمة البديلة منخفضة جداً إذا كان النشاطان منفصلين سيكولوجياً بسبب ظروف الموقف الخارجى الخاص ، ومثل هذا الإنعزال يمكن تحقيقه أحياناً بأن يقول المشرف على التجربة وقت قطع النشاط « والآن لدينا واجب جديد من كل وجه » ويمكن أن تقوى القيمة البديلة مع نفس الواجب إذا إنبثق البديل من الواجب الأصلى (٢١) ٠

الإبدال عند ضعاف العقول : تبدو الدلالة الكبرى لنوع الإرتباط بين الجهازين القابلين للواجب الأصلى والواجب البديل فى التجارب على الأطفال ضعاف العقول بصفة خاصة ، فقد وجد كوبكه وزيجارنيك (٢١) ٠ الحقائق التالية بالنسبة للأطفال ضعاف العقول من مستوى المورون ممن يبلغ عمرهم بين سبع وثمانى سنوات : إذا لم يعط الأطفال ضعاف العقول عملا بديلا فإنهم يستأنفون النشاط المقطوع فى جميع الأحوال ، أى أن نسبة عدم الاستئناف تساوى صفراً فى المائة ٠ أما بالنسبة للأطفال الأسوياء الذين يصغرون أولئك بعام فقد كان عدم الإستئناف ١٨٪ وإذا أعطى واجب بديل تصبح نسبة عدم الإستئناف فى حالة الأطفال ضعاف العقول ٥٪ بينما تكون فى حالة الأسوياء ٧٠٪ وهذا يعنى أن القيمة البديلة القوية جداً بالنسبة

للأسوياء لا أثر محسوس لها بالنسبة لضعاف العقول · وزاد كوبكه التماثل بين النشاط الأصلي والنشاط الثانى إلى درجة التطابق ، فمثلا لو كان الواجب الأصـــلى هو رسم حيوان على ورق أحمـر يقوم الواجب الثانى فى رسم نفس الحيوان على ورق أخضر ، أو إذا كان الواجب الأصلى بناء كوبرى يكون الواجب الثـانى بناء كوبرى آخر مثل الأول تماماً ، وفى هذه الحالة لم تتجاوز نسبة عدم الإستئناف عند الأطفال ضعاف العقول ٢٠٪ ، وهذه النتيجة الرقمية ذات الدلالة تبدو مناقضة للتجارب الأخرى ، إذ نجـد الطفل ضعيف العقل إذا تعذر عليه بلوغ هدف عاده يقنع بسهولة بإنجاز بسيط يقل عن مقصده الأول ، ولاحظ جوتشالت [٢١] · نفس الشىء فى بعض التجارب الخاصة فالطفل ضعيف العقل إذا أراد بناء برج من بلوكات ووجد صعوبة فى بنائه يقنع بسهولة نسبية بالقيام بعمل بديل مثل بناء برج صغير أو أى بناء آخـر بسيط ، ويدل على سهولة إقتناع ضعيف العقل بالقيام بأعمال بديلة إن طفـــلا صغيراً ضعيف العقل أراد رمى كرة لمسافة بعيدة لـكنه لم ينجح فى محاولته ومع ذلك أظهر السعادة لأنه قام بتلك الحركة الضعيفة ، والواقع إن الطفل ضعيف العقل يميل للإقتناع بإشارة إذا إستحال عليه الفعل الحقيقى وهكذا نجد ولا ريب حالات كثيرة يسهل فيها إقناع الطفل ضعيف العقل بالإبدال أكثر مما فى حالة الأطفال الأسوياء ·

وفى نفس الوقت أظهرت تجارب أخرى أنه فى كثير من الحالات كان للقيمة البديلة أثر ضئيل عند ضعاف العقول عنه عند الأسوياء ، ولـكى يزيل ليفين هذا التناقض بين هـذين النوعين من الحالات قدم عرضاً لطبيعة الأجهزة السيكولوجية فى الأطفال ضعاف العقول ، على أساس أن جميـع حالات الضعف العقلى ليست لها ذات الطبيعة السيكولوجية · ولذا فإن ليفين يتحدث عن النوع الأكثر شيوعاً · والإفتراض العام هو أن الضعف العقلى ليس مجرد نقص فى الذكاء فقط بل هو أيضاً يدل على فرق فى تـكوين الشخصية وعلى وجه العموم فقد كان من الصعب تعريف هذا النوع من الشخصية وتحديدها ، وقد درس ليفين الموضوع فى السنوات الأخيرة وفيما يـلى نقـــدم وصفـاً مختصراً للنظرية التى نتجت عن هـذه الدراسة : (ليفين ١٩٣٥) ·

من الناحية الدينامية يقوم الفرق بين الأفراد على أساس أسس معينة ، فالإنسان من الوجهة الدينامية هو مجموعة أجهزة ، فأولا يمكن تمييز بنيان هذه المجموعة الـكليه· أى درجة تمايز الأجهزة ، ونوع تمايز الأجهزة فى هذا الـكل ، فمثلا الطفل الذى عمره سنه واحده ليس متمايزا ديناميا إلى أجهزة منفصلة كما يتمايز الرجل ذو الثلاثين عاما . وثانيا قد تختلف المادة الدينامية للأجهزة فى نفس البنيان ، فقد تـكون الأجهزة جامدة قليلا أو كثيراً أو قد تـكون مرنه ومائعه قليلا أو كثيراً وهـكذا ، فيبدو مثلا أن احتمال تغيير جهاز معين سهل فى الطفل فى معظم الأحوال عنه فى البالغ · ويبدو أن المرونه والجمود فى الأجهزة صفة أساسية ومهمة جداً فى الإنسان كله وثالثا تأتى مسألة الفروق فى المضمون التى تقابل مختلف الأجهزة إذ قد يختلف المضمون مع نفس البنيان ونفس المادة (ليفين ١٩٣٥) ·

وتبعا لتجارب ليفين بالنسبة لفئة المورون يبدو أن من الخصائص المميزة لهم أن الأجهزة السيكولوجية جامدة نسبيا وليست مرنة ولوأن هناك بعض الحقائق المتضاربة · فالطفل ضعيف العقل يمكن تعريفه من الناحية الدينامية بأن بنيانه أقل تمايزا كبنيان الطفل الأصغر منه سنا لـكن الأجهزة ليست بمرونة الطفل السوى الأصغر منه سنا بل هى أكثر تثبيتا وهذه الدرجة القليلة من التمـايز تفسر مانسميه طفولية المورون Infantalism وعلى كل حال من الواضح أن ضعاف العقول ليسوا مساوين للأطفال الأسوياء الأقل منهم سنا ·

وتبعا لهذه النظرية بأن الأجهزة أكثر جموداً يمكن تفسير نتائج تجارب المقاطعة البسيطة التى لاتقدم فيها أية واجبات بديلة ، وهى أن ضعاف العقول يستأنفون الواجبات بعد قطعها فى ١٠٠ ٪ من الحالات ، وهذا الإستئناف المتكرر بشكل غير عادى ينتج عن أن جهاز التوتر إذا مانشأ فإنه يبقى بدون تغيير وبدون أن يتبدد بالتفريغ ، وتتفق هذه النتيجة مع مشاهدات الحياة اليومية إذ نرى ضعاف العقول غالبا يتصفون بالعناد الشديد ويصعب عليهم أن يبدلوا أهدافهم مادامو قد توجهوا إليها . وهذا العناد المشهور هو نتيجة لجمـود أجهزته السيكولوجية لـكننا لانجد

الإستئناف بنسبة ١٠٠ ٪ إذا أدخل الطفل عقب الواجب الأول فى موقف مختلف تماما ، بل العكس ، يحدث الاستئناف عندئذ بدرجة أقل مما فى حالة الطفل السوى وفى مثل هذه الحالات من التجارب نجد أيضا النتيجة المتطرفة وهى الإستئناف بنسبة ٢٠ ٪ .

وسبب عدم الإستئناف فى هذه الحالة هو أيضاً جمود الأجهزة السيكولوجية ، فالموقف الجديد قد يكون من الجمود بحيث لايمكن تغييره بسرعة تكفى لإيجاد إرتباط مع الموقف السابق ومن الأمور المميزه لهذا النوع من ضعاف العقل أنهم لايستطيعون عمل شيئين فى وقت واحد بل ينهمكون بكليتهم فى موقف واحد معين ، وعلى ذلك فان نظرية جمود الأجهزة تمكننا من تفسير لماذا نجد فى بعض الأحوال نسبة إستئناف عالية بدرجة غير عادية ، وفى بعض الأحوال الأخرى نسبة إستئناف منخفضة بدرجة غير عادية أيضا كذلك نستطيع إستخدام هذه النظرية لتفسير التناقض الذى أشرنا إليه آنفا .

وتبرز مسأله ما إذا كان للفعل البديل قيمة بديلة فيما يتعلق بالأجهزة الدينامية السيكولوجية عندما يكون أحد الأجهزة مقابلا للواجب الأصلى وجهاز آخر مقابل للواجب الثانى ، فإذا أريد أن يكون لاتمام الواجب الثانى ـ أى النشاط البديل ـ قيمة بديلة بالنسبة للجهاز الأول وجب أن يرتبط الجهازان بحيث يؤدى تفريغ الجهاز الثانى إلى تفريغ الجهاز الأول فى نفس الوقت أى لابد أن يكون الجهازان كلا ديناميا واحداً ، ويلاحظ أن الأجهزة لدى الأطفال الأسوياء من السيوله بحيث يكفى تماثل الواجبين إلى نوع من الإرتباط بين الجهازين فعندما يتلقى الشخص واجباً ثانياً مماثلا يتغير الجهاز الأول بحيث يصبح الجهاز الجديد جزءا ديناميا من الجهاز القديم وهذان الجهازان لايبدوان ممتزجين ببعضهما تمام الامتزاج فى جهاز كلى واحد غير متمايز الأجزاء بل يصبح لدينا جهاز موحد فيه حاجز دينامى بين جزئيه فإذا حدث تفريغ لأحد الأجزاء يحدث بالتبعية وحسب قوة الحدود الداخلية تفريغ للجهاز كله ، وعندما يتاتى ضعيف العقل العمل الثانى يظل النظام الأصلى باقيا نتيجة لهذا الجمود فيتكون جهاز جديد

منفصل للعمل الثانى ولهذا فان تفريغ الجهاز الثانى يؤدى إلى تفريغ الجهاز الأول — أى لا يكون للعمل الثانى قيمة بديلة .

ولو صحت هذه النظرية فلابد تبعاً لوجهة نظر ليفين أن يكون فى الإمكان إيجاد إشباع بديل لدى الأطفال ضعاف العقول ، إذا وجدنا سبيلا لتهيئته (تهيئة واجب ثانى من خلال الجهاز الأصلى) ويحدث هذا عادة عندما يتطرق الطفل تلقائياً من النشاط الأصلى إلى بديل كما فى تجارب جوتشالت (ليفين ١٩٣٥) وفى الحالات التى تحدثنا عنها آنفاً . وهنا لدينا جهاز واحد فقط وعندئذ لا بد أن تصبح القيمة البديلة عظيمة بصفة خاصة ، ونتيجة لجمود الأجهزة لا نجد فى هذه الحالات تمايز الجهاز الكلى إلى جزئين منفصلين عن بعضهما بجدار رقيق كما فى الأطفال الأسوياء وعلى ذلك يؤدى الفعل البديل إلى تفريغ الجهاز الكلى لدى الأطفال ضعاف العقول بصورة أكمل مما فى الطفل السوى ، وهكذا نستطيع بالنسبة للأطفال الأسوياء إيجاد فعل بديل بسهولة لكن القيمة البديلة ليست تامة، أما لدى الأطفال ضعاف العقول فالجهازان إما منفصلان تماماً بحيث لا يكون للنشاط البديل قيمة بديلة أو يكون الإشباع البديل تاما إذا ما ارتبط الواجبان ، وأداء ضعاف العقول قائم على أساس « كل شىء أو لا شىء » وهذه ظاهرة هامة لا تحدث فى مجال الإبدال فقط بل وفى المجالات الأخرى مثل الذكاء (ليفين ١٩٣٥) .

أنواع مختلفة من الإبدال : تدخل درجة صعوبة الواجب الثانى كعامل محدد فى نسبة الاستئناف فكلما ازدادت درجة صعوبة الواجب الثانى كلما ازدادت القيمة البديلة . وكذلك تدخل درجة واقعية ولا واقعية الفعل البديل كعامل هام فى تحديد القيمة البديلة ، فلا يحدث البديل عادة فى شكل فعل واقعى فقط ، بل فى صورة أحلام اليقظة أو بناء قصور فى الهواء ، فهل لهذا النوع من الإبدال قيمة بديلة حقيقية ؟ وهذا السؤال قد يكون من الصعب نسبياً الرد عليه ، ذلك لأنه من الصعب إجراء التجارب على هذا الإبدال غير الواقعى عن طريق الكلام أو التفكير بدلا من الفعل الواقعى الحقيقى ، وقد أجرى ماهلر .وليسز تجاربهما بهدف تحرى الظروف التى تحتها يعمل نشاط ما عمل البديل بمعنى محدد هو أنه يشبع الحاجة إلى القيام بنشاط آخر ، وتناولت تجارب ليسز الإشباعات البديلة للحاجات على

مستوى الواقعية بينما تناولت أعمال ماهلر الإشباعات البديلة على مستويات مختلفة من غير الواقعية .

والطريقة كما قدمتها أوفسيانكينا وزيجارنيك تتلخص فى تقديم سلسلة من الواجبات إلى شخص يسمح له بأن يتم بعضها بينما يبتر البعض الآخر ثم تأتى فى أعقاب كل واجب فترة استراحة يترك الشخص فيها حراً ليعمل ما يشاء فوجدت أوفسيانكينا كما سبق أن بينا أن الشخص كان يستأنف العمل فى الواجبات المبتورة فى غالبية الحالات ، أما الواجبات التى تمت فكانت تلقى الاهمال فى جميع الأحوال تقريباً فما هو السبب ؟ قيل فى تفسير ذلك أن نية عمل واجب ما تعادل من الوجهة الدينامية الحاجة أو تعادل حالة توتر فى جهاز الإنسان فطالما بقى التوتر كان الإنسان مدفوعاً للاشتغال بهذا الواجب ويظل التوتر باقياً حتى يتم الواجب أو إلى أن يمضى قدر معين من الزمن . وهذا يعنى أن عقب مقاطعة الواجب مباشرة يكون الجهاز المقابل له فى حالة توتر ولذا يجنح الإنسان إلى الاشتغال بهذا الواجب أو استئنافه . أما إذا تم الواجب فإن التوتر يزول والنتيجة أن الإنسان لا يعود إليه .

فاستخدم ماهلر وليسز (١٠) عودة الشخص من تلقاء نفسه إلى إستئناف الأنشطة المبتور كمحك لوجود حاجات غير مشبعة أو توترات ، فطلبا من كل شخص أداء سلسلة من الواجبات بترت كلها وإستخدما جماعة ضابطة وعده جماعات تجريبية ، وكانت الطريقة بالنسبة للجماعة الضابطة مطابقة تماماً لما أتبعته أو فسيانكينا بصدد الواجبات المقطوعة ، أى أن الأشخاص تركوا مع أدواتهم الخاصة بعد قطع النشاط ثم حددت لهم النسبة المؤية لحالات الإستئناف التلقائية ، أما بالنسبة للجماعة التجريبية فقد قدم لهـا نشاط آخر يشبه النشاط الأصلى قليلا أو كثيراً « بديل » عقب قطع النشاط الأصلى ، وسمح للشخص باكمال النشاط البديل ، وكان الغرض معرفة ما إذا كان الواجب الثانى أدى وظيفة البديل باشباع الحاجة إلى اكمل النشاط المقطوع ، وقد تم ذلك باجراء المقارنة بين النسبة المئوية لمرات إستئناف الواجب المقطوع عندما لم يتبعه واجب ثان فى الجماعة الضابطة وبين النسبة المئوية لمرات إستئناف

الواجب ذاته فى الجماعة التجريبية حيث يتبعه واجب ثان ، وكان التعبير عن القيمة البديلة لكل واجب أو عمل قام به الشخص بعد قطع واجب آخر يقاس بالنسبة التالية :

النسبة المئوية لمرات الاستئناف عندما لم يقدم واجب ثان [استئناف بغير بديل].

النسبة المئوية لمرات الاستئناف عند تقديم واجب ثان [استئناف ببديل] .

وعندما كانت هذه النسبة أكثر من ر١ أعتبر أن العمل البديل المشار إليه كانت له قيمة عالية بديلة أما إذا لم يعد الشخص إلى الواجب الأصلى فيكمله بعد اكماله للواجب الثانى فعندئذ يفترض أن هذا الواجب الثانى قد إستنفذ أو خفف التوتر المقابل للواجب السابق أى أشبع الحاجة .

القيمة البديلة للأنشطة البديلة : أجريت بحوث ليسنر فى عام ١٩٣٠/١٩٣١(١٠) وكانت العينة مكونة من طلبة راشدين تطوعوا لهذا الغرض واستخدمت فى البحوث عدة سلاسل من الواجبات كان بعضها تشكيل الصلصال مثلا يدويا فى طبيعته بينما كان البعض الآخر مثل الترجمة من الفرنسية من النوع العقلى ومع كل واجب أصلى واجب آخر يمكن إعتباره بديلا له ، ورتبت الواجبات الأصلية والبديلة فى أزواج على أساس كبر التشابه أو صغره فى الهدف ونمط العمل وأستخدمت ستة أزواج من تلك الواجبات فى المرحلة الإبتدائية من البحث .

النتائج : كان من الضرورى منذ البداية تحديد عدد مرات استئناف الواجبات الاصلية حين تقطع دون تقديم بديل عنها واتباعا لطريقة أوفسيانكينا ١٩٢٨ فرقت ليسنر بين الاستئناف الحقيقى التلقائى للواجب المقطوع وبين الافعال التى تعبر بوضوح عن ميل نحو الاستئناف وأدخلت فى هذه الافعال التماس الأدوات اللازمة لأداء الواجب والاشتغال به وتحت الظرف الأول من الدراسة كانت النسبة المئوية للاستئنافات التلقائية الحقيقية لا تقل عن ٦٠ ٪ بأى حال وعندما أدخلت فى الحسبان الميول نحو أستئناف العمل أصبحت النسبة المئوية لا تقل عن ٧٠٪ فى أية حال . وكانت الخطوة

التالية تحديد نسبة الاستئناف عندما يأتى بعد الواجب الأصلى المبتسور واجب بديل
وتحت هذه الظروف نقصت النسبة المئوية للاستئنافات بشكل واضح إلى حالتين ، أى
أن حالتين فقط من حالات البدائل الستة أظهرتا قيمة بديلة ملموسة ، وكانت النتيجة
المستفادة من ذلك إن التوتر القابل للواجب المتبود يمكن إزالته بإتمام واجب مماثل ،
لكن الأمر لا يحدث على هذا النحو باستمرار ، وإتضح من تحليل الواجبات المختلفة
أن فى الحالتين التين أظهر فيهما الواجب البديل قيمة بديلة كان كلا الواجب الاصلى
والبديل يتطلبان نمطاً من الفعل متماثلا . وفى الواجبات الأربع الباقية كانت النتائج النهائية
للواجب الأصلى والواجب البديل متماثلة ولكن طريقة الوصول للنهاية كانت مختلفة
بالنسبة للبديل عنها بالنسبة للأصلى ، وكذلك دلت النتائج أن هناك عاملا ثانياً له
أهميته هو مدى صعوبة الواجب البديل بالمقارنة بالواجب الأصلى فعندما كان الواجب
البديل أسهل كثيراً من الواجب الأصلى لم تظهر القيمة البديلة .

كما أجرت ليسز محاولة لاختبار دلالة مستوى صعوبة الواجب البديل بالمقارنة
بالواجب الأصلى فصممت بدائل جديدة أكثر صعوبة مع الاحتفاظ بالواجبات الأصلية
وإتضح أن القيمة البديلة لهذه الواجبات الأكثر صعوبة كانت تقرب من ضعف قيمة
الواجبات السهلة . ولمراجعة إحتمال أن تكون هذه النتيجة راجعة إلى أسباب أخرى
غير الصعوبة التى تفرق بين الواجبات أجرت ليسز عملية ضابطة إستخدمت فيها سلسلة
جديدة من الواجبات الأصلية واتبعت كلا منها بواجب بديل سهل وواجب صعب
فكانت النتيجة متمشية مع النتائج السابقة .

ونستطيع أن نلخص هذه التجربة بقولنا أنه إذا كان إفراغ التوتر فى أحد الأجهزة
يؤدى إلى شحن جهاز آخر بالتوتر فلا بد أن يكون الجهازان على إتصال دينامى ،
وبعبارة أخرى يجب أن يكون كلاهما أجزاء لكل دينامى أكبر منها ، وقد يؤدى تماثل
نمط التشابه وما يعنيه الواجب بالنسبة للشخص إلى إنشاء مثل هذه العلاقة بين
الجهازين (١٠) .

هذا وقد إتضح أن موقف الاستعادة ــ وذلك من خلال عدد كبير من التجارب ــ

غالباً ما يكون أكثر تعقيداً مما أوضحناه الآن ، فعندما يبتر العمل بسبب الاخفاق الشخصى (كما فى التجارب التى يكون العمل فيها مقياساً للتقدير الاجتماعى والكفاءة) وعندما تصبح إستعادة هذا الاخفاق تهديداً لاحترام الإنسان لنفسه ، أو عندما تعمل إستعادة النجاح على رفع الكرامة الشخصية فإن نسبة الاستئناف تتغير حسب الموقف (١) .

ويؤيد هذا الرأى النتائج التى إنتهت إليها الدراسات التى قامت بها زيجارنيك وتجربه أخرى قام بها مارو Marrow سنة ١٩٣٨ ، وقد دلت البيانات على أن الحقيقة السيكولوجية وليست الحقيقة الموضوعية هى التى لها وزن ودلالة فى التنبؤ بسلوك الافراد ، فقام مارو سنة ١٩٣٨ بتجربة أخبر فيها الأفراد بأن الغرض الأساسى من البحث هو مجرد معرفة ما إذا كان الفرد قادراً على أداء عمل معين وأنه —أى المجرب— سوف يوقف الشخص عن أداء العمل فى اللحظة التى يدرك فيها قدرته على أدائه . وفى هذه الحاله يمكن أن يكون العمل المبتور من الناحية الموضوعية منتهياً أيضاً من وجهة نظر الشخص (١) .

وفى تجربة أخرى على الأطفال قام كل من أدلر Adler وكونين Kounin سنة ١٩٣٩ بدراسة إتجاه الأطفال نحو إستعادة الأنشطة الموقوفة وقد وجدا أن الأطفال قد إستطاعوا إسترجاع النشاط الموقوف الذى كانوا قد بدأوا به من أنفسهم وأنهم لم يعودوا لإكمال عمل آخر عرضه عليهم المجرب كبديل له (٣١) .

القيمة البديلة ودرجة الواقعية : أجرت ماهلر تجارب من هذا النوع نعرض لها الآن بشىء من التفصيل ، فقد وجدت ماهلر بصفة عامة أن القيمة البديلة تقوى كلما زادت واقعية الفعل البديل ، إلا أنها قد لاحظت أنه لا يمكن تحديد درجة واقعية الفعل بنوع الفعل البديل فحسب بل بملاحظة العلاقة بين الفعل البديل والفعل الأصلى فى حالة بعينها ، كما وجدت ماهلر أنه لابد من التفرقة بين الهدف الداخلى والهدف الخارجى للنشاط وبين درجة واقعية الواجب الثانى ، ومعها تصبح القيمة البديلة أكبر كلما إقترب

الفعل البديل من الهدف الداخلى للفعل الأصلى ، ولا يكفى عادة لإفراغ التوتر فى الواجبات التى فى صورة مسألة ذكاء أن يجد الشخص الحل فى التفكير بل المهم أن يعبر عن الحل فى الواقع وبهذه الطريقة تتضح الأهمية القصوى للعوامل الاجتماعية فى تحديد صفة الحدث الواقعية أو غير الواقعية ، ولا يقع إفراغ التوتر فى الجهاز الأصلى إلا إذا تمكن الشخص من إبلاغ المشرف على التجربة بحل الواجب البديل إذا لا تصبح الواقعية على درجة كافية إلا فى حالة القبول والاعتراف الاجتماعى (٢١) .

الهدف العام للمشكلة : كان الدافع إلى الدراسة التى قامت بها ماهلر عن الفعل البديل على مستوى عدم الواقعية هو التأكيد على فكرة الاشباعات البديلة اللاواقعية السائدة فى ميدان علم النفس المرضى ، وكان فرويد خاصة يقول بأن الاحلام قد تؤدى إلى إشباعات لا ينالها الإنسان فى الواقع وأن الأفعال الرمزية فى المرضى العصابيين قد تؤدى إلى إفراغ التوترات الناجمة عن الاحباط (١٠) . ويمكن أن نعرف مستوى الواقعية بأنه مستوى الأشياء كما هى فعلا وواقعاً وعلى ذلك يمكن القول بأن مستوى اللاواقعية هو مستوى الأشياء كما يحب الإنسان أن تكون عليه . وقد أثبتت تجارب ليسز التى عرضنا لها الآن أنه تحت ظروف معينة يؤدى فعل بديل على مستوى الواقع إلى إفراغ التوتر الموجود فى الجهاز القابل للحاجة غير المشبعة وكانت المشكلة أمام ماهلر هى التأكد مما إذا كان هذا صحيحاً بالنسبة للأفعال البديلة على مستويات اللاواقع .

أجريت تجارب ماهلر على ١٥٥ راشداً و ٣٥ طفلا تراوحت أعمارهم بين ٦ إلى ١٠ سنوات وكانت طريقة ماهلر مماثلة لطريقة ليسز مع فرق واحد حاسم هو أن الفعل البديل الذى يعقب الواجب الأصلى لا يتمثل فى الاشتغال بواجب جديد كل الجدة ولكن بالإشتغال بإتمام بديل للواجب الأصلى ، فيطالب من الشخص إكمال النشاط المقطوع بطريقة أخرى تختلف عن الطريقة التى يتطلبها عادة ، واتبعت ماهلر طريقة ليسز أيضاً فى حساب الاستئنافات التلقائية والافعال التى تعبر عن ميل إلى الاستئناف وحددت القيمة البديلة لكل إتمام بديل طبقاً للمعادلة الآتية :

$$\text{القيمة البديلة} = \frac{\text{أفعال الميل للاستئناف بدون إتمام بديل}}{\text{أفعال الميل للاستئناف مع إتمام بديل}}$$

أنواع البدائل : استخدمت أربعة أنواع من الأتمام البديل قصد أن يقع كل منها عند نقطة مختلفة على مقياس الواقع — اللاواقع وكانت بترتيب تزايد درجة اللاواقع : (ا) بالفعل ، (ب) بالكلام ، (حـ) بالفكر ، (ى) بالتفكير السحرى.

وفيما يلى نماذج من الأنواع الثلاثة الأولى من الإتمام .

(ا) الواجب الأصلى : تثقيب شكل كامة على ورقة بواسطة إبره ، الواجب البديل — إتمام شكل الكامة باستعمال قلم رصاص .

(ب) الواجب الأصلى : ترقيم كمية من الأوراق البيضاء باستخدام قلم رصاص ، الواجب البديل : عد الأوراق الباقية شفهيا بدون ترقيم على الأوراق .

(حـ) الواجب الأصلى : حل مسألة حساب ، الواجب البديل : إتمام المسألة فى عقله .

النتائج : كان للتجربة مرحلتان : مرحلة استخدم فيها الأطفال ومرحلة أجريت فيها التجارب على الراشدين ، وأوضحت النتائج أن الاتمامات البديلة أدت إلى إنقاص كبير فى مرات الإستئناف وأن القيمة البديلة للاتمامات على مستوى الواقع (الفعل) أعلى منها فى حالة الاتمامات على مستوى اللاواقع (الكلام)[١٠] .

مقارنة الأهداف الداخلية والأهداف الخارجية : لاحظت ماهلر أن القول بأن جميع الإتمامات البديله بالفعل هى أكثر واقعية من الإتمامات بالكلام هو قول تحكمى لأن دراسة البيانات توضح أن درجة لا واقعية الإتمام البديل تتفاوت كثيرا تبعا لما يعنيه الواجب الأصلى بالنسبة للشخص فلكل واجب « هدف داخلى » و « هدف خارجى » ، وعرفت ما هلر الهدف الخارجى بأنه الهدف المحدد الذى يعنيه المشرف على التجربة ، والهدف الداخلى بأنه الهدف الذى يرسمه الشخص لنفسه ، والمثال

على هذه التفرقة يمكن استخلاصه من الواجبين الأساسيين : ترقيم سلسلة من الصلبان بقلم رصاص على فرخ ورق وترقيم عدد من الأوراق البيضاء بإستخدام قلم رصاص ، فالهدف الخارجي لها متماثل أى الترقيم بالكتابة ، لكن ملاحظات الأشخاص أظهرت أن الهدف الداخلي متفاوت كل التفاوت فالهدف من الواجب الأول كان التأكد من عدد الصلبان بينما هدف الواجب الثانى هو رسم كل صفحة وبالتالى تمييزها عن باقى الأوراق . وبعد عد الصلبان شفويا كبديل لترقيمها باستخدام القلم الرصاص لم تزد النسبة المئوية للاستئنافات عن ١٧٪ وبعد عد الأوراق شفوياً كبديل لترقيمها بالقلم الرصاص كانت النسبة المئوية ٧٣٪ وفى الحالة الأولى كان الإتمام البديل وسيله لبلوغ الهدف الداخلي للواجب الأصلى بينما لم يكن كذلك فى الحالة الثانية .

القيمة البديلة للتفكير السحرى : فى التجارب التى تحدثنا عنها حتى الآن لم تتحرك الإتمامات البديلة كثيراً بعيداً عن مستوى الواقع ، فرتبت ماهلر واجبين يتصفان بالصعوبة . كان أحدهما يتطلب حل لغز ميكانيكى والآخر حل مسألة بالتفكير المجرد . وعند قطع الواجب كان المشرف يقول للشخص « تخيل أن لك قوى سحرية وتستطيع عمل أى شيء تريده فكيف تكمل هذا الواجب » ؟ وقد تبين أن التفكير السحرى كما أسعته ماهلر يمنع الأشخاص من إستئناف العمل فى اللغز ، لكن يبدو أنه كانت له قيمة بديلة فى مسألة التفكير . غير أن سلوك الأشخاص دل على أنه من غير المحتمل إن عدم إستئنافهم للواجب الأخير كان راجعا إلى إفراغ التوتر ، ويعتقد المشرف أن الاحتمال الأقوى هو أن الأشخاص فقدوا اهتمامهم لأعتقادهم بأنهم خدعوا .

ثم أعيد بحث الموضوع ذاته بطريقة مختلفة نوعا : فاستخدمت مشكلة كانت قد إستثارت فى تجربة سابقة أجرتها ديمبو حلولا خيالية بديلة فوضع بالون فى ركن من غرفة التجربة يبعد مسافة طويلة عن الشخص الذى كان يجلس إلى منضده وطلب من الشخص أن يحضر البالون دون أن يتحرك من مكانه وأدخل فى روعه أن المشكلة قابلة للحل بينما لم تكن كذلك فى الحقيقة ، وكانت هناك عصا طويلة وهى أداة كافية للغرض يمكن أن يراها الشخص لكنها بعيدة عن متناوله وأبدى ٣٥٪ من الأشخاص تقريبا حلولا تلقائية غير واقعية واقترح أحدهم أن يستنشق الهواء بعنف وهكذا يسحب

البالون على تيار من الهواء ، وتمنى الآخر زلزالا خياليا يؤدى هذه المهمة ، وأظهر جميع الأشخاص تقريبا شعورا بالضيق عندما قطع الواجب واقترح عليهم هذا التفكير السحرى ويبدو أنهم جميعا كانوا متطلعين إلى حل المشكلة حلا حقيقيا ولذا فليس من المستغرب أن نجد القيمة البديلة للحلول الخيالية غير مرتفعة[١٠] .

الإشباعات البديلة للحاجات غير الواقعية : إذا بنى هدف الواجب الأصلى على مستوى لا واقعى فهل يكون للإتمام اللاواقعى قيمة بديلة ؟ ولاختبار هذا الإحتمال صممت تجربة على شكل لعبة ، فأعطى كل شخص عدة أفرخ من الورق كتب على كل منها توجيه بإجراء حركة بهلوانية بسيطة وأعيد واجب البالون كما هو باستثناء أنه بعد قطعه أعطيت لكل شخص « عصاً سحرية » ليعمل بها التغيرات المطلوبة فى وضع البالون ، وبينت النتائج أن الإتمام البديل فى هذه الحالة أدى فعلا إلى فراغ بعض التوتر لكن القيمة البديلة ظلت منخفضة برغم ذلك وكان تفسير هذا ينهض على أساس أن بعض الأشخاص لم يتشبعوا بروح الوهم إما بسبب ما أصابهم من إضطراب أو لترفعهم عن الهزل وهكذا لا يكون الحل السحرى بديلا بالنسبة لهم .

مقارنة الأطفال والراشدين : حدوث الأفعال البديلة غير الواقعية فى حالة الأطفال يثير عدداً من المسائل ذات الأهمية ، فعلى وجه العموم تحدث الإنتقـــالات فى حالة الأطفال من مستوى الواقع إلى مستويات اللاواقع فى سهولة وتكرار أكثر مما فى حالة البالغين ، وعلى هذا الأساس أدخلت ماهلر تعديلا على تجاربها وطبقته على ١٣ طفلا ، وكان الواجب الأصلى يتلخص فى البحث عن قطعة من الشكولاته مخبأة فى غرفة التجارب ، أما الإتمام البديل فكان إحضارها من المخبأ باستخدام « عصا سحرية » ، وقد رتبت ثلاثة ظروف مختلفة عقب الواجب :

(أ) فترة حرة .

(ب) إتمام بديل مطلوب مع إعطاء الطفل قطعة شكولاته أخرى .

(ح) طلب إتمام بديل . وتحت الظرف الأول استؤنف الواجب فى ١٠٠٪ من الحالات وفى الظرفين الثانى والثالث استؤنف الواجب فى ١٧٪ و ٢٠٪ من الحالات فقط على التوالى ، وحدث الاستئناف فى شكل سؤال المشرف عن موضع مخبأ الشكولاته .

ولموضوع الإبدال غير الواقعى علاقة وثيقة ببعض مشكلات اللعب ، فطبقاً لنظرية بياجيه يصطبغ إدراك الطفل للعالم بصبغة مبهمة ، فهو لا يرى الإسم والشىء والأوهام والحقائق والصدق والكذب منفصلة عن بعضها إنفصالا تاماً واضحاً ومن هنا يأتى السؤال عما إذا كان الحدث غير الواقعى فى مجال الحاجات السيكولوجية يحدث لدى الطفل إشباعاً حقيقياً . لقد أجرت سليوسبرج (٢١) . تجارب كثيرة فى هذا الصدد ووجدت أنه من المستحيل إصدار حكم عام بأن اللاواقع يمكن أن يكون بديلا للواقع . إذ يتوقف إحساس الطفل بالإشباع عندما نعطى له حلوى مزيفة بدلا من الحقيقة — وهذا ما سنعرض له بالتفصيل الآن — على صفة الموقف الخاص فى كل حالة منها . وكما قال كوفكا أنه يجب التمييز بين موقف اللعب وموقف الجد ، فموقف اللعب غير جامد بل يمكن تسميته سائباً Loose ومن الممكن إجراء أنواع معينة من الإبدال فيه حيث للأشياء صفة غير ثابتة نسبياً بالمقارنة بموقف الجد حين يرفض الطفل عادة البديل غير الحقيقى المقصود به اللعب والعكس صحيح أيضاً .

ومن العوامل الهامة فى مجال القيمة البديلة ، شدة الحاجة فى حينها ، فقد أظهرت تجارب سليوسبرج أن الطفل يميل بسهولة إلى قبول مقص من الصلصال مثلا بعد أن يلعب وقتاً طويلا بمقص حقيقى وعموماً كلما قويت الحاجة كلما قلت القيمة البديلة للفعل البديل ، وعلى العكس لاشك أن الميل للفعل البديل يزداد كلما زاد التوتر الناشىء عن الحاجة ، ونحن نعلم أنه إذا وجد هدف معين أمام الإنسان فإن هذا الهدف يعمل كحقل سيكولوجى يولد جذباً مشتقاً فى أشياء أخرى معينة فمثلا إذا أراد فرد حزم شىء ما ففى هذه الحالة يكتسب الورق والخيط فجأة جذباً إيجابياً

وأوضحت ديمبو وجود حقل متولد يعطى قوى جذب كوسيلة لبلوغ الهدف وفضلا عن ذلك فإذا كان التوتر على قوة كافية تتولد أهداف أخرى على علاقة معينة بالهدف الأصلى .

البديل فى مواقف الجد واللعب : اختارت سليوسبرج ١٣ طفلا يتراوح أعمارهم بين ٣ ، ٦ ، ٨ سنوات ، وبدأت بالعمل على حاجة جسدية يسهل إثارتها وهى إشتهاء الحلوى وكانت خطوات التجربة كالآتى : يدخل الطفل إلى الحجرة ويبدأ فى اللعب أو الحديث مع المشرف حديثاً غير رسمى وبعد بضع دقائق يسأل الطفل المشرف عما إذا كان يريد بعض الحلوى فاذا كان الرد بالايجاب فانه يخرج له عدة قطع ويضعها فى يده، وعندما يحرك الطفل الحلوى إلى فمه يقول له المشرف . أرجو أن تضع الحلوى جانباً وسأعطيك بعضاً غيرها . ثم يعطى الطفل بعض قطع من الكرتون تماثل الحلوى فى الحجم وليس فى الشكل وقد أدرج سلوك الأطفال الناشىء عن ذلك تحت ثلاثة أنواع: (ا) رفض الشىء البديل رفضاً تاماً ، (ب) قبول الشىء البديل لاعلى أنه بديل للشىء الأصلى ولكن لاستعماله فيما تمليه طبيعته (مثلا بدلا من محاولة أكل الكرتون إستخدمه الطفل فى عمل أشكال على المنضده) ، (حـ) قبول الشىء البديل مؤقتاً . فقد اختبره الطفل على أنه بديل للشىء الأصل ثم رفضه عندما وجده غير صالح لهذا الغرض (أى أن الطفل وضع الكرتون فى فمه ثم رفضه عندما وجده غير مرض) (١٠) .

وقد بينت النتائج أن أغلبية الأطفال ٥٠ ٪ بالنسبة للجماعة الأصغر سناً و٧٠ ٪ للجماعة الأكبر سناً رفضت الشىء البديل رفضاً باتاً ، وقبله عدد صغير من الأطفال ولكنهم عاملوه طبقاً لما تمليه طبيعته (١٠ ، ٣٠ ٪ على التوالى) وقبله ٤٠ ٪ من الأطفال الأصغر سناً على أساس تجربته بينما لم يقبله أحد من الأكبر سناً .

وقد ساد الظن بأنه من الممكن أن يكون رفض الشىء البديل متأثر بأن فى حوزة الطفل فعلا الشىء الأصلى وبذلك أحس إحساساً عميقاً بالفرق بين الاثنين ، ولهذا رفض البديل ، لكن يلاحظ أن الرفض التام لم يحدث كثيراً وأن الشىء البديل عومل بطرق مختلفة من جانب جماعة من الأطفال ، أما أنواع السلوك الأخرى

التى لوحظت فى مثل هذا الموقف فهى معاملة الشيء البديل حسب طبيعته الخاصة لكن مع الإشارة إليه باسم الشيء الأصلى ، أى أن الطفل يسمى قطع الكرتون حلوى لكنه يرفضها كبديل للحلوى الأصلية . ويعتبر القبول الجزئى للشيء البديل تحولا عن مستوى الواقع نحو مستويات أكبر درجة فى اللاواقع . وإستنتجت سليوسبرج أن رفض شيء بديل فى مكان شيء أصلى يؤكل يتوقف كثيراً على (١) درجة التمييز فى مدى العمر بالنسبة لمستويات الواقع واللاواقع .

(ب) درجة ارتباط الطفل بموقف الأكل (١٠) .

ثم كررت سليوسبرج هذه التجارب بأشياء مختلفة لاتصلح للأكل (مقص ، قلم رصاص ، كرة) كأشياء أصلية لها بدائل عبارة عن قطع من الكرتون تماثلها حجماً بمعنى أن المقص الأصلى يستبدل بمقص من الكرتون وهكذا . . وقد إتفقت النتائج مع نتائج التجربة السابقة إذ لم يعامل الشيء البديل أبداً فى أيه تجربة من التجارب معاملة الشيء الأصلى إلا لثوانى معدودة وقد يبدو سلوك بعض صغار الأطفال الذين قبلوا الشيء البديل واعتبروه بديلا مناقضاً لهذا القول لكن سليوسبرج تفسر هذا الانحراف على أساس من الارتياح الذى يجده الأطفال عادة فى حك القلم وتكون الخطوط الناتجة عن الورق .

وبهذا نرى أنه فى موقف الجد لايمكن إشباع الحاجة إلى الشيء الأصلى عن طريق الشيء البديل فماذا عن موقف اللعب ؟ اختبرت سليوسبرج هذا الموقف حيث كان الشيء الأصلى وهو كرة من المطاط يسمح باستخدامات كثيرة مختلفة وفى هذه الحالة قبل الأطفال الشيء البديل ولم يحدث الرفض التام له مطلقاً ، وقد لخصت سليوسبرج هـــذا الجزء من البحوث بقولها أن الأطفال فى الموقف الجدى يقبلون البدائل للأشياء — على الأقل لدرجة معينة — إذا أدخلوا مستويات إحدى درجات اللاواقع ، وفضلا عن ذلك فان الأشياء البديلة لاتكون مقبولة بالنسبة لهم إلا فى ضوء ماتعنيه داخل مواقف اللاواقع ، وقد أدت هذه النتائج بسليوسبرج إلى التنبؤ بأن

إزدياد مرونة موقف اللعب وصفاته الدنياميه الأخرى تزيد من الميل إلى إيجاد مستويات لاواقعية وبذلك تشجع قبول الأشياء البديلة (١٠) .

النتائج فى مواقف اللعب : أجرت سليوسبرج سلسلة من التجارب موازية لتلك التى أوضحناها باستثناء أن التجربة كلها كانت فى موقف من اللعب بدميه . وكانت التجربة كالآتى : عندما يدخل الطفل غرفة التجارب يرى ركناً مخصصاً للعب بدمية وبه عربة للدمية وملابس وأطباق لهـا ومثل ذلك من الأدوات ، وكان معظم الأطفال يبدأون فى إستخدام هذه الأدوات تلقائياً والآخرون يفعلون ذلك عندما يطلب منهم ، وعندما ينغمس الطفل فى اللعب يقال له « هل نعطى الدمية بعض الشيكولاته » ؟ أو غير ذلك من الأشياء . وقد اتضح أن سلوك الأطفال كان مختلفاً تماماً عن سلوكهم فى التجارب السابقة فهنا نجد أكثر من نصف الأطفال (٦٠٪ ، ١٠٠٪) يقبلون الشيء البديل على أنه بديل فعلى عن الشيء الأصلى . وكان كبار الأطفال ميالين أكثر من الصغار إلى قبول الشيء البديل بسهولة أو بهذا يتضح أنه بالرغم من انغماس الأطفال فى اللعب إلى درجة كبيرة فإن صفة موقف اللعب كان مختلفاً بالكلية بالنسبة لهم عن موقف الجد . وقد تحققت نفس النتائج مع إعادة التجربة باستخدام بدائل أخرى .

الابدال وحالة الحاجة : فى العمليات السابقة بحثت سليوسبرج دلالة الموقف فى معاملة الشيء البديل وفيما يلى بحثت مسألة ما إذا كان قبول أو رفض الشيء البديل يتوقف أيضاً على شدة الحاجة وفى تجارب أخرى مماثلة قارنت بين عدد مرات قبول الأشياء البديلة قبل وبعد إشباع الحاجة وتحقق ذلك بتوقيت عرض الشيء البديل بطريقة مختلفة فى موقفين ففى أحد المواقف قدم للأطفال البديل بينما كانوا عاكفين فى اهتمام شديد على إستخدام الشيء الأصلى وفى الموقف الثانى لم يقدم البديل إلا بعد أن فقد الأطفال إهتمامهم باستخدام الشيء الأصلى ، وبينت النتائج أنه حينما توجد حاجة قوية تقابل إستخدام شيء مافى موقف جدى يرتبط الأطفال بالعالم الحقيقى

بدرجة كبيرة أى أن معنى الشيء يتحدد بشكل قاطع وهنا يرفض الأطفال البديل رفضاً تاماً .

الابدال وطبيعة الأشياء : من العوامل الأخرى التى يمكن أن تؤثر على قبول الشيء البديل عامل طبيعة الأشياء وفى التجربة الآتية ظلت طبيعة الموقف على حالها بينما تغيرت الأشياء التى تستبدل (١٠) فكان الموقف المختار هو البناء بواسطة قوالب مما يوفر قدراً كبيراً من الحرية وبعد أن يبدأ الأطفال يبنون من القوالب قدمت إليهم مواد بديلة للبناء تختلف عن القوالب الأصلية وظيفياً وخارجياً وهى قطع من الصلصال والزلط وحيوانات خشبية واتضح أن ٩٤٪ من الأطفال قبلوا الصلصال و ٧٦٪ قبلوا الزلط بينما قبل ١١٪ الحيوانات الخشبية وفسرت سليوسبرج هذه النتائج على أن الشيء البديل كان أقل ما يمكن قبولا لدى الأطفال كلما كانت له درجة ثبات عالية . أى أن الصلصال والزلط كانت لهما درجة ثبات منخفضة نسبياً ولذا كان الأطفال على إستعداد لقبولها بسرعة ، أما الحيوانات الخشبية فقد رآها الأطفال شيئاً مختلفاً تماماً عن القوالب أومواد البناء بوجه عام ، ورأوا أن إستخدامها كقوالب شيء يخالف ما إعتادوه بالنسبة لإستعمال اللعب التى على شكل حيوانات ، أما عندما نشرت الحيوانات الخشبية إلى أجزاء مما أزال عنها صفة الحيوان فقد قبلها الأطفال كقواعد للبناء .

ويمكن تلخيص نتائج التجارب على قيمة الإستبدال بإختصار فيما يلى :

(١) تزيد قيمة الإستبدال مع درجة التشابه التى تدرك بين النشاط الأصلى والنشاط البديل ومع درجة صعوبة النشاط البديل (ليسنر ١٩٣٣) .

(٢) تزيد قيمة الإستبدال مع زيادة التقارب الزمنى بين النشاط الأصلى والبديل ومع جاذبية النشاط البديل (ليفين ١٩٣٥) .

(٣) إن القيمة البديلة لنشاط ما (مثل التفكير والكلام والعمل) تتوقف على طبيعة هدف العمل الأصلى والأعمال التى تتصل بهدف يتمثل فى عرض شيء

على شخص آخر (هو القائم بالتجربة مثلا) تحتاج إلى نشاط بديل يمكن ملاحظته فلا يكون مجرد التفكير بدون إتصال إجتماعى أما الأعمال الإنجازية التى يكون هدفها بناء أو تكوين مادى فتحتاج إلى عمل وليس إلى مجرد سرد طريقة عملها. وفى المشاكل العقلية يمكن أن يكون للكلام (أو سرد طريقة العمل) قيمة إستبدالية عالية (ماهلر ١٩٣٣) .

(٤) الحلول السحرية والحلول الخيالية أو الحلول التى تنافى إحتياجات العمل بصفة يمكن ملاحظتها لها قيمة إستبدالية قليلة للأعمال التى على مستوى الواقعية ، لكن إذا كان الموقف خياليا أو لعباً فإن البدائل التخيلية تصبح لها قيمة إستبدال (سليوسبرج ١٩٣٤) .

(٥) النشاط البديل المماثل للنشاط الأصلى يكون له قيمة إستبدال قليلة إذا لم يخدم الهدف ذاته وعلى ذلك فإن بناء بيت من الصلصال من أجل طفل معين له قيمة إستبدال قليلة بالنسبة لبناء بيت من الصلصال من أجل طفل آخر ، أما إذا كانت الأهمية معقودة على بناء بيت من الصلصال وليست على الشخص فإن الإستبدال يحدث ، كما أن ضعاف العقول يختلفون عن الأسوياء فى هذا الصدد ويرجع ذلك إلى جمود أجهزتهم السيكولوجية (ليفين وكونين ١٩٣٥ ، ١٩٣٩) .

بينا حتى الآن كيف يمكن أن يتم أشباع الدوافع سواء عن طريق تحقيقها مباشرة أو عن طريق فعل بديل ، والسؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن الآن ماهى آثار الإشباع المتزايد للدوافع ؟ ألا يؤثر ذلك أيضاً على حالة الحفز أو تعبئة الطاقة وبالتالى إستثارة التوتر ؟ وهذا ماتتناوله الآن .

آثار الإشباع المستمر والمتزايد : الأثر الرئيسى المباشر لإشباع الدافع المثار هو إنقاص التوتر وهذا يحرر انتباه الكائن وطاقاته للقيام بنشاطات أخرى ، ومن المفيد أيضاً مناقشة ماهى الآثار الأخرى التى تعقب إشباع الدوافع المستمر . من آثار الإشباع تقوية بنيان الدافع أى أن تكرار النجاح فى الوصول للهدف يجعل نمط الفعل

كله يقترب أكثر فأكثر إلى العادة فينقل شيئاً فشيئا الانتباه الذى على الانسان بذله تجاه تتابع الاحداث بحيث يغدو الفعل فيما بعد عملا يسير سيرا هينا بأقل ما يمكن من وعى وإنتباه أو بغير التفات إليه على الإطلاق ونتيجة لذلك يصبح الانسان أكثر استعدادا لتناول أنواع أخرى من حل المشاكل لكنه يصبح أيضاً أقل مرونة من ناحية هذا النمط السلوكى المعين (١٩) ·

ولكن ماذا عن اثر الاشباع المتكرر على امكانيه اثارة الدافع واستعداده لهذه الإثارة ؟ يوجد فى الحقيقة اتجاهان متضادان تماما للأثر المحتمل ، الأول أن الاشباع المتكرر يزيد الاستعداد والآخر أنه ينقصه ، فإذا كان الإنسان لا يحس إلا أقل قدر من الاشباعات من دوافعه فإن إرضاء دافع معين بشكل متكرر قد يؤدى إلى تثبيت عليه فيصبح شيئا فشيئا أكثر تعرضا لإثارة هذا الدافع ، فالإنسان الذى لا تشبع إحتياجاته إلى الحب والاحترام الحقيقى من الآخرين بينما يستطيع بسهولة أن يشبع حاجته إلى السلطة يميل دائما إلى أن ينشد الاشباع للسلطة بشكل مستمر ويصبح هذا الدافع أشد دوافعه قوة وموجودا لديه فى حالة اثارة دائمة تقريباً ومن ناحية أخرى لو أن انسانا يصل إلى اشباع لمعظم دوافعه ويعيش حياة من الوفرة الدافعية بدلا من الندره ، فإن الاشباع المتكرر المنتظم لأحد الدوافع يصبح لديه أمرا أقل أهمية · ومن المفيد الآن دراسة اثر هذا الاشباع المتزايد (٢٣) ·

فقد استخدمت فكرة جهاز التوتر استخداما مثمرا فى الدراسات التجريبية الخاصة بالتشبع المتزايد Satiation فيمكن لنا ملاحظة حالة جوع ، وحالة إشباع وحالة إشباع زائد وهى حالات تماثل القيمة الموجبة والمتعادلة والسالبة لمناطق النشاط المتصل بحاجة معينة أو جهاز توتر معين وقد درس كارستين (١٨) أثر تكرار نشاطات معينة وكان الافتراض الأساسى أن إستمرار أداء العمل مرات ومرات سوف يولد فى الأشخاص ميلا لعدم أدائه ، وأعطى المفحوصين عدة أعمال وطلب منهم العمل فيها إلى أن يشاءوا ، وفى اللحظة التى يبدى فيها الأشخاص رغبة فى التوقف يشجعهم الباحث على الاستمرار وكانت النتيجة تكون اتجاهات سالبة تجاه العمل ورغبة فى تركه تماما · هذا وقد

لخص كارستين الأعراض الرئيسية للتشبع الزائد فى النقاط الآتية :

(١) ظهور وحدات فرعية من النشاط تؤدى إلى تفكك النشاط الكلى وفقد معنى النشاط .

(٢) زيادة تدهور الجودة وزيادة تكرار الأخطاء فى أداء العمل .

(٣) ميل زائد لتنويع طبيعة العمل يصاحبه مثل التشبع السريع من كل تغيير .

(٤) ميل لجعل النشاط المشبع نشاطا خارجيا ومحاولة للتركيز على نشاط آخر أو شىء آخر أثناء العمل وهذه المحاولة لا تنجح عادة فيشرد العقل .

(٥) زيادة كراهية النشاط والأنشطة المماثلة مع زيادة قيمة الأعمال البديلة .

(٦) إنفجارات انفعالية .

(٧) تراكم التعب والأعراض الجسمية المماثلة له والتى يمكن التغلب عليها سريعا عندما ينتقل الفرد إلى نشاط آخر .

ولا يحدث الاشباع بالطبع إلا إذا كان للنشاط من الناحية السيكولوجية صفة عدم امكان اتجاهه إلى أية وجهة فإذا كان النشاط ينظر إليه على أنه تقدم نحو هدف فلن تظهر اعراض الاشباع المعتادة .

وتتوقف سرعة حدوث التشبع على :

(١) طبيعة النشاط ، فكلما زاد حجم وحداته من العمل وكلما تزايد التعقيد كلما حدث الاشباع بدرجة ابطأ .

(٢) درجة مركزة النشاط — فمع إحتفاظ الاوضاع الأخرى جميعاً بثباتها نجد أن الانشطة التى تتزايد أهميتها بالنسبة للفرد يحدث اشباعها بأسرع من الأنشطة الجانبية غير الهامة .

(٣) حالة الشخص ، فكلما كان فى حالة مرونة كلما أسرع إليه التشبع ويتناقص معدله مع تزايد السن وتناقص الذكاء .

ويمكن تفسير معظم ظواهر التشبع بإختصار بافتراض أن إستمرار أداء العمل

يؤدى إلى خفض التوتر فى الجهاز المتصل بالعمل ، ومع تزايد تكرار العمل يمكن أن يقال أن الجهاز المتصل بالعمل يصل إلى مستوى من التوتر أكثر إنخفاضاً من الأجهزة المحيطة به ، وهذا يجعل الفرد يفر من العمل المتكرر إلى أنشطة أخرى . ومع الوقت يبتعد الشخص أيضاً عن الأنشطة المتصلة بأجهزة التوتر التى تتصل بالجهاز المشبع ويتجه نحو الأنشطة التى لاتتصل بالنشاط المشبع وهكذا فإن الميل يصبح فى الإبتعاد عن الأنشطة المماثلة والإتجاه نحو الأنشطة غير المماثلة وتفضيل النشاط وتقطيعه إلى وحدات غير منتظمة يتوافق جيداً مع تحليل ليفين لإختلاف ووحدة الكل القائم على التلازم البسيط .

وقد يكون من الطريف أن نبين الفروق التى ذكرها ليفين ١٩٣٥ والتى تتعلق بظاهرة التشبع مبيناً الفرق بين ضعاف العقول والأسوياء كما سبق أن بينا عند الحديث عن الإشباع البديل .

التشبع لدى ضعاف العقول والاسوياء

طلب الباحث من الأطفال رسم وجوه قمرية بصفة مستمرة . « القمر ، القمر القمر مستدير وله عينان وأنف وفم » وقد رسم وجه القمر للطفل على قطعة من ورق الكراريس ثم ترك ليرسم وجوهاً قمرية إلى أن استكفى منها . وكانت له حرية التوقف فى أى وقت ، ولكن الموقف فى ذاته تضمن — كما فى تجارب كارستين — ضغطاً خفيفاً نحو إستمرار الرسم (ويجب على المشرف طبعاً أن يحاول إبقاء هــــذا الضغط متساوياً ما أمكن بالنسبة لمختلف الأطفال) . وطبقاً للقوانين العامة للتشبع النفسى تتغير القوى المبدئية الموجبة أو المحايدة للواجب تدريجياً بتوالى التكرار إلى عدم المبالاة وأخيراً إلى قوى سالبة ، ولا يحدث التوقف فى هذه التجارب بوجه عام عند الوصول إلى نقطة التشبع فوراً بل يستمر الطفل فى العمل عادة لمدة بعد نقطة التشبع إلى أن يكتسب النشاط درجة ما من القوى السالبة . وبعد التوقف يسأله المشرف عما إذا كان لا يريد الاستمرار وأن يرسم شىء آخر يريده (رسم حر) فإذا رغب الطفل يظل الورق والقلم معه طالما يرغب فى الاستمرار (٢١) .

وقد كان الإفتراض العام أن يعزو الباحث إلى ضعاف العقول ميلا للتكرار مع قلة مثابرة على العمل فى نفس الوقت ، ولما كان التشبع له إتصال وثيق بديناميات الحاجة فقد بدأ من المهم تحديد خط سيره لدى ضعاف العقول ، فلم يثر الواجب أى صعوبة لدى ضعاف العقول من سن ٩ إلى ١٠ سنوات ومن ١٠ إلى ١٢ سنة لكن الأطفال من سن ٨ إلى ٩ سنوات هم الذين رسموا وجوهاً قمرية أقل عدداً بشكل ظاهر من زملائهم الأسوياء فى نفس السن .

والنتيجة فى أساسها أن مدة الاشباع (رسم الوجوه القمرية زائد الرسم الحر) فى متوسطها أقصر بالنسبة للأطفال المورون من سن ٨ إلى ٩ سنوات مما هى بالنسبة للأسوياء من ذات السن (٤١ دقيقة مقابل ٥٨ دقيقة) لكن المدد بالنسبة لكل طفل من الفريقين تداخلت بدرجة كبيرة جداً باختلاف العمر . وفيما يختص بقلة المثابرة والقدرة على التركيز لدى ضعاف العقول فالمدهش أنه على الأقل فيما يتعلق بسن ٩ إلى ١١ سنة لم يكن هناك فرق جوهرى فى مجموع الوقت وحتى حين المقارنة بين الأزمان التى حدث عندها التشبع واضحاً نجد المتوسطات تتطابق جيداً بصورة مدهشة وحدثت نقطة التشبع لدى المجموعات الثلاث من ضعاف العقول فى المتوسط عند ٢٧ دقيقة ، ٣٠ دقيقة ٤٠ دقيقة على التوالى . وعند ٣٥ دقيقة و ٢٧ دقيقة و ٣٥ دقيقة للأسوياء .

وهكذا يبدو أنه من حيث سرعة التشبع لافرق بين ضعاف العقول والأسوياء ، أما من حيث مجرى التشبع (أو الطريقة التى تظهر بها عند الأشخاص) فهناك فروق جوهرية بين ضعاف العقول والأسوياء وأهمها فرقان : أولا إن ضعاف العقول يتوقفون من حين لآخر عن مواصلة العمل عدداً من المرات يفوق كثيراً مرات التوقف عند الأسوياء .

وثانياً إن ضعاف العقول عندما يصلون إلى نقطة التشبع يرفضون مواصلة العمل نفسه بعد ذلك بل ويرفضون القيام بأى عمل آخر مشابهاً له (٤) .

ومع الميل إلى التنويع فإن من المظاهر الرئيسية المميزة للتشبع هو ظهور الأفعال الثانوية أى الأفعال التى يأ تونها بدون قطع النشاط الرئيسى ولا يظهر فى نفس الوقت

أى إختلاف هام بين الأسوياء وضعاف العقول من حيث تكرار وكثرة الأفعال الثانوية ، لكن عند جماعات السن الثلاث من ضعاف العقول تحدث مرات التوقف للراحة لكل ١٠٠ دقيقة .

ويقدم لناليفين التلخيص التالى لتجارب التشبع :

فى الأعمار من ٨ إلى ١١ لاتوجد فروق بين الأسوياء وضعاف العقول فى معدل أشباع المركب الكلى (رسم وجوه قرية + الرسم الحر) لكن تحدث الفروق فعلا فى مجرى التشبع فالصراع بين الرغبة فى مواصلة الرسم وبين بداية التشبع تؤدى لدى ضعاف العقول إلى توقفات للراحة وأفعال دخيلة أكثر مما عند غيرهم أى أن الطفل ضعيف العقل أما ينغمس كلياً فى الواجب الذى بين يديه أو يقطع هذا النشاط تماماً بالتوقف أو الإنتقال إلى عمل آخر ، أما مجرى الاشباع فى الطفل السوى فإنه أكبر من ذلك إضطراباً لأنه يتجاوب مع الصراع بطريقة أكثر مرونة ويستطيع أن يجد طريقه بسهوله بمساعدة الأنشطة الثانوية أو بطرق أخرى لكى يسير خلال الصراع بدون أن يتوقف خارجياً عن مواصلة الواجب أى أن سلوك ضعاف العقول أكثر فجائية أو على أساس « أما . . أو » والواقع أن الخاصية الأساسية لضعاف العقول التى تؤثر فى هذا المجال هى الجمود الوظيفى أى عدم تحرك المادة النفسية وهذا فى حد ذاته يمثل السبب الحقيقى للصعوبات الذهنية .

ويعود ليفين فيلفت نظرنا فى مجال آخر إلى أن مسألة الطاقة energy يجب ألا تغيب عن أذهاننا فى هذا المقام . بمعنى إننا إذا فرضنا أن فعلا معيناً أصبح لايمكن احتماله أى أنه قد وصل إلى حد التشبع فإننا نستطيع تغيير خلفية الموقف وعندئذ يمكن تكرار الفعل بسهولة دون أن يحس الشخص أدنى إحساس بأنه لايمكن احتماله(٢٢) .

فى إحدى التجارب ظلت كلمة واحدة تكتب باستمرار حتى أعلن الشخص الذى يجرى إختباره أنه لن يكتبها ثانياً وعندئذ قال المشرف على التجربة « حسناً

ستتوقف ، وبالمناسبة أرجو أن تكتب هذه الكلمة على ظهر الورقة كى أتذكر أى تجربة كانت هذه » فكتبها الشخص بلا صعوبة وبهذا نقول أنه عندما يتغير مصدر الطاقة فغالبا ما تتغير طريقة السلوك كلها معه .

بهذا التلخيص لنظريه ليفين عن التشبع عند ضعاف العقول ينتهى حديثنا فى هذا الفصل الذى تحدثنا فيه عن اشباع الدوافع ولابدلنا الآن وأن نتساءل ماذا يحدث عند إحباط الدوافع ؟ ماذا يحدث إذا لم يجد الدافع طريقه للاشباع ؟ وهذا ماتتناوله فى الفصل القادم .

الفصل الثالث

الدوافع والدافعية احباط الدوافع

عنيت الدراسات التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق بالعوامل التى تتعلق ببواعث الفعل وإمكان الأشباع ثم الأشباع البديل بصفة خاصة ، وكان هدف العمل عند بحث مشكلات الحفز هو معرفة الطرق التي تتفاعل بها أجزاء تلك الحالة الكلية أو مجال الحياة من أجل أحداث تغيير فى السلوك ، وقد يشمل مجال الحياة فى وقت ماحاجات وقدرات وأهداف وحواجز وأدوات لعمل الأشياء أو للحصول عليها وأفراد آخرين، وباختصار كل مايمكن أن ينتج إختلافاً فى الأحداث السيكولوجية،ومن بين موجهات الفعل هـــذه ومحدداته تلعب الحواجز دوراً حاسماً فهى تؤثر وتتدخل بشكل خطير فى عملية التعلم مثلا ، إذ أن من العوامل الرئيسية للتعلم أن يتكيف الإنسان مع قيود من نوعاً ما(٣٢) .

ويقصد بالحاجز فى حدود مانقصده التعريف القائل بأنه « جزء أو منطقة فى مجال الحياة يقاوم التحرك من خلاله نحو الهدف » . وطبقاً لهذا التعريف فإن الحاجز والهدف مرتبطان إرتباطاً لاإنفصام له وبالتالى فإن تحليل طريقة إرتباطهما أمر هام لفهم السلوك فى أى موقف به حاجز والبحث الذى نعرض له الآن يمثل محاولة لهــذا التحليل .

وكانت نقطة البحث البدائية فكرة تتردد كثيراً فى الكتابات غير العلمية ويعبر عنها عادة بالمثل القائل . « العشب فى الناحية الأخرى من السياج أكثر خضره » والواقع أن الفرض الرئيسى الذى تقوم عليه هذه الدراسة هو لب الفكرة المشار إليها بعد إعادة صياغته فى العبارة التالية « الهدف الذى تقف عقبة دونه له قوة تفاعل إيجابية أقوى من هدف آخر سبيله ممهد » ولنتدبر هنا مايلى :

(١) طفل يحاول الوصول إلى قطعة شيكولاته بعيدة عن متناوله ، فإذا صادف

عقبات دار حولها ، وهنا نلاحظ أن سلوكه تحكمه قوى المجال النفسي كله ، وتحدد تلك القوى تدفق الحوادث ، وتعمل تلك الحوادث ذاتها بدورها على إحداث تغيرات في القوى وهكذا ينبعث السلوك ويوجه بواسطة المجال الادراكي .

(ب) الأشياء المشتهاة (مثل الشكولاته مثلا) يجب أن ننظر إليها أساساً من ناحية قدرتها على بعث السلوك ، ولكن بالإضافة إلى ذلك قد تصبح فرصة لإثارة رغبة يتدفق منها النشاط بوصفها مخزناً للطاقة ، أما إذا كان الطفل مشبعاً من الحلوى فإن السلوك في مجموعه كله لايحدث ، وهنا قد تؤدي الشكولاته وظيفة ثانية ولذا فمن الأهمية في المكان الأول معرفة ما إذا كان مخزن الطاقة هـــذا موجوداً أم غير موجود ، لأن القوى التي تحكمه تظل بغير أثر إذا لم توجد منابع للطاقة السيكولوجية

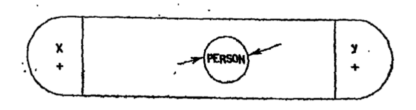
(حـ) عند الوصول للهدف يحدث تغيير مهم في القوى البيئية لأن التشبع لا يتضمن تغييراً في مكان تلك القوى فحسب بل تغييراً حاسماً في التوتر النفسي الذي كان خلف الهدف ، أي أن إدراك شيء أو حادث قد يثير توتراً نفسياً معيناً كرغبة مثلا أو يتصل بحالة توتر موجود فعلا (كنتيجة لنية أو حاجة) بطريقة يرقى فيها جهاز التوتر هذا إلى التسلط على السلوك الحركي ، وفي مثل هذه الحالات يقال أن الشيء المشار إليه له قوة تفاعل Valence ، أو تعمل قوى التفاعل كقوى بيئية تبعث سلوكاً تالياً أو يقود هذا السلوك إلى الاشباع أو إزالة التوتر بحيث تصل إلى حالة من التوازن (٢٢) .

وعلى أساس ما يمكن ملاحظته مباشرة فإن قوة الجذب الإيجابي هي صفة تتصف بها منطقة ما إذا كان الفرد يسير أو يميل إلى السير نحوها ، وفي الحياة اليومية كلمات تشير إلى هـــذا المعنى منها المرغوبية (Desirability) والقيمة الحـــافزة (Incentive Value) والمنطقة الجاذبة إيجابياً تماثل الهدف تماماً ، وإفتراض الجذب الإيجابي طريق مختصر لتأكيد وجود منطقة في البيئة لها صفات فارقة معينة (مثل الصلاحية للأكل ، كبر الحجم ، صغر الحجم ، اللمعان) ووجود حاجة معينة أو حالة توتر في جهاز الفرد . وإقتحام المنطقة بالأكل مثلا يشبع الحاجة ويخفف التوتر ، وفضلا عن ذلك فان القول بأن منطقة مالها جاذبية إيجابية يعني في مضمونه وجود

قوة تؤثر على الفرد وتدفعه فى اتجاه تلك المنطقة والبحث الذى نعرضه الآن يبين المقصود بذلك .

كانت الطريقة العامة كالآتى : قورنت قوة جذب شىء يسهل الوصول إليه (ا) تحت ظروف شتى ، بقوة جذب شىء معوق (ب) وكانت الأشياء التى يمكن الوصول إليها والأشياء المعوقة على التوالى سهلة الوصول إليها نسبياً وصعبه الوصول اليها نسبيا ، وكان الاختيار بين (ا ، ب) هو معيار المقارنة، وسجلت الاختيارات سواء بالفعل أو شفوياً ، أى أنه فى بعض الحالات طلب من الشخص أن يأخذ ما يختاره وفى بعضها الآخر طلب إليه أن يعبر عن تفضيله لشىء ما بالقول فقط ، واستخدمت مجموعات ضابطة للتأكد من أن قوة جذب (ا ، ب) ستكون متساوية بدون وجود حاجز بين الفرد وبين (ب)[٣٢] .

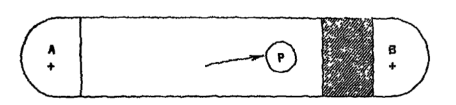
ويمثل شكل (ا) حالة فيها الشخص (ا) يواجه منطقتين بديلتين (x ، y) كلاهما منطقة جذب إيجابى ، وتوجد قوة نحو x وقوة نحو y . ويوجد الشخص ا فى منطقة اتخاذ القرار ، ونظراً لأن جذب x أكبر من جذب y ، وهذا يعنى أن القوة فى اتجاه x أشد من القوة فى اتجاه y وعلى ذلك فإن المحصلة التى تؤثر على الشخص أن يتجه إلى x بأن يختاره أو يقول بأنه يريده .



[شكل ا موقف اختيار بسيط بين بديلين وترمز علامات + إلى الجذب وترمز الأسهم إلى القوى وكلما كانت علامة + كبيرة كلما كان الجذب كبيراً وكلما كان السهم أطول كانت القوة أشد] .

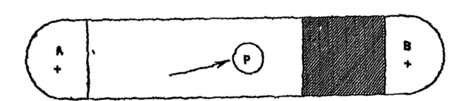
ويصور شكل ٢ موقف اختيار أكثر تعقيداً من ذلك فالمفروض أنه مع بقاء الأشياء الأخرى كما هى فإن الجذب فى المنطقتين ا ، ب يكون متساوياً فى القوة ،ولكن

فى الموقف الحالى وضع حاجز أو عقبة بين الشخص وبين المنطقة ب وبناء على الفرض فان جذب (ب) يزيد عن جذب ا وعلى ذلك فإن القوة نحو ب تصبح أكبر من القوة نحو ا وبهذا فان الشخص يختار ب .



[شكل ٢ موقف إختيار فيه حاجز وتتجه محصلة القوة فيه نحو المنطقة المعوقة].

وهناك احتمال ثالث يمثله شكل ٣ والبناء فيه هو نفس بناء الموقف الثانى لكن القوى المعطلة أشدبدرجة تكفى لتجعل القوة المحصلة نحو ا وعلى ذلك يقع الاختيار على ا ويظل ذلك صحيحاً حتى ولو كان جذب ا أقل من جذب ب . فإذا كان للديناميات أن تظهر على حقيقتها فعندئذ يقول الشخص اختار ا ولكننى أفضل ب . وبهذا كأنه يقول « أفضل ب ولكننى اختار ا لأن ب يصعب جداً الحصول عليه » ويجب أن نأخذ فى الحسبان احتمال أن درجة زيادة جذب ب عن جذب ا قد ترتفع طبقاً لشدة الحاجز وفى هذه الحالة فإن القوى المعطلة التى تزداد بسبب ازدياد شدة الحاجز قد تعمل على إلقاء القوة الأشد الدافعة نحو ب قليلا أو كثيراً وربما تصبح الزيادة فى القوة نحو ب داخل حدود معينة على الأقل أكبر من الزيادة فى القوة المعطلةوعندئذ يجوز أن يرتفع الميل لاختيار ب مع زيادة قوة الحاجز .



[شكل ٣ موقف اختيار يشمل حاجزاً وفيه تتجه حصيلة القوة إلى المنطقة التى يسهل دخولها] .

وقد يتعقد الموقف أكثر من ذلك كما فى حالة الحد الفاصل بين طفل

وبين لعبة موضوعة على رف قريب من السقف ، فى هذه الحالة لن تصبح اللعبة هدفاً وبالمثل لن يكون الحد حاجزاً ولكن قد يوجد حاجز بين الطفل وبين لعبة تبعد قليلا عن أقصى مدى يستطيع الوصول إليه .

فى مثل هذه الأشكال التى أوضحناها يختار الشخص الهدف الذى يتلاءم مع درجة الحاجز ومع شدة الحاجة إليه دون أن يؤدى الحاجز إلى إحباط شديد ولكن فى كثير من مواقف الحياة تسبب الحواجز احباطاً شديداً بحيث تمنع الإنسان عن رؤية جوانب الموقف . ونعرض الآن لاحباط الدوافع وسنقارن فى أثناء عرضنا بين تجارب تتعلق بأثر الإحباط وتجارب يتم فيها الاختيار على حسب قوة الحاجز بدون إحباط ، أى أننا سنحاول أن ننقل هذه الأشكال التى عبرنا فيها عن الحواجز إلى ميدان الحياة اليومية وما يصادفه الإنسان فيها من عقبات لنرى كيف يؤثر ذلك على دوافعه .

الإحباط : الإحباط هو إغلاق السبيل نحو الوصول إلى الهدف أو إعاقته ، والإحباط حالة من حالات الكائن وليست طرفاً خارجياً ، أى أن مجرد وجود الحاجز لا يعنى بالضرورة إحباطا لأن عملنا الموجه إلى الهدف إذا إستطاع أن يحسب حساب التدخل الخارجى دون أضرار يوصلنا للهدف فاذن لا إحباط هنا ، وعلى العكس قد يحدث إحباط دون وجود أى تدخل خارجى فقد يتخيل الإنسان وجود عقبة تعوق وصوله للهدف وتكون النتيجة إحباط حقيقى .(١٩)

ونؤكد مرة أخرى أن الإحباط يشير إلى حالات الدوافع المثارة ، فمجرد وجود نقص فى البيئة لا ينتج إحباطاً إلا إذا دفع الإنسان لينشد الحصول على تلك الأشياء المعدومة ويحدث غالباً ألا يظهر الإحباط سوى عندما يعلم الإنسان إمكانية عمل أشياء معينة أو الحصول عليها ثم يدرك أن إنعدامها فى بيئته يمنعه من ذلك . ويغلب جداً ألا تكون الأشياء المعدومة أهدافاً فى حد ذاتها لكنها الأشياء الضرورية لإشباع دوافع أخرى . فان إنعدام المال فى يد الإنسان قد يعنى إحباط دوافع لا حصر لها .

ومن التجارب التى توضح أن وجود الحاجز لا يؤدى بالضرورة إلى وجود إحباط

نقدم التجربة الآتية : علقت قطعتين من الخيط فى نهاية كل منها قطعة صغيرة من الحلوى ، وكانت قطعتا الحلوى متماثلتين فى كل شىء وروعى أن تكون إحدى القطعتين (ب) على بعد ١١ بوصة من آخر مدى يصل اليه يد الطفل والأخرى (ا) على بعد (١١) بوصة فى حدود مدى يد الطفل وهو واقف على الأرض وحتى لايشكل (ب) حداً مقيداً وضع كرسى تحت (ب) مباشرة وكان يسمح للطفل بالدخول الى الغرفة حتى يصل الى موضع يبعد عن كل من (ا ، ب) بمسافة متساوية . وكان المشرف يقف خلف الطفل حتى لا يؤثر عليه فى الاختيار ويقول له « لك أن تختار أى القطعتين تريد » وكانت ا دائماً هى المختارة . ودلت الملاحظة أن العامل المؤثر كثيراً فى الموقف كان قوة الحاجز المعطلة وأن الأطفال اختاروا (ا) برغم تفضيلهم للحلوى (ب) فقد سأل المشرف أحد الأطفال لماذا اختار (ا) فأجاب الشخص « الأخرى عالية جداً » وقد صدرت اجابات مماثلة لذلك على السؤال ذاته (٣٢) .

الصراع : نظراً لأن الإنسان تقدم إليه فى غالب الأحيان دوافع متعددة فى وقت واحد كل منها يتطلب عملا يختلف عن الآخر فغالباً ما ينشب الصراع بشكل دائم تقريباً وبدرجة ما ، فإذا كان العمل الذى تتطلبه الدوافع المختلفة واحدا أو متشابها إلى حد كبير فعندئذ لا ينشأ إلا صراع طفيف أو لا ينشأ صراع على الاطلاق ، لكن المشاهد فى معظم الاحيان أن اتجاه النشاط الخاص بدافع معين يناقض الدوافع الاخرى وجوهر الصراع هو أن الانسان لا يستطيع السير فى اتجاهين مختلفين فى آن واحد .

أنماط الصراع : تقع مواقف الصراع كما حللها ليفين ١٩٣٥ تحت واحد من ثلاثة أنماط أساسية اقتراب — اقتراب ، تجنب — تجنب ، اقتراب — تجنب ، وصراع اقتراب — اقتراب هو الواقع بين هدفين موجبين وهذا الموقف هو أقل مواقف الصراع ألماً ، إذ أن الشخص يختار بين شيئين مرغوبين ، إلا أننا ينبغى ألا ننسى أن اختيار أحد الشيئين معناه فقدان الآخر والنتيجة أن الجذب الواقع على الشخص يصبح غير متوازن ومن ثم يتحرك بعزم نحو الهدف الاقرب ، أما صراع

تجنب ــ تجنب ، فيقع بين شيئين سالبين يحاول الانسان تجنبهما معاً فى وقت واحد وواضح أن الموقف إذا لم يتضمن شيئاً خلاف السالبين فالصراع عنــــدئذ ضئيل إذ لا يفعل الانسان أكثر من أن يترك الموقف بأسره ، لكن الصراع الحقيقى إنما يقع فى حالة ما لا يكون هناك سوى بديلين ولا بد للانسان أن يختار واحداً منهما ، أى أنها حالة أهون الشرين ومثاله أن يطلب صاحب العمل من عامل عنده أن يختار بين النقل إلى بلد يكره الإقامة فيه وبين أن يستقيل من العمل ، وفى هــذا الموقف يميل التوازن إلى أن يكون مستقراً ، أى أن الشخص يبقى أطول وقت ممكن متوازناً بين سالبين ، والسبب وجود هدفين سالبين ، ويقل النفور من الشىء السالب كلما بعدت مسافته عن الانسان وهكذا فإن مجرد سيره خطوة بعيداً عن أحـد الشيئين تقل قوته المنفرة لكن ذلك يقربه من الشىء الآخر الذى تزداد عندئذ قوته السالبة فيدفع الانسان للتخلف مرة أخرى ـ فإذا لم يكن الانسان مضطراً للحركة ظل للابد معلقاً بين السالبين لكن توجد دائماً قوة أخرى فى الموقف مثل مرور الوقت الذى يضطره فى النهاية إلى أن يحزم أمره .

أما صراع اقتراب ــ تجنب فربما كان هو أكثر الصراعات إثارة ، فالانسان هنا ينجذب ويتنافر فى نفس الإتجاه فى وقت واحد ، وقد يحـدث ذلك لأن الهدف نفسه له صفات إيجابية وسلبية معاً ، كما فى حالة عمل يدر دخلا طيباً لكنه يتطلب الإقامة فى مكان غير مرغوب وهو ما يسمى هدفاً متناقضاً أو ربما لأن الطريق إلى الهدف الموجب يستلزم المرور بمنطقة سالبة ، مثل الفأر الذى يجب عليه أن يمر على شبكة مكهربة لكى ينال مكافأة ـ وصراع اقتراب ـ تجنب يؤدى إلى نوع من التوازن المستقر أيضاً ففى نقطة على مسافة ما من الهدف تتوازن القوى الموجبة والسالبة وأى خطوة اقتراب أو ابتعاد تجعل الانسان يعود إلى نقطة التوازن (١٩) .

والواقع أن هذه التحليلات لمواقف الصراع هى فى الحقيقة مبسطة جــداً لأنها لا تعكس كافة ديناميات عملية الدوافع وفى كثير من المواقف لا يصبح الإختيار بهذه السهولة ذلك لأننا نعلم أن تحركنا نحو أحد الأهداف المطلوبة يعنى فقدان الهدف الآخر وهذا من شأنه أن يجعل الهدف الأخير شيئاً مرغوباً أكثر مما كان مما يجعلنا

تميل إليه مرة أخرى ويمكن أن يستمر هذا التذبذب لوقت ما ، والحقيقة أنه حينما توجد حالة إستبعاد متبادل بين أشياء موجبة فلن تكون المسألة مجرد ما هو الهدف الأكثر جاذبية لأن الحصول على أحد الأهداف معناه فقدان الآخر نهائياً وبلا رجعة فكل بديل يتضمن صفة سلبية معينة بالإضافة إلى صفته الايجابية ولا يصبح التوازن مستقراً بالدرجة التى كان عليها من قبل ، وليست جميع المواقف مقسمة دائماً قسمين واضحين ، فليس من الضرورى إختيار قسم منها واستبعاد جميع البدائل ، بل الأمور أكثر واقعية من هذا فإن إختيار شىء معناه تأجيل هدف معين أو تأجيل اشباع رغبة واشباع رغبة أخرى ويجب القول أن هذا النوع من تحليل مواقف الصراع يعطى وزناً قليلا نسبياً للنواحى الدنيامية للعمليات الدافعية ·

ولإيجاد موقف يتضمن حاجزاً تتأكد فيه قيمة هذا الصراع وتتأكد فيه حقيقة التحرك نحو هدف معين أجريت تجربة اختبر فيها الاختيار أثناء الاقتراب الواضح من هدف وكان أفراد العينة أطفال قبل سن المدرسة وأطفال من رياض الأطفال · .

أقيم سياج حول مساحة مربعة مقدارها ٦ أقدام وارتفاع السياج ٤½ قدم فى ركن حجرة التجارب وكان بجواره مرآة فى حجرة مراقبة تسمح بالرؤية فى اتجاه واحد ، وكان السياج مكونا من جدارين من جدران الحجرة فى جانبين منه وفى الجانب الثالث قاطوع من سلك شبكى ثقيل وفى الجانب الرابع قاطوع من الكرتون عمقه ١٨ بوصة وفى وسطه فتحة ارتفاعها ارتفاع السياج وعرضها يكفى لأن يمر الطفل منه وكان المرور خلال الفتحة يعوقه ثلاثة أعمدة متتابعة من قضبان خشبية ، وكانت القضبان يمكن إزالتها بنفس الطريقة التى يزاح بها ترباس الباب حتى يمكن الدخول داخل السياج ووضعت لعبتان على منضدة داخل السياج وكان هناك إثنين من المشرفين ، يتولى أحدهما أن يشرح للطفل كيفية الدخول إلى السياج للحصول على اللعب بإزحة القضبان ، وبعد أن يبدأ الطفل فى العمل بداية طيبة يدخل المشرف الآخر الحجرة ومعه لعبتان أخريان ويضع اللعبتين خارج السياج على منضدة ثم يرجع مباشرة إلى حجرة الملاحظة ويلفت انتباه الطفل إليها ويتأكد من أنه ينظر إليها ثم

يقول له [هل تريد أن تدخل لتلتقط اللعب التى بالداخل هناك أم تريد أن تلعب بهذه] .
هذا وقد استعملت تشكيلات مختلفة من اللعب التى تلائم الأولاد والبنات [٣٢] .

ودخل التجربة ٢١ طفلا فضل ١٨ منهم اللعب التى داخل السياج بعـــد محاولة إزالته .

الاحباط والتوتر

تتوقف درجة التوتر الناتجة عن الإحباط على (١) شدة الدافع المثار ، (٢) قوة العقبة ، (٣) استمرار هذه العقبة [٢٠] .

واعتراض حالات الدوافع الضعيفة ينتج توتراً أقل من اعتراض حالات الدوافع القوية ، كما أن الإحباط الجزئى ينتج توتراً أقل مما ينتجه الإحباط الكامل وكلما إزداد الإحباط واستمر كلما ازداد التوتر وإذا حدث الإحباط بسبب صراع الدوافع كلما تساوى توازن الدوافع المتضادة كلما إزداد التوتر وكذلك يزيد التوتر بزيادة شـــدة الدافع وكلما استطال زمن الإحباط ازداد التوتر باستمرار إذ قد تزداد قوة الحاجة أو الرغبة بمرور الزمن . بل إن مرور الزمن فى حد ذاته غالباً ما يزيد الحاجة أو الرغبة إلحاحاً لأن تأخير اشباع الحافز المثار حالياً قد يعنى تأخير اشباع حالات دوافع أخرى من المنظور أن تثار ، وآثار التوتر المتزايد كثيرة الأنواع بعضها بناء وبعضها هـــدام وكونها بناءه أو هدامه يتوقف إلى حد كبير جداً على مستوى التوتر [١٩] .

فقد استخدمت فكرة جهاز التوتر لتلقى الضوء على بعض آثار الإحباط ، فقد أوضح كل من باركر وديمبو وليفين ١٩٤١ أنه يمكن إيجاد مستوى عال من التوتر فى أحد الأجهزة الفرعية فى الشخص وبعدم السماح لهذا التوتر بأن ينخفض عن طريق نشاط متجه إلى هدف مناسب وإيجاد موقف إحباط أى موقف يمنع فيه الإنسان من أن يصل إلى هدف مرغوب ، وهذه هى إحدى الطرق لخلق حالة التوتر داخـــل الفرد [٨] .

الآثارة البناءة للاحباط : يعتبر الإحباط عادة « سيئاً » بالنسبة للانسان لأن آثار الإحباط الهدامة تشغل انتباه علماء النفس كما تشغل أذهان عامة الناس على السواء ولم يهتم أحـد بأن يبرز إبرازاً كافياً الحقيقة الواقعة وهى أنه عندما يبدأ الاحباط أو الصراع فى إيجاد التوتر وتراكمه فإن التغيرات التى تنتاب الموقف السيكولوجى قد تعمل على تسهيل الوصول للهدف، فالتوتر المتزايد يركز اهتمام الكائن بشدة على حالة الدافع المعين بحيث يصبح أكثر بروزاً مما قد يؤدى بحالات الدوافع الأخرى المتزامنه معها إلى الانـكماش وبذلك تخرج من المجال كله كافة الملامح التى تبدد إنتباه الشخص ولا تتصل بالدافع المعين هـذا ، وقد تزداد جاذبية الهدف من جراء الإحباط كما سبق أن بينا وكما تبين أيضاً التجربة الآتية :

وضعت لعبتان فى قفص مصنوع من سلك شبكى وموضوع على منضدة ، ووضعت لعبتان أخريين على سطح المنضدة قريباً من القفص وعلى خط واحـد من اللعبتين الأوليين ، وكان عدد الأطفال الذين أجريت عليهم التجربة ١٨ طفلا قبل سن المدرسة ومن رياض الأطفال وكان الطفل يدخل الحجرة ويطالب منه تدريج اللعب بأن يقول أيها « أحسن » فى رأيه ، ثم ما يأتى بعـدها وهكذا بالنسبة للعب الأربع ، وكان هذا الإجراء على أساس أن الاختيار الشفهى أسهل على الطفل من محاولة الوصول للاشياء المقيدة ، وبعبارة أخرى فإن القوة المعطلة للحاجز بين الطفل وبين اللعب المعوقة لا بد وأن تـكون أضعف عندما يطالب منه أن يقول أيها يفضل. وقد بينت نتائج التجربة أن اختيار اللعب التى داخل الصندوق كانت أكثر من الأخرى فى ٦١ ٪ من الحالات وحدث العـكس فى ١١ ٪ من الاختيارات ولم يحدث العـكس المطلق أبداً وقد تحققت هـذه النتيجة عندما استخدم فى التجارب قطع من الحلوى (٣٢) .

وتفسر نتائج الاختيار الشفهى أن الميل الذى يظهره الاطفال لإختيار الشىء الميسر فى موقف اختيار بالعمل تحـكمه محصلة فيها القـوة المعطلة للحاجز هى الجزء المسيطر ، وهى تترك المجال لاحتمال أن يكون جذب الهدف المعوق فى موقف الاختيار

بالعمل كما فى موقف الاختيار بالقول أشد من جذب الهدف اليسر ، ويمكن توضيح الفرق بين تجارب الاختيار بالعمل والاختيار بالقول بتحليل على أساس من أبعاد الواقع واللا واقع فى مجال الحياه .

فالتغلب على عقبة من أجل الحصول على شىء يتطلب من الفرد أن يتطابق مع الأشياء كما هى فى الواقع ، بمعنى أن اختيار هدف معوق بالعمل هو حدث لا بد أن يقع على مستوى الواقع ، لكن مجال الحياة يتضمن أيضاً مستويات من اللا واقع يمكن تعريفها بأنها طبقات الأشياء لا على الصورة التى هى عليها ولكن على الشكل الذى يريدها الانسان عليه، فالأحلام والأمانى وما شابهها تدخل فى طبقات اللا واقع وعلى مستويات اللا واقع يستطيع الفرد أن يصنع كل ما بداله أى أنه فى طبقات اللاواقع تصبح الحواجز ضعيفة نسبياً ، فمجرد قول الانسان أنه يود الحصول على شىء (أو أنه يحب شيئاً ما) يمكن أن يحمل على كونه أكثر واقعية من سعيه للحصول على هذا الشيء والقول أسهل من الفعل نسبياً ، هذا وقد لوحظت فروق بين سلوك الأطفال والراشدين فى المواقف المماثلة موضوعياً . واتضح فى الحقيقة أن ديناميات الموقف لا تكون سواء بالنسبة للطفل والراشد فى مثل هذه التجارب التى توضح أثر الاحباط على الوصول للهدف وقد يكون لذلك أسباباً متعددة منها :

(١) إن المواقف بالنسبة للطفل مصطنعة إلى حد كبير، فالأطفال لم يحضروا إلا أثناء فترة التجربة فقط ولهذا السبب اعتبر كل طفل حجرة التجارب مكاناً جديداً والرحله القصيرة إليها مغامرة قد تنقلهم من جو المدرسة وأعمالها ولذا فهى محبوبة لديه ، وأحياناً ما يتصرف الطفل وكأن حصوله على ما يريد أقل أهمية لديه من اشتغاله بنوع غريب من الألعاب .

(٢) هناك عامل ثان هو توتر الهدف العام ذلك أنه بالنسبة للراشدين لا يكون العمل الذى يقومون به سوى حدث صغير من عمل يتكرر مرات فى اليوم لكن فى تجارب الاطفال كان الحصول على قطعة حلوى أو كره حادثاً كبيراً وكان كل طفل تقريباً قد علم من سابقيه ما هى الجائزة فكانت النتيجة أن جاء كثير منهم إلى الموقف

وهم فى حالة ترقب وفكرتهم الرئيسية تتركز فى الحصول على شىء من النوع الذى شاهدوه مع الآخرين ، ويبدو أنه من جراء الاهتمام بالهدف العام لم يكن فى الامكان أن يثار فى الاطفال قلق الاختيار بين أشياء معينة وبالتالى لا يمكن أن يهتموا بالحصول على الشىء الذى يصعب الحصول عليه ·

(٣) وهناك عامل ثالث وهو احتمال أن تكون القوة المعطلة للحاجز بالنسبة للطفل أقوى منه للراشد [٣٢] .

كل هذه الآثار تقوى بنيان الدافع فى سبيل الوصول للهدف ـ فكلما زادت العقبة كلما زادت تعبئة الجهود للتغلب عليها . ولكن إذا كانت العقبة كبيرة وفشلت الاعمال التعويضية فقد تتلوها أنواع أخرى من العمل الذى يهدف إلى التوازن ·

تغير الوسائل إلى الهدف : قد يؤدى الاحباط بالانسان إلى أن ينظر نظرة جديدة إلى الموقف كله ويتساءل عما إذا كان العمل السابق الذى قام به نحو الهدف هو أكثر الاعمال مناسبة للوصول للهدف ، وقد يعمل التوتر الزائد على توضيح معالم الموقف التى أغفلها الشخص لا سيما حين يضطر إلى البحث على نطاق واسع عن سبل بديلة توصله للهدف — فهل يستطيع الانسان تحت ضغط التوتر والاحباط من رؤية هذه السبل البديله ـــ الواقع أن الزيادة المعتـــدلة فى التوتر غالباً ما تؤدى إلى العثور على طرق جديدة والتغلب على الاحباط ولكن التوتر فى بعض الاحيان قد يزداد حتى يبلغ درجة عالية جداً بحيث يمنع الانسان من رؤية زاوية أخرى للموضوع · وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن الاشباع البديل للدوافع، ولكننا نبحث الموضوع الآن من زاوية جديدة ذلك أن ازدياد التوتر يؤدى إلى توسيع دائرة البحث وبالتالى ربما يرى الشخص بديلا مناسباً للهدف حتى أنه يمكن أن يبدو أكثر جاذبية . ولو أنه من النادر أن يتمتع الهدف البديل بنفس خواص الهدف الاصلى أو يكون مساوياً له من ناحية مرغوبيته بل والمحتمل أن يتنازل الانسان ويضحى عند الابدال بحيث يبقى بعض التوتر الاصلى قائماً ·

ما هو البديل الفعال : تأثر كثير من الباحثين بنظرية كيرت ليفين التى عرضنا لها فى الفصل السابق فقاموا بدراسات تجريبية عن موضوع نوع النشاط البديل ودرجة صلاحيته — ففى ظروف معينة قد يصلح الواجب البديل بينما لا يصلح فى ظروف أخرى ، وتقاس القيمة البديلة بنفس الطريقة التى أوضحناها فيما سبق وهى لإستئناف الطبيعى التلقائى للنشاط المقطوع .

وربما كان من أكثر بحوث الإبدال طموحاً وأشدها دلالة ما قامت به مارى هنله ١٩٤٢ (٧) نلخصها الآن . ذلك أن هنله قد وجهت إنتقادات شديدة للدراسات السابقة عن الإبدال على أساس أنه لن يضاف شىء يذكر لما نعرفه عن القابلية للإبدال عندما نقول أن لعمل ما قيمة بديلة لعمل آخر لأن النظامين فى حالة إتصال دينامى . وذلك إذا كان على المرء أن يكتشف بالإختبار الفعلى — هل عمل ما يصبح فعلا بديلا لعمل آخر ؟ أى أن هنلة تحاول إيجاد بعض المبادىء التى يمكن بها التنبؤ مقدماً عن أى الأعمال يصلح بديلا بعضها للبعض الآخر وأيها لا يكون كذلك .

وقد إنتقت هنلة بعض مبادىء من نظرية الجشتالط فى الإدراك والتعلم مثل قوانين التشابه والقرب والتجانس والإغلاق وعلاقات الشكل والأرضية وتساءلت ألا يمكن أن تكون هذه المبادىء فعالة فى إبدال العمل . وعلى هذا الأساس خططت التجارب الآتية :

أجرت أولا سلسلة تجارب من خمسة أعمال متجانسة ، واحدة منها حل مسائل تتكون من متاهات بالورقة والقلم وكانت العينة من طلبة الجامعة وتمت كالآتى : سمح للمفحوصين بإتمام المتاهات الثلاث الأولى ثم قوطعوا فى المتاهة الرابعة ثم أتموا المتاهة الخامسة ، ثم سمح لهم بالعودة إلى المتاهة غير المنتهية لإكمالها ، وقد تنبأت هنلة بأن المفحوصين سوف يستأنفون العمل فى الأعمال غير المكتملة وذلك لأن العملين الأخيرين بوصفهما وحدات فى سلسلة متجانسة من المتاهات لا يتميزان عن بقية

الأعمال ، ونتيجة لذلك لا يشكل العملان الرابع والخامس زوجاً يمكن أن يقال عنهما أنهما فى حالة إتصال بعضهما ببعض وبالفعل إستأنف كل مفحوص العمل فى التاهة غير المكتملة .

وقد تنبأت هنلة إستمراراً لهذا الإتجاه فى التفكير بأنه فى السلاسل غير المتجانسة حيث يختلف العملان الرابع والخامس اختلافاً واضحاً عن الأعمال الثلاثة الأولى ، إن الإستئنـــاف سيكون أقل درجة مما كان عليه فى السلاسل المتجانسة إلا أن هـذا التنبؤ لم يتحقق فمثلا عندما كانت الأعمال الثلاثة الأولى تتكون من نماذج زخرفية مصغرة والعمل الرابع القاطع والخامس المكتمل يتكونان من حل ألغاز ميكانيكية كانت درجة الإستئناف مماثلة لدرجة الإستئناف فى السلاسل المتجانسة وقد حيرت هذه النتائج هنلة وذلك لأنه فى تجربة سابقة حيث إستخدم عملان فقط بدلا من سلسلة من الأعمال لم تستأنف نسبة كبيرة من المفحوصين العمـل القـــاطع فلماذا إذن توجد هـذه الفروق وقد إقترحت هنلة ثلاثة إحتمالات لذلك : (٧) .

أولا . . قد تؤدى مقاطعة عمل ما من سلسلة من الأعمال إلى تمييز هـذا العمل القاطع بين بقية الأعمال الأربعة الأخرى وبعزل هذا العمل القاطع قد يفقد إتصاله الديناميى بالأعمال الأخرى وعندما يكون هناك عملان فقط فإن العمل القاطع لا يبرز متميزاً بهذه الدرجه محتفظاً بعلاقته بالعمل المكتمل · ونتيجة لذلك أن تصبح القيمة البديلة كبيرة عندما يستخدم عملان فقط · وإذا كان هذا هو السبب فإن التجربة التالية التى أجرتها هنلة تقدم لنا البرهان وقد إستخدمت خمسة أعمال . كانت الثلاثة الاولى متشابهة وكان العملان الاخيران متشابهين : وبذا تكونت سلسلة غير متجانسة وقد قوطع العمل الاول والثالث والرابع وبذا لم يعد العمل الرابع الذى ستختبر درجة إستئنافه متميزاً بوصفه قد قوطع مادام العمل الاول والثالث قد قوطعا كذلك وكانت النتائج هى نفس النتائج التى وجدت عندما قوطع العمل الرابع وحده أى أن معظم المفحوصين إستئنفوا العمل فى العمل الرابع الذى قوطع بعد أن أتموا

الخامس ، يبدو إذن أن القاطعة فى حد ذاتها لا تجعل العمل متميزاً بارزاً وتجعل نظام التوتر يفقد إتصاله الدينامى مع النظم المجاورة .

ثانيـاً : العامل الثانى الذى يمكن أن يكون سبباً لتضارب النتائج الخاصة بسلاسل الاعمال فى مقابل الاعمال الزوجية هو الجاذبية الكبرى فى الاعمال المستخدمة فى السلاسل بالموازنة بتلك المستخدمة فى الاعمال الزوجية ، ويمكن أن يكون قبول البدائل بدرجة أقل إذا كان المفحوص على إهتمام شديد بالعمل القاطع ، ولتختبر هنلة هذا الإفتراض إستخدمت أزواجاً من الاعمال تتباين فيما بينها من حيث تكافئها النسبى وقد يحظى زوج من الاعمال بتفضيل بالغ للغاية ، على حين كان تكافؤ الزوج الثانى متوسطاً ، أما الزوج الثالث فقد كان الإهتمام به منخفض القيمة وقد بنيت النتائج بوضوح أن أعلى درجات الإستئناف كانت بالنسبة للاعمال ذات التكافؤ الا كبر أما أقلها فكانت بالنسبة للعمل ذى التكافؤ الادنى على حين كانت درجة الإستئناف متوسطة للعمل ذى التكافؤ المتوسط .

ثالثـاً : العامل الثالث الذى تعتقد هنلة أنه قد يكون سبباً فى إختلاف نتائج التجارب التى يستخدم زوجاً من الاعمال والتجارب التى تستخدم سلسلة مكونة من خمسة أعمال هو النجاح على أساس أن تأثير النجاح يجرى بالصورة الآتية : يميل المفحوص إلى إعتبار العمل غير المكتمل أكثر صعوبة من العمل المكتمل وعندما تتاح له الفرصة لإتمام عدد من الاعمال عندما تقدم له سلسلة من خمسة أعمال مثلا فإنه يكتسب ثقة فى قدرته على القيام بالعمل ونتيجة ذلك أن يميل إلى العودة إلى إتمام العمل القاطع أما عندما يكون هناك عملان فحسب فإن الفرصة لا تتاح له ليستشعر ثقة كبيرة فى نفسه لخبرته بالنجاح ومن ثم يقل إحتمال عودته إلى إستئناف العمل القاطع .

وقد درست هنلة أهمية هذا العامل على الوجه الآتى : سمحت للمفحوصين بإتمام ثلاث متاهات تتزايد صعوبتها ثم تلاذلك متاهة قوطعت ومتاهة أكملت وقدعاد جميع

المفحوصين تقريباً للعمل فى التاهةغير المكمله وعندما كانت المتاهات الثلاثة الأولى بالنبة السهولة فإنها لم تمد المفحوصين بمشاعر النجاح ولذلك عاد عدد صغير للغاية من المفحوصين لإستئناف العمل القاطع .وبعد أن حددت هنلهأن تكافؤ العمل وصعوبته وهما متغيران هامان فى تجارب الإبدال ثبتت هذين العاملين وغيرت ظروف تجانس العمل وقربه .
وقد أجرت سلسلة من الأعمال غير المتجانسة تتكون من ثلاثة اختبارات شطب الحرف أكملتها جميعاً واختبارين لنماذج مصغرة قوطع واحد منها وأكمل الآخر وكان نتيجة هذه الاختبارات أن تناقص استئناف العمل تناقصاً كبيراً عما هو الحال فى سلسلة متجانسة الأعمال .

ولكى تختبر هنله عامل القرب استخدمت السلسلتان التاليتان من ثلاثة أعمال ، وكان التابع فى السلسلة الأولى على النحو الآتى إتمام العمل الأول ومقاطعة العمل الثانى وإتمام العمل الثالث ، وكان العاملان الثانى والثالث متشابهين والعمل الأول مختلفاً وكان العمل القاطع فى هذه السلسلة مجاوراً لعمل مماثل ومكتمل ولم يستأنف العمل القاطع ٧٥٪ من المفحوصين وتبين هذه النتيجة أن العمل الثالث له قيمة بديلة بالنبة الارتفاع بالنسبة للعمل الثانى ، أما فى السلسلة الثانية فكان التتابع على الوجه الآتى : مقاطعة العمل الأول وإكمال العمل الثانى وإكمال العمل الثالث وكان العملان الأول والثالث متشابهين والثانى مختلفاً وقد كان العمل القاطع فى هذه السلسلة منفصلا عن العمل المماثل له والمكتمل وقد بلغت نسبة من لم يستأنف العمل القاطع ٣٦٪ فقط من المفحوصين وتؤيد هذه النتيجة الفرض القائل بأن الحدود بين نظامين من التوتر يكون أكبر قابلية للنفاذ تحت ظروف تجانس العمل واقترابه .

وبهذا يتضح من تجارب هنله أن هناك مبادىء معينة تخدم عملية الإبدال بمعنى أننا يمكن أن نستفيد من مثل هذه المبادىء كى نسهل الإبدال عند حدوث الإحباط .

الآثار الهدامة للإحباط

إذا فشلت آثار الإحباط والصراع البناءة فى أن تؤدى للوصول للهدف استمر التوتر فى الزيادة حتى يصل إلى مستوى لا تصبح عنده آثاره مساعده بل معوقه للنشاط الموجه نحو الهدف وأسباب ذلك عديدة فمن ناحية نجد أن تزايد تعبئة الطاقة قد يصبح من العظم بحيث يجاوز القدر المناسب للعمل ، أى أن الإنسان قد يشتغل باجتهاد كبير جداً وبذلك يهدم التنسيق الدقيق للمجهود أو من ناحية أخرى قد يؤدى التوتر الزائد إلى ضيق الأفق بمعنى أن الإنسان يركز انتباهه على الطرق المسدودة أو على الهدف الذى لاسبيل للوصول إليه بحيث يغفل عن وجود طرق بديله وأهداف بديله. وأخيراً فقد يصاحب التوتر الزائد تهييج انفعالى يتدخل فى عمليات المراجعة والاختيار وعندها تختلط الأمور على الإنسان ويفقد سيطرته (1) .

وباختصار هناك حداً ومستوى معيناً إذا تعداه التوتر أدى إلى أشكال من الأثر على السلوك مختلفة فى نوعيتها ويمكن أن نسمى هذا المستوى عتبة الإحباط ، وقد يعانى الإنسان درجة عالية جداً ومستديمة من الإحباط دون أن تبدو عليه علامات الاضطراب ، ربما يستمر فى الكفاح من إجل الهدف أو البحث عن طرق جديدة وأهداف بديله ويحاول الوصول إلى اختيار واقعى رشيد ولكن عندما يضطرد إزدياد التوتر فقد يغدو مهتاجاً بأشد مما يجب ويضطرب انفعالياً بحيث لايطيق معالجة المشكلة والموقف بوسائل بناءة وعندئذ نقول أنه تعدى حد احتماله للاحباط أو أنه قد تعدى عتبة الإحباط (27) .

وسوف نتناول فى الفصل القادم أثر الإحباط على أحداث الاستجابات العدوانية إلا أن ما يهمنا فى هذا المقام هو أن نبين كيف يؤثر الاحباط على إشباع الدوافع واستثارة دوافع بديلة .

ويمكن أن نلخص هذا فى الآتى : الإحباط غير الشديد قد يؤدى إلى آثار بناءة تساعد على الوصول للهدف فقد يبعث الكفاح المركز التغلب على العقبة ومن ناحية

أخرى قد يدفع إلى أنواع كثيرة من التكيف مع الموقف بما فى ذلك العثور على سبل بديلة نحو الهدف وإبدال الأهداف حتى يتعذر الوصول إليها لتحل محلها أهداف ميسرة الوصول وإعادة تحديد الموقف با كمله بصورة تزيل الصراع دون عقبات. ويسمى مستوى التوتر الذى إذا تجاوزه الإنسان يؤدى الإحباط إلى آثار هدامة بدلا من الآثار البناءة باحتمال الإحباط ويتفاوت هذا المستوى تفاوتا واسعاً باختلاف الاشخاص وباختلاف المواقف وتتخذ الآثارالهدامة أشكالا عديدة منها اتجاه العدوان على الحاجز أو انتقاله إلى أشياء أخرى وردود فعل هروبية واختلال السلوك مما يتضمن النكوص والتكرار والنمطية وهذا ما سنتناوله فى الفصل القادم عند الحديث عن الانفعالات.

الآثار غير المباشرة للاحباط

تناولنا حتى الآن الآثار المباشرة البناءة والهدامة التى يحدثها الاحباط والصراع على الدوافع المثارة عند إحباطها ولكن ديناميات الموقف أكثر تعقيداً من هذا فالكائن جهاز موحد معقد حيث تولد الآثار آثارا لها بالتبعية وهكذا.

والآثار غير المباشرة قد تكون ذاتها بناءة، فالإنسان الذى يعانى من الإحباط والصراع قد يدرك فى النهاية أن العالم ملىء بالمشكلات الحادة والقرارات الصعبة فإذا كان قد تصرف بنجاح إزاء الإحباطات الماضية فربما يعمم هذه الخبرات ليجعل منها إعتقاداً واثقاً من أنه سوف يستطيع التصدى إزاء المشكلات المستقبلة ومن خلال هذه السيطرة المتكررة على الإحباطات يمكن أن يرتفع مستوى احتمال الإحباط.

على أن الآثار المنتشرة للاحباط قد تكون هدامة فالإنسان الذى أحبطته إحدى المشكلات لا ينتظر منه أن يتناول المشكلات الاخرى فى هدوء وفاعلية وهكذا يحبط الهدم الاصلى دوافع أخرى وهذا بدوره ينتج حالة من التوتر أشد حدة كما يفسر تفاعل التوترات المصاحبة لمختلف حالات الدوافع المثارة فإن سلسلة من الإحباطات الصغيرة يمكن أن تؤدى فى النهاية إلى انفجار نوبة قوية لدى الشخص (١٩).

ومن أهم مصادر القلق فى الاحباط ما يتهدد احترام النفس المرتبط بالفشل فى الوصول للهدف لأن الاحباط بسبب عدم احراز الهدف يعنى أكثر من مجرد عدم اشباع حاجة معينة اذ قد ينظر الانسان اليه باعتباره يعنى أنه فشل فى مهمته وأنه ضعيف ومن هنا يعانى تهديدا مؤلما بفقد احترام الذات وضياع المكانة وتولد هذه التهديدات قلقا وتوتراً متزايدا وهنا نواجه دائرة مفرغة من إحباط — فشل — قلق توتر — مزيد من الإحباط ٠

أما ما يؤدى اليه الاحباط من مثل هذا القلق فيرتهن طبعاً بصفة موقف الإحباط وطبيعته الخاصة ونذكر أن بعض أنواع الإحباط قد تنشأ من مجرد إنعدام أو فقدان فى البيئة وهذه لا يحتمل أن تثير قلقا لأن الإنسان لا يعتبرها مهدده لسمعته أو صورته أمام نفسه فانعدام الأشياء أمور موضوعية لا دخل للانسان فيها ، قد يحس طبعا باحباط عنيف من ناحيتها لكن لا ينشأ لديه قلق من النوع الذى يحسه عند استعراضه لموقف الاحباط فان الانسان حين يرى سبب الأحباط فى غبائه أو نقص فيه فهنا يحتمل أن يزيد القلق ويرتفع وعلى ذلك لابد لنا أن نتوقع فرقا بينا فى آثار الاحباط عندما يكون الأنسان منغمسا فى تفسة وعندما يكون منغمسا فى العمل وتبين التجربة التى أجرتها زيجارنيك عن الذاكرة بالنسبة للواجبات التامة والمبتورة مثل هذا الفرق ونعرض لها الآن بالتفصيل لأنها مرتبطة بأكثر الافكار التي عرضنا لها عن الدوافع ٠

تناول بحث زيجارنيك أثر تلك التوترات على الذاكرة أو على وجه التحديد بحثت عن إجابة للسؤال القائل . ما هى العلاقه فى الذاكرة بين حالة نشاط قطع قبل أن يتم وآخر لم يتعرض لهذا الانقطاع (٣٣) ٠ وقد توقعت أن شبه الحاجة غير المشبعة تؤثر فعلا ولو على مجرد إستبقاء الذاكرة للمعلومات ٠

العينه : تكونت العينه من ١٦٤ شخصا (طلبه ، معلمين ، أطفال) وكانت هناك تجربتان جماعيتان (٤٧ راشدا ، ٤٥ طفلا) .

الاجراءات : كانت التعليمات كالآتى : «سأعطيكم سلسلة من الواجبات وعليكم اتمامها بأسرع وأصح ما يمكن » ثم يعطى للشخص من ١٨ إلى ٢٢ واجبا على أن تقدم

له واحدا كلما أنتهى من واجب أعطى له الذى بعده ، لكن نصف هذه الواجبات قطعت قبل أن يتمكن الشخص من إتمامها وكان نظام ونوع الانقطاع بحيث لا يتمكن أحد من معرفة سببه ، فمثلا يقطع واجبان ثم يسمح بإتمام اثنين وهكذا ، وبعد آخر واجب طلب المشرف على التجربة من الافراد أن يتذكروا كل ما قاموا به من أعمال . ولم يحدد وقت معين للاجابة ، كما طلب منهم تقديم تقارير استبطانية عن رأيهم ، ثم سئلوا عن أى الواجبات كانت أكثر تشويقا ومتعة وأيها أقل وهكذا ، وبالاضافة إلى ذلك كان المشرف على التجربة يكتب ملاحظات بكل ما قد يدلى به الأشخاص من أقوال تلقائية أثناء العمل .

وكانت الواجبات مؤلفة من أعمال يدوية [تركيب صندوق من ورق الكرتون ، عمل أشكال من الصلصال] ومن مسائل عقليه [مثل الألغاز والمسائل الحسابيه وما شاكلها] وكان الوقت المحدد لمعظمها يتراوح بين ٣ ، ٥ دقائق وقد قسم المشرف على التجربة الواجبات دون علم الأشخاص إلى مجموعتين ا ، ب . وقد أتم نصف مجموع الأشخاص جميع أعمال المجموعة ا ولم يتموا شيئا من ب فى حين أن النصف الآخر أكملوا كل ب ولم يتموا شيئا من ا .

النتائج : دلت النتائج المأخوذة من ال ٣٢ شخصا على متوسط ذاكره يزيد ٩٠٪ بالنسبة للواجبات المقطوعة أى أنه من بين ٣٢ شخصا تذكر ٢٦ شخصا الواجبات المبتورة أكثر من غيرها وتذكر ٣ أشخاص الواجبات التامة والمبتورة بنسبة واحدة بينما تذكر ثلاثة أشخاص الواجبات التامة أحسن من المبتورة ، ويتضح من استعراض النتائج أن بتر الواجبات يزيد من فرص تذكرها ، أما فيما يتعلق بالزمن فان الميزان يجب أن يميل لصالح الواجبات التى تمت لأن الشخص الذى يتم عملا يقضي فيه بالضرورة وقتا أطول مما يقضى مع الواجب الذى قطع .

وفيما يتعلق بترتيب التذكر فقد وجدت الباحثة أن الواجبات التى بترت هى التى أوردها الأشخاص أولا قبل الواجبات التى تمت وكانت النسبة ثلاثة أضعاف ، وأعادت

الباحثة التجربة مع مجموعة واجبات جديدة و ١٥ شخصا آخرين فكانت النتيجة مطابقة تماما للنتيجة التى أوضحناها الآن فقد إتضح أن التذكر كان لصالح الواجبات المبتورة بنسبة ١٠٠ ٪ .

التجارب الجماعية : أجريت التجربتان الآتيتان على مجموعات من ٤٧ شخصا بالغا و ٤٥ تلميذا بمتوسط عمرى قدره ١٤ سنة وكان عدد الواجبات ١٨ واجباموا د كل منها تقدم داخل مظروف مستقل بالاضافة إلى مظروف بداخله أستمارة إستخبار تستخدم كتقرير وعندما يسمع الأشخاص كلمة ابتدى يفتح كل شخص المظروف الأول ويطلع على التعليمات الخاصة بهذا الواجب ويبدأ عمله وعندما ينتهى أو يؤمر بالتوقف يعيد كل المواد إلى داخل المظروف وكان الأشخاص جميعا يبدأون كل واجب معا . وأظهرت النتائج أن الذاكرة لصالح الواجبات المبتــورة بنسبة ٩٠ ٪ فيما يتعلق بالراشدين و ١١٠ فيما يتعلق بالتلاميذ فمن بين ٤٧ راشدا تذكر ٣٧ منهم الواجبات المبتورة أحسن من غيرها وتذكر ٣ أشخـــاص كلا النوعين بنسبة واحدة وتذكر ٧ منهم الواجبات التامة بصورة أحسن . ومن بين ٤٧ تلميذا تذكر ٣٦ الواجبات المبتورة أكثر من غيرها وتذكر ٤ كلا النوعين بنسبة واحدة وتذكر خمسة أفراد الواجبات التامة أكثر من غيرها .

مناقشة النتائج : تقدم لنا زيجارنيك مناقشة فريدة لنتائجها نوردها فى النقاط الآتية :

أولا : ميزت زيجارنيك بين ثلاثة أنواع من الأشخاص : النوع الاول الذين حاولوا طبقا للتعليمات فى الواجبات لأنهم أرادوا إرضاء المشرف على التجربة ، والنوع الثانى وهم الافراد الطموحين الذين إجتهدوا للتفوق وكأنهم فى منافسة مع الآخرين والنوع الثالث وهم الذين اهتموا بالواجب لذاته وحاولوا حل كل مسألة بالطريقة التى تتطلبها المسألة نفسها ونتيجة لهذا لم يلتزم المشرف على التجربة بطريقة ثابتة بالنسبة لجميع الاشخاص فمن كان من النوع الاول أبدى لهم المشرف رضاه كلما أتموا عملا ،

وبالنسبة للجماعة الثانية فان أعمالهم كان يراجعها المشرف وكأنه يمتحنهم أما الجماعة الثالثة فقد تركوا ليتموا أعمالهم بغير عائق وظل المشرف فى وضع سلبى بالنسبة لهم . وفيما يختص بالواجبات التى سمح للاشخاص باتمامها فقد ترك لهم وحدهم حرية أنهاؤها فلم يتعرضوا لاى ازعاج وتركوا حتى يعلنوا بأنفسهم أن العمل قد تم ، أما فى حالة الواجبات المقرر قطعها فان المشرف كان يقول للشخص « أرجو أن تعمل هذا » ويضع الواجب الجديد على المنضدة وقد حاول كل فرد أن يخمن سبب قطع الواجب بطريقته ، ولكن إيجاد تفسير مقبول للمقاطعة لا يعنى الرضا بالمقاطعة ذاتها بل على العكس عارضها الاشخاص وبقوة أحيانا ، ونظرا لأن المعنى الحقيقى للمقاطعة لا يتحقق إلا حين يحس الشخص أنها مقاطعة فقد كان المشرف دائما يختار الوقت الذى يكون فيه الاشخاص أكثر استغراقا فى العمل ويحدث ذلك كقاعدة عندما يكتشف الشخص كيفية عمل الواجب وقبل أن يصل لنتيجة نهائية . ونظرا لان معظم الأشخاص كانوا يرغبون فى الكلام أثناء العمل فقد ساعد ذلك على اختيار لحظة المقاطعة .

ثانياً :— تساءلت الباحثة عن السبب الذى حدا بالأشخاص إلى تذكر الواجبات التى بترت أكثر من غيرها ، فقد يقال أن الصدمة التى تحدث عند بتر الواجب تعين على تأكيده وبذلك تزداد العناية والانتباه الموجهين إلى تلك الواجبات المبتورة وتتحسن فرصة الاحتفاظ بها فى الذاكرة ، وبناء على هذه النظرة تتمتع الواجبات المبتورة بفرصه عاليه للبقاء فى الذاكرة لانه فى أثناء العمل كان لها تأكيد خاص وقد أختبر أثر هذه الصدمة تجريبيا وتبين أنها لم تكن السبب فى تذكر الأعمال المبتوره. فقد حاولت الباحثة أن تعطى لجميع الواجبات المبتورة والتامة وزن الصدمة أثناء العمل وقد أمكن ذلك بقطع بعض الواجبات ثم اعادة تقديمها للأشخاص كى يتموها قبل أن تنتهى فترة العمل ، وطبقا للافتراض السابق فان مثل هذه الواجبات المقطوعة والمعاد عملها يجب أن تبقى فى الذاكرة كما تبقى الواجبات التى بترت فعـــلا لأن كلا النوعين أصبح له تأكيد الصدمة اثناء العمل ، بل ان الواجبات المبتورة المعاده يجب

أن تتمتع بقدر أكبر فى التذاكرة عن باقى الواجبات كلها لأنها فى الواقع قدمت مرتين أثناء التجربة وبذلك تصبح قيمتها التكرارية مضاعفة عن باقى الواجبات .

وأجريت التجربة على ١٢ شخصا جديدا وأستخدم فيها ١٨ واجبا بتر منها ٩ واجبات ثم استؤنفت ، و ٩ أخرى بترت ولم تستأنف وكانت النتائج التى حصلت عليها الباحثة هادمة لهذا الافتراض من أساسه فتذكر الواجبات التى بترت ولم تستأنف كان أعلى بنسبة ٥٠٪ عن الواجبات المبتورة المستأنفة وعلى ذلك أمكن الاستنتاج أن أفضلية التذكر التى تتمتع بها الواجبات المبتورة لا يمكن أن تكون راجعة للتأكيد الذى تحظى به من جراء الانقطاع ذاته وقد تأكدت نفس النتيجة باعادة التجربة على أشخاص جدد .

ثالثاً : إذا كانت النتائج الأولى ليست راجعة إلى التأكيد المؤثر أثناء فترة العمل فربما يكون الافتراض التالى أكثر صلاحية وهو أن الشخص ظن أن بعض الواجبات بترت مؤقتا لكنها سوف تستأنف فيما بعد أثناء فترة التجربة ، ولكى يمكنه إستئناف العمل من حيثما بتر فقد بذل جهدا خاصا ليتذكر هذه الواجبات وقد أوضحت النتائج أن هذا الافتراض غير صحيح أيضا وبهذا نرى أن النتائج لم تكن راجعة إلى اعتقاد الأشخاص بأن الواجبات المبتورة سيعاد تقديمها فى وقت لاحق أثناء العمل .

ونظرا لأن كلا الافتراضين غير مقنعين فقد ذكرت الباحثة أن أفضلية تذكر الواجبات المبتورة لا تكمن فى أى تجربة مصاحبة للانقطاع بل فى القوى الموجودة عند الإسترجاع فالتمايز هنا يقع فى حالة اتمام وحاله عدم اتمام ، فعندما يبدأ الشخص فى أداء العمليات التى تتطلبها أحد هذه الواجبات تتكون فى داخله شبه حاجة لاتمامه ، وهذا يماثل حدوث جهاز توتر ينشد الاستقرار واتمام الواجب معناه إزالة التوتر واشباع الحاجة أو شبه الحاجة ولكن إذا ظل الواجب دون اتمام فستبقى حالة التوتر وتظل شبه الحاجة غير مشبعة وعلى ذلك فان أفضلية التذكر التى تحظى بها الواجبات غير التامة لابد أن تكون راجعة إلى استمرار وجود شبه الحاجة . وهكذا فان التوتر الذى

يؤدى إلى أشباع الحاجة لا يعمل فقط من أجل اتمام الواجب بل نراه يزيد من فرص الاسترجاع اللاحق فى الحالات حيث توضع العراقيل فى سبيـــــل الاتمام ، أى أن الاسترجاع هو بمثابة علامة على وجود جهاز التوتر هذا ، وبالتالى فان زيادة قيمة استرجاع الواجبات المبتورة لا تتوقف على الخبره الحادثة فى وقت الانقطاع ولـكن على مجموع القوى السائده فى وقت الاسترجاع وطبيعى أن هذا المجموع يشمل فرصا أخرى بجانب تلك التى تنشؤها الواجبات ذاتها ، ولا شك أن تعليمات المشرف على التجربة القاضية باعادة سرد الواجبات تمثل عاملا هاما فى هذا الموقف الـكلى .

ونتيجة لتلك التعليمات تنشأ فى الشخص رغبة أو شبه حاجة لاسترجاع جميع الواجبت وبعبارة أخرى دينامية فإن زيجارنيك تشرح الموقف وقت الاسترجاع كالآتى «تنشأ فى الشخص شبه حاجة إلى سرد جميع الواجبات على أثر تعليمات المشرف» وبالإضافة إلى ذلك توجد أشباه حاجات من شأنها أن تؤدى إلى استرجاع الواجبات المبتورة وليست الواجبات التامة وتتوقف قوة التوتر الدافع على استرجاع الواجبات المبتورة على العلاقة بين هـذين العاملين الأساسيين فإذا كانت الرغبة فى سرد جميع الواجبات — طبقاً للتعليمات — غالبة فإن الأفضلية بالنسبة للواجبات غير المنتهية تقل أما إذا كانت الرغبة غير قوية فإن الأفضلية التى تتمتع بها الواجبات المبتورة تتحدد بصفة تامة تقريباً بواسطة التوترات التى لم تزول والناشئة عن الواجبات المبتورة ، كما أسفرت التجربة عن أن النسبة المئوية للاسترجاع تختلف لا بحسب ما يعتبره المشاهد « تام » أو « غير تام » بقدر ما تختلف بحسب شعور الشخص ذاته فقد يبدو للمشاهد أنه أتم واجباً معيناً لـكن الشخص نفسه يعتبر النتيجة غير كافية ، والواجب بعيـداً عن الإنتهاء والعـكس بالعـكس، وفيما يختص بالواجبات التى لها أهداف محددة وتلك التى يمكن أن تستمر بلا نهاية فقد وجد فرق واضح فى النتيجة لأن قطع الواجبات التى من النوع الثانى يلعب دوراً أضعف جداً فى مسألة التوتر والذاكرة عن قطع الواجبات التى من النوع الأول .

بعض العوامل المؤثرة على الاسترجاع — أولا وقت المقاطعة :

ما هو الدور الذى يلعبه مكان المقاطعة ؟ إذا قارنا النتائج التى حدثت فيها المقاطعة فى الوسط أو قريبا من النهاية مع النتائج التى قوطعت بعد ابتدائها بفترة وجيزة لوجدنا أن نسبة أفضلية التذكر بالنسبة للاولى ٩٠ ٪ بينما النسبة الثانية ٦٥ ٪ فقط هذا مع ملاحظة أن المشرف كان يتدخل عندما يشتد استغراق الشخص فى عمل الواجب ، وواضح من سجلات التجربة أن ذلك كان يحدث تقريباً نحو نهاية العمل . فلماذا يأتى الاستغراق وبالتالى أفضلية الذاكرة للواجب متأخراً بدلا من أن يأتى مبكراً ؟ تفسر زيجارنيك ذلك بأن الرغبة فى إتمام واجب ما قد تتخذ فى البداية شكل شبه حاجة ولكن تنشأ فيما بعد من جراء استغراق الانسان فى العمل حاجة حقيقية وهكذا فإن الهدف الذى ربما لم تكن له فى البداية سوى قوة تفاعل قليلة يكتسب الآن قوة جذب إيجابية .

ثانيا الطموح : استطاعت زيجارنيك أن تميز بوضوح من خلال تعبير الأشخاص أثناء العمل الفروق بين الطموحين وغير الطموحين. وقد لاحظت أن أفضلية التذكر للنوع الأول كانت ١٢٥ ٪ فى مقابل المتوسط العام وهو ٩٠ ٪ وبهذا يبدو أنه رغم أن وجود النية لم تكن دافعاً خاصاً للاسترجاع فإن مدى انغماس الشخص فى العمل ينتج فرقا واضحا ، وكما كانت أفضلية الذاكرة بالنسبة للواجبات المبتورة بارزة بوجه خاص لدى هؤلاء الأشخاص فقد لوحظ أنهم ينسون الواجبات التى تمت بسرعة تفوق كثيراً ما يحدث للشخص العادى ..

ثالثًا — الاتجاه : لاحظت زيجارنيك أن هذه النتائج لا تحدث إلا إذا شعر الأشخاص أنهم تحت رحمة الموقف التجريبى ، فمثلا أرسلت جماعة مكونة من عشرة طلاب من طلبة المدارس الثانوية لزيارة معمل علم النفس ورغم أن رؤيتهم لتجربة نفسية أثارت فيهم اهتماماً عظيماً فإنهم لم يهتموا بالواجبات ذاتها بل زاولوها كنوع من النظام المدرسى . وأعترفوا أنهم قمعوا رغباتهم الخاصة وصنعوا ما طلب منهم أن يصنعوه فقط ، ومع تكرار التجربة تكررت نفس النتائج . . .

رابعاً — التعب : وجدت زيجارنيك أثناء هذه التجارب أن الأشخاص الذين يشعرون بالتعب تصبح أفضلية الذاكرة عندهم فى جانب الواجبات التامة وليست الواجبات المبتورة ورغبة فى دراسة هذه الظاهرة عن كثب أعطت الباحثة لمجموعتين من الأشخاص سلسلة من الواجبات فأعضاء المجموعة الأولى وعددهم ٧ أشخاص أدوا الواجبات وهم متعبون ثم سئلوا بعد فترة راحة تتراوح بين ١٣ : ١٥ ساعة وأدى أعضاء المجموعة الثانية وعددهم ٨ أشخاص الواجبات وهم مستريحون ثم سئلوا فى المساء بعد يوم من العمل الشاق وتظهر النتائج أنه بالنسبة للمجموعة الأولى كانت الواجبات التامة أشد بقاءً فى الذاكرة بينما المجموعة الثانية كان كلا النوعين على حد سواء ، فإذا كان جهاز التوتر للواجب المتبور لا يزال باقياً حتى وقت الاسترجاع فلا بد أنه كان على ثبات كافٍ بحيث يقاوم أثر الزوال الذاتى Self - dissolution. وفى حالة التعب كان الأشخاص فى تراخى والوسط مائع نسبياً ولذا فلم يستمر التوتر وهذا هو السبب فى أنه عند القاطعة لم ينشأ جهاز توتر متميز لكل واجب على حده .

خامساً — الاسترجاع التأخر : قد يقال أنه حتى بدون التعب تضعف الأسوار الفاصلة بين أجهزة التوتر بمضى الوقت ولإختبار الأثر الناشىء عن تخلل فترة من الزمن بين الأداء والاسترجاع ، أرجىء سؤال بعض الأشخاص إلى اليوم التالى . فانخفضت أفضلية الذاكرة للواجبات غير التامة إلى ١٤ ٪ فقط غير أن الباحثة وجدت أن نقصان التوتر لا يرجع لعامل الزمن بهذه الصورة بل يتوقف على الأحداث ذات الدلالة التى تحدث أثناء فترة الاستراحة الزمنية ، فعمدت زيجارنيك إلى اختبار ذلك بإيجاد تغييرات واضحة فى الموقف بعد أداء الواجبات مباشرة وقبل طلب الاسترجاع فوجدت إن تأخيراً يتراوح بين ١٠ ، ٣٠ دقيقة يكفى غالباً لإزالة أفضلية الذاكرة التى تتمتع بها الواجبات المبتورة .

سادساً — الواجبات المكبوتة : يحدث أحياناً أن يعطى للشخص واجب لا يستطيع عمله فيشعر أنه يفوق قدراته ، فإذا قوطع هذا الواجب فان الشخص غالباً ما يعتقد أن المشرف عرف النقص فيه فيسحب منه الواجب لهذا السبب ومثل هذه

الواجبات عادة تنسى عند عمل التقرير ، فمثلا رغم أن أكثر الصبيان غير ماهرين فى التريكو فانهم يتذكرون هذا الواجب إذا قوطع بشكل جيد أما البنات اللاتى لم يكن ماهرات فى هذا العمل فغالباً ما تنسى سرده فى التقرير رغم قطعه .

وتنتهى زيجارنيك من دراستها باثارة سؤال يستحق المناقشة ويتعلق بما إذا كانت هذه الفروق راجعه إلى الصدفة أم أنها فروق فردية حقيقية ولاختبار هذا الفرض أعيدت الدراسة باستخدام واجبات جديدة بعد فترة من ٣ إلى ٦ شهور وكان الارتباط بين نتائج التجربة السابقة والتجربة الأخيرة ٩ر وهذا يدل على أن النتائج راجعة إلى فروق فردية حقيقية كما أن مناقشة هذه المشكلة قد اتضحت أكثر عند مقارنة نتائج الأطفال بنتائج البالغين فقد كان مايميز الأطفال أنهم أحياناً لم يتذكروا سوى الواجبات غير التامة لأنهم أخذوا التجربة بصفة جدية أكثر من البالغين . فكان موقف الاطفال طبيعياً إزاء الواجبات بما يفوق كثيراً موقف البالغين وبالتالى فقد اكتسب كل واجب حدوداً وكياناً خاصاً به وهذا يوضح لنا بجلاء أن الاطفال كانت لديهم حاجة حقيقية لإكمال الواجبات المعطاة لهم وطالبوا أحياناً بالاستمرار فى الواجبات بعد مضى يومين أو ثلاثة من انتهاء التجربة ، وإن كان موقف الاهتمام هذا لم يقتصر كلياً على الاطفال فإن بعض الكبار الذين انغمسوا فى الواجب كانت أفضلية التذكر عندهم فى صالح الواجبات المبتورة أكثر من الواجبات التامة .

وبهذا العرض ينتهى تقديمنا لمشكلة الدوافع واشباعها واحباطها ويمكن أن نلخص هذا العرض الآن بأن القول أن الفكرة الاساسية التى تصور أن للحاجات البيولوجية الأولوية عند الانسان إنما هى فكرة منبثقة أصلا من ملاحظات على كائنات أدنى من الانسان ولا تمثله تمثيلا صحيحاً ولهذا السبب نشأت القاعدة بأن منبه (حالة احتياج عضوى معين تثير توتراً أو عدم ارتياح) سوف تؤدى إلى الاستجابة (وهى تمثل فى هذه الحالة نشاطاً عضوياً يؤدى إلى خفض التوتر وإشباع الحاجة) وقد قيل أن هذه القاعدة تنطبق فقط على الاختلالات الدورية فى التوازن الفسيولوجى وعلى توازنها وقال جولدشتين ١٩٣٩ وكذلك مازلو ١٩٤٣ أن السلوك الانسانى الذى

يتحرك على هذا النمط إنما هو سلوك لا يمثل الواقع ولا يعد السلوك السوى المعتاد ويحدث غالباً عندما يتحكم فى الانسان حرمان حاد أو مزمن إلا أنه فى الظروف الطبيعية لا توجد أنواع شديدة من الحرمان فيستطيع الإنسان التفرقة بين الاغراض المختلفة والحاجات .

ويترتب على وجهة النظر هذه أنه عندما يتم اشباع الحاجات الجسدية فإن الدوافع البشرية لا يمكن أن تقف ، ومن الملامح الاخرى المقيدة لهذا الاستنتاج أنه يتصور اشباع الحاجات الاولية أو الثانوية فقط دون أن يأخذ فى الحسبان حالات الاحتياج وحالات الانتهاء وفى هذا الصدد تختلف آراء الباحثين مثل البورت ١٩٤٢ وهارتمان ١٩٥١ وجولدشتين ١٩٣٩ — ١٩٤٠ وشيلدر ١٩٤٢ وقد وضح كل منهم فى صيغته النظرية ظواهر إقامة الاهداف والوصول إليها على أساس أن الانسان لا يعمل دائماً على تجنب أو انقاص التوتر بل الحقيقـــة أنه كثيراً ما يخلق التوتر المتمثل فى الاعمال والاهتمامات والاهـداف البعيدة المدى كما أن عناصر الارتياح ليست كلها تخلصاً من التوتر وليست مجرد حالات انتهاء لحالة سابقة من عـدم التوازن ، وفضلا عن ذلك فإن الوصول للهدف يشكل فى العادة ثراء إدراكياً مما يؤدى إلى حالة تغيير فى الشخص ، وهذه الحالة الجديدة فى الشخص تنتج أفقاً متسعاً للأهداف الجديدة التى لم تتحقق من قبل لـكى تواجه من جديد ، ولعل المقارنة بين مذاهب انقاص الدوافع التى يقول بها الفريديون واتجاه مثير استجابة وبين البدائل الادراكية ما يوضح لنا هذا الفرق . ففى المذهب الاول تتصور الأهداف على أنها انقاص للاضطرابات تـكون نتيجتها حالة من الاستقرار وطبقاً للمذهب الثانى لا تعتبر الدوافع افراغاً للتوتر فالانسان يخلق تلقائياً موضوعات للجهد وبعث النشاط فى أغراض يفـكر فيها هـذا إلى أن الانسان لا يظل ساكناً بل يتغير تدريجياً كلما وصل إلى هدف من الاهداف (٢٣) .

ويمكن بيان الاحتمالات الايجابية من وراء دراسة الدوافع فى هذا النطاق من آراء شيدر ١٩٤٢، فهو يؤكد أن الاجسام الحية وخاصة الانسان لديها نزعة عـدم

البقاء ساكنه فى حالة اكتمال بل تنتقل من اكتمال إلى عدم اكتمال إلى اكتمال جديد وما هو اكتمال بالنسبة لهدف يصبح عدم اكتمال عند الوصول إليه لأن الانسان يصبح الآن أكثر تفاضلا .

ونوضح أخير القابلة بين انقاص الدوافع وبين القدرة على الانجاز ذلك أن المحاولات الفردية لإدراك الاشياء والاهداف ليست للاشباع فى حد ذاته فإن الانسان حين يصل إلى هدف معين يضع أمامه أهدافاً أخرى وتتضمن هذه النظرة الاتجاه الايجابى للحفز فقد بين كلين ١٩٥٢ (٢٣) العلاقة بين توتر الحاجة وبين الوجدان وركز على الكيفية التى تعامل بها الأنا مختلف الحاجات واستخدم ظروف العطش كنموذج للحالة المثارة. وكان من ضمن ما أعطى للاشخاص الذين أجريت عليهم التجربة عدداً من المسائل أثناء العطش وأثناء الارتواء وكان من خلاصة نتائجه أن الناس يختلفون فى التصرف إزاء الحاجات ، وأن حالة الحاجة فى بعض الأحيان قد تؤدى بالفرد إلى مزيد من العمل فقد وجد أن بعض الأفراد كانوا أكثر دقة فى أدائهم تحت توتر الحاجة أكثر مما فى حالة الاشباع .

تنظيم الجهد : اتضح لنا بهذا الغرض أن عوامل الدفع تطلق طاقة تتفاوت فى درجاتها ، وقد يكون الكفاح من أجل الوصول للهدف قوياً وقد يكون محاولة نصف جدية فما الذى يحدد إذا كان الفرد يبذل كل جهده ليصل إلى ما يريد ، يحدد لنا جيلفورد العوامل الآتية (١٢) .

١ — قوة الدافع : من أهم العوامل قوة الدافع ذاته ، فكلما كانت الحاجة أكثر حيوية كلما كانت الرغبة أكثر إلحاحاً وكلما كان الجهد المنطلق أكبر .

٢ — الاحتياجات الظاهرة للطاقة : ينظم انطلاق الطاقة مقدار صعوبة الواجب الظاهرة فنحن نحاول محاولة جدية إذا كان العمل صعباً ، أما إذا بدا العمل صعباً جداً فإن هذا الجهد يتناقص إلى الصفر .

٣ — العقبات فى الطريق : لهـذا العامل أثرين متضادين ، فالعقبات الصغيرة تستدعى الطاقة الضرورية كما أن التغلب عليها يرضى الانسان ، أما العقبات الـكبيرة جداً التى تظهر وكأنها لا يمكن التغلب عليها فإنها تؤدى إلى خفض طاقة الفرد إزائها ، أما ما هو رد الفعل الذى سيحدث من الاثنين فهـذا متوقف على ما تعلمه الانسان من تصرف إزاء العقبات ، فهناك فرد علمته التجارب السابقة وما ناله من مكافأة أن من المفيد بذل طاقة أمام العقبات الـكبيرة بينما نجد آخر تعود على أن تزال من أمامه حتى العقبات الصغيرة .

٤ — القرب من الهدف : اقتراب الـكائن من الهدف يجعله يزداد دأباً للوصول إليه . فإذا اقترب الشىء المرغوب ليصبح فى متناول اليد فإنه يجعل الفرد يبذل جهداً كبيراً جداً فى مواجهة المقاومة الـكبيرة ، أما الهدف البعيد فإنه يقلل الطاقة ، ولهذا فإذا كان الانسان يعمل من أجل هدف بعيد فمن المستحسن أن يضع لنفسه أهدافاً فرعية إذ أن من الصفات الهامة فى طبيعة الانسان أن جاذبية الأهداف الأقرب والأكثر واقعية يمكن التغاضى عنها من أجل أهداف أخرى أعظم وأثمن فى المستقبل .

٥ — نتائج الجهد : زيادة الجهد تتطلب من الناحية الفسيولوجية توترات عضلية واسعة النطاق ، والمثال على ذلك توتر عضلات التنفس ، وأطباق الشفتين وقد دلت الاختبارات على أن هذه التوترات العضلية تؤدى بوجه عام إلى تسهيل العمل العقلى مثل التذكر والاسترجاع والجمع ولـكن زيادة التوترات بدرجة كبيرة تعوق الـكفاءه العقلية وخاصة أنواع الأداء الأكثر دقة التى تتطلبها الواجبات المعقدة .

تتضافر هذه العوامل معاً لخلق الدافع ولتسهيل الوصول إليه أو إعاقته .

ملخص

يعرف علماء النفس الدافع بأنه حالة توتر أو استعداد داخلى يثير السلوك ذهنياً كان أم حركياً ، ويواصله ويسهم فى توجيهه إلى غاية أو هدف . كان هذا المعنى هو أقرب المعانى لما التزمنا به فى عرضنا لمفهوم الدوافع والدافعية سواء من حيث تقسيم الدوافع إلى دوافع أولية أو مكتسبة مبينين حالة التوتر التى تستثيرها الحاجة بحيث تدفع السلوك نحو هذه الغاية أو الهدف بحيث تنبعث حاجات الجسم مثل الطعام والماء والأكسجين والإخراج والراحة والدفء عندما يبلغ النقص أو الاضطراب فيها حداً معيناً ، أى أن الحاجات هى عبارة عن نقص أصبح محسوساً ، والحاجات الجسمية كثيرة التنوع إلى درجة كبيرة جداً إذ توجد طرق كثيرة تؤدى إلى إضطراب توازن الجسم الذاتى ، وفى كل حالة عندما يخرج الاتزان عن الحد فقد يثير ذلك أعمالا مدفوعة لتصحيح وضع الكائن كله .

وهكذا يتضح لنا أنه يمكن إستثارة الدوافع بطرق متنوعة ، منها البيئة الداخلية للجسم فإن إضطراب التوازن الذاتى فى ضوابط عمليات الجسم قد يؤدى بالشخص إلى القيام بفعل موجه نحو هدف إستعادة التوازن الداخلى ، ومن مصادر إستثارة الدوافع الأشياء الخارجية فى البيئة الخارجية وبعض الأشياء التى لها صفة الحافز للشخص سواء كانت فطرية أو مكتسبة بالتعلم وعلى غرار بيئة الجسم قد يحدث فى البيئة المادية والطبيعية والاجتماعية إختلالات فى التوازن الذاتى لضبط الأحداث مما يتطلب فعلا مدفوعاً من جانب الشخص . ولهذا كان تحليل الدوافع مشكلة شائكة أمام الدراسة العلمية فعوامل التنبيه القادرة على تنشيط حالة دافع معينة قد تفشل فى ذلك بسبب أن الكائن منغمس فعلا فى حالة دافع آخر مثاره بشدة بحيث أن الدافع الأصلى لا يثار أو لا يكون مثاراً للاشباع ، إما لأن دافع بديل تدخل فى الأمر أو لأن الدافع الأصلى وصل إلى حد التشبع .

وقد أظهرت التجارب على الإشباع البديل أن الواجبات غير التامة تحظى بأفضلية تذكر مقدارها مرتين تقريباً عن الواجبات التامة وأن ذلك يكون نتيجة لعدة عوامل بيناها عند الكلام عن الإشباع البديل مقارنين فى ذلك بين الأسوياء وضعاف العقول .

وانتقلنا فى الفصل الثالث لمناقشة إحباط الدوافع مبينين أن الإحباط هو حالة يكون عليها الفرد وليست ظرفاً خارجياً ذلك أن عملنا الموجه نحو هدف إذا استطاع أن يحسب حساب القوى الخارجية فسيظل يعمل بكفاءة بدون إحباط ، وقد بينا من واقع التجارب أن الشعور بالإحباط يمكن فى كثير من الأحيان أن يكون مساعداً فى الوصول للهدف بحيث إذا ما زاد الإحباط عن حد معين أو تعدى ما يسمى بعتبة الإحباط أصبح معوقاً لتقدم الفرد نحو الهدف كما كان هناك فرقاً بين أن يكون الفرد منغمساً فى نفسه أو أن يكون منغمساً فى العمل كما بينت تجارب زبجارنيك .

المراجع العربية

١ — اللا ، (سلوى) الإبداع والتوتر النفسي ، القاهره : المارف ١٩٧٢

٢ — جلال ، (س.) المرجع فى علم النفس ، القاهرة : المارف ، الطبعه الثالثه ، ١٩٦٣

٣ — راجح (ا.ع) . أصول علم النفس ، القاهره : مطبعه جامعة اسكندرية ، الطبعه الثالثة ، ١٩٥٧ .

٤ — سويف (م.) التطرف كأسلوب للإستجابه ، القاهرة : الأنجلو ، ١٩٦٨

٥ — فائق (ا.) مدخل إلى علم النفس ، القاهرة : الأنجلو ١٩٦٦

٦ — فائق (ا.) عبد القادر (م.) مدخل إلى علم النفس العام، القاهره : الانجلو ١٩٧٢

٧ — مليكة (ل.ك) وآخرون ترجمة : نظريات الشخصيه ، القاهرة : الهيئة العامة ، ١٩٧١ .

المراجع الأجنبية

8 — Chaplin, j.p, Krawiec, T.S, Systems and theories of psychology, New york : Halt, Rinehart and winston, 1962.

9 — Edwards. D. C. General psychology, London, Collir Macmillan, 1968.

10 — Escalona, S. play and substitute satisfaction, In. Barker, R.G, Kounin, J.s, wright, H.E. (eds) child behild behavior and develop-ment, New york : McGraw - Hill, 1943, 363 - 378

11 — Garrett, H.E. General psychology, New delhi, eurasia, P. H. 2 ed., 1968.

12 — Guilford, J. P. General psychology, Londoh : chapmam hall, 1939.

13 — Guilford, J.p Personality, New york : Mcgraw hill, 1959

14 — Hilgard, E.R. Introduction to psycholohy, New york. Harcourt, Brace, 2 nd ed., 1957.

15 — Hilgard, E. R. Introduction to psychology, New york : Harcourt, Brace, 3 rd ed., 1962

16 — Henry, H. Motivation research. London : Crosby lockwood, 1958.

17 — Kendler, H.H. Basic psychology, London : Methuen, 1957

18 — Koflka, K. principles of gestalt psychology, London. Kegan pall, 1935.

19 — Krech. D. Crutchfield, R. S., Elements of psychology, New york : Alfred. A. Knopf ,1958.

20 — Lehner, G.F.J, Kube, E. The dynamics of Personal adjus-tment, New yersey : printice - hall 2nd ed., 1964.

21 — Lewin, K. Adynamic theory of personality, New york : mcGraw - Hill, 1935.

22 — Lewin, K. will and needs. In, Ellis, w.D. (ed). Asourse Book of Gestalt psychology, London : kegan paul, 1938, 283—299

23 — Lindzey, G. Hand Book of Social Psychology, London : addison wesley publishing company Inc., 1954.

24 — Maslaw, A.H. Motivation and personality, New york : Harper, 1954.

25 — RoBach, A.A. perscnality: in theory and practice, London peltr, owen, 1949.

26 — Sarnoff, I, Personality, dynamics and development, New york : John wiley, 1962.

27 – Stagner. R. karwoski , T. F. psychology. New york : MC Graw hill, 1952.

28 – Stagner , R. psychology of personality , New york : MCGaw Hill, 3rd ed., 1961.

29 – Tansley, A.G. The new Psycholgy and its relaltion to life, London : Geor Ge, Allen. 1922.

30 – Thorpe, L.P, Schmuller, A M, Personality,an Interdiscip linary Approach, New york : Dram nostromd. 1958.

31 – Wepman , J. m, Heine, R. w, Concepts of personality , London : Methuen , 1964.

32 – Wright, H.F. The effect of Barriers upon strength of motivaticn in, Barker, R.G, kounin, J.S, wright, H.F.(eds) Child behavior and development, New york : MCGraw-Hill 1943,379-396.

33 – Zeigarnik, Bluma, on finishe l and unpinished tasks. In, Ellis, W.D. (ed) A Source Book of gestalt dsychology, London kegon Paul, 1938, 300 – 314.

الفصل الرابع

الدوافع الشخصية للإبداع

ما الذى يؤدى بشخص معين إلى اتخاذ الابداع طريقاً لحياته وأسلوبا لتفكيره؟ وما الذى يجعل نصيب شخص معين طوال عمره بضعة أفكار بسيطة ساذجة يواجه بها مشكلاته، بصورة متكررة، بينما يستمر شخص آخر فى توسم طريق الجدة، والرغبة فى التميز العقلى، والمثابرة على اتخاذ أسلوب ابداعى فى حياته؟

اهتم علماء النفس فى فترة مبكرة بصياغة عدد من الفروض النظرية الخاصة بمسألة الاستمرار فى أداء نشاط أو عمل معين. وقد ابتكروا لذلك مفاهيم متعددة مثل الدافع، والحافز، والاتجاه؛ لتوضيح المبدأ الذى يكمن وراء الاستمرار فى أداء نشاط معين فى اتجاه معين.

وقد اعتقد علماء النفس منذ وقت طويل بأن القيام بسلسلة من الاستجابات المتتالية نحو هدف معين يتحدد بوجود أسباب عضوية فسيولوجية تتمثل فى التوتر الذى تستثيره التغيرات الداخلية كانقباض جدار المعدة (فى حالة دافع الجوع)، أو جفاف الحلق (فى حالة دافع العطش)، أو امتلاء المثانة، أو القولون (فى حالة دافع الاخراج)، أو توترات الأعضاء التناسلية (فى حالة الدافع الجنسى). بعبارة أخرى افترض العلماء تلك الحاجات العضوية لأعطاء الصبغة التنظيمية لسلسلة متماسكة متتالية من الاستجابات فهذه الحاجات العضوية تستمر فى استثارة سلسلة من الاستجابات لارضائها طالما أنها — أى التغيرات العضوية — مستمرة (٢٥).

لـكن الأساس الفسيولوجى لتماسك السلوك لا يصلح إلا فى مثل تلك الحالات البسيطة السابقة . لأن كثيرا من جوانب السلوك المركبة لا يصلح ، ولا يمكن تفسيرها بتلك الحالات العضوية . فما هى الحاجة العضوية ، أو ما هو التغير العضوى البيولوجى الذى يدفع للاستمرار فى سلسلة من الأفعال السلوكية المتعلقة بإبداع حل جديد لمشكلة ، أو تذوق مقطوعة موسيقية ، أو قراءة مسرحية ؟ ففى تلك الجوانب المعقدة من السلوك لا يمكن أن نتحدث عن وجود تميز خاص فى الدوافع العضوية الأولية .

لهذا افترض علماء النفس وجود دوافع أخرى تستطيع أن تعطى أساسا تنظيميا لتلك الاستجابات المركبة المستمرة وهى الدوافع التى تحدث لتحقيق حاجات متعلقة بوجود أهداف خاصة(٢) لدى الفرد ، وليس بمجرد حاجات بيولوجية موجودة لدى الناس جميعهم* . وقيمة هذا التطور بمفهوم الدوافع أنه استطاع أن يوضح الطبيعة المتفردة الخاصة للكثير من جوانب النشاط السلوكى الذى يستمر لفترة طويلة من العمر قد تستغرق عمر الانسان بأكمله (كما فى حالة العلماء أو الأدباء أو الفنانين الذين تستغرقهم أعمالهم) . أى أن فهم الاستجابات العقلية المركبة بطريق تحديد الأهداف (بصفتها دوافع للسلوك) يؤدى إلى فهم الطبيعة الخاصة لتلك الاستجابات ، كما يؤدى إلى فهم عنصر الاستمرار الطويل المدى فى النشاط العقلى المطلوب *

ومن ناحية أخرى ، فإن الدوافع البيولوجية الأولية (التى تدور حول إرضاء أو اشباع حاجة) لا تستطيع أن تفسر لنا السبب فى استمرار النشاط حتى بعد ارضاء الحاجة ، بينما تدلنا ملاحظاتنا على أن السلوك لا يضعف بمجرد تحقيق الأهداف فالانسان يندفع فى نشاطه حتى بعد تحقيقه لأهدافه خالقا لنفسه أهدافا جديدة . فالشخص الذى يبحث عن المكانة الاجتماعية ، أو الهيبة ، أو الدفء ، أو تحقيق الذات يستمر فى نشاطه لتحقيق ذلك حتى بعد وصوله إلى هدفه الجزئى الذى رسمه لذلك .

وفى مجال الإبداع أثار موضوع الدوافع نشاط علماء النفس الإبداعى ، وجعلهم يتجهون فى محاولات شاقة لتحديد تلك الدوافع الخاصة بالمبدعين من خلال دراسة أهداف المبدعين . وبالرغم من أن محاولاتهم لم تنته إلى نتيجة حاسمة حتى الآن ، فإن إعطاء إطار بنتائج تلك المحاولات عمل مطلوب ، بالرغم من صعوبته وعدم إكماله .

تصنيف بحوث الدوافع الابداعية

ويمكن تصنيف نشاط الباحثين فى تناول الدوافع الإبداعية إلى نوعين من النشاط هما :

(١) قوة الدافع* .
(٢) الدوافع الشخصية .

وتختلط بحوث النوع الثانى من الدوافع ببحوث سمات الشخصية لدى المبدعين غير أن استخدام مفهوم الحاجة ، أو الدافع(**) ، أو الهدف لا يختلف ، فى تصور ستاجنر Stagnar وغيره ، عن مفهوم السمة (٢٢) . فالتشابه مثلا بين الحاجة للانتماء الاجتماعى وسمة القابلية للتطبيع واضح ، ففى كلتا الحالتين يتجه الشخص بسلوكه ، وخيالاته إلى الرغبة فى الاكتفاء بالآخرين ، وتكوين الصداقات ، والإنتماء لجماعات مختلفة . فضلا عن هذا فإن كثيرا من سمات الشخصية يمكن النظر إليها بصفتها دوافع للسلوك ، لأنها تخلق لدى الأفراد حاجات معينة للتصرف بطريقة محددة فى إتجاه معين لفترات طويلة . وينطبق هذا تقريباً على كل سمات الشخصية فيما عدا السمات المتعلقة بالحركات التعبيرية لدى الفرد . فطريقة المشى ، أو الكلام ، أو الكتابة ، ولو أنها تكشف قيمتها من خلال ثباتها فى سلوك معين للفرد ، فإننا نادراً ما نتحدث عن خاصية دافعية لها . وبالرغم من أن مفهومى « السمة » و « الحاجة » يستخدمان

(*) Strength of drive

(**) يعرف هوينجمان Honigmann الدافع بأنه حالة النشاط التى تحرك السلوك نحو تحقيق أهداف شخصية مرغوبة (٢٢) .

بطريقة مختلفة أحياناً ، فإن تحديد هذا الإختلاف يتوقف فيما تبدو على سياسة الباحث نفسه ، وعلى المعنى الذى يعطيه شخصياً لهذا المفهوم أو ذاك . فكل سمة تقريباً لها قدرتها على الدفع الدينامى للسلوك فى اتجاه معين ، وكذلك كل دافع يحتاج لتحقيقه إلى نمط منظم من الإدراك أى إلى « سمة » . وسنستخدم كثيراً من أنماط الشخصية ، وسماتها هنا للكشف عن خصائصها الدافعية لسلوك الإبداعى ، وعلى الحاجات التى تستثيرها لدى الفرد لكى يندفع فى نشاط إبداعى متواصل .

ولنتجه الآن إلى إعطاء صورة مناسبة لنتائج المحاولات التجريبية فى هذا الميدان .

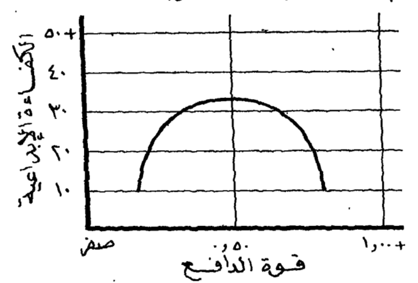
قوة الدافع أو مستوى النشاط العام

للشخصية

تتفق نتائج البحوث على وجود قدر من الدافعية العامة لدى المبدعين . وبالرغم من أن البحوث تبين أيضاً أن تلك الدافعية العامة أو النشاط أمر يشيع لدى كل المتفوقين فى معالجة المسائل العقلية ؛ فإن هذا لا ينفى ضرورة الإهتمام به فى أى محاولة لتصنيف الدوافع الإبداعية الأساسية ، فبفضل هذا المستوى العام من الدافعية يتجه الشخص بتضافر من بعض الدوافع النوعية الأخرى إلى مواصلة السير فى الإبداع ، والخلق .

لكن هناك حداً معيناً من الدافعية العامة مطلوب بحيث أن الزيادة أو النقصان قد يؤديان إلى كف الكفاءة الإبداعية . فى عدد من التجارب تبين أن زيادة الدافع تلعب دورا محبطا فى حل بعض المشكلات العقلية حلا خلاقا . وقد سجل « راى » Ray فى إحدى التجارب انخفاضا فى الكفاءة العقلية لحل المشكلات عند بعض الأشخاص عندما كان يطلب منهم الاسراع فى العمل

بقدر الامكان . إذ يبدو أن الاسراع يستثير فى بعض الحالات زيادة فى الدافع يتولد عنها قدر كبير من التوتر يكف الانطلاق فى العمل . ويزداد هذا الكف عندما تزداد صعوبة المشكلة عن حد معين لنفس السبب على ما يبدو (١٩) . وتبين من ناحية أخرى أن الدافع عندما ينخفض انخفاضا كبيرا ، فإن الكفاءة تقل أيضا . لهذا فإن الدرجة المتوسطة من الدافع هى الدرجة التى تترعرع فيها القدرة الإبداعية . فبفصلها يتم التوازن بين الارتفاع (بما يثيره من تشتيت وتوتر) والانخفاض (بما يستثيره من فقدان للهمة والركود ، وضعف الطاقة) ولهذا فقد لاحظ كريتش وكريتشفيلد Krech and crutchfield بحق فى أحد التجارب أنه بزيادة الدافع تبدأ الكفاءة أولا فى الزيادة ثم تأخذ فى النقصان (١٩) . ويبين الشكل (١ـ٤) تصورا بيانيا لتلك العلاقة من



شكل يبين العلاقة بين قوة الدافع والإبداع

خلال البحوث . ومن هذا الشكل يتبين أن الدرجه الوسطى من الدافع هى التى يصحبها إرتفاع فى الكفاءة الإبداعية . لهذا تسمى العلاقة بين قوة الدافع والإبداع علاقة منحنية* وليست مستقيمة** (٦) ، بمعنى أن الازدياد المطرد للدافع عن درجة الصفر يصحبه إزدياد مماثل فى الإبداع ولكن إلى درجة معينة يبدأ بعدها منحنى

* Curvilinear relationship
** linear relationship

الكفاءة الإبداعية بالنزول مرة أخرى للاشارة إلى أن الزيادة قد صحبها قدر مماثل من الهبوط فى حالة انخفاض الدافع .

ولعل هذا التصور يفسر بعض النتائج الخاصة بالعلاقة بين الإبداع وتوتر الشخصية. فقد تبين بتطبيق مقاييس التوتر النفسى على المرتفعين فى الإبداع وغيرهم أنهم يحصلون على درجات متوسطة فى تلك المقاييس . أى أنه إذا أمكن أن نتصور بأن التوتر النفسى يمتد على متصل كمى* بحيث أن كل فرد يحتل درجة ما على هذا المتصل ؛ فإنه إذا أحتل الشخص درجة مرتفعة جدا على هذا المتصل فيغلب عندئذ القول بأن هذا الشخص عصابى أو مضطرب نفسيا ، أما إذا كانت درجة الشخص منخفضة جدا فيغلب عندئذ القول بأن هذا الشخص من النوع البليد ، الكسول ، غير المكترث . أما إذا حصل الفرد على درجة متوسطة فهنا يمكن القول بأن هذا الشخص من النوع القادر على ضبط توتره ، والتحكم فى انفعالاته وأن مثل هذا الضبط يفتح أمامه الطريق واسعا للانطلاق فى نواحى كثيرة من النشاط العقلى التكيفى أو الإبداعى .

ومن الممكن إذن تفسير هذا فى أن ننظر إلى التوتر النفسى بصفته حالة من حالات التعبير عن شدة الدافع وأنه يصحب دائماً بحالة من حالات أختلال الاتزان ، فإذا زاد زاد هذا الاختلال ، وإذا اختفى اختفى هذا الاختلال ومن المعقول إذن أن تكون حالة التوتر المرتفعة مشتتة للطاقة الإبداعية لأن زيادة الاختلال تؤدى إلى العجز عن ضبط الشدة الوجدانية مما يؤدى بدوره إلى كف كثير من القدرات الإبداعية . كذلك من المعقول أن تكون حالة التوتر المنخفضة جدا غير كافية لتعبئة القدرة (٩) . فمن الضرورى أن نشعر بقدر من اختلال الإتزان حتى نندفع فى نشاط عقلى أو إبداعى . أى لابد أن يكون هناك وسط معين بين هذين الطرفين هو الذى يعتبر أكثر ملاءمة من غيره لدفع القدرة وتنشيطها .

ويمكن أن نتحدث عن هذا القدر المتوسط من التوتر الدافع للطاقة الإبداعية بلغة أخرى تشيع بين أوساط المثقفين عن رهافة الحس ، ورقة الشعور ، واليقظة ، والوعى بصفتها من العوامل المميزة للمبدعين .

---

* Coutinunm

وهذا التصور للعلاقة بين التوتر والإبداع قد يفسر أيضا ميل بعض المبدعين إلى تبنى علاقات إجتماعية بالآخرين تتميز بالتوتر والشد . بل إن سويف ينظر إلى الخلاف العميق الذى ينجم بين الشخص وبين أفراد الجماعـــة التى يتكامل معها بصفته من الدوافع الجوهرية للابداع (٨) وتدلنا ملاحظاتنا على أن التوتر يصاحب حركة الإبداع ، بمراحلها المختلفة . فبالرغم من وجود قدر متوسط — على الأقل — من التوتر لكى ينهمك الشخص — أو يحاول أن ينهمك فى نشاط إبداعى فإن هذا القدر تطرأ علية الزيادة أو النقصان بحسب المرحلة الإبداعية التى يعيشها الشخص . وغالبا ما تصل الزيادة إلى أقصى مداها فى المرحلة السابقة على الانهماك . . وتبدأ فى النقصان التدريجى حتى يصل هذا النقصان إلى أكثر درجاته بعد أكمال العمل . وقد تمر لحظة من الهدوء النسبى فى حياة الشخص — قد تطول أو تقصر — قبل أن يبدأ الاختلال من جديد لكى يندفع فى نشاط مماثل .

لقد تحدث كثير من المفكرين منذ فترة بعيدة عن وجود حالات من القلق الشديد أو المرض — الذى يسود المبدعين . وقد تصور بعضهم أن الإبداع نوع من المرض النفسى (١٦) أو العصاب . وقد استشهدوا على ذلك بأمثـــلة متعددة من السير الشخصية لكبار الفنانين والادباء والعلماء ، ولم يعجزوا بالطبع عن اكتشاف بعض الحالات الشاذة الغريبة التى تحفل بها حياة هؤلاء المبدعين (لأسباب لا محل لذكرها هنا) ، « فشكسبير » أشرف على حافة الجنون عندما كان يكتب مأساة الملك لير ، (وربما جاء « لير » نفسه صدى لتلك الحالة) . بل إن كثيرا من المبدعين قد انتهت حياتهم بالفعل إما إلى المرض النفسى ، أو الجنون من أمثال هولدرلن ، ونيتشة وفان جوخ .

ولكن ها نحن نتبين خطأ تلك التصورات الدارجة للابداع فمجرد وجود بعض حالات الانهيار والتوتر النفسى فى حياة بضعة من المفكرين والمبدعين لا يعنى أن حيـاة كل المفكرين والمبدعين الأخرين هى كذلك كما لا يعنى أن هـذا الاضطراب الشديد هو السبب فى تلك العبقرية . والأحرى أن يقال بأن هؤلاء قد استطاعوا الاستمرار فى إبداعاتهم بالرغم من اضطرابهم وليس بسببه .

فإن جزءا كبيرا من النجاح فى مجال الإبداع والكفاءة العقلية — فيما رأينا — يعتمد على وجود درجة متوسطة تساعد على ضبط الشخص لاضطراباته وتوتره ، حتى يمكنه الاستمرار فى نشاط عقلى خلاق . ومن الطريف أن هناك ما يدل على أن جودة العمل الإبداعى تتضاءل عندما يكون الشخص فى إحدى حالات توتره الشديد . بل ولدينا ميل (يحتاج للتحقق التجريبى) فى أن القدرة الإبداعية تأخذ فى التدهور والأنهيار عندما تسود الاضطرابات العضوية أو النفسية ، أو الاجتماعية حياة الإنسان .

ومن الدوافع التى يبدو أنها تقوم على هذا الدافع العام للشخصية الإبداعية الدافع للتحصيل والانجاز* . وهو الدافع الذى تكون له الفاعلية الأساسية فى مواقف النجاح والفشل ، ومواقف المنافسة مع الآخرين أو مواقف التفوق على معايير معينة (٥) . فقد وجد « ما كالاند Maclelland » أن بعض الأشخاص تزداد حاجتهم للتحصيل والانجاز أكثر من غيرهم . ويظهر ذلك فى جوانب السلوك التى تكشف عن جهد شديد لإنجاز وتحقيق شىء ما وأن يضع الشخص كل جهده وطاقته لذلك ، متجها إلى التفوق على الآخرين وعلى المعايير العامة . وقد تبين أن هذا الدافع هو العامل الرئيسى الذى يقف وراء الخوف من الفشل ووراء النجاح الأكاديمى(١٨) . فالطلاب المتفوقون يحصلون على درجات مرتفعة فى تلك الحاجة (١٥) . كذلك تبين أن المبدعين تزداد أيضا لديهم الحاجة للتحصيل والانجاز بالمقارنة بغيرهم . ويبدو لنا أن تلك الحاجة ترتبط بمستوى التوتر النفسى للمبدعين بالصورة التى عرضنا لها سابقا .

لكننا نجد من ناحية أخرى أن اختلال الإتزان أو التوتر (وما يقوم عليه من حاجة إلى الانجاز) وبصفته دافع من دوافع الشخصية يعتبر دافعا عاما يحفز على القيام بأنواع كثيرة من النشاط العقلى . ويتحدث كثير من الباحثين على أن التوتر يلعب دورا مماثلا فى التذكر والتعلم والتفكير(٢٥) فضلا عن الإبداع لهذا فلابد من الإشارة إلى أن هناك دوافع أخرى لدى المبدعين غير دافع التوتر ، وأن تلك الدوافع هى التى

---

* achievement

ترجح أن يتجه النشاط — لايقاف التوتر — نحو الإبداع وليس غيره . ومن أهم تلك الدوافع الخاصة :

— الدافع للاختلاف والاستقلال .

— الدافع للتفتح على الخبرة .

دافع الاستقلال (*)

أما الدافع للاختلاف والتميز والاستقلال فهذا ما تثبته بحوث عدة (١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٣) . كذلك يمكن أن نستنتجه من البحوث التى تبين أن هناك علاقة سلبية بين الإبداع والمجاراة(**) . فمن ناحية يمكن النظر إلى الابداع والمجاراة كعمليتين متعارضتين. ومن ناحية أخرى (١٢) قد نجد أن الرغبة فى مجاراة الضغوط الاجتماعية تخلق لدى الشخص موقفاً من القلق الشديد نحو قبول الجماعة أو رفضها دون النظر إلى القيم التى يستثيرها حب الإبداع . ومن شأن هذا القلق أن يؤدى إلى إثارة تصلب الشخصية بحيث يفسد التبصر ، ويعرقل تشكل اتجاهات ابداعية . وبعبارة أخرى ، فإن ضغط المجاراة يخلق دوافع تتصارع مع المرونة العقلية الضرورية للتفكير الإبداعى . لهذا فليس من الغريب أن نجد أن المبدعين تختفى حاجتهم للمجاراة ، خاصة المجاراة العقلية أو الفكرية (كما تتبدى فى تبنى الآراء الشائعة التقليدية) .

ودلائل تأثير المجاراة بكف العملية الإبداعية ، وتثبيطها واضحة بما لا يدع مجالا للشك... فالعملية الإبداعية هى فى النهاية محاولة للتغلب على الشائع ، والاقتصار على المجاراة . ويبدو أنها — أى المجاراة — مسؤولة عن جزء كبير من الهبوط الفاجىء فى منحنيات نمو القدرة الإبداعية لدى الأطفال . فقد لاحظ تورانس Torrance وهو من الرعيل الجاد الذى أولى اهتمامه للسلوك الإبداعى ولا يزال مستمراً فى ذلك حتى الآن —

(*) independency
(**) Conformity

لاحظ أن القدرة الإبداعية لدى الأطفال تبدأ فى الانحدار فى السنة الرابعة تقريباً .
وفى هذه الفترة فيما يبدو تظهر حاجة الطفل للانتماء ولصدق مشترك لآرائه ، مما يجعله
يخاف من التلقائية فى التفكير دون التأكد من آراء الوالدين . وغالباً ما تكون
الأفكار الابداعية ، والأصيلة ، وغير المعتادة التى تصدر عن الشخص مصدراً مباشراً
للضغط عليه لكى يجارى التقليدى والشائع (*)(٢١ ، ٢٢) .

فالعملية الإبداعية تتطلب تفكيراً غير تقليدى ولا امتثالى ** ، ولذلك فمن
الطبيعى أن نستنتج مع ماكنيل بأن الإبداع الحقيقى والمجاراة عنصران متعارضان
ولا يمكن الجمع بينهما فى مقياس واحد (٢١) ، وأن نستنتج مع نيلر kneller أن
أن المجاراة تكف السمات المطلوبة للابداع (١٧) ، وأن الأشخاص الذين يميلون للمجاراة هم
من أقل الناس أصالة وإبداعاً . فالميال للمجاراة من الناحية العقلية*** أقل ذكاءاً ، وأقل
مرونة عقلية ، وأقل طلاقة فى الأفكار . وهو من الناحية الوجدانية (+) أكثر ميلا
للقمع ، وأقل ثقة بنفسه ، وأقل إيماناً بأفكاره الخاصة وأكثر اعتمادا على أفكار
الجماعة . ومن الناحية الإتجاهية ++ يميل للإمتثالية فى آرائه ، والتسلطية (١٧) .
فضلا عن ذلك فهو يبحث دائماً عن الأمان الاجتماعى ، ويشغل نفسه بتقبل الآخرين
له ، وبذلك ينلق على نفسه أى خبرة جديدة ! ويتجنب أى محاولة للابداع والابتكار
لما فيها من قدرة على التحدى ، والمجازفة لهذا ، فإن غياب المجاراة ضرورى لخلق
المناخ المناسب لظهور وتبلور الطاقة الإبداعية ، واستمرارها .

لكن الطرف الآخر من المجاراة وهو المعاندة ، أو الرغبة فى الإختلاف من أجل
الاختلاف والتحدى قد تكف أيضاً القدرة على الإبداع مثلها فى ذلك مثل المجاراة . لأنها
تخلق موقفاً من الاغتراب ، مما يحرم الفرد من كثير من الفوائد الهامة فى تنمية
تفكيره الابداعى ، والتى تنتج من خلال التفاعل مع الآخرين وحده (١٢) .

(*) Usual (**) nonconventional
(***)mental (+)emotional (++)attitudinal.

وتبين لنا الملاحظات النظرية لعلماء النفس الإبداعى أن المبـدعين ينفرون من الاختلاف والمعاندة من أجل الاختلاف والمعاندة وذلك بسبب حاجتهم الشديدة للانتماء الاجتماعى ، وتحقيق التكامل الاجتماعى . وهى الحاجات التى يمكن أن نسميها بحاجات الاتصال* . إن من المستحيل — تقريباً — أن يكون الكائن قادراً على الإبداع دون وجود حاجة إلى الاتصال بالآخرين لكى يقاسموه إبداعاته ويتذوقونها ويحكمون عليها ، ويعجبون بها . فهذا هو الطريق الوحيد الذى يستطيع المبدع من خلاله أن يخفض إحساسه من قلق الانفصال** ويؤكد نفسه ككائن ينتمى إلى الجماعة .

ويجب أن نفصل فى أذهاننا بين الحاجة إلى الاتصال بالجماعة عن تلك الرغبات الساذجة ، أو الصورة السطحية من التفاعل اليومى بالاختلاط بالآخرين . فالحاجة للاتصال هى أكثر شمولا من هذا التصور الساذج . وعلينا أن نتصورها كقوة للاحساس بالمسؤلية الاجتماعية ، والالتزام العميق بمنجزات البشرية ، والامتداد بها ، أو على أنها قيمة يشارك الفرد من خلالها فى ترسيخ حياة الجماعة ، والصعود بها ، أو غير ذلك من التصورات . ولا أجد فى هذا المجال أفضل ما قاله الأديب الفرنسى الراحل « البير كامو » A, Camus عند نيله لجائزة « نوبل » فى وصفه للفنان الحقيقى بأنه يؤكد نفسه من خلال عملية انتقال دائم من الذات إلى الآخرين . وإذا كان عليه يوما أن ينحاز لشىء أو إلى جانب من جوانب هذا العالم فسيكون ذلك الانحياز نحو المجتمع الذى تسيطر فيه إرادة المبدع دون أى إرادة أخرى (١٢) .

وتثبت بحوث تجريبية وعملية متعددة أن المبدعين بالفعل لا يميلون إلى تأكيد الاختلاف من أجل الاختلاف والمعاندة ، والظهور . ففى بحث على المهندسين المرتفعين فى الأبداع تبين وجود حاجة شديدة لديهم لتكوين علاقات شخصية ودافئة بالآخرين كما تبين أنهم يميلون للبحث عمن يشاركهم أفكارهم ، وأن يكونوا مجرد أناس عاديين

---

* Communicatiaon needs

** separation

لاعتقادهم فيما تسببه أمكانياتهم الإبداعية من نفور الناس منهم (٤) . كذلك تبين وجود معامل ارتباط إيجابى بين الابداع ومقاييس المهاودة ، * ومدى التطبع بالمجتمع (٤) . وتبين أيضا أن المرتفعين فى الإبداع — بمقارنتهم بالمنخفضين — أميل للمجاملة الاجتماعية ، وعدم التأكيد على خصائص الاختلاف الظاهرى مع الجماعة (المرجع السابق) .

من هذا إذن يمكن القول بأن المبدعين :

— لا يميلون للمجاراة .

— كماأنهم لا يتجهون نحو الاختلاف لمجرد الاختلاف . فهم لايؤكدون الاتفاق والمجاراة الشكلية للجماعة ، ولا يستسلمون لضغطها ، كما أنهم لا يقفون على شكل الصراع مع الجماعة ، وتأكيد المخالفة الاجتماعية .

إنما هناك خاصية دافعية أخرى تبين أنها تميز المبدعين وتمكنهم من تحقيق التوازن بين المجاراة والمخالفة تلك الخاصية هى **حب الاستقلال** . فمن خلال الاستقلال تزداد قدرة الشخص على التحصيل الإبداعى ، ويتأكد التوازن بين التمركز على الجماعة ، والتمركز على الذات . فالشخص المستقل يختلف عن الميال للمجاراة فى أنه أصيل فى أفكاره ، متفتح على الخبرة ، ويختلف عن « المخالفين » فى أن نزعته اللاتقليدية لا تنبع بسبب رغبة فيها فى حد ذاتها ، ولكن بسبب تفتح إمكانياته الابداعية . وهو يبتعد عن الآخرين ، ولكن ليس لكى يفقد لمسة التفكير فى مجتمعه (١٦) .

وقد أكدت البحوث التجريبية هذا التصور . ففى إحدى الدراسات تمت المقارنة بين ٤٢ طالب (ممن اتضح أنهم من ذوى الأحكام المستقلة عند التفاعل مع الجماعة) و ٤٢ طالب آخر (ممن اتضح أنهم يميلون لمجاراة أحكام الجماعة حتى ولو كانت خاطئة)

---

* Acquiescence

فتبين أن المستقلين أميل للتفتح الابتكارى ، وأكثر ميلا لاستخلاص مغزى عميق من الظواهر الخارجية (١٠) . كذلك تبين فى هذه التجربة أن المستقلين فى مقابل اللا مستقلين يصفون أنفسهم بعدد من السمات منها.التقدير الإيجابى للتفكير الأصيل، وروح التفتح العقلى ، والمنطقية ، والعقلانية ، والأصالة ، والمثالية ، والتحرر . كذلك ثبت أن المرتفعين فى الأصالة والإبداع يرتفعون أيضا فى سمات الاستقلال والبحث عن التغير فى البيئة ، والانفتاح فى العلاقات الاجتماعيه والشخصية (١٠) .

علاقات أخرى يوضحها الدافع للاستقلال :

إذن فالدافع إلى إستقلال الحكم والتفكير يتيح للمبدع ما يأتى :

١ — التحرر من النزعة التقليدية ومن التصورات الشائعة بالبحث — بنفسه — عن مصادر الصدق واليقين .

٢ — كما أنه يحقق له أن لا يفقد لسة التفكير فى أفكار الآخرين . فتلك الأفكار صحيحة بمقدار ما تحمل من صدق ويقين . أى أنه يتيح له قدراً لا بأس به . من التفتح على الخبرة الاجتماعية الخارجية .

٣ — كذلك يؤدى الدافع نحو الاستقلال إلى التفتح على الذات وتنمية إمكانياتها الإبداعية لمواجهة الغموض فى المواقف الخارجية ذلك الغموض الذى لا يرضى المبدع عن التفسيرات الشائعة له . والذى لا يجد له أيضاً قدراً كافياً من الأفكار اليقينية الصحيحة .

وقد تبين أن هذين العنصرين الأخيرين اللذين يتيحها التفكير المستقل للمبدع أى التفتح على الخبرة الإجتماعية والذاتية تبين أنهما يشكلان دافعاً آخر من دوافع الشخصية الإبداعية . وهو دافع التفتح على الخبرة ، الذى سيكون موضوعنا بعد قليل .

ويفسر هذا الدافع كذلك ما بينته بحوث ماكينون Mackinnon (١٧) فى الولايات المتحدة الأمريكية من أن المبدعين يمتازون بالشجاعة . ولا يعنى بذلك الشجاعة

الجسمية (ولو أن بعض المبدعين تـكون لديهم شجاعة من هذا النوع) ، إنما يعنى الإشارة إلى نوع آخر من الشجاعة الشخصية وشجاعة العقل والروح ، والشجاعة الأدبية . وتتخذ تلك الشجاعة لدى المبدعين مظاهر متعددة منها شجاعة التساؤل ، وشجاعة الرفض لما هوخاطىء حتى ولو كان شائعاً ومقبولا ، وشجاعة الهدم من أجل البناء ، وشجاعة التفـكير بطريقة مختلفة ، وشجاعة التخيل لما هو مستحيل ، ومحاولة تحقيقه ، وشجاعة التقبل لما يوحى به الضمير ولو أدى ذلك به إلى الصراع . وغنى عن الذكر تعلق تلك الأنواع من الشجاعة بالحاجة إلى الإستقلال ، لأنها شجاعة محورها — على ما يبدو — أن يـكون الفرد نفسه بإمـكانياته ، واستقلاله . وتبين البحوث أن المبـدعين الباحثين الأصلاء قد كشفوا عن شخصيات ذات قدر مرتفع من الميل إلى السيطرة (ولـكن ليس بالمعنى التسلطى) (١١) وقوة الانا (١٠) ، ويبدو أن هذا بدوره تعبير عن دافع الاستقلال .

التفتح على الخبرة*

وضع « كارل روجرز C. Rogers » (٢٠) هذا المفهوم فى نظرية له عن الإبداع والشخصية . إذيرى «روجرز» أن العملية الابداعية تقوم على أساس وجود دافع يسود الحياة العضوية والإنسانية ؛ وهو الدافع إلى الاتساع والامتداد ، والنمو ، والنضوج ، والميل إلى التعبير عن إمـكانيات الـكائن ، وإثارتها . وهذا الميل يعتبر دافعاً أساسياً من دوافع الأصالة والإبداع . ويشير مفهوم التفتح للخبرة عند « روجرز » إلى الخلو من التصلب ، والقدرة على الإمتـداد بحدود المفاهيم ، والمعتقدات ، والمدركات ، والفروض . إنه يعنى تحمل الغموض ، إذا ما وجد الغموض ، لـكى تتعبأ بعد ذلك الطاقة . كما يعنى القدرة على تلقى الـكثير من المعلومات المتعارضة دون حسم قهرى للموقف . إنه يعنى بكل بساطة القدرة على الإمتداد والإتساع .

* Openness to experience.

ويعتبر هذا التفتح الكامل جزءا أساسيا من التفكير الإبداعى البناء . أى التفكير الذى لا يجعل همه : الجدة والطرافة والابتكار فحسب بل وأن ينظم تلك العناصر وفق إحساسه بالمسئولية الاجتماعية . وهنا يميز « روجرز » بين نوعين من الإبداع :

- الإبداع البناء .

- الإبداع الهدام .

فقد يعبىء شخص ما طاقته نحو إبداع وسائل ومكتشفات جديدة لتخفيف آلام البشر ؛ وتحقيق أوضاع أقل شقاءاً ؛ وقد يتجه شخص آخر إلى العكس من ذلك نحو إبداع وسائل ومكتشفات جديدة للقتل بالجملة ، أو التعذيب . وكلا الشخصان يعتبر مبدعاً وفق التعريف العلمى للابداع بصفته صياغة جديدة لعلاقات بين الأشيـاء .

غير أن ما يميز بين النوعين هو التفتح للخبرة . فالمبدع البناء بمسؤولياته الاجتماعية ، وبقدرته على الامتداد بخبرات البشر يحتل درجة مرتفعة من هذا الدافع . وهو الذى يمنحه تلك الحساسية المرهفة بقيمة إبداعه على الإطلاق . فبالرغم من أن بعض المبدعين قد يحاربهم مجتمعهم — كما حدث بالنسبة لجاليليو وكوبرنيكوس وغيرهم — فإنهم لا يفقدون هذا الإحساس العميق بالمسؤولية الاجتماعية الذى تتيحه لهم تلك الحاجة إلى الإمتداد بالخبرة .

وتشير بعض تحليلاتنا — التجريبية — إلى أن هناك عنصرين من التفتح على الخبرة هما التفتح للخبرة الخارجية ، والتفتح للخبرة الذاتية (٤) . ويعتبر عنصر التفتح للخبرة الخارجية جزءاً من المسؤولية الاجتماعية ، والحاجة إلى الاتصال ، والانتماء التى أشرنا إليها من قبل . أما الحاجة إلى التفتح على الخبرة الذاتية فتتمثل فيما يسمى بالاعتماد على الوعى الذاتى للفرد ، أو ما يسمى بتعبير « روجرز » : إعتماد الحكم على المصادر الداخلية . فقيمة الفعل الابداعى لا تحددها المصادر الخارجية

كتقريظ الآخرين ، أو نقدهم ، ولكن تحددها المصادر الذاتية الداخلية أى إقتناعه الشخصى بعمله ، ورضائه عنه ، وإحساسه بقدرة هذا العمل على التعبير عن أجزاء من نفسه كشعوره أو تفكيره ، ألمه أو لذته ولا يعنى هذا بالطبع أن الشخص يرفض أحكام الآخرين ، أو لا يرغب فى معرفتها ، وإنما يعنى ببساطة أن أساس التقويم يكمن فى داخل الذات فى استجاباته الخاصة ، وتقديره لعمله فى لحظة الابداع . وغنى عن الذكر قدرة هذه العناصر على أثراء العلاقات بين عمله الابداعى وعالم الخبرة الذاتية .

علاقات يوضحها دافع التفتح على الخبرة :

وتدلنا بحوثنا أيضاً على أن التفتح على الخبرة يمكن أن يستخدم كمؤشر لتفسير العلاقات التى تبين لنا أنها توجد بين الإبداع وعدد من سمات الشخصية الأخرى .

(ا) الإبداع والتطرف :

فقد وجدنا أن الإبداع يرتبط سلبياً بالتطرف [٤] ، أى أنه كلما زاد الابداع كلما قل التطرف . والسبب فى هذا — فيما يبدو — أن التطرف يعبر عن افتقاد الوعى بتدرج الحياة فالأشياء إما بيضاء أو سوداء . أى أن الشخص يرتبط بموقف واحد بأقل قدر من الحرية مما يجعله ثابتاً على جزء محدد من الوقائع دون الأجزاء الأخرى . ومثل هذا التنميط أو الارتباط المحدد بمواقف حادة دون الأخرى يضفى على تصور المواقف الاجتماعية والذاتية ضيقاً وتحددا مماثلا، فتصبح هذه الخبرات فى عزلة عن التمثل الذاتى. أى أن الشخص ينعزل عن عالم الخبرة الاجتماعية والذاتية . وعلى هذا فإن من الطبيعى أن يعبر التطرف عن الانغلاق على الخبرة ، وهو العامل المناهض للتفتح على الخبرة المميزة للابداع . وبهذا يمكن تفسير العلاقات السلبية بينهما .

(ب) الإبداع وعدم الحسم :

ومن المرجح أيضاً أن يكون تفتح المبدعين على الخبرة سبباً — فيما تبينه بعض معطيات دراساتنا — من أسباب ميل بعض المبدعين إلى عدم الحسم [٤] . فلقد يتبين لنا أن بعض المبدعين يميلون إلى الإجابة بلا أعرف عندما كنا نسألهم عن بعض سماتهم الشخصية وذلك أكثر

من الأشخاص العاديين . ويبدو أن هذا الاتجاه لعدم الحسم هو الوجه المعارض للتطرف والحسم. وفي هذه الحالة قد يشير عدم الحسم إلى وجود قدرة مرتفعة لدى الشخص على مواجهة بعض خصائصه الشخصية بمواقف شك وعدم يقين ، ومثل هذه المواجهة قد تعبر عن عدم إنغلاق صورة الذات في هذا الاتجاه أو ذاك .

ويجب أن نميز بين هذا النوع من عدم الحسم، ونوع آخر من عدم الحسم تبين أنه يرتبط سلبيا بالإبداع . ففي بعض الأحوال يعبر عدم الحسم عن انخفاض الدافعية العامة ، وانطفاء الحماس ، وعدم الاكتراث وفي هذه الحالة تكون استجابات عدم الحسم معطلة للقدرة الابداعية لأنها لا تؤدي إلى تعبئة الطاقة بالشكل الكافي .

أما متى نعرف أن هذا النوع من عدم الحسم منشط أو معطل للقدرة الإبداعية فهذا يتوقف على عدة شروط منها : درجة عدم الحسم فالدرجة المرتفعة جداً كالدرجة المنخفضة جداً تؤدي إلى تعطيل القدرة ، أما الدرجة المتوسطة فهي الأقدر دون غيرها على تحقيق التفتح على الخبرة دون الوصول إلى اللا اكتراث العام وانطفاء الحماس ، وانخفاض الدافع . ومنها اتجاه عدم الحسم إذ أن هناك بعض القيم أو الاتجاهات ، أو الايديولوجيات التي يجد المبدعون أنفسهم يقبلونها عن يقين ، ولا يقبلون فيها الجدل. ولعل هذا هو المبرر الأساسي في أي دراسة يقوم بها السيكلوجي لشخصيه المبدع ، أو قيمة أو اتجاهاته فهو يسلم بأن المبدع قد اختار لنفسه طريقاً يقينياً دون ريب .

(حـ) الإبداع والتسلطية :

وقد يفسر دافع التفتح على الخبرة لدى المبدعين أيضاً انخفاضهم في الجمود الاجتماعي والتسلطية . فدافع الاتساع والامتداد ، والنمو ، والنضوج والميل إلى التعبير عن الامكانيات المميزة للمبدعين ، والتي يجمعها جميعاً مفهوم التفتح على الخبرة ، تتعارض كلها مع نمط الشخصية المغلقة اجتماعياً أو عقائدياً أي الشخصية التسلطية التي تميل إلى تبني اتجاهات مغلقة وقواعد موروثة . ومن ناحية أخرى تبين تحليلاتنا للشخصية التسلطية (١ ، ٢ ، ٣) ، أن هناك عاملا هاما من عوامل السلوك يشيع لدى التسلطيين وهو يظهر في اعتماد أحكامهم على السلطة ، أو المصادر الخارجية ، أي في الاعتماد غير

الواعى على أشكال الثواب والعقاب الخارجية . ويعتبر تمجيد التسلطيين للتمسك بحرفية التقاليد ، والقوانين ، وتمجيدهم للسلطة وخبراتها ووضعهم للحدود حادة بين الأشخاص واستهانتهم بالأفكار الجديدة ، والنظر إليها على أنها مجهود ضائع ، واحترامهم للقواعدالخارجية الشكلية ، يعتبر هذا كله جزءاً من هذا الاعتماد . أما قيمة الفعل الإبداعى عن المبدع فتحددها — كما أسلفنا — اقتناعاته الشخصية ، ورضاؤه الشخصى عن العمل أى الاعتماد على المصادر الداخلية . وبهذا يمكن أن نفسر انخفاض المبدعين فى الجمـــود الاجتماعى والتسلطية .

(د) الابداع والميل إلى التعقيد : يؤدى دافع التفتح للخبرة فيما يبدو إلى تبلور دافع آخر تبين أنه يشيع بين المبدعين وهو الميل إلى الأشياء المعقدة وليست البسيطة . وتبين البحوث أن تفضيل المعقد أسلوب من أساليب الشخصية يتجه صاحبه بمقتضاه نحو اختيار الأشكال المعقدة أكثر من الأشكال البسطة فى عملية التذوق ، أما من يميلون إلى التبسيط فيتجهون فى اختيارهم إلى عكس ذلك . ويترك هذا الأسلوب آثاراً ضخماً على كثير من نواحى الشخصية الأخرى . فمن الناحية المزاجية تبين أن الميل إلى التعقيد يرتبط إيجابياً بالرقة ، وسلبياً بالخشونة والتصلب ، والمجاراة ، واحترام العادة والطقوس ، والتقاليد ، والأحكام الخلقية ، والمشاعر الوطنية الضيقة ، ومعارضة الاتجاهات التحررية ، أى أن سلوك الميالين إلى تذوق الأشياء المعقدة ، وتفضيلها عن غيرها لا تظهر فى سلوكهم تلك السمات السابقة .

فالميل إلى تفضيل المعقد يرتبط فيماهو واضح ارتباطاً إيجابياً بخصائص من الشخصية، ترتبط بدورها بالإبداع . لهذا فقد يتبين أن المبدعين بالمقارنة بغير المبدعين يفضلون الأشكال المعقدة عن الأشكال البسيطة ، (كما فى الشكل (٢ـ ٤) . فضلا عن هذا فقد تبين أنهم يجيبون بالايجاب على نفس العبارات التى يجيب عنها الميالون إلى التعقيد بنعم [١٤] وذلك مثل :

— تجتذبنى دائماً الأشياء غير المكتملة أكثر من الأشياء المكتملة .

— أستطيع أن أقطع علاقاتى ، وأترك وطنى ووالدى ، وأصدقائى دون أن أقاسى كثيراً من الحزن .

– يسعدنى دائماً نبذ القديم ، وتقبل الجديد .

– تهمنى وجهة النظر الجمالية للحياة .

– أصدقائى أشخاص غير تقليديين كغالبية المجتمع .

– كثيرون يظنون بأن أفكارى غير عملية ، إن لم تكن متهورة .

كذلك يجيبون بالسلب على عبارات من هذا النوع وهى العبارات التى يجيب منها الميالون إلى التبسيط بالإيجاب .

– لا أحب أن أقوم بعمل الأشياء التى لا يعملها غالبية الناس .

– أحب دائماً الأشياء المقبولة اجتماعياً .

– لا أحب الفنون الحديثة .

– أحب الأشياء المتناسقة والمهندمة .

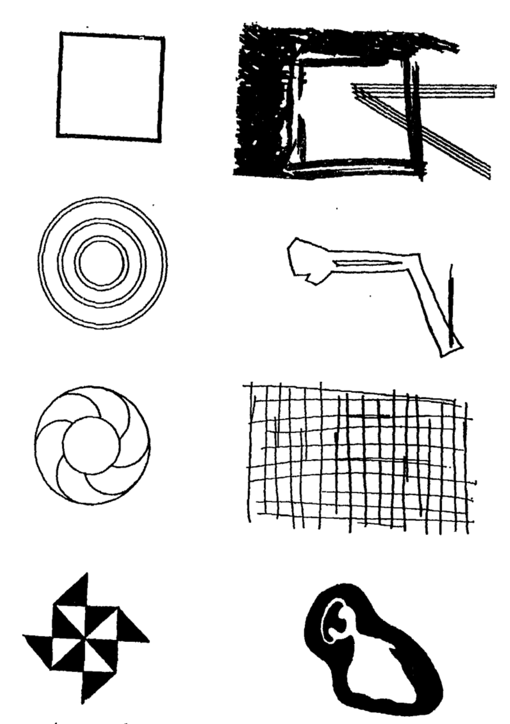
– أحب التفكير الصريح المباشر أكثر من استخدام التشابهات والاستعارات .

– المقطوعة الموسيقية الجيدة هى التى تعتمد على الألحان المنسجمة ذات البناء الهندسى .

– ليس هناك ما يبرر قط عصيان الحكومة .

ومن هذا يتضح لنا أن الميل إلى التعقيد يبرز كعملية مساعدة على الابداع بل إن الباحثين يميلون إلى التعامل مع التعقيد على أنه إبداع وأصالة (١٣) . وبقليل من إمعان النظر يتضح لنا أن هذا الميل ما هو فى الحقيقة إلا تعبير عن دافع التفتح على الخبرة الاجتماعية بما فيه من ميل إلى الاتساع والامتداد . لهذا فليس غريباً أن تبين بعض النتائج أن الميالين إلى التعقيد يميلون أيضاً إلى الاندفاع ويعزفون عن الميل إلى التضييق * (١٤) ، ويتفقون فى هذا مع الأصلاء والمبدعين (Ibid) .

* Constriction



شكل (٢ ـ ٤) الأشكال إلى اليسار ذات بناء مبسّط أما الأشكال إلى اليمين فذات بناء معقد . وعند ما كان يُطلب من الأشخاص أن يعبروا عن تفضيلهم للاشكال تبين أن المبدعين ، والمائلين إلى التعقيد وذوى الحساسية الفنية، كانوا يفضلون الأشكال المعقدة إلى اليمين (عن أيزنك Eysenck,1969,p 183)

خلاصة

يستخدم علماء النفس مفهوم الدافع للاشارة به إلى مظاهر النشاط ، والشد التي تؤدى إلى المثابرة على أداء سلوك معين نحو هدف محدد . وترتبط قدرة الدافع على إثارة السلوك المناسب بوجود حاجة need . وقد تكون الحاجة ذات مصدر فسيولوجى كالحاجة إلى الطعام أو الشراب ، أوالنوم ، أو الجنس . ولكنها قدتكون فى مستوى أكثر تعقيداً فتتعلق بأنواع من الحاجات الاجتماعية (كالحاجة إلى الانتماء والحب) أوالشخصية (كالحاجة إلى التحصيل ، وحب الاستطلاع ، والاستقلال ، والامتداد). وفى مجال الابداع لا يميل السيكلوجيون إلى التحدث كثيراً عن وجود تميز خاص لدى المبدعين فى الدوافع الفسيولوجية (ولو أن طرق إرضاء تلك الدوافع قد يختلف فيها المبدعون عن غيرهم) ، ولكنهم يميلون إلى التحدث عن وجود مظاهر من التميز فى الحاجات الاجتماعية والشخصية . بعض هذه الدوافع يوجه منذ البداية طريق الشخص نحو تحقيق الذات عن طريق الابداع وبعضها ينشأ بسبب النشاط الابداعى ذاته (فالحاجة للتحصيل مثلا لا تؤدى إلى الإبداع ، ولكنها تنشأ بسبب الطاقة العامة للمبدعين ، وتكون بعد ذلك من دوافع إثرائها) .

وقد تحدثنا فى هذا الفصل عن بعض تلك الدوافع وأثرها فى تنشيط القـــدرة الابداعية ، كما عرضنا لأهم ما تضيفه تلك الدوافع الابداعية من فهم لبعض نواحى السلوك المعقـدة التى تبين أنها تميز المبدعين . ومن أهم الدوافع التى تحدثنا عنها : الانجاز والتوتر ، والاستقلال والتفتح على الخبرة .

لكن هناك سؤال نعتقد أن هذا الفصل لم يستطع الإجابة عنه ، ويتعلق بتحديد أهم تلك الدوافع تأثيراً فى تنشيط الطاقة الإبداعية لأن إجابة هذا السؤال يتوقف فيما يبدو على تحديد تلك الفروق الفردية بين المبدعين أنفسهم . فقد يؤثر دافع معين فى بعض الأفراد المبدعين ولا يؤثر فى بعضهم الآخر . ومن المعتقد أن تحديد تلك الفروق الفردية فى القابلية للتأثير بدافع دون الآخر سيكون له أثر كبير فى تدريب القدرات الإبداعية وتوجيهها ، لأنه سيضع يدنا على أكثر العناصر فاعلية لضبط هذا النوع من السلوك .

المراجع العربية

١ — إبراهيم ، عبد الستار ، البناء المعرفي والمضمون الايديولوجي للتسلطية، المجلة الإجتماعية القومية ، ١٩٧٢ .

٢ — ـــــ ؛ بعض متعلقات الجمود العقائدي ، مجلة الصحة النفسية،مجلد١٢، ٧، ١٩٧٢ .

٣ — ـــــ ؛ تقرير عن نتائج بحوث المحافظة التسلطية في مصر من ١٩٦٨ : ١٩٧٣ ؛ الندوة الشهرية لأساتذة شعبة علم النفس بجامعة القاهرة ، ١٩٧٣ .

٤ — ـــــ ؛ الأصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب — القاهرة ، ١٩٧٢ (غير منشورة) .

٥ — أرجايل ، ميشيل ، علم النفس ومشكلات الحياة الاجتماعية ، ترجمة عبد الستار ابراهيم جامعة القاهرة : الـكتاب الجامعي ، ١٩٧٣ .

٦ — السيد ، عبد الحليم محمود ، القدرات الابداعية وعلاقتها بالسمات المزاجية للشخصية ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ .

٧ — الملا ، سلوى ، الإبداع والتوتر النفسي ، القاهرة : دار المعارف ١٩٧٢

٨ — سويف ، مصطفى ، الأسس النفسية للإبداع الفني ، القاهرة : دار المعارف، ١٩٥٩

٩ — ـــــ ؛ التطرف كأسلوب للاستجابة ، القاهرة : الأنجلو ، ١٩٦٨ .

المراجع الأجنبية

10 — Barron, F. Creativity and Psychological Health, New York : Van Nostrand, 1963

11 — Cattell, R. B., The Personality and Motivation of the Researcher from Measurements of Contemporaries and from Biography, in C. Taylor and F. Barron (eds.) Scientific Creativity, New York : John Wiley, 1963

12 — Crutchfield, R.S., Conformity and Creativity, in Howard Gruber et. al. (eds.) Contemporary Approaches to Creative thinking, New York : Atherton, 1962.

13 — Eisenman, Russell, etal., Generality of Some Complexity - Simplicity measures related to creativity, the proceding 7 th An Anval Convention, APA (reprint) 1968.

14 — Eysenck, H.J., Psychology of Politics, London, Methuen, 1968

15 — Getzels. Jacob, and Jackson, Philip. , Creativity and Intelligence : Exploraations with gifted Students. New York : Wiley, 1962

16 — Kneller, G. F., The Art and Science of Creativity, New York : Holt, 1965.

17 — Mackinnon, D.w., Creativity : a multi - faceted phenomenon, in J.D. Roslansky (ed.) Creativity, Amsterdam : North Holland Publishing Company, 1970

18 — Mckeachie, W.J., & Doyle, C.L., Psychology Palo Alto : Addison - Wesley, 1966.

19 — Ray, W., Mild Stress and Problem Solving, in w. Ray (ed.) The Experimental Psychology of Original Thinking, New York : Macmillan, 19?6.

20 — Rogers, C. , Towards a theory of Greativity , in P.E. Vernon (ed.) Creativity, London : Penguin Book 1970.

21 — Sanford, N., Creativity and Conformity, Quoted from Confernce of the creative Person, Utah, 1961.

22 — Stagner, R., Psychology of Personality, New York : Mcgraw - Hill, 1961 (3rd ed.).

23 — Torrance, E. P., guiding Creative Ability, India : Prentice, 1962.

24 — ———— ; Explorations in Creative Thinking inEarly School Yeors : Aprogress Report, in Taylor, and Borron (eds.) Scientific Creativity New York : John - Wiley. 1963.

25 — Zeigarnick, B., Über das Behalten Von erledigten a n d Unerledigten Handlunge: Quoted from L. W. Crafts et. al. (eds.) Recent Experiments in Psychology, New York: Mc Graw-Hill, 1950

الفصل الخامس

الانفعالات

يميل كثير من علماء النفس إلى الشك فيما إذا كان يمكن اعتبار الانفعال صنفا رئيسيا من أصناف السلوك البشرى (١٦) صحيح أن الانفعالات دينامية ، لكنها تشترك فى هذه الصفة مع الأنماط الأخرى التى تعبىء الطاقة ، وصحيح أنها مرتبطة بالأشياء لكن هذه الصفه تصدق أيضاً على كثير من ردود الفعل غير الانفعالية .

فما هو الانفعال إذن : عرف سعد جلال (١) الانفعال بانه حالة توتر فى الكائن الحى تصحبها تغيرات فسيولوجية داخلية . ومظاهر جسمانية خارجية غالباما تعبر عن نوع هذا الانفعال ، بينما عرفة ستاجنر وكاروسكى بأنه صنف ثانوى من أصناف السلوك : وأن الانفعالات هى مظاهر ثانوية للدوافع وفيما يلى الأسباب الدالة على ذلك باختصار :

١ — الانفعال عموما هو رد فعل إما لاحباط الدوافع أو اشباعها : فالغضب مثلا إستجابة للحيلوله دون نشاط موجه لاشباع الحاجة ، والخوف مرتبط بتوقع الاحباط أو الاصابة . والفرح يحسه الإنسان حين يصل إلى هدف كبير ، والحب مرتبط ارتباط وثيق بالجنس .

٢ — الانفعالات عموما خادمة لحاجات الدوافع : فلنفرض مثلا أن شخصا اعترضت طريقة عقبة مادية منعته من الوصول إلى الطعام ، فعندئذ يثير دافع الجوع

سلوكا نحو الهدف وينشأ الغضب من المنع ، وهذا يؤدى إلى تعبئة مزيد من الطاقة لازاحة العقبه من الطريق للوصول إلى الطعام ·

٣ — الانفعال له علاقة رمزية باشباع الحاجة : فالتفرقة بين الانفعالات الساره وغير الساره هى تفرقة بين الانفعالات التى تدل على الاحباط وزيادة التوتر وتلك التى تدل على اشباع الحاجة وانقاص التوتر ، فعندما نحس بالخوف نتوقع الماجسميا أوجوعا أو أى موقف آخر يتهددنا ، والغضب يتصل بتهديدات مماثلة ، والفرق هنا أن الشخص يستعد للتعامل مع التهديد بالقتال وليس بالهرب · ومن ناحية أخرى فان الحب والفرح والبهجة تدل على النجاح وأن الدوافع أشبعت والتوتر تناقص ، ويمكن فى الحقيقة فهم القيمة الديناميه للانفعالات الساره فهما أفضل إذا اعتبرناها تمثل مواقف يحاول الانسان الاحتفاظ بها أو أستعادتها إذا فقدت منه ، أما الانفعالات غير السارة فلها اتجاه هدف سالب إذ يحاول الانسان الابتعاد عن الموقف الذى يثير الانفعال غير السار (١٦) .

وتعتبر الحالات الانفعالية دوافع فى حد ذاتها فى بعض الأحيان ، وحالات الخوف والقلق أحسن مثل على ذلك (١) ، فالدافع عبارة عن حالة توتر فى الكائن الحى تبعث فيه حاجة فيسعى الكائن الحى إلى الاشباع لتخفيف حدة توتر الدافع ، وحالات الخوف والقلق مثال لحالات انفعالية فيها توتر يتميز بالشعور بعدم الراحة · فيسعى الكائن الحى فى هذه الحالات إلى إزالة التوتر كى يشعر بالراحة وقد تكون الانفعالات حالات مصاحبة للدافع ، فالشعور بالجوع لايدعو إلى الراحة وعدم الراحة هنا حالة انفعالية مصاحبة لدافع الجوع والشعور باللذة أثناء التهام الطعام انفعال مصاحب للنشاط ، والكائن الحى فى سعيه للبحث عن الطعام وفى توقعة لغذاء شهى يشعر بانفعال مصاحب للنشاط الذى يقوم به فى البحث عن الطعام فاذا ما اعترضه عائق دون الهدف شعر بالضيق بل بالغضب أما إذا ما تغلب على هذا العائق شعر بالسعادة ·

والواقع أنه لاتكاد توجد تفرقة واضحة بين اصطلاح دافع وانفعال فيحدثنا

ادوارد (٦) أنه يصعب أن نميز الفرق بين دافع قوى أو انفعال قوى من مجرد ملاحظه سلوك الفرد . وانه إذا كان هناك فرق بينهما فيتمثل فى أن موضوع الدوافع لم يصبح محلا للدراسة الاحديثا فى حين أن دراسة الانفعالات موضوع قديم .

متى ننفعل : هناك العديد من المناسبات التى تصاحبنا فيها الحالات الانفعالية يمكن ان نلخصها بوجه عام فيما يأتى (٩) .

١ — عندما يكون الدافع قويا : فمن المعروف أنه كلما كان الدافع قويا كلما صاحبه انفعال قوى ، وهذه ميزه للدوافع حتى نقطة معينة يتحول بعدها الانفعال ليعوق تحقيق الدافع . ففى حالة الانفعال يعبىء الكائن طاقته ليبذل جهدا اضافيا ، وتحت هذه الحالة الانفعاليه المعتدله يصبح الانسان أكثر كفاءة لأداء عمله .

٢ — عندما يحبط الدافع أو يعاق : عندما يثار الدافع وتكون فرصة اشباعه متاحة بدون وجود عقبات لا تثار الانفعالات الا بقدر بسيط جدا . بينما فى مواقف الخطر مثلا وعندما لا يجد الانسان فرصة متاحة للهرب يصبح فى حالة انفعاليه شديده وقد رأينا فى الفصول السابقة أن الأثر المباشر للعقبات يتمثل فى تعبئة مزيد من الطاقة لمواجهتها . وهذا يعنى مزيدا من الاثارة الانفعالية ، أما إذا أصبحت الاثارة الانفعاليه شديدة جدا يضطرب السلوك فيفقد الانسان اتزانه .

٣ — عندما يظهر الدافع بشكل مفاجىء : إذا ظهر دافع مرغوب فجأه فى حياة الانسان بحيث يصبح السلوك المعتاد غير كاف لتحقيقه تثار الانفعالات لتعبىء مزيدا من الطاقة لتتلائم مع متطلبات الموقف الجديد ، وكذلك إذا ماظهر صراع سواء من دافع آخر مضاد أو من عقبات تظهر فجأة فى الموقف ويمكن أن نضيف هنا حالات الاحباط فى سبيل اشباع دافع مثار .

ويذكر لنا علماء النفس (١٤) ان الانفعالات تبدو فى ثلاثة مظاهر هامه فى حياة الانسان يمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — الخبره الانفعاليه . وتتمثل فى شعور الإنسان بالغضب مثلا .

٢ — السلوك الانفعالى : ويتمثـل فى اتخاذ الشخص خطوه كالهجوم على عدوه مثلا .

٣ — التغيرات الفسيولوجية فى الجسم : مثل اندفاع الدم إلى الوجه وازدياد ضربات القلب وما إلى ذلك .

القوة الدافعة فى الانفعالات : تحت ضغط الخوف الشديد قد يقوم الانسان بأعمال تتطلب قوة واحتمال قد لا يقدم على مجرد محاولتها فى الظروف العادية ، ويعبىء الغضب طاقة كبيرة لقتال العدو ، وتظهر فى الانفعالات جميع مميزات السلوك المدفوع ، فالاتجاه نحو هدف موجود وظاهر فى معظم حالات الانفعالات مثل حالة الخوف حيث تعبىء الطاقة من أجل الهرب ويصدق ذلك على الكراهية حيث تتجه الطاقة إلى تحطيم الشخص الآخر ، والواقع أنه يوجد مقياس متدرج للشدة يبدأ من الانفعالات التى تسود كيان الكائن كله والتى تعبىء كل قطرة طاقة كما فى حالة الفزع وتستبعد كل فكرة أخرى أو كل دافع آخر وينحدر إلى الحالات الخفيفة جداً من الاستلطاف أو عدم الاستلطاف التى ليست لها سوى قيمة دفع قليلة . وفى السلوك الانفعالى أيضاً استمرار وقابلية للتغيير . وسواء كانت فى ذهننا انفعالات معينة مثل الحب أو الخوف أو ظواهر أخرى أكثر عمومية مثل القلق فإننا سندرك فوراً أن التوتر يستمر ويدفع الفرد نحو العمل . وأنه إذا فشل فعل معين فى انقاص التوتر يحدث تغيير فى خطة الإنسان الأساسية للعمل فى جهد مستمر من أجل بلوغ الهدف (١٦) .

أى أننا نلاحظ فى بعض النواحى الملامح نفسها التى تلاحظ فى الدوافع البيولوجية، فضلا عن أن الانفعالات القوية ترتبط بوضوح بالأحوال الفسيولوجية ، ولا شك أن النواحى العضوية الداخلية للسلوك الانفعالى هامة جداً ، فالقلب الخافق ، والمعدة الثقيلة والوجه المحتقن أمثلة على الأسس البيولوجية الكثيرة التى يقوم عليها الانفعال القوى .

لكن يجب ملاحظة أن الانفعالات لا تثار أساساً بواسطة تغيرات الأيض

الداخلية كما فى أحوال احتياجات الجوع والعطش والجنس والافراز وغيرها، بل يبدأ الانفعال بتأثير موقف خارجى . وهذا ما يجعل الانفعال أكثر مرونة وقابلية للتغيير بشكل كبير جداً يتفاوت بين شخص وآخر وتختلف الانفعالات من وقت لآخر فى الشخص نفسه حسب طبيعة الموقف كما تختلف من شخص لآخر بالنسبة لنوع المواقف التى تسبب الاستجابة الانفعالية .

الخبرة الإنفعالية : اشرنا فى الفقرات السابقة إلى المبادىء الأساسية للاتجاه الدافعى فى الإنفعالات ونضيف هنا أن للانفعالات شأنها فى ذلك شأن الدوافع عامل جذب ذى اتجاه موجب أو سالب بالنسبة للهدف . والمظهر الآخر الهام فى تعبئة الطاقة هو عامل الشدة،فالناس تتجه إلى الأشياء أو بعيداً عنها بقوة متفاوته ، فبعض المواقف يثير صراعاً وعنفاً وبعضها الآخر لا يثير سوى زيادة طفيفة فى التوتر والجهد ، هذا بالإضافة إلى أننا قد رأينا فى الفصول السابقة أن الدافع القوى يؤدى إلى تركيز بالغ من جانب الكائن على الهدف المطلوب إلى حد أنه يستبعد كل المنبهات الأخرى ، وهذا يؤدى إلى اتجاه الذهن كله إلى تتبع نشاط الشىء المطلوب وإلى كف كل نشاط منافس محتمل وفى هذا ضمان أقصى فعل فعال ممكن فى اتجاه الهدف المطلوب (١٦) .

وفى الإنفعال تتضح هذه الصفة بشكل أكثر ظهوراً ، فالطفل الخائف من كلب مثلا قد يترك لعبته ويجرى طالباً النجاة ، فالتركيز فى الإنفعال هو عبارة عن تضييق لمجال السلوك والخبرة فلا يدخل فى حيز الإدراك الواضح سوى المنبه الإنفعالى ، ولا تستمر سوى الأفكار والسلوك الذى يرتبط بهذا الإنفعال .

وللانفعال آثار جانبية على الأفكار والأنشطة الأخرى، فقد يبدو الإنسان مرتبكا ويختل نظامه وقد يصبح تفكيره أقل رشداً وتصرفاته التى هو ماهر فيها أقل كفاءة، ومن مثل هذه الملاحظات وأمثالها استنتج بعض علماء النفس أن الإنفعال يمكن أن يوصف بأنه حالة اضطراب بل اقترحوا مقياساً للاستجابة الإنفعالية هو اضطراب النشاط المناسب ، غير أنه من الواضح أن الإنفعال ليس الظاهرة الدينامية الوحيدة التى توقع الاضطراب فى الأنشطة الجارية، إذ للدوافع القوية نفس الأثر ، كما أن الإنفعال

ليس موجبا للاضطراب من تلقاء ذاته فقد يكون إنسان جالساً يعمل فى مشروع ما ثم يأتيه خبر نجاحه فيستجيب بفرح غامر وينسى مشروعه لكن لا يمكن أن يقال عنه أنه اضطرب ، فالملمح البارز فى الموقف هو اخراج قدر من الطاقة فجأة وهذا أساساً وظيفة بلوغ هدف مرغوب .

فالإنفعال إذن يشترك مع الحالات الدينامية الأخرى فى صفة إزاحة الأنشطة الجارية جانباً ، لكنه ليس بالضرورة موجباً للاضطراب ولا يوصف بذلك فى جميع الأحوال ، بل يبدو أحياناً أكثر صحة أن نقول عن الانفعال أنه يساعد ويقوى نشاطاً جارياً . فقد وصف كانون التغيرات الجسمية التى تصاحب الانفعالات بأنها استجابات طوارىء emergency ويعنى هذا الاصطلاح أن مثل هذه التغيرات تعبىء الكائن للحركة والنشاط ، فالشخص الخائف يجرى بسرعة أكبر من مصدر الخطر وتعتبر الانفعالات بهذا المعنى مساعده للوصول للهدف (١٨) .

السيطرة على الانفعال : هل يستطيع الإنسان إيجاد طريقة للتصرف إزاء الاضطراب عند حدوثه ؟

لا يقدم علم النفس صيغة مختصرة لذلك بل مقترحات عده : (١٦))

١ — زيادة العلم بالمنبه يساعد على انقاص شدة الانفعال وبالتالى يساعد على التغلب على الاضطراب الذى يحدث للانشطة المتصلة به . وهكذا فإن الطفل الذى يخاف الأجهزة الكهربائية يمكن مساعدته بإعطائه مزيداً من المعلومات عن الكهرباء ومواطن الخطر وأجهزة الأمان وغير ذلك ، أى أن المنبه غير المعروف قد يثير الانفعال بأى شكل أكثر من أية عوامل أخرى محددة معروفة .

٢ — العادات المتأصلة التى أصبحت تؤدى بطريقة أوتوماتيكية يصيبها الاضطراب أقل من الأنماط الجديدة التى تتطلب انتباها .

٣ — العمل البدنى يخفض التوتر ، إذ يبدو أنه يستنفذ بعضاً من الطاقة الزائدة التى عبأها الانفعال وربما لا يفعل سوى أن يحل التعب والحاجة للراحة مكان الحافز

الانفعالى ، وقد يستدعى الخوف والغضب والحب الالتجاء إلى تلك الطريقة فى بعض الأحيان .

اجهزة اطلاق الطاقة : يلاحظ ان الانفعالات وخاصة الحالات الدافعة مثل الخوف والغضب والحب والكراهية تعبىء الطاقة العضوية لستعدادا لعمل قوى شبيه بما تفعله الدوافع .

(ا) فالتوتر مظهر عام فى كافة الانفعالات وكثير من هذا التوتر ذو صفة عضلية فاثناء الانفعال قد يرتعد الانسان أو ينتفض أو يضم قبضة يده أو يضغط بأسنانه ، وتعمل عضلات الاعضاء الداخلية على رفع ضغط الدم وزيادة الضغط على المثانة والقولون ويؤدى التوتر إلى أستجابة اقوى لكل منبه . وقد يزيد من حساسيتنا للمنبه .

(ب) التغيرات الغددية وخاصة أفراز الادرينالين يرفع مستوى الطاقة ، لأن الأدرينالين ينبه الكبد فيفرز الجليكوجين فى مجرى الدم لتلبية احتياجات الأنسجة العضلية المحتاجة للوقود .

وقيمة هذه التغيرات فى التوازن الذاتى واضحة ، فاذا كان الخوف مثلا رد فعل للخطر فان ازدياد الطاقة وارتفاع مستوى النشاط يزيد من فرص التخلص بنجاح ، وإذا كان الغضب هو وسيلة الانسان للاستجابه لاعتراض طريق أحد الدوافع لديه فان ارتفاع مستوى الطاقة وقوة الفعل يزيدان من احتمال التغلب على العقبة والتوصل إلى الهدف الأساسى .

الأساس العصبى للانفعال : مما يلاحظ أن للجهاز العصبى والمخ أثرا كبيرا فى الأنفعالات ذلك أن الجهازين السمبثاوى والباراسمبثاوى يكونان معا الجهاز العصبى الأتونومى (أى الجهاز المستقل ذاتيا) (١) وهذا الجهاز ينظم عمليات أفراز الغدد ونشاط عضلات الأحشاء الداخلية وبذا يتحكم فى عمليات الهضم ودقات القلب والتنفس وافراز العرق وما إلى ذلك من العمليات التى تستمر حتى فى أثناء النوم . وتظهر الحالات الانفعالية مرتبطة أساسا بنشاط الجهاز السمبثاوى بينما يعمل الباراسمبثاوى فى حالات الهدوء (٦) . والجهاز السمبثاوى منظم لوظيفة عامة ذلك ان إحدى

الاستجابات التى يثيرها الجهاز السمبثاوى هى تنشيط غدة الأدرينالين التى تحول بدورها فى مجرى الدم إلى هرمون الأدرينالين ويعمل هذا الهرمون على استمرار نشاط الجهاز السمبثاوى ·

ومما سبق يمكن تلخيص الأعراض الجسمية والفسيولوجية المصاحبة للانفعالات والتى يتوصل بها علماء النفس إلى معرفة الحالات الانفعالية فى الفرد فيما يلى · (١٠)

١ — استجابة الجلد لجهاز الجلفانوميتر : كلما ثارت الانفعالات حدثت فى الجلد تغيرات كهربائية يمكن التحقق منها بواسطة وصل أقطاب كهربائية إلى الجلد (على الكفين) متصلة بجلفانوميتر مسجل واستجابة الجلد الكهربائية مؤشر حساس للتغيرات فى الحالة الانفعالية .

٢ — ضغط الدم وتوزيعه : يحدث أثناء الانفعال تغيرات فى ضغط الدم وفى توزيعه ، ومن الأمور المألوفة لدينا أن الوجه يحتقن عند الاضطراب كما يحتقن الوجه والرقبة عند الغضب وتحدث هذه التغيرات لأن الأوعية الدموية فى الجلد تتمدد فتزداد كمية الدم بقرب سطح الجلد ، والظاهره المناقضة لذلك هي شحوب الوجه فى بعض حالات الخوف وفى هذه الأحوال تنقبض الأوعية الدموية .

٣ — سرعة ضربات القلب : خفقان القلب أمر مألوف جدا فى التأثيرات الانفعالية حتى أن القلب يعتبر منذ زمن طويل رمزا على الانفعالات ·

٤ — تغير التنفس : يعتبر معدل التنفس وعمقه وزمن الشهيق مقارنا بزمن الزفير مؤشرات مفيدة خاصة فى الصراع الانفعالى ، ويتحدد معدل الشهيق والزفير بزمن كل منهما منسوبا للاخر ·

٥ — استجابة انسان العين : يميل إنسان العين للتمدد عند الغضب والألم والاثارة الانفعالية عامة ويميل للانقباض عند الرضا .

٦ — جفاف الحلق والفم : دلت الاختبارات على صحة الملاحظات المعروفة

عامة من ان الاثارة الأنفعالية تؤدى كثيرا إلى جفاف الفم بسبب نقص أفراز اللعاب أو تغير تركيبه ٠

٧ — حركة المعدة والأمعاء : استخدم الباحثون الأشعة السينيه وبالونة المعده (بالطريقة المشار اليها عند الكلام على دراسة الجوع) ٠ لإثبات أن حركة المعـــدة والأمعاء تتأثر بالانفعال الشديد وقد تؤدى الاثارة الانفعالية إلى القىء والاسهال ، وقد تكون الحالات الانفعالية المزمنه مسئولة عن القرح التى يصاب بها بعض الناس تحت ظروف الضغط بسبب ما تؤدى اليه من توترات فى جدران المعدة والأمعاء ٠

٨ — توتر وارتعاش العضلات : توتر العضلات من أعراض الانفعال ، ويحدث الارتعاش أحيانا عندما يقع الانسان فريسة رغبات متصارعة ٠

٩ — تغيير كيماء الدم : تنشط الغدد الصماء اثناء الانفعال وتصب هرموناتها فى مجرى الدم ويدل التحليل الكيماوى على ان تركيب الدم يتغير فعلا ، اذ يتغير سكر الدم ، والتوازن الحامضى القلوى ، ومحتويات الدم من الأدرينالين الذى يعتبر عنصرا هاما فى الاثارة الانفعالية ٠

ومثل هذه المؤشرات الانفعالية تكفى للدلالة على التغيرات العميقة والواسعة النطاق التى تحدث فى الجسم عند اثارة الشخص انفعاليا ٠

طرق دراسة الانفعالات : ظل علماء النفس وعلماء الفسيولوجيا يحاولون لسنوات طويلة ان يميزوا بين الحالات الانفعالية البشرية حسب صفات المؤشرات الجسمية للانفعال ، ولكنهم واجهوا الصعوبات الآتية (١١) :

١ — الانفعالات الشديدة (مثل الغضب والخوف) هى حالات عالية النشاط والاضطراب ولها استجابات بدنية مشتركة ، ولا تنجح الاستجابات المعينة فى تعريف وتحديد انفعال معين بذاته ، فقد يشحب الوجه فى الخوف والغضب على السواء ، وقد يعمد الانسان إلى الجرى عندما يكون خائفا أو غاضبا ٠

٢ — يعبر الإنسان عن الانفعال الواحد بطرق عديدة ، فاذا كان خائفا فقد يتجمد فى مكانه أو قد يجرى هربا من الخطر ، وفى الغضب قد يعض شفتيه أو يجرى، أو يهاجم الشخص الذى اثاره .

٣ — تسمية الانفعال شىء يعتمد على معلومات اضافية أخرى عن المنبه الذى اثاره أو عن طبيعة النشاط الهادف التابع للمنبه ، أى أن الاستجابة الانفعالية ازاء حيوان خطر تسمى خوفا لاسيما إذا حاول الشخص الهرب ، والاستجابة الانفعالية ازاء الاهانه تسمى غضبا خاصه إذا ثأر الانسان من الشخص الذى اهانه ، أما حالة الجسم فقد تكون متشابهة فى النوعين برغم اختلاف كل من الانفعالين فى الاسم .

٤ — التفرقة الواعية أو المستبطنة بين الإنفعالات لا تخلو من تأثر بالظروف الخارجية وهناك نظرية كلاسيكية عن الانفعالات تسمى نظرية جيمس ولانج تؤكد أهمية صدى الاستجابات الجسمية فى حالة الإنفعال ومجمل هذه النظرية يتمثل فى « نحن خائفون لأننا نجرى ، ونحن غاضبون لأننا نضرب » أى أن المثيرات الخارجية تؤثر على الجسم فتنشط الأعضاء فسيولوجياً لتعطى إحساساً معيناً يتحول إلى إنفعال ، أى أن الإنفعال نتيجة للتغيرات الفسيولوجية وليس العكس (٤) . والذى يضفى على النظرية بعض القبول هو أن وعينا بالأحوال الجسمية لا يشمل فقط حكماً على الموقف بأنه مخيف أو خطر مثلا بل يشمل ما يمكن أن نسميه بالأثر العكسى من جراء الاستجابات الجسمية التى يطلقها الإنفعال (١١) . وهكذا فإنى حين تعثر قدمى وأنا على السلم أقبض تلقائياً على الدرابزين قبل أن أستطيع تمييز حالتى الإنفعالية ، أما إنفعالى المحسوس بعد أن زالت الأزمة فيشمل إدراك قلبى الخافق وتنفسى السريع أى أن الإدراك يأتى بعد الاستجابة الجسمية . ومن ناحية أخرى فنظرا لأن هذا الإدراك يأتى بعد إصدار حكم على الظروف بأنها خطره مثلا فمن المشكوك فيه أن تكون الاستجابة البدنية المحسوسة هى المسئولة كلية عن الخاصية التى تميز إنفعالا عن الآخر .

ومع أن دراسة التغيرات فى الأعضاء الداخلية بسبب الانفعال أمر معقد جداً

وفى للغاية فقد ابتكرت طرق كثيرة حتى بين الشعوب البدائية منها إختبار الأرز الذى يجرى للمتهم فى الهند (١٦) . بأن يوضع فى فمه بعض حبوب الأرز أثناء إستجوابه فإذا أخرجها جافة بعد ذلك (مما يدل على كف إفراز اللعاب) دل هذا على أنه مذنب . واستخدام الأجهزة المناسبة يسمح لنا بملاحظة وتسجيل هذه التغيرات التى تطرأ على الأعضاء الداخلية فى الانفعالات فيستعمل جهاز Sphygmomanometer لقياس التغيرات فى ضغط الدم وضغط النبض ، وجهاز Psycho galvanometer لقياس التغيرات الدقيقة فى المقاومة الكهربائية للجلد المتصلة بنشاط غدة العرق . ويستعمل جهاز thermocouple لمراجعة ما يلاحظ عادة من أننا نسخن أو نبرد فى حالات الانفعال على التغيرات فى درجة حرارة الجلد ، وعن طريق هذه الأجهزة اتضح لعلماء النفس أن بعض التغيرات الداخلية ترتبط حتى بالانفعالات البسيطة نسبياً مثل الاستماع للموسيقى والاستمتاع بها ، أو الاستماع إلى الكلمات التى توحى بالخوف والغضب وهذه الظاهرة هى التى يقوم على أساسها جهاز كشف الكذب .

وجهاز كشف الكذب ما هو إلا كاشف للانفعالات ، والمدربون المهرة فى إستخدام هذا الجهاز الذى يسجل ضغط الدم ومعدل النبض والتنفس والتوصيل الكهربائى للجلد يمكنهم أن يلاحظوا ما قد يوجد من كذب فى العبارات حتى البسيط منها ولاشك أنه فى مجال الجريمة توجد إنفعالات شديدة والشخص المذنب فى جريمة يميل إلى الاستجابة الإنفعالية إزاء كل منبه يتصل بما فعله أما البرىء فهذه المنبهات لن يكون لها أى مغزى إنفعالى ولذلك لا تحدث له أية ردود فعل داخلية وجدير بالذكر أن هذه الطريقة ليست محكمة بدرجة تستبعد الخطأ تماماً ولذا يجب أن تراجع نتائجها دائماً بالمقارنة بالأدلة الأخرى .

التداعى الحر : عرف علماء النفس منذ مدة طويلة أن الشخص الذى يعانى إنفعالا قوياً يظهر ذلك فى سلوكه بشكل أو بآخر ، وطريقة التداعى الحر من الطرق الكلاسيكية لمعرفة إنفعالات الفرد حيث يطلب منه فيها أن يرد بأول كلمة تخطر

على باله على منبهات لفظية معينة بأسرع ما يمكن على أساس أن الكلمات التى تحمل شحنات إنفعالية شديدة تظهر فى إستجابته بطرق مختلفة (٩) .

وقد عمد كارل يونج إلى تنميط وتقنين هذة العملية بأعداد قائمة موحدة بالكلمات المنبهة التى يقدمها لمرضاه . ووجد أن المشاكل الإنفعالية لكل شخص تتكشف تبعاً لنوع إجابته على هذه الكلمات وكذلك تبعاً لمتغيرات أخرى منها المدة اللازمة للاجابة ، والتلعثم ، وعدم الإجابة ، وتغير تعبيرات الوجه ، وتكرار إستجابة سابقة وغير ذلك من الملاحظات .

ومن الطرق التجريبية لإثبات ذلك طريقة التنويم المغناطيسى فعمد م.ه. اريكسون(١٦) إلى تنويم مرضاه وأخبرهم أنهم ارتكبوا أعمالا من تلك التى يشعرون عادة بخطأ فى ارتكابها فقال لأحد مرضاه « أنه أحرق بسيجارته إهمالا ثوباً غالى الثمن من الحرير البنى كانت ترتديه فتاة فقيرة اشترته لعلها حين تلبسه يساعدها ذلك على الحصول على عمل عندما تذهب لحضور المقابلة التي دعيت إليها » . وعندما أجرى له اختبار التداعى الحر فيما بعد كانت إجاباته ذات نغمة انفعالية بالنسبة للكلمات المنبهة المأخوذة من تلك القصة ، وقورنت هذه الإجابات بإجاباته قبل التنويم ، فكانت إجابته على الكلمة « بنى » قبل التنويم مرتبطة بالعيون والألوان أما بعد التنويم والقصة فكانت تدور حول الحرير والحريق . وتبين هذه التجارب أننا إذا استطعنا إثارة انفعال قوى تصبح أفكار الشخص مركزه حوله . ولذا فإذا تبين فى العمل الاكلنيكى أن هناك تركيزاً للأفكار على هدف ما نستنتج وجود انفعال قوى .

وقد اتضح من الجهود التى بذلت من أجل الوصول إلى أساس فسيولوجى يمكن بموجبه التمييز بين الانفعالات بحيث يعرف عدد الإنفعالات وإستجاباتها الجسمية أنها لاتزال تحتاج إلى كثير من إثبات وقد أخذت إهتمامات علماء النفس تتجه للحالة العامة للاثارة الانفعالية أكثر من التمييز بين عده انفعالات ، وتتجه اهتماماتهم الآن للنظرية الخاصة بالتنشيط activation theory قدمها لندسلى ١٩٥١ أوسليوسبرج

١٩٥٤ (١١) والتى تقول بوجود مقياس أو بعد للشدة فى الإنفعال يتراوح بين السبات sleep من ناحية و بين الاثارة المنتشرة من ناحية أخرى ، ولما كانت النظرية تؤكد على تعبئة الطاقة وهو المفهوم الذى قدمته دوفى Duffy ١٩٥١ فهى تجعل من الصعب التفرقة بين الدافع والإنفعال .

محددات شدة الإنفعال : تتصف الإنفعالات بنفس صفات الدوافع من أنها تعبىء الطاقة ولكنها من ناحية أخرى تتطلب أنواعاً معينة من الأشباع ، فالحب يتطلب إنساناً بعينه ، والغضب يتطلب مهاجمة فرد بعينه أو جماعة أو شىء معين . والخوف يتطلب الفرار من موجب الخوف ، ويدفع الإنفعال الشخص إلى فعل قوى فى إتجاه الهدف . ولذا فإننا ننظر للانفعالات على أنها نوع من الدفع فهى تركز بصفة خاصة على شىء معين بذاته . وبوجه عام يضفى الإنفعال مزيداً من القوة على الدافع ولكننا لاحظنا فى الفصول السابقة أن الدوافع تتزايد قوتها مع الحرمان ، وتتناقص بالتشبع فهل تنطبق هذه القاعدة على الإنفعالات .

الحرمان : فى محاولتنا قياس دور الحرمان يجب أن تنتبه حتى لايلتبس الأمر علينا ، فالحرمان من مادة يحتاجها الجسم يقوى الدافع العضوى ، وإذا كان الحرمان راجعاً إلى وجود عقبه فقد يعمل الغضب على تعبئة طاقة اضافية للتغلب عليها ومثال ذلك إذا وجدت عقبة بين الشخص وبين الطعام ، وهنا نلاحظ أن هذا الحرمان مرتبط بحافز بيولوجى المنشأ وليس مرتبطاً بانفعال . وقد يؤدى الحرمان الدورى من الطعام إلى تقوية حافز الجوع لكنه يزيد أيضاً انفعال الخوف خشية إلا نجد الطعام الذى نريده وهنا أيضاً نجد الحرمان من حاجة جسمية هى التى تكشف الانفعال .

والدلائل تعارض تماماً فكره أن الحرمان فى أى ظرف من الشعور بالغضب أو الخوف يؤدى إلى تقوية هذه الانفعالات (١٦) بل أن العكس هو الصحيح ، فإذا كان زيد لايحدث له مايغضبه الانادرا فالمنتظر أن يكون تصرفه أقل شدة إذا صادفه احباط ، وهذا يصدق على الخوف أيضاً ، لكن المسألة ملتبسة قليلا فيما يتعلق بالحب

لأن الحب هو العناية والملاحظة والمساعدة والراحة التي يسبغها الراشد على الطفل ، فإذا ما تعلم الطفل هذا الانفعال يصبح حرمانه من فرصة الحب سبباً فى زيادة شدة الانفعال ، لكن الأطفال الذين يهملون منذ بدأ حياتهم لا يبدو عليهم الحاجة ليحبوا الغير ، رغم أنهم يظهرون حاجة شديدة لحب الآخرين لهم ، والخلاصة أن الحرمان من الاحتياجات الأساسية قد يقوى الانفعالات ، ويقوى الغضب بنسبة شدة الإحباط ويقوى الخوف بتردد وشدة الحرمان البيولوجى .

التشبع : كل الانفعالات غير قابلة للتشبع نسبياً ، وينطبق التشبع على الدوافع ولكنه لا ينطبق على الأهداف الرمزية التى تنطوى عليها الانفعالات ، وهكذا فإن دافع الجنس يمكن أن يشبع فيختفى ولكن الخوف الذى يدفع للهروب من الخطر ، إذا هرب الشخص ثم ظهر التهديد مرة أخرى انفجر الخوف فوراً وربما بأقوى مما كان ، رغم أننا يجب ألا ننسى هنا أن الخوف والغضب قد يضعفان مع الاجهاد البدنى ، لكن هذا الاجهاد ليس تشبعاً فإذا ثار الغضب أثناء التغلب على عقبة تقف فى الطريق للهدف فإن الوصول للهدف يضعف الغضب ، غير أن الغضب يسهل تحريكه إذا وقفت عقبات فى سبيل هدف آخر .

وهذا هو الأساس فى فهم شدة الانفعال ، فالإنفعات خادمة للدوافع ولهذا فهى دائماً على استعداد للظهور عند الحاجة ، فهى ردود أفعال لرموز وليست لأهداف حقيقية ، فالخوف من الجوع مثلا ليس طعاماً حقيقياً والخوف من الألم ليس ألماً مادياً .

العادة : والعامل الذى يؤثر على شدة الانفعال أكبر تأثير مباشر هو العادة ، فالأشخاص الذين يخافون باستمرار يصبحون أشد خوفاً ، والذين يغضبون يصبحون أشد غضباً ويصدق هذا على انفعال الحب ، فالصبى الذى يحب أمه أو معلمته ، يحب أصدقائه وزملائه فى المستقبل بشكل أعمق من أى شخص لم يشعر بمثل هذا الحب نحو أى شخص غير ذاته .

نمو وتطور الانفعالات

إن الاستجابات الأولى لتغير حال الانسان هى التهيج العام ، ثم يحدث تمايز لهذا التهيج تدريجياً إلى مشاعر مختلفة باختلاف المؤثرات أى باختلاف الحاجات والدوافع وقد أكدت الدراسات التتبعية صدق هذا التوقع ، فنى دراسات على الأطفال منذ ولادتهم قد تبين أن التهيج العام الذى يستجيبون به للتوتر أو لخفضه سرعان مايتفرع ليضم إليه مشاعر أخرى تزداد تدريجياً ، والملاحظ أن استجابة الوليد تكون تهيجاً عاماً ، وفى خلال الشهور الثلاثة الأولى من عمره تظهر مجموعتان كبيرتان من المشاعر الأولى ، المرح عند انخفاض التوتر والاحساس باللذة والثانية الأسى عند الحرمان وبداية التوتر مع بقا التهيج العام كاستجابة عامة لأى زيادة فى الشعور باللذة والألم ، وخلال الشهور الثلاثة يتمايز الأسى عن الشعور بالغضب عن الحرمان والتقزز والخوف وكلها مشاعر متنوعة تتصل بالألم .

وعند بلوغ الطفل عامه الأول تتمايز المجموعة الأولى الخاصة باللذة إلى مرح وبهجة وحب وفق أساليب خفض التوتر ، وخلال الشهور الستة الأولى من عامه الثانى يتمايز الحب إلى حب موجه للكبار وحب موجه للصغار ، كما يتمايز الشعور بالأسى إلى شعور بالغيرة ولا يزيد على ذلك فى الأشهر الستة التالية أكثر من شعور آخر هو شعور الفرح . إن هذا التمايز الذى يطرأ على التهيج العام يشير إلى أن تقدم الطفل فى العمر يؤدى إلى نشوء وجدانات affects مختلفة باختلاف دوافعه وإلى تشعب هذه الوجدانات وفق نظام تشعب دوافعه ، فكل دافع يتضح من كتلة الاستثارة العامة يؤدى إلى انفراده بوجدان خاص يصحبه عند الحرمان والاشباع .

التضج والتعلم : هناك وجه للاعتقاد بوجود تشابه أساسى بين السلوك والخبرة للطفل والراشد ، ولكن ليس من الضرورى الافتراض بوجود نفس الأنماط المميزة بالضبط فى المراحل الأولى من الحياة كما فى مراحلها المتأخرة . إذا قد تعمل تأثيرات كثيرة

على تزايد تعقيد الاستجابات الانفعالية كلما كبر الطفل فى السن ومعها النضج ، إذ أن العضلات والأعصاب والغدد تنضج وقد تهيء احتمالات لأنماط استجابة لم تكن موجودة من قبل فى المراحل الأولى للحياة .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك الجنس الذى لا يوجد إلا بشكل محدد فى الطفولة الأولى ولا يصل إلى ميزانه الكامل سوى عند البلوغ .

والعامل الثانى المسئول بوضوح عن زيادة تعقيد وتمايز النمط الانفعالى لدى الراشدين هو التعلم وهو يسهم فى تفهم أنواع كثيرة من أنماط السلوك الانفعالى فى الحياة الراشدة فى مقابل البساطة الواضحة والوحدة فى الطفولة. والواقع أنه يمكننا أن نكدس معلومات هائلة عن المعلومات التجريبية والاكلينيكية التى توضح الأهمية العظمى لبعض الأحداث المعينة فى تحديد اتجاه وشدة الاستجابات الانفعالية، ونستطيع بسهولة تتبع عملية التعلم السريعة من أجل إدراك المنبه الانفعالى والاستجابة له لدى أى طفل صغير ، فعلى سبيل المثال ، إذا سار طفل صغير فى الشارع ثم جاء كلب يجرى بسرعة فأوقعه على الأرض فسينمو لدى هذا الطفل سريعاً خوف من الكلاب أو كراهية لها . والمعروف أن الأطفال يكتسبون الخوف من العواصف ومن الناس ومن الماء وغير ذلك نتيجة لتجربة واحدة مخيفة مرت بهم .

الانفعالات المتعلمة : هناك فى العادة أساليب ثلاث يتعلم بها الطفل الاستجابة الانفعالية يمكن أن نلخصها فى الآتى :

١ — التقليد Imitation : وهو يلاحظ بوضوح فى معظم استجابات صغار الأطفال ، ففى حوالى سن سنتين يبدأ الأطفال فى تقليد سلوك الراشدين المحيطين بهم ، فيبدأون فى تفهم استجابات الأم الانفعالية (٦) وتقليدها فى المواقف المماثلة فبعد أن توبخ الأم قطة أو طفلا صغيراً يعيد الطفل نفس المنظر بتوبيخ القطة فيرفع أصبعه ويهددها تماماً كما تفعل الأم .

٢ — الاستجابات الشرطية Con litioning : وهو يبدأ أساساً بربط منبه محايد

بمنبه آخر سبق أن استثار استجابة انفعالية معينة ، ومن بين التجارب الكلاسيكية فى هذا الصدد تجربة Watson , Royner (٨) فقد أحضر واطسون طفلا صغيراً عمره ١١ شهراً أبدى قبولا سريعاً للعب بفأر أبيض . ثم رتب واطسون موقفاً بموجبه كان يخيف الطفل كلما وضع الفأر الأبيض بجانبه (كان واطسون يضرب قضيباً من الصلب بمطارقة فى مكان قريب ولكن بعيداً عن نظر الطفل) وبعد تكرار ذلك ثلاث مرات فقط أصبح الطفل يبكى ويبتعد عن الفأر .. كما وجد واطسون أن الخوف الذى يتعلمه الإنسان من منبه واحد قد يمتد إلى غيره مما يتماثل معه فى طبيعته . وهكذا أجرى تجربة على نفس الطفل مستخدماً قفازاً من الفرو الأبيض وأشياء أخرى مماثلة وقد أثارت هذه الأشياء نفس استجابة الخوف ، وهكذا يبدو أن التعلم يفسر كثيرا من الاستجابات الانفعالية ، فنحن نتعلم الخوف من شىء معين بالاتصال المباشر لكن هذا الخوف قد يرتبط شرطياً بغيره من الأشياء المشابهة التى يمكن أن نواجهها فى المستقبل ويمكن تعريف عامل الانتقال هذا بأنه حين يعمل منبه معين على إحداث اضطراب وإخلال بالتوازن فإن الشخص لا يستجيب لهذا المنبه وحده بل للمنبهات التى تماثله أيضاً وهكذا لا يخاف الطفل من الكلب الذى عضه فقط ولكن يخاف من الكلاب الأخرى بل قد يعمم خوفه على القطط والجياد وكل ذوات الأربع ويلاحظ من الوجهة الوظيفية أن درجة ما من التعميم ضرورية من أجل البقاء، فالإنسان لن ينجز الكثير إذا كان مضطراً ليتعلم من جديد الخوف من كل حيوان مفترس على حده ومن كل عدو مخيف ، لكن هناك ضرر كبير من التعميم الواسع المدى الذى يشمل حالات أكثر مما يجب .

٣ — التفهم Understanding : ويعنى هذا الاصطلاح تفهم الموقف الذى يمكن أن يثير استجابات انفعالية شديدة ، فمثلا الخوف من الأماكن المرتفعة يتضمن فى داخله تفهم لاحتمال السقوط منه ، والخوف من التيار الكهربائى يتضمن فهما لإضراره وما يمكن أن يحدثه من مخاطر حتى ولو لم تجرب الخبرة نفسها (٦) .

دراسات عن الاستجابات الانفعالية : يمكن ايضاح هذه المشكلة أى النضج والتعلم بالتأمل فى بعض الدراسات عن تطور السلوك الانفعالى . وهى دراسات ليست

حاسمة فى كثير من الأحوال فيما يتعلق بأثر هذين العاملين لكنها تساعد الدارس على فهم بعض المسائل الهامة (١٦) .

أولا دراسة بريدجز عن التمايز الانفعالى : أشرنا فيما سبق إلى أن الطفل يبدى نمطين أساسين هما الابتهاج والانقباض أو الاستجابات السارة وغير السارة والواقع أن ملاحظات بريدجز للاطفال أثناء نموهم جعلتها نستنتج أن التعقيد الانفعالى يتطور كعملية تمايز بين الاستجابات البسيطة وأيضاً كعملية استجابة لمنبهات جديدة ، وقد بدأت رفض فكرة واطسون من أن الخوف والغضب والحب كانت واضحة عند الميلاد ووجدت شأن شرمان أن التهيج وحده هو الموجود فى السن المبكرة ، لكنها وجدت فى سن ثلاثة شهور أن التهيج ينقسم إلى انقباض وابتهاج ، وفى سن الستة شهور ينقسم الانقباض إلى خوف واشمئزاز وغضب بينما ينقسم الابتهاج بعد ذلك إلى سرور وود . وتقول بريدجز أن النضج والتعلم كلاهما مسئول هنا ، فالنضج قد يبعث على تحسين فعل العضلات وتكاملها مع الأعصاب ووظائف الغدد وغير ذلك والتعلم يؤدى إلى نجاح الطفل فى التعامل مع المواقف من ناحية أو مجرد ارتباط الاستجابة بمنبهات معينة.

دراسة جونز عن الابتسام : قامت جونز ١٩٢٦ بدراسة دقيقة للابتسام وهى استجابة يعتقد عامة أنها تصاحب الانفعالات الايجابية وانضح من ملاحظاتها أن الابتسام لا يوجد فى الشهور الأولى من حياة الطفل ولكنه يظهر فى أواخر الشهر الثالث ، ولإثارة الابتسام قدمت لجميع الأطفال الذين وضعوا تحت الدراسة موقفاً موحـــداً كالآتى « وضعت الطفل على منضدة ثم انحنت فوقه بحيث كان وجهها يعلو الطفل بحوالى ١٢ بوصة ثم ابتسمت وأحدثت صوتاً بلسانها يشبه المناغاة فإذا لم يبتسم الطفل تدعى أم الطفل لتكرار العملية ، ووجدت جونز أن الأطفال لم يبتسم منهم أحد خلال الخمسة عشر يوماً الأولى من حياتهم لكنهم كانوا يبتسمون كلهم عند بلوغهم ٩٥ يوماً (٣ شهور) استجابة لموقف الاختبار وواضح أن هـذا التغيير فى السلوك قد يكون راجعاً إما لنضوج الأنماط العضلية العصبية اللازمة للابتسام وإما لأن

الطفل تعلم أن وجه الراشد المنحنى عليه علامة يعتمد عليها كمنبه سار وإشباع لحاجة وتخفيض للتوتر .

دراسة بيلى عن البكاء : أجرت بيلى ١٩٣٢ (١٦) دراسة على جماعة مكونة من ٦١ طفلا أثناء العام الأول من عمرهم ، ولاحظت بصفة خاصة بكاء الأطفال استجابة للوسط الغريب ، ووجدت أن الأطفال لا يبكون بتاتاً أثناء الشهرين الأولين من الحياة ، لكن البكاء يصبح معتاداً نسبياً فى سن ١٠ شهور . وهذه يبين أن النضج قد يجعل الطفل أكثر وعياً ببيئيه ومن ثم يعلم بأن شيئاً غير عادى قد حدث وبذلك يشعل انفعال الخوف . ويمكن القول من ناحية أخرى أن الطفل تعلم أن أمه والوسط المعتاد والمنبه المألوف كلها مرتبطة بالطعام والعناية والأمن . ثم تتدخل منبهات غير مألوفة أو تغير إلى مكان جديد فيعتبره الطفل تهديداً لسلامته ، وهذا التفسير يفترض أن كل طفل يواجه بالضرورة بعض التجارت غير السارة وأن هذه ترتبط بتغير ما فى البيئة وأن الطفل يتعلم الانزعاج من المواقف غير المألوفة .

وفيما يلى شرح لبعض الانفعالات التى يمكن أن توضح دور الانفعالات كمعبئات للطاقة .

أولا : الغضب والعدوان

يتضح من الدراسات التى تناولت الغضب والعدوان دور الانفعالات كمعبئات للطاقة ، فالغضب يعمل على اطلاق طاقة اضافية من أجل الوصول للهدف ، وتحبذ الدراسات التجريبية النظر إلى الغضب والعدوان على أساس أن انفعال الغضب يكون نتيجة لاحباط نشاط موجه للوصول للهدف . (١٦) فاذا كنت جائعا وكان الطعام موجودا وراء باب مغلق يعمل الغضب على تعبئة طاقة اضافية تساعد على كسر الحائل والوصول للطعام . ويمكن من واقع حياتنا اليومية ملاحظة أن الغضب نتيجة للاحباط فالطفل يغضب إذا انتزعنا منه قطعة حلوى ، وقد يكون من الصعب اثارة الغضب لدى الانسان الراشد بوسائل معمليه لأن الاحباط هنا فى العادة يكون ضعيفا جدا ، والانسان

يعلم أنها مجرد تجربة . وقد عمد ملتزر ومعاونوه عام ١٩٣٣ إلى تسجيل كل حالة غضب فى المواقف التى اثارها طوال فترة أسبوع وتؤيد البيانات التى حصل عليها نظرية الاحباط والعدوان ، فقد اتضح أن ٨٦ ٪ من المواقف المثيرة للغضب فى تجربته كانت احباطا لبعض الدوافع الأخرى ، وفى بعض الأحوال كان الغضب مساعدا على معالجة المشكلة ولـكنه فى كثير من الأحوال لم يكن كذلك بل كان معوقا .

وقد قامت إحدى عالمات النفس الجشتالطى بدراسة انفعال الغضب (٤) ، فصممت تجربة تتلخص فى ان وضعت مقعدا فى مكان من المعمل ورسمت حوله دائرة حسبت ابعادها بدقة بحيث يصعب على الشخص ان يحصل على المقعـــد ، وبعد أن لاحظت تصرفاتهم وجدت ان انفعال الغضب يجتاحهم بطريقتين أو ثلاث ، فاما أن يحطم المفحوص قواعد التجربة فى ثورة غضب معربا عن استحالة الحل إلا بهذا الأسلوب وإما ان يظهر الغضب فى الفاظ ينطقونها ويعربون فيها عن إمكان الحل لو كانوا أطول نوعا أو لديهم اداة لجذب المقعد ، وأما ان يستسلموا للفشل فى حسرة .

والواقع أن الغضب فى كثير من الأحيان يعود بالانسان إلى مستوى بدائى فى حكمه على واقعة ، أى أننا ننفعل عندما نـكون فى حالة أحباط ونجد أن رغباتنا قد أصبحت فى خطر ، ويتم انفعالنا عن طريق الرده أو النـكوص Regressian إلى نمط سابق من الاستجابة للاحباط هى الاستجابة الطفليه ، والواقع أن هناك حدا أو مستوى معينا من الاحباط إذا تعداه التوتر أدى إلى اشـكال من الأثر على السلوك مختلفة فى نوعيتها . وكما بينا عند الـكلام عند الدوافع يمـكن أن نسمى هذا المستوى عتبة احتمال الاحباط (١٤) . وقد يعانى الانسان درجة عالية ومستديمة من الاحباط والصراع دون أن تبدو عليه علامات الاضطراب ، ربما يستمر فى الـكفاح من أجل الهدف أو البحث عن طرق جديده أو أهداف بديله ويحاول الوصول إلى اختبار واقعى رشيد ولـكنه عندما يطرد ازدياد التوتر فقد يغدو مهتاجا باشد مما يجب ويضطرب انفعاليا بحيث لايطيق معالجة المشكلة والموقف بوسائل بناءة وعندئذ نقول أنه تعدى حد احتماله للاحباط .

ومن الواضح أن حد احتمال الاحباط ليس مقدارا كميا محددا من التوتر لكنه كمية متغيرة تتفاوت مقدارا بحسب الشخص والموقف ، ففى أحد المواقف قد يستطيع الشخص ان يقاوم ويتحمل قدرا من التوتر يزيد كثيرا عما يمكنه عمله فى موقف آخر ويتوقف هذا جزئيا على ما عاناه فى المواقف السابقة وما يتوقع حدوثه فيما بعد ، ويجوز ان يتعرض شخصان مختلفان لموقف احباط واحد فيكون حد الاحتمال لكل منهما مغايرا للاخر تماما فاذا اقترب مستوى التوتر من الحد الحرج أو تعداه تحدث فورا عدة أنواع رئيسية من آثار الاحباط الهدامه وأهمها العدوان والهرب واضطراب السلوك ٠

<u>الاحباط والعدوان</u> : أبرز أثر هدام من آثار الاحباط هو الاستجابة العدوانية التى يثيرها وقد رأينا أن سد الطريق للوصول لهدف يثير انفعال الغضب وهذا جزء من النمط الكلى للعدوان الذى يؤدى اليه الاحباط ، ويعتبر العدوان فى أبسط صورة نوعا من الهجوم المباشر على العقبة أو الحاجز وبهذا المعنى قد يعتبر سلوكا تكيفيا حقيقيا ، ولكن للعدوان غالبا أثرا سيئا بمعنى أنه يمنع الانسان من التعامل مع العائق بنجاح فسرعان ما يتزايد العدوان زيادة مركزه ويخرج عن إرادة الفرد وسلطانه ، وفضلا عن ذلك فان الاحباط قد لا ينبعث من عائق محدد فحسب بل قد يكون مبعثه انعدام أو فقدان أو صراع مع دافع آخر ، وفى هذه الظروف لا يوجد شىء منطقى يمكن مهاجمته ولذا يتبعثر الاحباط على اشياء كثيرة بعضها لا يتصل بالسبب الحقيقى فيحدث تعميم للاحباط ، كم يحدث انتقال للعدوان إذا تعذر على الإنسان أن ينفس عن عدوانه مع الشخص الذى سبب الاحباط ٠

وتوضح التجربه الآتية التى قام بها ميللروجوجلسكى (١٤) فى جامعة ييل دراسة عن آثار العدوان فى ظروف تشابه ظروف الحياة العاديه ، فطلبا من صبيان فى معسكر صيفى أن يحضروا جلسة اختبار طويلة وغير مشوقه ورتبت عمدا بحيث تطول حتى يفوت عليهم موعد رحلتهم الاسبوعية إلى السينما المحلية التى يعتبرونها من أهم أحداث الاسبوع ، ولما طالت الجلسه وبدأ يتضح للأولاد أنه سيضيع عليهم ميعاد السينما

بدا عليهم الإحباط ، وعند نهاية الجلسة أصبح الموقف احباطا حقيقيا بالنسبة لهم ،وقد خضع جميع الأولاد قبل وبعد الجلسه لقياس قصير لاتجاهاتهم ، فنصفهم قيس موقفهم تجاه المكسيكيين قبل الجلسة وتجاه اليابانيين بعدها ، والنصف الآخر قيس اتجاههم نحو اليابانيين قبل الجلسة وتجاه المكسيكيين بعدها ، فاتضح أن موقف الأولاد تجاه المكسيكيين واليابانيين بعد الجلسة أسوأ مما قبلها . وهنا نجد بيانا و اضحا للاحباط المؤدى إلى رد فعل عدوانى لكنه رد فعل عدوانى من نوع هادىء وغير مباشر ، والملاحظ أن الأولادلم يعبروا عن عدوان مباشر تجاه المصدر الحقيقى للاحباط ، أى أولئك القائمين بالاختبار بل بدلا من ذلك ابدوا العدوان فى شكل مواقف عدائية ضد أشياء بعيدة عن طريق التعبير اللفظى . ونظرا لأن الغضب قد ينتقل من الاحباط الأصلى فاننا نواجه مشكلة فحواها ، فى أى اتجاه يتركز ؟ : يقول روزنسفيج(١٦) ان الناس يستجيبون للاحباط بثلاث طرق : العقاب الخارجى (ويتمثل فى مهاجمة الآخرين) ، العقاب الداخلى (فى شكل عدوان على الذات أو عقاب الذات) وعدم العقوبة (أى أنكار وجود الاحباط) .

الاحباط ورد فعل الهرب : الأثر الهدام الرئيسى الثانى للاحباط هو الميل للهروب من الموقف المحبط ، ورغم أن الهروب يفيد فى التخلص من التوتر الزائد فانه فعل هدام من حيث أنه يمنع الوصول للهدف ، ويجب أن يكون واضحا أن هذا الهروب يختلف عن الهرب بسبب مثير الخوف من الأشياء الخطرة ، وقد يكون الهروب مؤقتا ، وقد رأينا عند الحديث عن صراعات اقتراب — تجنب ، أن الكائن ربما يتذبذب عند نقطة من التوازن غير المريح ، فلا يبتعد نهائيا عن الهدف الموجب ولا يقترب كثيرا من الشيء السالب ، وقد يتخذ الهروب من الاحباطات والصراعات اشكالا غريبة مما يؤثر على التوازن الكلى للشخص (١٤) .

الاحباط والنكوص : يشير اصطلاح النكوص فى علم النفس إلى بدائية السلوك أى ارتداد إلى طريقة سلوك أقل نضجا ، وهى طريقة يفترض ان الانسان قد كبر عنها أو جاوزها ويحدث النكوص المؤقت لدى الأطفال ولدى الراشدين الاسوياء فى

مواقف الانفعال الشديد لاسيما ان كانت تلك المواقف محبطة (١٣) وتوضح التجربة الآتية التي أجراها باركر وديمبو وليفين علاقة الاحباط النكوصي . .

كانت الدراسة محاولة لخلق النكوص لدى الأطفال عن طريق الاحباط ، والواقع ان هذه الدراسة تعتبر اسهاما في دراسة الاحباط . وقد بدأت ديمبو بافتراض انأحد الظروف المؤدية إلى النكوص هي موقف يوضع الانسان فيه في حالة من التوتر ، وطبقا لوصف مراحل النمو نجد أن التوتر العالي يؤدي إلى بالنكوص في النواحي الآتية على الأقل .

(ا) إذا ظلت حالة التوتر في بعض الأجزاء عند مستوى عال فان مجموع انماط حالات الفرد التي يمكن تحقيقها تتناقص الى خد كبير (٥) .

(ب) إذا كان التوتر من العظم بحيث ينتشر إلى خارج حدود الاجزاء المعينة مباشرة ويمتد إلى الكيان كله أو إلى اجزاء كبيرة منة فانه يؤدي إلى أن تنطمس الحدود بين الأجزاء الضعيفة التمايز ، وفي كلتا الحالتين تنتج حالة التوتر العالي عدم تمايز في الشخص وهذا يؤدي إلى تغيير في اتجاه مخالف للاتجاه الحادث في النمو ولابد وان يظهر في صورة نكوص في السلوك .

وقد تناولت ديمبو في الدراسة آثار الاحباط على السلوك بمقارنة سلوك الأطفال تحت نوعين من الظروف الأول هو اللعب الحر ، والثاني هو موقف الاحباط أما في موقف اللعب الحر ، فقد كان الأطفال يلعبون وحدهم لمدة نصف ساعه في حجره تحتوي على طائفة موحدة قياسية من أدوات اللعب قد رتبت على ثلاثة مربعات كبيرة من الورق . وكان السلوك يلاحظ ووحدات اللعب تقدر لها درجات من مقياس يتألف من سبع مسافات من حيث اتصاف اللعب بالروح البناءة . وفي هذه المرحلة سمح للطفل باللعب بدون قيود ، واستخدمت كمقياس رئيسي لهذه الآثار بنائية أو ابداعية سلوك اللعب ، وتعني البنائيه هنا مدى ما يظهره اللاعب من الخيال والتنظيم والانشطة ذات البناء الجيد .

أما فى المرحلة الثانية فقد وضع الأطفال فى نفس الغرفة ومع نفس اللعب ، وكان فى الغرفة أيضاً عدد من اللعب ذات الجاذبية الكبرى غير أنها ليست ميسره ، وقد توصلت إلى هذا الترتيب بابدال جدار مؤقت من الحجرة الأصليه ووضع فاصل من سلك شبكي يمكن للطفل أن يرى منه بسهولة اللعب الجذابة ولكن يستحيل عليه التحرك من خلاله وفى هذه المرحله قسمت التجربة إلى ثلاثة مراحل رئيسية : فترة ما قبل الاحباط فترة ، الاحباط ، فترة مابعدالاحباط .

<u>أولا فترة ما قبل الاحباط</u> : رفع الفاصل الذى يقسم الحجرة بحيث تصبح مساحتها ضعف ما كانت عليه فى موقف اللعب الحر ، وادمجت اللعب فى مجموعات جذابة ومرتبة فى ذلك الجزء من الحجرة الذى كان خلف الحاجز . وفى جميع الأحوال أظهر الأطفال اهتماما كبيرا بالعب الجديدة وبدأوا فورا فى فحصها ، وتركت لكل طفل الحرية الكاملة ليفحصها ويلعب بها كما يشاء ، وصممت فترة ما قبل الاحباط لكى تخلق فى الطفل هدفا مرغوبا جدا بحيث يمكن فيما بعد اعاقته عن بلوغه ، وهذا ضرورى لإيجاد الاحباط ، وحدث الانتقال من فترة ما قبل الاحباط ، إلى الاحباط بان جمع المشرف فى سله جميع أدوات اللعب التى استعملت فى فترة اللعب الحر ثم أخذ الطفل بعيدا وانزل الفاصل الشبكى ، وثبته بقفل كبير ، وبهذا أصبح جزء الحجرة الذى به اللعب الجديدة بعيدا عن متناول الطفل لكنه ظاهر للعين خلال السلك .

<u>فترة الاحباط</u> : يجلس الأطفال ليلعبوا بلعب هم أقل رغبة فيها بعد إنزال الفاصل الشبكى وتسير اجراءات التجربة طبقا لما سارت عليه فى فترة اللعب الحر تماما . ويظل المشرف مبتعدا عن الموقف ، وبعد إنزال الفاصل بثلاثين دقيقة يوحى المشرف للطفل بان يخرج من الحجرة .

<u>فترة ما بعد الاحباط</u> : بعد أن يتأكد المشرف من أن الطفل يريد الأنصراف يرفع الفاصل ، وعاده يفاجأ الطفل مفاجأة ساره وينسى رغبته فى الانصراف ويسرع إلى حيث اللعب الجميله ، وإذا لم يعد الطفل من تلقاء نفسه يقترح المشرف عليه أن يفعل ولا يحتاج الطفل إلى أقتراح ثان أبدا ، ويلاحظ أن رفع الفاصل لم يكن له هدف

تجريبي ولكنه لاشباع رغبة الطفل فى اللعب ولمنع أية عواقب غير مستحبه ، ويسمح للطفل باللعب حتى يصبح مستعدا للانصراف .

النتائج : تألفت النتائج من سجلين متزامنين أحدهما كتبه مراقب جالس خلف نافذة تسمح بالرؤية فى اتجاه واحد ، والثانى كتبه المشرف الذى كان يتصل اتصالا مباشرا بالطفل وأدمج السجلان فى سجل واحد كامل ، وقد تبين أنه قد ينتج عن موقف اللعب وموقف الاحباط نوعان عامان من السلوك :

١ — الاشتغال بالالعاب الميسرة وهو ما اسمته ديمبو الأنشطة الحرة ويشتمل النشاط الحر للعب باللعب الميسرة والتسلى بالأشياء الأخرى التى لا تعتبر لعبا ومنها :

(ا) محاولة الحديث مع المشرف .

(ب) الانشغال باشياء أخرى وأجزاء أخرى من الحجرة .

(حـ) العثور على أشياء اضافية لا تدخل فى التجربة الأساسية مثل مسمار أوخيط على الأرض واللعب بها .

(د) التجول وفحص الأشياء فى الحجرة .

(هـ) الاضطراب استجابة لأية ضوضاء خارجية أو انطفاء الأنوار .

٢ — أنشطة فى اتجاه الأهداف غير الميسرة وهو ما اسمته ديمبو « سلوك الحاجز أو الهرب ويتمثل فى الآتى :

(ا) الأقتراب من المناطق غير الميسرة مثل محاولة رفع الحاجز أو تسلقه أو ضرب الباب بالقدم .

(ب) محاولات اجتماعية عن طريق الطلب والرجاء والشغب والتهديد لاقناع المشرف بازالة الحاجز أو فتح الباب .

(حـ) افعال ذات اتجاه سلبي مثل النظر إلى اللعب غير الميسرة أو المناطق الخارجية أو الحديث عنها .

وقد لوحظ بصفة عامة أن الأطفال أبدوا سلوكا انفعاليا مثل القلق والتشيج والعويل أو محاولة كسر الباب ، فالطفل يبدو له الحاجز أما بصفته عائق مادى موضوعى ، وأما بصفته عائق أوجده المشرف أى أنه حاجز اجتماعى ، وغالبا ما يجمع الصفتين بالنسبة له ، ولهذا السبب غالبا ما يتخذ الفعل المتجه للعب غير الميسرة شكل هجوم مادى على الحاجز والمشرف معا .

ومع الانتقال فى بنائية اللعب حدث تغيير فى التعبير الانفعالى فنشأ عن موقف الاحباط نقص فى حرية التعبير ، ونقص فى الكلام والمحادثه الودية مع المشرف ونقص فى المرح وازدياد تعبيرات الكآبه وظهر فى الاحباط أيضاً ازدياد الحركات القلقة مثل الغناء والكلام بصوت مرتفع ، والافعال القلقة والتهتهة ومص الأبهام ، وازدياد السلوك العدوانى كالضرب والركل والكسر والاتلاف .

كما اظهرت النتائج بصفة عامة تناقص فى البنائية فى اللعب مع شدة الاحباط لأن الاحباط يسبب توترا ، وتناقص تنوع السلوك لابد أن يحدث إذا بقى جزء من هذا الكل فى حالة ثبات وهذا ما تمليه بعض خواص الكل الدينامى ، ويتوقف مقدار التناقص على مدى المناطق الثابتة ودرجة مركزيتها وانحرافها عن المستوى العادى ويتضمن الاحباط هدفا معينا يجعل جزءا معينا فى الانسان باقيا فى حالة توتر دائم على شكل ما وعلى ذلك لابد وان ينقص تنوع كل السلوك .

كما أظهرت التجربة نتيجة أخرى تتعلق بامتداد مجال الحياة — لاسيما فى البعد الزمنى السيكولوجى وهو أحد صفات النمو الهامة . فى فترة الاحباط يتدخل المشرف بعرقلة اللعب باللعب المرغوبة ويحمل الطفل على الانتقال إلى الجانب الآخر من الحجره . أما فى موقف اللعب الحر فلم يقطع نشاط الطفل وربما كان الطفل واثقا من أنه لن يقاطع . وفى ظل هذا الشعور بالأمن كان يمكنه أن يضع خططا طويلة الأمد نسبيا

إذ ان التخطيط يتضمن بعدا زمنيا وربما كان التدخل فى نهاية فترة الاحباط له أثره فى تحطيم الشعور بالأمن وأستقرار موقف اللاعب لأنه إذا وجد الاحساس بأن قوة عليا مثل الشرف يمكن أن تتدخل فى أية لحظة فقد لا يستحق الأمر عندئذ التفكير فى رسم خطة طويلة المدى ويقود ذلك إلى أضعاف الارتباط بين مستويات الواقع والوهم ومن ثم تضييق مجال الحياة فيما يتعلق بامتداده فى المستقبل السيكولوجى ويمكن ان يعزى موقف الاحباط ولو بصفة جزئية على الأقل إلى انعدام الأمان .

الاحباط والتثبيت : قام ماثيير وجلاسروكلى(١٤)بدراسة أثر الاحباط مع العقاب على سلوك حل المشكلات عند الفيران،فوضعت الفيران على أرضية منصة لتقفز مواجهة لبابين أحدهما مغلق بقفل والآخر غير مغلق بقفل ، فإذا قفز الفأر نحو الباب المغلق أصطدم أنفه فيه وسقط فى شبكة موضوعة فى أسفل ، وإذا قفز نحو الباب غير المغلق استطاع النفاذ إلى الطعام ، وعلقت بطاقة سوداء فيها دائرة بيضاء على أحد الأبواب بينما علقت بطاقة بيضاء عليها دائرة سوداء على الباب الآخر،وفى تعلم المشكلات العادية كانت إحدى البطاقات تشير دائما إلى الباب غير المغلق الذى كان يلف عشوائياً إلى اليمين وإلى اليسار ، وكانت مهمة الفأر أن يتعلم القفز إلى البطاقة الصحيحة فكانت الفيران تفعل ذلك .

أما هذه التجربة فقد عمد القائمون بها إلى إحباط الفيران بجعل المشكلة غير قابلة للحل ، بأن جعلوا كل بطاقة تؤدى إلى مكافأة لنصف الوقت وإلى عقوبه لنصف الوقت بصرف النظر عن كونها موضوعة فى اليمين أو اليسار ، كما أنهم أرغموا الفيران على القفز بصدمة كهربائية ، وتحت هذه الظروف اكتسبت الفيران عادة القفز إما إلى اليمين دائما أو إلى اليسار دائما . وقد يعتبر هذا الشكل الثابت من السلوك متوافقاً كأى نمط آخر من القفز طالما أن الحيوان سيصل إلى المكافأة بنسبة ٥٠ ٪ وقد أوضح القائمون بالتجربة أن العادة الثابتة على وتيرة واحدة أصبحت غير مرنة ولا حسنة التوافق مع التغيرات فى المواقف عندما جعلوا المشكلة قابلة للحل بأن جعلوا الجانب الذى ثبت الفأر على الوثوب إليه مؤدياً إلى العقاب دائماً وفتحوا الباب الذى فى الجانب

الآخر ، وفى هذه الحالة استمر الفأر يقفز إلى الجانب الذى ثبت عليه برغم أنه يعاقب دائماً وفى كل مرة ، ودامت حالة السلوك المثبت هذه مئات المرات المتعاقبة بل واستمرت حتى بعد أن أزيل الباب من الناحية الأخرى بحيث أصبح الفأر قادراً على رؤية أن وثوبه إلى هذا الجانب يوصله إلى الطعام ·

ويبدو أننا هنا وبالنسبة للفيران نجد سلوكاً متكرراً جامداً على وتيرة واحدة مبعثة استمرار الاحباط تجريبياً لفترة طويلة جداً ، وهو يماثل العادات المثبتة لدى الجنس البشرى إلى حد كبير ·

الاستجابات البناءة للاحباط : كثيراً ما يؤدى الاحباط إلى استجابات عدوانية أو نكوصية كما بينا ، ورغم ذلك فإنه يمكن فى مواقف كثيرة تجنب تلك الآثار أى أنه يمكن ألا يؤدى الإحباط إلى العدوان أو النكوص · وذلك لأن بعض التغيرات الموقفية مثل تماسك الجماعة أو وجود الأصدقاء قد تؤثر فى استجابات الأطفال لموقف الاحباط (٢) وقد حدث فى إحدى الدراسات أن أدخل إلى الموقف التجريبى المستخدم فى تجربة باركر وديمبو وليفين ازواجاً من الأطفال الذين يربط الواحد منهم بالآخر صداقة وثيقة ، وازواج أخرى من الأطفال الذين تربط بينهم علاقات صداقة عابرة ، أما فى خلال اللعب الحر فكان الأصدقاء الحميمين يقضون وقتاً أكثر فى اللعب المنفرد واللعب الاجتماعى من الأصدقاء العابرين، كما كان لعبهم أكثر نضجاً وإبداعاً. وأما فى خلال ظروف الاحباط فقد استجابت كلتا المجموعتين على نحو أقل نضجاً ، ولكن الأصدقاء الحميمين نقصت صفة الابداعية فى لعبهم بدرجة أقل من تناقصها فى لعب الأصدقاء العابرين وإلى حد ذى دلالة إحصائية · أى أن الفروق فى لعب أزواج الأصدقاء الحميمين والأصدقاء العابرين التى لوحظت خلال فترة اللعب الحر أصبحت أكثر بروزاً وظهوراً خلال ظروف الاحباط ، أى أن صحبة صديق وثيق كانت تشجع على قيام اللعب البناء فى الظروف العادية وتقلل من التأثير السىء للاحباط على صفة الابداع والبناء فى اللعب ، وهذه البيانات تبين لنا أن التماسك الاجتماعى ووجود الأصدقاء والأمن الشخصى المرتبط بهذا يخفف من الاستجابه للاحباط وكذلك قد تزيد بالفعل من السلوك المرغوب اجتماعياً مثل التعاون عند الاستجابة إلى التدخل فى نشاط الطفل وإحباطه .

ثانياً : «الخوف»

الخوف فى أساسه تعبئة للطاقة إزاء خطر الألم الجسدى ، ولكن هذا النمط من الاستجابة يمكن أن يرتبط بمنبهات غير ضارة ارتباطاً شرطياً فتصبح مثيرة للخوف . وهكذا استطاع واطسون أن يبعث فى الطفل الصغير خوفاً شرطياً بأن أراه الفأر الأبيض كلما صدر صوت مرتفع يخيفه فأصبح الفأر الأبيض بمثابة علامة على الخطر أو قوة جذب سالبة وبذلك يخشاه الطفل ومن الواضح أنه يمكن تهيئة المنبه بحيث لا يرى بعد ذلك كعلامة على التهديد ولإجراء ذلك لا بد وأن نجعل المنبه علامة على قوة جذب موجبة ، وأكبر قوة جذب موجبة يعتد بها بالنسبة للطفل هى الطعام . وقد عمدت جونز ١٩٢٤ (١٦) إلى إعادة تهيئة شروط الخوف بأن أقامت وظيفة جديدة للعلاقة ، فقد ربطت بين الطفل الذى يخاف الأرانب والذى سبق أن عرضنا له وبين الطعام ، فوضعت الطفل أولا على كرسى مرتفع وأخذ يأكل فى سعادة ثم جاءت بالأرنب الأبيض داخل الحجرة وهو موضوع فى قفص فتوقف الطفل عن الأكل وهنا أخرج الأرنب من الحجرة ، وفى اليوم التالى أكل الطفل والأرنب موجود بالحجرة على نحو ٢٠ قدماً منه وفى كل يوم من الأيام التالية كان الأرنب يوضع فى مكان أقرب فأقرب حتى أصبح الطفل يأكل هادئاً والأرنب جالس على صينية الطعام، ونلاحظ أن ذلك استغرق حوالى ٣٠ محاولة بينما أحتاج واطسون إلى ٣ محاولات فقط لإثارة الخوف الشرطى .

ويتفاوت الخوف كثيراً من شخص لآخر ومن حضارة لأخرى ، ويلاحظ أنه يثار بتنبيه خارجى وليس من جراء حاجة داخلية تلقائية ، فعندما يواجه الكائن منبها مؤلماً تحدث استجابات انسحاب ، وفيما بعد قد يسبب مجرد اقتراب المنبه المؤلم الانسحاب ويقول الشخص أنه يشعر بالخوف ، وهذا يوحى بأن الخوف استجابة متعلمة وتتوقف على الخبرة الماضية ويتطور شعور الطفل بالخوف ، فهو يرتبط فى أول الأمر بالواقع ، ذلك أن الطفل عندما يتعلم المشى يتعرض لسقطات مؤلمة وهكذا

ينمو لديه خوف يبرره الواقع ، ومع تزايد نضج الطفل يتعلم عادة أنه كفيل بالتعامل مع هذه التهديدات ويختفى الخوف ، فإذا ما ظهر لدى الراشد يستنتج علماء النفس أن الخوف الطفلى يستخدم ليرمز إلى مشكلة معينة ٠

والخوف انفعال ودافع يتضمن حالة من حالات التوتر التى تدفع بالخائف إلى الهرب من الموقف الذى أدى إلى استثارة الخوف حتى يزول التوتر ويزول الانفعال(١) وقد تبين من الدراسات أن الحجرات المظلمة والحيوانات والأماكن المرتفعة والغرباء والأصوات العالية تثير الخوف فى ٢٠،٥٠٪ من الأطفال من سن سنتين إلى ست سنوات(٨)٠

والمظاهر الجسمية الخارجية للخوف هى اصفرار الوجه وضيق حدقة العينين وجفاف الفم والحلق وتصبب العرق البارد والشعور بالهبوط والشعور بالضعف والدوار والغثيان والتبول اللا إرادى والتبرز أحياناً إذا كان الانفعال عنيفاً، كما تزداد ضربات القلب ويسرع التنفس وتزيد نسبة الادريتالين فى الدم كما تزداد كمية السكر ويفسر كانون هذه التغيرات بأنها ضرورية لتعد الكائن الحى للهرب من الموقف الذى يهدده اللهم إلا إذا كان الانفعال حاداً فتشل حركة الكائن الحى (١) ٠

ولبيان كيف يعمل الخوف كدافع مكتسب وضع ميللر ١٩٤٨ (١١) . الفيران واحداً بعد الآخر فى الغرفة اليسرى من صندوق مكون من حجرتين، وسلط على كل فأر صدمة كهربائية وهو فى الغرفة المغلقة حيث لا مهرب منها ، فأظهرت الفيران كلها نفس الاستجابة ، فكل منها استجاب بكل علامات الألم والخوف مثل القفز هنا وهناك ، والصراخ، والتبرز ، وبعد تكرار الصدمة الكهربائية فى هذه الغرفة أصبح كل فأر يعانى هياجاً انفعالياً كلما وضع فى الغرفة بغير أن يسلط عليه التيار الكهربائى، أى أن الفيران كلها اكتسبت خوفاً شرطياً من تلك الغرفة ، ثم تعلم كل فأر استخدام باب كوسيلة للهرب إلى الغرفة الثانية حيث لا صدمات كهربائية مطلقاً ، وبعد محاولات عددها مئات المرات ، اكتسب كل فأر خاصيته الشرطية بالهرب خلال الباب إلى الغرفة (ب) كلما وضع فى الغرفة (أ) حتى ولو لم يسلط عليه أى تيار ٠ وعندما أغلق الباب وزود الصندوق بمهرب آخر تعلمت الفيران استخدام هذا المهرب

الجديد كوسيلة للهرب . وتبين هذه التجربة أن الفيران لم تكتسب الخوف من الغرفة التى صدمت فيها كهربائياً فحسب بل تبين أن الخوف أصبح دافعاً مكتسباً : فقد هربت كل الفيران من الغرفة التى كانت متوترة ومتهيجة فيها إلى الغرفة التى أحست فيها بالارتخاء والراحة وكانت الغرفة الآمنة مكاناً جذاباً للتخلص من الخوف . وهكذا فإن الخوف المثار والدافع نحو إزالة الخوف لا يختلفان عن الجوع المثار والدافع نحو اشباع آلام الجوع ،ويعتقد كثير من علماء النفس أن هذه المخاوف المكتسبة وما يتصل بها من حالات القلق تشكل جزءاً كبيراً من الدوافع البشرية .

ثالثا : القلق .

القلق حالة تماثل الخوف تماما ، وهى مثله لها نتائج دافعه . والقلق قبل كل شىء حالة خوف واضطراب وهو نوع خاص من الخوف ، فاذا كان الخوف العادى ينصب دائما على شىء يكون محلا له فان القلق خوف غامض لا محل له ولذلك كان من معانى القلق أنه خوف مبهم ولعل هذا هو اشهر معنى له بين علماء النفس (١١) .

وللقلق أهمية كبرى بوصفه عاملا من العوامل المحددة لسلوك الانسان وذلك بسبب أنه يؤدى إلى الوان من السلوك التى تتعارض مع اشباع الدوافع المختلفة . فكيف يبدأ القلق ؟ وما الذى يحدث هذا الشعور الحاد بعدم الارتياح والعرق والارتعاش وغير ذلك من مظاهر القلق ؟ (٣) . الواقع أن القلق يعمل على اكتساب كثير من التعلم الاجتماعى . فالطفل يتعلم طاعة والديه ويقبل الآراء التى يقبلانها بسبب القلق . اذ قد يصيبه الحرمان من الطعام والحمايه والحب ، أو قد يعاقب إذا لم يطعها أما إذا اتخذ هذه الانماط المقبولة من السلوك فسيظل محبوبا ومتمتعا بالحماية (١٦) وبعد ذلك يبذل الطفل جهودا قوية للوصول إلى تلك الأهــداف إذا تهدده القلق ، ويثير القلق نفس التوترات الفعلية التى يثيرها الخوف ، ومجرد وجود التوترات هذه أمر مؤلم يدفع الانسان ليفعل شيئاً ما ، فاذا لم يتمكن من اتخاذ استجابة مناسبة — كما لو جهل الانسان المصدر الحقيقى لقلقه — فقد يتمكن من تعلم أساليب عامة ومتنوعة من

السلوك تفيده كصمام للامن · ومن هنا مثلا يكون مص الابهام فى الطفل طريقة لانقاص التوتر والقلق ·

والآثار النفسية للخوف والقلق تسير بوجه عام على التوازى مع آثار الغضب ، فقد اتضح من نتائج التجارب المعملية أن هذه الآثار تشمل سرعة ضربات القلب وزيادة ضغط الدم وتمدد انسان العين وتوتر عام فى العضلات واضطراب الهضم وزيادة افراز الغده الادرنياليه وكل تلك الآثار تتطابق مع نمط تنبه الجهـــاز العصبى السمبتاوى (١) ·

ويتعرض الطفل فى مراحل نموه إلى كثير من المواقف والخبرات التى تستثير فيه الخوف وتغرز فيه بذور القلق ، فالقيود التى تفرض عليه بحكم ضعفه وحاجته للغير تشعره بهذا الضعف ، وهذه الحاجة والنتيجة الحتمية هى شعوره بهذه القيود وشعوره بانه ليس حرا فى نفسه ، وقد يكون هذا الشعور أكثر مما تحتمله ذاته فينمو الطفل مهددا بالعقاب الذى تفرضه عليه هذه القيود إذا خرج عليها ، والخوف من العقاب يستثير القلق الذى يصبح دافعا لتحاشى هذا العقاب · والتوتر الناجم يدفع الفرد إلى ازالته فيكون سلوكه فى حدود تجنب العقاب · وهكذا يجبر الفرد على مراعاة العرف الاجتماعى عن طريق التهديد الذى يوجه إلى امنه وسلامته ، هذا التهديد الذى يجعله قلقا (١١) إذا أهمل مراعاة العرف · أى أن تنفيذ ومراعاة الكثير من التصرفات المقبولة التى يحث عليها المجتمع انما يكفله التهديد بالقلق . فتصبح الضوابط الخارجية ضوابط داخلية ، ويحس الانسان بالراحة والاطمئنان إذا تصرف بالطريقة التى يراها الطريقة المثلى الواجبة ، لأن أى اتجاه نحو التصرف خلافا لذلك يجعله يحس بالذنب ويثير القلق فى نفسه ·

رابعاً الحب والكراهية

أبرزنا فى حديثنا عن الغضب والخوف فكرة أن كلا الانفعالين هما استجابتان

لإحباطات الدوافع الأساسية ، وفى حالة الغضب تتركز الطاقة الزائدة على الهرب من موقف الخوف الوشيك وعلى ذلك فهما وسيلة وقائية للتوازن الذاتى والصحة البيولوجية لدى الكائن ، غير أن الحب يختلف عنهما فى النوع لأنه يتضمن أساساً تركيز مشاعر إيجابية قوية على شخص بعينه (١٦) ·

وتبدو انفعالات الحب على الطفل الصغير بوضوح فى شكل سلوك تعبيرى من التقبيل والربت والاحتضان ثم تتحول تدريجياً إلى تعبير لفظى (٨) .

والكراهية مثلها مثل الحب تماماً تتضمن طاقة انفعالية كبيرة،وتظهر الكراهية فى المواقف التى تثير مشاعر سلبية تجاه الأفراد والأشياء والأماكن · والجوهر الأساسى فى انفعال الكراهية يتضمن الرغبة فى تحطيم الشىء المكروه ، ذلك أنه يختلف اختلافاً كبيراً عن مجرد عدم الرغبة فى شىء ، فنحن عندما نرفض شيئاً ما لا يعنى ذلك بالضرورة أننا نكرهه ويقتصر سلوكنا فى هذه الحالة على تجنبه ، أما الكراهية فهى تتضمن الرغبة فى تحطيمه أو الابتعاد عنه تماماً (١٤) ويمكن كذلك أن ينتقل الحب من الشىء الأصلى إلى بديل له أو إلى رمز شأنه فى ذلك شأن الخوف والغضب ·

ويقترن الحب بنشاط القسم البارا سمبثاوى من الجهاز العصبى الأوتوى بينما يقترن الخوف والغضب بالجزء السمبثاوى ، وهذا يعنى أنه عندما يسيطر انفعال الحب تكون الأحوال الفسيولوجية للجسم فى سلام نسبياً ، ويمكننا ملاحظة ذلك على وجه الخصوص فى حالة الطفل الخائف ، فعندما يجرى هذا الطفل إلى أمه ويتلقى لمساتها وحنانها وحمايتها يذهب توتر استجابات الخوف ويعود التناسق ·

الانفعال وخفض التوتر : أبرزنا فى حديثنا حتى الآن أن كل سلوك مدفوع يعمل على خفض التوتر فالحيوان الجائع يطلب الطعام ، وعندما يأكل يأخذه النوم ، ويبدو أن جميع الدوافع لها أساس من التوتر مما يدفع الكائن إلى محاولة إزالته · ويبدو هذا النمط من التصرف فى الانفعالات ، فالاقتراب من الهدف (فى حالة الحب مثلا) والابتعاد

عنه (فى حالة الخوف) يجلب التخلص من التوتر وعدم الارتياح ، ورغم أن التوتر قد يستمر لفترة من الزمن ، وفى الغضب قد ينخفض التوتر بالهجوم على الشىء وأن استحالة ذلك قد تفيد استجابات بديلة فى تخفيضه .

ويجب ملاحظة أن التوترات الانفعالية يمكن أن تبقى مدة أطول كثيراً مما ينتظر أن تبقاه التوترات الجسمية ، فمثلا قد يظل إنسان يكره آخر لسنوات طويلة ، وقد تظل المخاوف باقية طوال الحياة . وقد لاحظنا عند حديثنا عن الجوع مثلا أن الكائن يتحرك سريعاً من مرحلة الاتزان الذاتى البسيط حيث يدفع الجوع إلى البحث عن الطعام إلى أن يتوقع الجوع وكيفية الاستقرار البيولوجى فيتعلم أن يجعل الطعام فى متناول يده وعندما يقع نظره على الطعام يدركه على أنه طريقة للتخلص من التوتر حتى قبل أن يحدث التوتر فعلا ثم يتبع ذلك جهد قوى للحصول على الطعام[16] أى أن غرض الانفعال تكون له قوة جذب ، فالشخص المحبوب له قوة جذب شديدة ، والأشياء المخيفة والمكروهة لها قوة جذب سالبة فحينما قابلت مثل هذا الشىء أحس بتوتر لا يمكن التخلص منه إلا بالابتعاد عن المنبه الانفعالى الذى أثار هذا النمط الداخلى .

والواقع أن خفض التوتر الانفعالى هو القوة الدينامية فى أكثر سلوك الإنسان اليومى ، إذ أن الحب والامتنان والشوق كلها حالات إيجابية تؤثر على كثير من تصرفاتنا وتوجهها ، فنحن نحاول الاقتراب من الأشياء والأشخاص والمواقف التى تثير هذه الانفعالات كما تبذل كثيراً من الطاقة للابتعاد عما يثير انفعالات الخوف والغضب والعدوان والقلق والواقع أنه يجب فهم هذه التوترات فهما عميقاً إذا أردنا أن ندرك حقيقة سلوك الإنسان .

شدة الانفعال كأسلوب تكيفى : تتفاوت الاستجابات الانفعالية من الارتياح البسيط إلى الفزع الشديد الكامل [11] والانفعالات الهادئة لها آثار مقوية ، فنحن نحسن العمل عند اهتمامنا به وعندما يكون لدينا بعض الحماس لما نعمله . وإحدى نتائج الانفعال الهادىء زيادة معتدلة فى عمل الوظائف الفسيولوجية المعتادة ، ويحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى زيادة طفيفة فى التوتر العام ، ونحن نعلم أن الزيادة المعتدلة فى

التوتر تساعد التعلم . وقد اتضح هذا المبدأ من تجارب كورتس[19] حيث كان يطلب من الأشخاص رفع ثقل معين أو الضغط على ديناموميتر وهو يقوم بعملية تذكر وقد اتضح من تجارب كورتس أن التذكر يكون أفضل تحت التوتر المعتدل أما إذا ما زاد التوتر عن هذا القدر وكذلك إذا قل عنه أصبح معطلا لجودة وأداء العمل .

فإذا كان الانفعال الهادىء ينتج توترات مماثلة فقد يساعد على التعلم . والنتيجة الثانية للانفعال الهادى الذى يشترط أن يكون مناسباً للعمل . هى أنه يزيد من أهمية الواجب ومعناه وقيمته[11] وبدون الصبغة الانفعالية يصبح النشاط كئيباً وبغير معنى ولا يلبث أن يتخذ لوناً مملاً .

والانفعالات الشديدة تلعب دوراً وهى تتراوح بين الحالات غير السارة مثل الغضب والخوف ، والحزن ، إلى الحالات السارة مثل البهجة والحب ، وإذا تركت الانفعالات الشديدة تأخذ طريقها فى حرية فقد لا يحدث منها ضرر ، وقد تزيد لذة الحياة ، ولكن فى بعض الأحيان تحدث مواقف تمنع الانفعالات من أن تجرى فى سبيلها وعندئذ ينشأ القلق والتوتر المرتفع ويحدث كل أنواع التدمير الممكن نتيجة لإرتفاع درجة التوتر والقلق وقد تبينا أثر التوتر المرتفع فى أحداث اضطراب فى السلوك وفى التعلم كما يتبين أثره كذلك على حل المشكلات فى تجارب عديدة نوضح منها التجربة الآتية التى اشترك فيها تلاميذ بالمدرسة الابتدائية ، وكانت التجربة مكونة من ثلاث مراحل فى المرحلة الأولى أخـــذ كل تلميذ شكلاً مختصراً من اختبار ستانفورد بينيه للذكاء ، وفى المرحلة الثانية اشتغل كل تلميذ فى حل مسائل يكافأ الناجح منها بجائزة ولا يعطى الفاشل شيئاً . وقد أعد الاختبار بحيث ينجح فيه نصف التلاميذ ويفشل نصفهم الآخر . وكان الناجحون مبتهجين لنوالهم جوائزهم والفاشلون مبتئسين لفشلهم . وتكونت المرحلة الثالثة من إعادة اختبار الذكاء واتضح من النتيجة أن الأطفال الذين فشلوا فى المرحلة الثانية من التجربة قد نقصت قدرتهم على حـل اختبار الذكاء بسبب فشلهم السابق .

ملخص

١ — الحالات الانفعالية تتراوح بين الحالات الخفيفه من الارتياح وعدم الارتياح التي تصاحب كل سلوكنا تقريبا إلى الحالات الشديدة التي تسمى عادة بالانفعالات ويمكن تصنيف الحالات الشديدة إلى حالات سارة مثل الفرح والحب وغير ساره مثل الغضب والخوف والحزن .

٢ — الحالات الانفعالية كما تمارس فى الحياة العادية معقده والتمييز بينها بدقة أمر صعب من مجرد مشاهدة التعبيرات الخارجية فقد تبينا من الدراسات على العمليات البدنية أثناء الانفعال وجود تغيرات واسعة النطاق مشتركة فيما بين الانفعالات الشديدة كلها ورغم ذلك فقد استطاع علماء النفس التوصل إلى عدة أساليب ناجحة لقياس وتحديد الحالات الانفعالية .

٣ — يحدث التطور الانفعالى من خلال النضج والتعلم ، فكلما كبر الطفل يصبح الهياج غير المحدد الذى كان يلاحظ عند ولادته متمايزا إلى حالات انفعاليه متباينه، ويتدخل التعلم فى تحديد انماط التعبير عن الانفعالات ، وكذلك فى تشكيل صورة الانفعال بحيث تطابق النمط المقبول فى المجتمع .

٤ — تبين أن الانفعالات تؤدى وظيفة الدوافع أو الأهداف أو هى مصاحبة للسلوك المدفوع ، فان انفعالات مثل الخوف والقلق تعمل كدوافع لأنها حالات توتر تتطلب الانفراج بواسطة اسلوب مناسب يتفق مع الحاجز .

٥ — تؤدى الانفعالات وظيفة المصاحبات للسلوك المدفوع فى اثناء النشاط الموجه إذا احبط هذا النشاط أو حدثت له عقبة .

٦ — قد تكون الانفعالات مفيدة وقد تكون ضارة ، فقد تعين على التوازن السهل الميسر وحل المشكلات والتذكر وقد تعوق ذلك ، فبعض التغيرات الفسيولوجية المعينة المصاحبة للانفعال تنشط الكائن للعمل وتعمل كاستجابات طوارىء . فالانفعالات الهادئة تقوى وتعين أما الحالات الانفعالية الشديدة فتثبط وتؤدى للاضطراب .

المراجع

(١) جلال ، (س .) المرجع في علم النفس . القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٦٣ .

(٢) سلامة ، (ا . ع) ، جابر (ع . ج) سيكولوجية الطفولة والشخصية ، القاهرة : النهضة العربية ١٩٧٠ .

(٣) فائق (ا . ف) ، مدخل إلى علم النفس ، القاهرة : الأنجلو ، ١٩٦٦ .

(٤) فائق (ا . ف) ، عبدالقادر (م .) مدخل إلى علم النفس العام ، القاهرة : الأنجلو ١٩٧٢ .

(5) Barker, R. G. Dempo, Tamara, Lewin, K, Frustration & regression, in, Barker, R. G, Kounin, J. S, Wright, H. F. (eds.), Child Behavior & Development, New York : McGraw-Hill, 1912, 441 - 458.

(6) Edwards, D. C. general psychology, London : Collien Macmillan 1958.

(7) English, O. S, Pearson, G. H. Emotional Problems of Living London : W. s. Warten, revised edition, 1958.

(8) Garrett, H. E, genercel psychology, Wew delhi : eu P. H. 2 ed ed., 1958.

(9) Guilford, J. P. general Psychology, London : chapman Hall, 1939.

(10) Hilgard, E. R. Introduction to psychology, New York : Harcourt Brace, 2 end ed., 1957.

(11) Hilgard, E. R. Introduction to psychology, New York : Harcourt B race, 3 rd ed., 1962.

(12) Hillman, J. Emotion, London : Routledge, Kegan, 1960.

(13) Koffka, G. Principles of Gestalt Psychology, London : Kegan paull, 1935.

(14) Krech, 13. Crutchfield, R. S. Elements of psychology, New York : Alfred. A. Knopf, 1958.

(15) Langner, T. S. Michael, S. T. Life stress & mental health. London : Collier—Macmillan. 196?.

(16) Stagner. R. Karwoski. T. F. Psychology. New York : McGraw Hill. 1952.

(17) Stevens. S. S. (Ed.). Hand Book of experimental psychology. New York : Wiley. 1951.

(18) Woodworth. R. S. Schlosberg. H. Experimental psychology. London : Methuen. Co. L T D. revisededd. 1954.

(19) Yound. P. T. Motivation & emotion. New York : wiley 1961.

الباب الثالث

العمليات العقلية العليا

١ — سيكولوجية اللغة	د. محمد فرغلى
٢ — العملية الابداعية	د. عبد الستار ابراهيم
٣ — سيكولوجية التذوق	د. محمد فرغلى

الفصل الأول

سيكولوجية اللغة

قال أرسطو « إن الانسان حيوان ناطق » والواقع أن اللغة هى أهم ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية . واللغة هى أساس الحضارة البشرية ، فعونها نفكر ونشعر ونحكم على الأمور ، وبها تنتقل خبرات الأجيال وأحلامها وحكمتها من جيل إلى جيل . ومن خلال اللغة يمكن لمن أدركه الموت أن يشارك فى تعليم الأحياء، ويتحول الانسان من كائن بيولوجى محدود العمر إلى الإنسان، الشخصى التاريخى . كما تمكن اللغة من توصيل المعانى ومن المشاركة فى الخبرات بين الناس ، بما يمكنهم من تكوين مجتمع دائم ومن خلق ثقافة مميزة (٤). فاللغة إذن هى العمود الفقرى للحضارة الانسانية وهى ما يجعل الانسان إنساناً .

« وعندما نقول إن اللغة ظاهرة إنسانية فريدة ، فإننا لا نعنى بذلك أنه لا يوجد تواصل لدى الحيوانات الأدنى من الانسان . فالواقع أن التواصل يحدث فعلا بين الحيوانات والطيور . فالنحل مثلا يوصل الموقع الذى يوجد به الطعام عن طريق القيام برقصة معينة . كذلك عند رؤية الطائر الصغير لأحد الأعداء فانه يصيح بطريقة تحذر الطيور الأخرى من الخطر ... وإذا كان لديك كلب أليف ، فربما لاحظت فى أوقات حرجة معينة أن الكلب يعطيك اشارة بطريقة تجعلك تفهم أنه يحتاج إلى الخروج . فمثلا قد يقف عند الباب ويعوى . وهذا أيضا اتصال ، وفى هذه الحالة نلاحظ أن سلوك الكلب سلوك متعلم وليس فعلا منعكساً . كذلك فإن الشمبانزى فيكى Vicki التى تم تربيتها من الصغر فى بيت عائلة هايز ، تعلمت فعلا ثلاث كلمات هى : ماما ، وبابا ، و كوب Cup . على أنها كانت تستخدم الأصوات الثلاثة بدون تمييز عندما تكون فى حالة ضيق.

واللغة الانسانية ظاهرة فريدة ليس لأنها تسمح بالاتصال أو لأنها متعلمة . بل إن لها ملامح خاصة هي :

١ — العناصر الكثيرة التي يمكن ربطها وأعادة ربطها بطرق كثيرة متنوعة .

٢ — وجود قواعد نحو تحدد قواعد الربط .

٣ — العلاقة المعقدة بين الكلمات التي تتألف منها اللغة وبين عالم الواقع ، وهي العلاقة التي نسميها بالمعنى (8) .

فاللغة إذن ظاهرة انسانية فريدة ، هي أهم ما يميز الإنسان ، وهي العمود الفقرى لقيام المجتمع الانساني والحضارة الإنسانيه .

وعندما يهتم عالم النفس بدراسة اللغة فإنه يتناولها من زاوية تختلف عن الزاوية التي ينظر منها علماء الأدب واللغة . فهو لا يركز اهتمامه على القواعد النحوية أو شروط البلاغة ، ولا يقوم بتأليف القواميس التي تحصى الشارد والوارد .

يتناول عالم النفس اللغة من عدد من الزوايا السيكولوجية الهامة . فيدرس كيف تصبح الأصوات والحروف رموزاً ترمز لأشياء في العالم الخارجي ، وكيف يكون الإنسان المفاهيم التي تندرج تحتها الأشياء ، وكيف تنمو اللغة لدى الطفل ، وكيف تؤثر اللغة على شخصية الإنسان ، وكيف تعكس لغة الحدث شخصية صاحبها ويحاول عالم النفس أن يقيس المعنى قياساً دقيقاً ، ويعزل الأبعاد الأساسية للقدرات اللفظية ويصمم الاختبارات التي تقيس هذه القدرات اللفظية . هذه بعض الاهتمامات اللغوية التي تشد اهتمام عالم النفس ، والتي سنعرض لبعض منها . ولعلم النفس دور كبير في دراسة اللغة من خلال تحليله لهذه الجوانب المختلفة . وكما يذكر أوجدن وريتشاردر [٩] فإن تحليل عملية الاتصال عمل سيكولوجي .. وقد وصل علم النفس إلى مرحلة يمكن عندها القيام بهذه المهمة بنجاح .

وظائف الكلمات :

يناقش كريتش وزملاؤه الوظائف التي تؤديها الكلمات فهي تؤدى وظيفتها

بثلاث طرق : تؤدى وظيفتها كرموز للأشياء وكصفات للأشياء وكأشياء فى حد ذاتها (٦) .

الكلمات كرموز :

يقال عادة إن الكلمة رمز ، أى أنها شىء يمثل أو ينوب عن شىء آخر . فكلمة « كرة » ليست هى نفس الشىء الذى يطلق عليه هذا الاسم . والعلاقة بين الاسم والمسمى علاقة تعسفية كان من الممكن ألا تقوم ، وكان من الممكن أن تكون أسماء الأشياء غير ما هى عليه . وعندما نقول أن الكلمات رموز تنوب عن الأشياء فى عملية الاتصال الاجتماعى ، فإننا نعنى بذلك أن الكلمة يمكن أن تستثير أرجاعاً تتصل بذلك الشىء الذى تسميه . فعندما نسمع أو نقرأ كلمات مثل : وردة ، حريق ، ظلام ... تثير فينا إحساسات أو أرجاعاً قريبة جداً من الاحساسات التى تثيرها الأشياء الأصلية. ويتضح ذلك عندما نركز خيالنا فى تصور خصائص الشىء الذى توحى به الكلمة . ولعل ذلك هو ما يؤدى بالأقوام المتخلفين إلى الاعتقاد بأن للكلمة قوة وسحراً وأنها وما تسميه شىء واحد . وبناء على ذلك يقومون بعمل السحر الذى ما هو إلا مجرد رموز يظنون ـ خطأ ـ أن لها قوة وتأثيراً من خلال القوى الغيبية .

والواقع أن الرابطة بين الاسم والمسمى أمر يرجع إلى الاتفاق الاجتماعى . فالمجتمع فى وقت من الأوقات ـ خلال تاريخه ـ اتفق على أن يرمز بكلمة معينة إلى شىء معين . كأن ترمز كلمة شجرة إلى ذلك الشىء المسمى بذلك الاسم ، أو أن ترمز كلمة تلفزيون إلى ذلك الشىء الذى أطلق عليه الاسم .. وهكذا . « فالكلمة تنوب عن الشىء الذى اتفقنا على أن تنوب عنه ، وليست هناك أية علاقة ضرورية بين الكلمة والشىء ... ولكن ما أن يتفق أحد المجتمعات على أن تكون كلمة معينة دالة على شىء معين ، فإن الارتباط بينهما يميل لأن يصبح ، بالنسبة لأعضاء المجتمع ، رابطة ضرورية سيكولوجياً ، فنحن نميل لأن نشعر بأن كلمة « الرصيف » مثلا هى الكلمة الصحيحة الوحيدة التى تشير إلى ذلك الشىء . وأى كلمة أخرى مثل « الممشى الجانبى » تبدو لنا كلمة غير ملائمة . كذلك فإن الرابطة بين الكلمة

والشيء تصبح ضرورية اجتماعياً . فأعضاء المجتمع مقيدون باستخدام الكلمة التي التي اتفق عليها . وأي استخدام مخالف قد يستهوى أحد الأفراد لكلمة أخرى في تسمية الشيء يؤدى إلى تعطيل الاتصال وتعويق الفرد عن تعريف الآخرين بحاجاته .(٦)

إذن فالكلمات رموز تشير إلى الأشياء ، وهى رموز يتفق عليها المجتمع ويلتزم الأفراد باتباع ما اتفق عليه إذا أرادوا أن يتم التواصل بينهم وبين غيرهم من أفراد المجتمع على الوجه الأكمل . ولكننا نحب هنا أن ننبه إلى نقطتين : أولاهما : أنه ليس معنى أن المجتمع اتفق على استخدام رمز معين للاشارة إلى شيء معين أن هذه الرابطة ثابتة لا تتغير . بل إن هذه الرابطة قابلة للتغير ، فمن الممكن أن تتغير دلالات الكلمات مع مرور الزمن ، ولكن هذا التغير محدود ويتم أيضاً بالاتفاق الاجتماعي .

النقطة الثانية : أن المجتمع قد يستخدم نفس الرمز للاشارة إلى أكثر من شيء واحد . ولذلك قد تتغير معاني الكلمات حسب السياق الذى توجد فيه هذه الكلمات .

الكلمات كصفات للأشياء :

يذكر بياجيه Piaget وفايجوتسكي Vigotsky أن الأطفال كثيراً ما يدركون أن اسم الشيء صفة للشيء لا يمكن فصلها عنه . فهم يرون أن اسم الشيء جزء من الشيء نفسه مثله في ذلك مثل الحجم واللون والشكل . وأن الاسم والشيء المسمى هما نفس الشيء .

وهذا الميل لا يقتصر على الأطفال . بل نجد أيضاً أن البدائيين والجهلاء من الناس يعتقدون أن ممارسة السحر على اسم الشخص تؤدى إلى إصابته بالضرر . ولذلك يعمد البدائيون إلى إخفاء أسمائهم أو أسماء أمهاتهم وآبائهم حتى لا يعمل عليها السحر ، ويجلب لهم الأذى والضرر .

وهذا الاعتقاد الخرافى في وجود علاقة مباشرة وضرورية بين الشيء والكلمة ،

يعتبر مصدراً لكثير من الصعوبات واختلاط التفكير . والنظرة العلمية الواقعية ترفض هذه النظرة وتعتبر أن الكلمات إنما هى رموز للأشياء اتفق المجتمع — خلال تاريخه الماضى — على الربط بينهما . على أن عالم النفس وعالم الاجتماع عندما يدرس التفكير لدى الجمهور العريض يجد هذا التصور البدائى كثير الشيوع بين أفراده خاصة منهم الأميون .

الكلمات بوصفها أشياء :

تعتبر الكلمات من ناحية أخرى جزءاً من العالم الواقعى الذى يعيش فيه الإنسان . فيدرك الفرد الكلمات على اعتبار أنها أشياء موجودة فى حد ذاتها ويستجيب لها بطريقة مباشرة . فنحن عندما نسمع كلمة معينة نشعر بنفس المشاعر تقريباً التى يثيرها فينا الشىء الأصلى المرتبط بالكلمة . وعندما نسمع صوتاً مرتفعاً مفاجئاً نستجيب فوراً لهذا الصوت نفسه ، وليس لمجرد أن الصوت رمز لشىء آخر . وعندما تصل إلى أسماعنا كلمة أو جملة نستجيب لهـا مباشرة وفوراً على النحو الذى نستجيب به لأى شىء آخر فى عالم الواقع . ولعل هذا هو منشأ التفاؤل أو التشاؤم الذى يحدث للناس عندما يستمعون لكلمات عابرة من حولهم ، فيقولون : « هذا فأل حسن » أو « فأل سىء » . كذلك عندما نستمع لكلمات أخرى تقال لنا فإنها تتجسم فى مخيلتنا ، وتثير فينا نفس المشاعر والإحساسات التى تحدث لو كنا بإزاء الشىء نفسه الذى تشير إليه . فوظيفة الكلمة هنا بالنسبة لسلوك الفرد تشبه وظائف الأشياء الواقعية الأخرى بالنسبة لسلوكه . فالكلمة شىء يستمع الفرد له ويتوافق معه . ويشبه كريتش وزملاؤه الكلمة بسيارة مسرعة على الفرد أن يستمع لها ويتوافق معها ، كما أنه يستخدم الكلمات فى حديثه ويوجهها كما يوجه قائد السيارة عربته .

وعندما نستمع إلى الأساطير والقصص الخرافية مثل « ألف ليلة وليلة » أو « أليس فى بلاد العجائب » ، فإننا نعيش بكل مشاعرنا وانفعالاتنا وإحساساتنا ، وبالمخاوف ، والتمنيات ، والآمال مع شخوص الأسطورة . وماهى إلا كلمات ، لكننا نعيشها كما لو كانت واقعاً حقيقياً نابضاً بالحياة من حولنا .

بل إن البعض يرى أن تغيير عالم الكلمات الذى يعيش فيه الفرد يمكن أن يغير سلوك الفرد . فأيهما يؤدى إلى تحضير أحد الأفراد أو أحد الشعوب : أن نضع له كل وسائل التكنولوجيا الحديثة كالسيارة والطائرة والثلاجة والشوارع المرصوفة أم نغير حصيلة الكلمات لديه ، أى نضيف إلى فكره الكلمات التى تتكون منها الحضارة . فالحضارة عالم ضخم من الرموز والكلمات إذا أدركها فرد كان أسرع إلى التحضر مما لو وضعناه بين كل نتاجات الحضارة دون أن تدخل فى ذهنه الأساس الضخم للحضارة وهو فى جملته تراث من الرموز والكلمات تتناقلها الأجيال ويضيف إليها كل جيل ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولذلك فمن الممكن أن تكون اللغة أكثر كفاءة فى تغيير اتجاهات الفرد ، وحاجاته وانفعالاته وسلوكه .

وبذلك فإن الكلمات تؤدى وظيفة مشابهة للوظيفة التى تؤديها الأشياء الواقعية .

على أن هناك بعض الفروق الهامة بين الكلمات والأشياء ، لها دلالتها الخاصة بالنسبة لفهمنا لتأثير الكلمات على سلوك الفرد ، ولوظيفتها كأداة للاقناع . فالكلمات لا تحدها نفس الحدود المكانية والزمانية التى تحد الأشياء . فتستطيع بالكلمات أن تجعل الفرد يعيش فى عوالم مختلفة ويتأثر بها دون أن يتحرك من مكانه ، ولا أن يغادر زمانه للعصور السحيقة أو لعوالم المستقبل .

ويمكن أن يتغير عالم الفرد تغيراً كبيراً من خلال الكلمات والرموز . بل إن الكلمات يمكن أن تجعل الفرد يدرك أشياء لا يمكن إيجادها له فى الواقع ، أو يمكن وضع كلمات مختلفة إلى جانب بعضها فيدرك الفرد أشياء لا يمكن إيجادها متجاورة فى عالم الواقع . ولذلك كله فإن للكلمات قوة وتأثيرا على الفرد ، على مشاعره واتجاهاته وسلوكه .

على أننا نلاحظ هنا أهمية السياق الذى تقال فيه الكلمات فى تحديد مدى تأثيرها ونوع هذا التأثير . فتأثرنا بالكلمات وانطباعنا بها يتوقف على مصدر هذه الكلمات ومدى اقتناعنا به أو احترامنا له واعتقادنا فى صدقه ، وموقفنا منه وهل هو موقف معاد أم موقف ودى(٧) .

معنى المعنى :

يعرف كريتش وزملاؤه الاتصال الاجتماعى بأنه تبادل المعانى بين الناس وبأنه يتم أساساً من خلال اللغة(٦) . وقد شغلت مشكلة «المعنى» اهتمام الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور . وكما قال أحد المفكرين : « لم تكن هناك أسئلة أثارت بحوثاً جادة ، وصخباً ... أكثر من الأسئلة التى دارت حول صلة الكلمات بالوقائع . وبمجرد ذكر كلمات مثل «الدين» و «الوطنية» و « الملكية » يكفى لتوضيح هذه الحقيقة . والآن نجد أن دراسة طبيعة العلاقة بين الكلمة والواقع ، هى المشكلة الحقيقية والكبرى لعلم المعنى » .(٩)

وتحظى مشكلة المعنى بالاهتمام البالغ من علماء اللغة والفلاسفة وعلماء الإنسان وعلماء النفس . والواقع أن هذه المسألة لقيت الاهتمام الكبير من علماء النفس ، واهتموا بتحليل المعنى ، وقياسه ، ودراسته دراسة تجريبية دقيقة .

ويمكننا النظر إلى الكلمات على اعتبار أنها سلوك ، مثلها فى ذلك الوقت مثل أى سلوك آخر يصدر عن الفرد . « فالكلمات منبهات واردة للمستمع أو القارىء ، وهى استجابات صادرة عن المتكلم أو الكاتب» .(٨)

الكلمة إذن أو الجملة هى رمز يحمل وراءه دلالة ومعنى . ونحن نستخدم السلوك اللغوى فى تناقل المعانى بيننا وبين الآخرين ، وفى محاولة نقل صور معينة أو مشاعر أو أفكار إليهم ، أو فى محاولة التأثير عليهم .

ويميز كثير من المفكرين بين نوعين من المعانى :

١ — المعنى الإشارى (*)

٢ — المعنى الدلالى (**)

والمعنى الإشارى هو ما تشير إليه الكلمة ، أو بعبارة أخرى هو الشىء المعين الذى تشير إليه الكلمة .

(*) المعنى الإشارى : Denotative

(**) المعنى الدلالى : Connotative

وتعتبر لغة العلم والرياضة لغة إشارية ، فالعلم يحاول أن يبنى لغة يكون لمصطلحاتها معان إشارية ثابتة .

أما فى اللغة العادية فإن معظم الكلمات لها — إلى جانب المعنى الإشارى — معان دلالية. ويشير المعنى الدلالى إلى تلك الأفكار والمشاعر ونزعات التصرف التى تحيط بالكلمة ، وإلى العناصر الضمنية والاتجاهية للمعنى [٩] .

فمن الممكن أن تكون لدينا كلمتان لهما نفس المعنى الإشارى ، ومع ذلك تختلفان اختلافاً كبيراً فى المعنى الدلالى .

ولنأخذ مثالاً طريفاً يوضح لنا ذلك . فى مناقشة مع أحد الزعماء العرب سأله المثقفون عن رأيه فى وضع المرأة وما عليها من واجبات وما لها من حقوق . وبدأ يشرح موقفه ، واستخدم فى شرحه الكلمة العامية « مرة » ، وهنا عبر المثقفون عن اعتراضهم على هذه الكلمة ، وقالوا إن هناك فرقاً بين كلمة « مرأة » وكلمة «مرة» .

وإذا نظرنا فى هذا المثال نجد أن لدينا كلمتان تشيران إلى نفس الشىء، ولكنهما تختلفان فى الدلالات التى تنطويان عليها بعبارة أخرى ، فإن الكلمتان تتفقان فى المعنى الإشارى ولكنهما تختلفان فى المعنى الدلالى . والأمثلة كثيرة على ذلك ولنقارن مثلا كلمتى : خادم ، وشغالة أو مرحاض وتواليت ... الخ .. هذه الأمثلة كلها توضح أن هناك نوعان من المعانى : المعنى الإشارى ، أى ما تشير إليه الكلمة ، والمعنى الدلالى أى ما تنطوى عليه الكلمة من دلالات أخرى تصاحب المعنى الاشارى . وهذا المعنى الدلالى « يعبر عادة عن نوع من تقييم التفضيل ، وهذا المعنى يختلف من شخص لآخر » [٥] . فعندما نقول عن أحد الأشخاص أنه « ريفى » فإن ذلك يعنى إلى جانب الإشارة إلى إقامته بالريف ، أنه يتصف ببعض الصفات الأخرى كأن يكون أقل ثقافة أو أقل معرفة بأساليب الحضارة أو أنه خشن الطباع ، نظراً لقلة احتكاكه بحياة المدينة والحضر . وهذه المعانى الدلالية تشيع فى معظم أحاديثنا وقراءاتنا . وكثيراً ما تنشب المعارك والخلافات وسوء الفهم بين الناس بسبب اختلاف دلالات الألفاظ بين شخص وآخر . وكثيراً ما نرى الأشخاص يتعاتبون أو يتحاسبون ويحاول كل منهم أن

يشرح معنى الكلمة أو الكلمات التى تفوه بها وأدت إلى سوء الفهم . وقد يصحح الواحد للآخر فهمه لدلالة الكلمة، لكى يصلا إلى تحقيق الفهم المشترك. هذه هى المعانى الدلالية للكلمات ، وهى ذات أهمية بالنسبة لعلم النفس لأنها تشكل شبكة من المعانى فى ذهن الشخص يفهم من خلالها العالم ، وتؤثر على علاقاته مع الآخرين . وقد حاول علماء النفس الوصول إلى الوضوح والدقة فى فهم هذه المعانى الدلالية للكلمات ، وقام بعض العلماء بمحاولات لقياس هذه المعانى لدى الأفراد .

قياس المعنى :

اهتم علماء النفس بمشكلة المعنى الدلالى لكلمات اللغة ، واستفادوا بمهاراتهم فى القياس فى الوصول إلى طريقة لقياس المعنى الدلالى . وقد قام أوسجود Osgood بالاشتراك مع زملائه العلماء بابتكار طريقة لقياس المعنى الدلالى للكلمات . وتسمى هذه الطريقة « مميز المعنى »(*) .

وتعتمد هذه الأداة على تصور أن دلالة المفهوم تتكون من عدة عناصر ، وأن من الممكن قياس بعض العناصر الهامة التى ينطوى عليها معنى أحد المفاهيم . ويتم ذلك بعمل تقدير للمفهوم بالنسبة لعدد من الأبعاد ذات القطبين. وكل بعد هذه الأبعاد عبارة عن امتداد بين صفتين متقابلتين مثل : حسن — ردىء أو : قوى — ضعيف أو : إيجابى — سلبى... الخ . ويعتبر كل بعد منها مقياساً لمميز المعنى . ونقدم فيما يلى مثالاً للأسلوب الذى يتبعه أوسجود فى دراساته ، حيث تكون التعليمات التى تعطى للاشخاص على النحو التالى : (٦)

تعليمات مقياس « مميز المعنى »

الهدف من هذه الدراسة هو قياس معنى أشياء معينة عند مختلف الناس ، وذلك بأن يطلب منهم الحكم على هذه الأشياء

(*) مميز المعنى : Semantic Differential

اعتماداً على عدد من المقاييس الوصفية. وعند أدائك لهذا الاختبار، نرجو منك أن تعمل أحكامك على أساس ما تعنيه هذه الأشياء بالنسبة لك . سوف تجد على كل صفحة من الصفحات التالية مفهوماً مختلفاً مطلوب الحكم عليه . وأسفل هذا المفهوم يوجد عدد من المقاييس. وعليك أن تقوم بتقدير المفهوم على كل مقياس منها بالترتيب .

وفيما يلي الطريقة التي عليك إتباعها في استخدام هذه المقاييس: إذا شعرت أن المفهوم الموجود بأعلى الصفحة يرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً بإحدى نهايتي المقياس ، فعليك أن تضع العلامة على النحو التالي :

حسن ___ : ___ : ___ : ___ : ___ : ___ : _X_ سيء

أو

حسن _X_ : ___ : ___ : ___ : ___ : ___ : ___ سيء

أما إذا شعرت بأن المفهوم يتصل اتصالا وثيقاً بإحدى نهايتي المقياس (ولكن دون تطرف ، فعليك أن تضع العلامة على النحو التالي :

قوى ___ : _X_ : ___ : ___ : ___ : ___ : ___ ضعيف

أو

قوى ___ : ___ : ___ : ___ : ___ : _X_ : ___ ضعيف

أما إذا بدا لك أن المفهوم يتصل اتصالا قليلا بأحد الطرفين أكثر من الطرف الآخر (ولكنه ليس محايداً) ، فعليك في هذه الحالة أن تضع العلامة على النحو التالي :

نشط ــــ : ــــ : ـــ : ــــ : X : ـــ : ــــ سلبي

أو

نشط ــــ : ــــ : ـــ : X : ـــ : ــــ : ــــ سلبي

وبالطبع ، يلاحظ أن اتجاه العلامة التى تقوم بوضعها يعتمد على مـدى كون أحد الطرفين أقرب إلى وصف الشىء الذى تحكم عليه .

أما إذا اعتبرت أن المفهوم محايد على القياس ، أو أن كلا الجانبين من المقياس يتصلان بالمفهوم ، أو أن القياس لا علاقة له إطلاقاً بالمفهوم ، فعليك فى هـذه الحالة أن تضع العلامة فى منتصف المسافة بين الطرفين .

آمن ــــ : ــــ : ـــ : X : ـــ : ــــ : ــــ خطر

ملحوظة :

١ — ضع العلامة فى منتصف الفراغات وليس فوق النقط الفاصلة .

هكذا   ليس هكذا

ــــ : ــــ : X : ــــ : ــــ X ــــ : ــــ

٢ — تأكد أنك وضعت علامة على كل مقياس ، وذلك بالنسبة لـكل مفهوم — لا تترك أياً منها .

٣ — لا تضع أكثر من علامة واحدة على أحد المقاييس .

وقد تشعر أحياناً كما لو كان نفس البند قـد مر عليك من قبل فى الاختبار . ولـكن لن يكون الأمر كذلك ، ولذلك نرجو عدم الرجوع إلى البنود التى سبق الإجابة عليها . ولا تحاول أن

تتذكر ما إذا كنت قد أجبت على بنود مشابهة من قبل فى الاختبار . ولتعط حكم مستقل ومنفصل على كل بند من البنود . الحل بسرعة . لا تتوقف كثيراً أو تتحير عند البنود الفردية . ما نريده هو انطباعاتك الأولى ، ومشاعرك الفورية . ومن ناحية أخرى نرجو عدم الإهمال أو التهاون، لأننا نريد انطباعاتك الحقيقية .

وقد لوحظ أن الأفراد لا يجدون صعوبة فى تقدير الكلمات على مميز المعنى .

ولقد افترض أو سجود أن المعنى الدلالى متعدد الأبعاد (*) بمعنى أن المعنى الدلالى لأى مفهوم ينطوى على عدد من عناصر المعنى . ولكى يتحقق من صحة هذا الفرض أجرى أو سجود وزملاؤه عدداً من الدراسات العاملية . وتعتمد هذه الدراسات على الأسلوب الاحصائى المسمى بالتحليل العاملى وبفضل هذا الاسلوب يمكن الوصول إلى الأبعاد الأساسية المشتركة بين المتغيرات أو المفاهيم . وقد أظهرت هذه الدراسات أن التقديرات التى يعطيها أحد المفحوصين للكلمة يمكن تلخيصها فى درجات على ثلاثة عوامل فقط هى :

١ — العامل التقويمى (**) : وهو يظهر بأوضح صورة فى المقاييس التى من قبيل: حسن — سىء ، سار — غير سار . . الخ .

٢ — عامل القوة (+) : وهو يظهر على أوضح ما يمكن فى المقاييس التى من نوع : قوى — ضعيف ، كبير — صغير . .

٣ — عامل النشاط (++) : ويظهر بأوضح صورة فى المقاييس التى من قبيل : نشط — سلبى ، سريع — بطىء . .

(*) متعدد الأبعاد : Multidimensional

(**) العامل التقويمى : evaluative factor

(+) عامل القوة : potency factor

(++) عامل النشاط : aclirity factor

وباستخدام هذه الأداة يمكننا التعرف على عناصر المعنى الدلالى للكلمات لدى الفرد . أى أننا نعرف ما هى دلالة الكلمة لديه . ويمكننا عندئذ أن نقارن بين دلالات الكلمة الواحدة لدى الأفراد المختلفين ، كما يمكننا المقارنة بين الجماعات الإجتماعية المختلفة من ناحية عناصر الدلالة لدى كل منها .

وقد استخدم هذا الأسلوب فى أغراض متعددة كقياس الاتجاهات نحو موضوعات أو مفاهيم معينة ، كما استخدم فى محاولة فهم وقياس شخصية الفرد .

وللتشابه فى دلالات الألفاظ بين الأفراد أهمية كبيرة فى حسن الفهم والتواصل الاجتماعى السليم . أما اختلاف هذه الدلالات فقد يؤدى إلى سوء الفهم أو الخلافات بل إن الاختلاف بين الجماعات فى دلالات الألفاظ قد يكون سببا أو نتيجة أو أمرا مصاحباً للصراع الاجتماعى أو الصراع الدولى . ولنتأمل فى الدلالات التى تعطيها الجماعات المختلفة لمعانى كلمات مثل : الحرية ، الديمقراطية ، الأمن ، السلام . . الخ .

السياق اللفظى والمعنى :

من المعروف أن السياق اللفظى الذى ترد فيه الكلمة يحدد معناها إلى حد كبير ولقد ذكرنا من قبل أن الكلمة الواحدة يكون لها فى العادة عناصر متعددة من المعنى الدلالى . والسياق الذى ترد فيه الكلمة يرجح للسامع أو القارىء نوع الدلالة التى عليه أن يفهمها . فالسامع عند فهمه لإحدى الكلمات الواردة فى حديث يسمعه من شخص آخر ، لا يأخذ هذه الكلمة كشئ مستقل بذاته منعزل عما سواه . بل الذى يحدث فعلا هو أن إدراك المستمع يتم بطريقة صيغية ، أى أنه يفهم الكلمات حسب السياق الذى ترد فيه . وهذا السياق عبارة عن البناء اللفظى ، أو ترتيب الألفاظ بجانب بعضها . وهو يتأثر بأى تغير يحدث فى ترتيب الكلمات . أنظر على سبيل المثال تغير دلالات الكلمات بتغير ترتيبها فى الجمل التالية ، وهى من الأمور المألوفة لدينا .

أول مدرس للفصل

مدرس أول فصل

أول فصل للمدرس

فهنا يلاحظ أن معانى الكلمات تتغير بتغيير ترتيبها داخل الجملة ، وأن التغير فى معنى الجمل يرتبط بتغير فى ترتيب كلماتها .

السياق غير اللفظى والمعنى :

فى عملية التواصل الاجتماعى نلاحظ أن الكلام الصادر عن أحد الأشخاص يحدث فى وسط سياق غير لفظى . وهذا السياق غير اللفظى له أهمية فى إضفاء المعانى والدلالات على الكلام . ويميز كريتش وزملاؤه بين نوعين من السياق غير اللفظى : (١) خارجى و (٢) داخلى .

ويشتمل السياق غير اللفظى الخارجى على تعبيرات وجه المتكلم ، وحركاته وتصرفاته والأشياء المحيطة به فى الموقف ، والنشاط المصاحب للكلام أو هو بتعبير أدق الموقف الكلى الذى يسمع فيه الكلام من قبل شخص آخر .

أما السياق غير اللفظى الداخلى فالمقصود به الحالة الدافعية والانفعالية للفرد . فهذه الحالات تؤثر على ادراك الأفراد لما يستمعون إليه ، كما تتدخل فى تحديد فهمهم له . فالشخص الغاضب قد يفهم من كلام الآخرين غير ما يفهمه لو كان فى غير حالة الغضب .

أسلوب الحديث والشخصية :

هل يعكس أسلوب الشخص الشفهى أو المكتوب سمات شخصية الفرد ؟

والواقع أن هناك ما يدل على وجود رابطة ما بين أسلوب الحديث ، وشخصية الفرد . ونستطيع هنا أن نتكلم عن ناحيتين :

أولهما أسلوب الحديث ومحتوى الكلام لدى الأفراد المضطربين أو المرضى نفسياً .

وثانيهما : أسلوب الكلام لدى الأشخاص العاديين ومدى علاقته بسمات الشخصية .

اللغة والتفكير لدى المرضى النفسيين :

بالنسبة للنقطة الأولى ، فإنه أصبح من الحقائق المعروفة إن كلام الشخص يمكن أن يكون عونا على تشخيص حالته النفسية . فالأمراض النفسية الذهانية * ينتج عنها اضطراب فى عمليات التفكير ، يتضح فى كلام الشخص . ففى أحد هذه الأمراض يصبح التفكير سريعاً متلاحقاً دون ضوابط وينتقل المريض من موضوع إلى موضوع دون أن يكمل الكلام فى أى منها ويتم ذلك التنقل فى دقائق أو ثوان . « وفى التفكير السوى الهادف ، تتحيز التداعيات الأكثر لزوماً ، أما فى اضطرابات التفكير فإن المفاهيم والصور تترابط مع بعضها على أساس خصائص عارضة أو شكلية » (١١) .

وفى مرض الفصام يتضح عدم تماسك التفكير فى حديث الشخص ، بما يسمى سلطة الكلام Wosd Salad . حيث لانجد فى حديث الشخص ترابطا بين الكلمات أو المفاهيم أو الصور ، ولا نجد أن هناك خيطا يربط بين كلمات الشخص فى فكرة متماسكة متسلسلة منطقياً .

ويفصح التخلف العقلى** عن نفسه فى لغة الفرد . « فاستخدام الفرد للغة يقدم أوثق المحكات لمستواه العقلى . ومن المشوق ملاحظة أن المحكات الحالية للتخلف العقلى لغوية أيضا إلى حد كبير ، وأن مقاييس الذكاء فى وقتنا الحاضر محملة جداً بالمضمون اللفظى » (3) .

فلغة الفرد وحديثه مرآة تعكس خصائص تفكيره ، ومستواه العقلى . وهى

(*) الذهان (المرض العقلى) Psychosis

(**) التخلف العقلى Mental retardation

تشكل علامة هامة يسترشد بها الطبيب النفسى فى تشخيص حالة المريض الذى يفحصه .

الأسلوب اللغوى وسمات الشخصية :

الشخصيه السوية(*) هى الشخصية العادية التى نصادفها فى حياتنا اليومية . والاعتقاد بأن الأسلوب اللغوى للفرد يعكس شخصيته اعتقاد قديم . وقد أجرى عدد من الدراسات لمحاولة الربط بين خصائص الأسلوب وسمات الشخصية . واعتمد بعض هذه الدراسات على دراسة أسلوب الحديث ، بينما اعتمد بعضها الآخر على دراسة الكتابات المنشورة لبعض الأدباء . وقد أجرى سانفورد Sanford دراسة قارن فيها أسلوب الحديث لاثنين من الشخصيات تجمعت عنهما من ناحية أخرى معلومات عن خصائص الشخصية . ويعلن عن نتائج الدراسة فيقول « مما نعرفه عن الشخصية يمكننا أن نتوقع أن السلوك اللفظى وغير اللفظى للفرد كلاهما من نفس المصدر ، وأن بوسعنا لو كنا مهرة أن نرى الأخير فى الأول » . ويضيف أيضاً على نفس هذا الخط «هناك معلومات وحجج معقولة ، واستبصارات واجتهادات، تضيف إلى الاعتقاد بأنه من خلال كلمات الشخص يمكننا أن نعرفه ونستطيع أن نقبل كحقيقة أن الحديث والشخصية مرتبطان . ولكن قبل أن نتمكن من الوصول إلى أعماق هذه العلاقة هناك كثير من الجسور التى علينا أن نعبرها » (٦) .

ويشبه براون Broun أسلوب اللغة ببصمات الأصابع . ففى كل منهما نجد فروقاً بين الأفراد تظل مستمرة على مر الزمن . ويقوم الاهتمام بالأسلوب على أساس أنه يعكس الشخصية ، والمكانة الاجتماعية ، وغيرها من خصائص الفرد . وقد نشر براون بالاشتراك مع جيلمان مقالاً قارنا فيه الأسلوب الأدبى لكل من ايمرسون Emesron وثورو Thorean . والتقابل بينهما يتصف بأنه محكم ، أشبه ما يكون بالتجربة المضبوطة . وذلك لأن كلا الكاتبين يشبهان أحدهما الآخر فى كثير من

(*) سوى : normal

الاعتبارات التى يتوقع أن تؤثر على جهودهما الأدبية . فالواقع أنهما يتشابهان فى كل الأبعاد عدا بعداً واحداً ، ذلك البعد هو شخصيتيهما . فبينما كان ايمرسون سلبياً وانعزالياً كان ثورو ثورياً ممتلئاً بالطاقةوعدوانياً . وبينما كان ثورو تحليلياً وعيانياً ، كان ايمرسون تركيباً وتجريدياً . أما بالنسبة لبقية الاعتبارات الأخرى فلقد كانا متشابهان تشابهاً كبيراً ، فكلاهما كاتب عاش فى القرن التاسع عشر ، وكلاهما عاش فى مدينة كونكورد بولاية ماساتشوزتس ، وكلاهما كان طالباً فى جامعة هارفارد . وقد تشابهت آراؤهما فى كثير من الأمور ، وتمسكاً بنفس المثل العليا بالنسبة للأسلوب الأدبى . ولعله بسبب هذه التشابهات ، كتبا غالباً حول نفس الموضوعات . ونتيجة لذلك ، فمن الممكن أن نجد أجزاء من مؤلفاتهما تتناول نفس الموضوعات . ولقد حدد جيلمان وبراون ٣٢ موضوعاً منها ، أخذت كلها من كتاباتهما الشخصية ، ومقالاتهما ومحاضراتهما ثم قاما بعد ذلك بالبحث عن الفروق فى الأسلوب بينهما .

وبعض الاقتباسات سوف تعطينا إحساساً بالتناقض بينهما . كتب ايمرسون يناقش جاذبية الريف لساكن المدينة :

الطبيعة دواء للجسم والعقل الذى شله العمل الضار أو الصحبة المملة ، تعيد لهما الصحة والعافية . فيخرج التاجر أو المحامى من ضجة الشارع وخداعه ليرى السماء والغابات وليعود إنساناً من جديد . وفى هدوئها الأبدى يجد نفسه .

والآن يكتب ثورو عن نفس الموضوع :

لولا الغابات والراعى المجهولة التى تحيط بحياة قراناً لأصابها التعطن . لكم نحتاج إلى ترياق الحياة البرية ... ويجب أن ينعشنا مرأى الحيوية الدافقة التى لا تنضب، والمشاهد الشاسعة الهائلة ، وشاطىء البحر بصخره ورمله ، وتلك الغابات البرية بأشجارها الحية والذاوية .

فهنا يبدو ايمرسون متمتماً برسالته فى نغمات هادئة ؛ أما ثورو فيخبط النوافذ . وبالنسبة لإيمرسون الطبيعة تشفى ، أما بالنسبة لثورو فهى ترياق .

والفرق بينهما فى الحيوية . كذلك تختلف المقطوعتان فى العيانية ، فنجد ثورو أكثر حيوية وعيانية . فهو يتكلم عن الصخور والأشجار الداوية ، أما ايمرسون فيكتب عن الهدوء الأبدى ، وفى مواضع أخرى هناك فروق فى المناضلة ، كلها تبين أن ثورو أكثر عدوانية ، كما يتضح ذلك من القطعة التالية بإشاراتها العديدة إلى القارىء ، الذى يفترض بوضوح أن خصم :

من ذلك الذى يتطاب أمنه شنق الكابتن براون ؟ ... إذا كنت لا تريد ذلك، فلتقلها بوضوح... فهو رجل... أرسل لكى يكون فداء لمن هم فى الأسر ؛ والاستفادة الوحيدة منه هى أن تعلق رأسه فى نهاية حبل !

وعلى النقيض من ذلك يكتب ايمرسون حول نفس الموضوع ليشد إليه عقولا أرفع .

لا شىء يستطيع أن يمنع التعاطف الذى تستشعره العقول النبيلة مع براون ، ويستشعره من خلالها كل العالم المتحضر ... حقاً أنها لعودة إلى سخف العبودية ، أن يضطر حاكم فرجينيا لشنق رجل يعلن هو نفسه أنه من أكثر من لقيهم من الرجال تكاملا . وصدقاً ، وشجاعة . فهل هذا هو نوع الرجال الذين تبنى لهم المشانق .

يقارن جيلمان وبراون النصين المستمدين من ايمرسون وثورو ، واللذان يتشابهان فى مضمونهما. يقارنان بينهما من ناحية تكرار الصور اللغوية الخاصة التى شعرا بأنها تعكس فروقاً بين شخصيتى الكاتبين.ومن ثم فقد تعكس أدوات الربط الاستدراكية (لكن ، حتى ، رغم ، مع ذلك) عدوانية ثورو . ويتضمن هذا الاستخدام بناء توقع ، ثم نفيه — كان أميناً لكنه كان غبياً ، كانت السماء مشمسة إلا أنها ممطرة — وقد استخدم ثورو هذه الطريقة كثيراً كذلك يستخدم ثورو صيغ النفى أكثر من ايمرسون ، كما يستخدم ضمير المتكلم بتكرار أكبر . وهو — وفيما يبدو — يفترض وجود خصم عليه أن يقاتله . أما ايمرسون فيرى نفس القضايا على أنها مجردة ، وغير شخصية ، وقابلة للمناقشة .

وهذه الفروق فى الأسلوب التصورى — وهو تحليلى وعيانى عند ثورو، تركيبى ومجرد عند ايمرسون، يؤدى بشكل واضح إلى أن يختلف ثورو عن ايمرسون فى تكرار استخدامهما للاشياء المجردة وللأفعال الحسية الحركية. فيفضل ايمرسون الأشياء المجردة مثل عبودية وكارثة، أما ثورو فيميل إلى استخدامها بشكل عيانى ملموس فيقول هذه العبودية وتلك كارثة. وكلاهما يستخدم أفعالا تشير إلى فئات حسية وأنشطة معينة — كالأفعال: يرى، يسمع، يمشى، يقفز. يستخدمان هذه الأفعال بتكرار متساو، لكن ثورو يستخدمها غالباً بمعانيها الملموسة الحرفية، أما ايمرسون فيستخدمها بمعانيها المجردة وبأسلوب الكناية.

والاختلاف فى الشخصية يؤدى عموماً إلى أن يكتب الرجلان عن موضوعات مختلفة. وتكون لهما ميول مختلفة، وخبرات مختلفة كما يفسران نفس الخبرات عندما تحدث لهما بطريقة مختلفة. وهذه الاختلافات ليست مدعاة للدهشة. إلا أن جيلمان وبراون، يبينان فى مقارنتهما لإيمرسون وثورو، أن الرجلين ذوى الشخصيات المختلفة واللذين يفسران نفس الخبرات بنفس الطريقة يختلفان رغم ذلك فى الأسلوب الذى يعبران به عن المضمون المشترك. فأحدهما يختار الأسماء المجردة، بينما يتحاشاها الآخر. وأحدهما يستخدم الأفعال الحسية — الحركية فى المعنى الحسى الحركى، بينما يستخدمها الآخر بأسلوب الكناية والاستعارة. أحدهما يرى خصوماً خياليين، بينما يرى الآخر عقولا ذات قربى، سامية ومتعاطفة »(٧).

اللغـة والثقافة :

تعتبر اللغة من بين العمد البارزة لثقافة أى شعب من الشعوب. ففى كنفها تنشأ الأجيال الجديدة لتتلقاها وتتعلم كلماتها ومفاهيمها وتتواصل من خلالها، بل وندرك العالم من خلالها أيضاً. وبوسعنا أن ننظر إلى العلاقة بين اللغة والثقافة من ناحيتين :

أولاهما : أن اللغة مرآة للثقافة تعكسها وتعكس خصائصها الأساسية.

وثانيهما : أن اللغة نفسها تشكل الثقافة وتحدد معالمها. ونناقش فيما يلى هذين الفرضين.

أولا : اللغة كمرآة للثقافة :

تؤدى اللغة وظيفة اجتماعية هامة هى تحقيق التواصل بين أفراد المجتمع . فمن خلالها يتناقل أفراد المجتمع المعلومات والمعانى والأفكار ، ويوجهون بعضهم البعض بشكل أو آخر . ولذلك فإن الحاجات الملحة والظروف المحيطة تتسرب إلى اللغة فتنشأ المفاهيم التى تعبر عنها ، وتنحت الكلمات التى تصور ما يحيط بالجماعة من ظواهر وظروف وحاجات . وبذلك تعكس اللغة شواغل الناس وطبيعة حياتهم ، ونوع تفكيرهم . ونستطيع أن ننظر إلى اللغة العربية لنرى عشرات الكلمات التى تتصل بالجمل وبالسيف ، وعشرات الأسماء التى تطلق على السيف . ويذكر الثعالبى مئات الكلمات التى تدور حول الإبل مثلا : أصواتها ، وألوانها ، وجماعاتها وأعدادها ، وهزالها ، وسمانها ، وأعمارها ، ونحولها ، وما يحمل عليها ، وأوصاف النوق ، وأوصافها فى اللبن والحلب ، وسيرها وغير ذلك (أنظر فقه اللغة للثعالبى) ولننظر مثلا فى وصفه المفصل لأصوات الابل وترتيبها[1] .

« إذا أخرجت الناقة صوتاً من حلقها ولم تفتح به فاها قيل : أرزمت (وذلك على ولدها حتى ترأمه) ، والحنين أشد من الرزمة ، فإذا قطعت صوتها ولم تمده قيل بغمت وترغمت ، فإذا ضجت قيل : رغت ، فإذا طربت فى إثر ولدها قيل : حنت ، فإذا مدت حنينها قيل : سجرت ، فإذا مدت الحنين على جهة واحدة قيل : سجعت ، فإذا بلغ الذكر من الابل الهدير قيل كش ، فإذا زاد عليه قيل كشكش وقشقش ، فإذا ارتفع قليلا قيل كت وقبقب ، فإذا أفصح بالهدير قيل : هدر ، فإذا صفا صوته قيل : قرقر ، فإذا جعل يهدر كأنه يقصره قيل زغد ، فإذا جعل يقلعه قيل : قلخ » .

نجد مئات بل آلاف الكلمات التى تعبر عن دقائق ولطائف ذلك الحيوان الذى كان يمثل أحد المعالم الأساسية والدعائم الاقتصادية للمجتمع العربى فى العصور الماضية. ولن نجد فى أى لغة أخرى هذا العدد الضخم من الكلمات المتصلة بالجمل . ونستطيع أن نقارن بين لغات الشعوب التى تعيش فى جزر بحرية أو بلاد القطب الشمالى كالاسكيمو . بل إننا لنرى اللغة تتطور وتنمو مع نمو ثقافة الجماعة البشرية . فالحضارة

الحديثة التى ترتكز على العلم الحديث وتطبيقاته التكنولوجية تجعل المجتمع ممثلا فى صفوته العلمية يسرع إلى تطوير لغته وتطويعها للعلم . فتضاف آلاف المصطلحات كل يوم وتنحت الكلمات الجديدة فى كل اللغات لكى تصف الظواهر الجديدة ولكى تتسع اللغة بحيث تعكس الثقافة . فإذا لم تستطع اللغة أن تطور نفسها فإنها تموت ، أما إذا طورت نفسها ونمت فإنها تزدهر وذلك لأنها تسد الحاجة وتوفى المطالب الجديدة .

اللغة تشكل الثقافة :

إن مسالة تأثير اللغة على ثقافة المجتمع وتشكيلها لهذه الثقافة مسألة شغلت الفلاسفة والمفكرين وعلماء اللغة منذ أقدم العصور . ومنذ أكثر من مائة عام قال فون همبولت Von Humboldt أن بناء اللغة (مفردات اللغة وقواعدها) تؤثر على تصورات الناس للعالم المحيط بهم .

وقد قام إدوارد سابير Edward Sapir بإعادة صياغة هذا الفرض بعد ذلك . فقد كتب فى سنة ١٩٢٩ يقول :

« لا يعيش البشر فى العالم الموضوعى فقط ، كما أنهم لايعيشون فقط فى عالم النشاط الاجتماعى ، كما يفهم عادة ، بل إنهم إلى حد كبير تحت رحمة اللغة المعينة التى أصبحت وسيلة التعبير عند مجتمعهم . وإنه لوهم تماما تخيل أن المرء يتوافق مع الواقع جوهرياً بدون استخدام اللغة وأن اللغة هى مجرد وسيلة عارضة لحل مشكلات معينة فى الاتصال أو التفكير . وحقيقة الأمر أن « عالم الواقع » ينبنى — إلى حد كبير — لاشعوريا على عادات اللغة لدى الجماعة ... فنحن نرى ونسمع وبالأحرى نخبر إلى حد كبير على النحو الذى نعرفه لأن عادات اللغة لدى مجتمعنا تهيىء مقدما اختيارات معينة للتفسير » .

وقد قام عالم آخر يدعى هورف Horf بتطوير دعوى سابير وزعم أن اللغة تكون نوعا من المنطق ، وإطاراً مرجعيا عاماً ، وبذلك تشكل تفكير من اعتادوا

على استخدامها ، وأن هناك علاقة جوهرية بين قواعد اللغة من ناحية وخصائص الثقافة من ناحية أخرى ... وإذا صحت دعوى هورف وأتباعه فان دراسة اللغة تكتسب أهمية جديدة فى العلوم الاجتماعية . ويكبر مكانها فى علم النفس كثيرا، وتصبح ذات أهمية أولية فى كل دراسات الثقافة .

وقد ثار الجدل حول آراء هورف بين مؤيد ومعارض ، كما أجريت الدراسات التجريبية المتعددة لمحاولة التحقق من صحة افتراضات هورف . « وقد دافع هورف عن دعواه بأن الناس الذين يعيشون فى ثقافات مختلفة يدركون العالم بطرائق مختلفة . والدليل الذى يقدمه هورف تأييداً لدعواه دليل لغوى ، أى أنه يفترض أن الاختلافات فى الأبنية اللغوية تشير إلى اختلافات فى إدراك الواقع وتنظيمه .

ولتوضيح ذلك ، يلاحظ هورف أنه يوجد فى لغة الاسكيمو ثلاث كلمات تطلق على ثلاثة أنواع من البَرَدْ لاتوجد لها مرادفات فى اللغة الإنجليزية . وهو يفسر ذلك بأنه يشير إلى أن الاسكيمو يميزون بين أنواع ثلاثة مختلفة من البرد ، بينما لايستطيع المتكلمون باللغة الإنجليزية أن يعملوا هذا التمييز » .

وقد تعرضت فروض هورف للنقد الشديد من جانب عدد من الكتاب . فنجد براون ولينبرج Brown & Lenneberg يعترضان على استنتاج هورف من عدم وجود كلمات انجليزية مرادفة لكلمات الاسكيمو الثلاث التى تسمى أنواع البرد أن ذلك يشير إلى عدم قدرة الناطقين بالإنجليزية على تمييز هذه الفروق . فقد يكون بوسع الناطقين بالإنجليزية إدراك هذه الفروق وتمييزها ، ولكنها ليست ذات أهمية لديهم ولذلك لم يشغلوا أنفسهم باختراع كلمات منفصلة لها .

وينتهى هوجر Hojer إلى القول بأن حقيقة الأمر — إذن - ليست أن النماذج اللغوية تحد بالضرورة الإدراكات الحسية والتفكير ، ولكن ببساطة أن النماذج اللغوية هى والنماذج الثقافية الأخرى توجه الإدراك إلى قنوات معتادة معينه» (i id P. 297) .

وآراء هورف يمكن النظر إليها باعتبارها فروضاً علمية تحتاج إلى دراسات تجريبية دقيقة تحسم الموقف وتؤيد الفروض أو تنفيها أو تعدلها . ولقد أجريت بالفعل دراسات تجريبية للتحقق من صحة فروض هورف ،وبعض هذه الدراسات أيد فروض هورف بينما لم تؤيده بعض الدراسات الأخرى ، والملاحظ أن الدراسات التى أيدت الفرض استخدمت فى الدراسة مهاما وأعمالا تعتمد على الاحتفاظ بالمعلومات فى الذاكرة أما التجارب التى انتهت إلى نتائج سلبية أو غير حاسمة فقد تضمنت كلها مهام مثل الحكم والتصنيف وماإلى ذلك . وبناء على ذلك ، فقد يكون تفسير الموقف أنه طالما كان الفرد يقوم بادراك شىء ما إدراكا مباشراً لايكون للغة تأثير ، ومع ذلك فعندما يقوم بعمل يتطلب تذكر شىء ما يكون للغة تأثير واضح . أى أن تأثير اللغة على العمليات المعرفية يتضح بشكل بارز فى المهام التى تشتمل على التذكر ، وإذا سلمنا بأهمية الذاكرة فى مختلف جوانب التفكير والمعرفه أدركنا مدى أهميه اللغه وتأثيرها على فكر الفرد .

ارتقاء اللغه لدى الطفل :

يعتبر الارتقاء اللغوى للطفل ذا أهمية بالغة فى عملية التطبيع الاجتماعى(*) للطفل. ويرى مورفى Murphy ضرورة التفرقة بين عمليتين مختلفتين وراء اكتساب الطفل للغة : الأولى : هى عملية فهم لغة الغير من الراشدين ، والثانية : هى استخدام هذه اللغة . ويرى علماء النفس أن فهم لغة الآخرين يسبق استعمال الطفل للغة (٢) . ويبدأ الطفل فى نطاق الكلمات عند مستوى السنة الأولى من العمر . وعند سن سنةونصف تنمو قدرته على استخدام الكلمات نمواً كبيراً . وقد اهتم علماء النفس منذوقت بعيد بعمل دراسات على تطور استخدام للكلمات . وقد أوردت سميث Smith بيانا بمتوسط النمو اللغوى عند ٢٧٣ طفلا ، وجاءت فيه البيانات التالية :

العمر	عدد الكلمات
من ٦ شهور إلى ١ سنة	٣
من سنة إلى سنة ونصف	١٩
من سنة ونصف إلى سنتين	٢٥٠
من سنتين إلى سنتين ونصف	١٧٤
من سنتين ونصف إلى ٣ سنوات،	٤٥٠

ويلاحظ أن الطفل يحقق قفزة كبيرة فى عدد الكلمات التى ينطقها عند منتصف السنة الثانية (سن سنة ونصف). (المرجع السابق، ص ١٤٧).

وعند سن سنة ونصف يبدأ الطفل أيضاً فى تكوين جمل بسيطة تتكون من كلمتين أو ثلاث كلمات. وعند سن الرابعة، يكون الطفل قد تمكن من البناء المعقد والمجرد للغة. وبذلك فانه بعد سن سنتين بقليل، يكتسب الأطفال المعرفة الكاملة بالنظام النحوى للغتهم.

ومع تعلم الطفل لكلمات اللغة، ومعرفته بأسماء الأشياء المحيطة به، يبدأ تدريجياً فى تكوين مفاهيم عن العلاقات بين الكلمات وماتشير إليه من مفاهيم. وقد أوضح بياجيه piaget أن الطفل الأصغر سناً (تحت سن ٧ سنوات) يعتقد أنه بتعلمه اسم الشيء يكون قد اكتشف جوهره فالاسم تفسير وشرح للشيء. «إذا لم تكن هناك أسماء، فكيف يمكن أن تصنع الأشياء». والرابطة بين الاسم والشيء رابطة ضرورية وقوية فى نظر الطفل فى هذه السن. فالأسماء تنتمى للأشياء، ولا يمكن تغيير الأسماء. وفوق سن السابعة أو الثامنة، يكون الطفل فكرة أن الأسماء اخترعها الذين صنعوا الأشياء فالله أو الناس الذين عاشوا قبلنا اخترعوا الأسماء للأشيا التى صنعوها. وعندما يصل الطفل إلى سن التاسعة أو العاشرة يكون قد أدرك أن الأسماء

(*) بالتطبع الاجتماعى.

صنعها الإنسان ، وأنها ليست مرتبطة ارتباطاً ضرورياً بالأشياء التى تطلق عليها . على أنه يلاحظ أن هذه المراحل ليست مطلقة ، بل نجد فروقاً بين الأطفال .. . لـكن هذه المراحل توحى باتجاهات النمو فى تفكير الطفل وتصوراته .

نمـــو قواعد اللغة لدى الطفل :

شهدت السنوات القليلة الماضية تحولا فى الاهتمام لدى علما اللغويات النفسية عند دراستهم لارتقاء اللغة لدى الطفل نحو التعرف بقواعد النحو التى يتكلم بها الطفل . وتعتمد هذه الدراسات على تتبع عينات من الأطفال فى أعمارهم المبكرة التى تشهد نمواً متزايداً فى اللغة ، ويتم تسجيل مايتفوه به الطفل فى كل زيارة من الزيارات المتتالية التى تتم فيها دراسة نموه طوال فترة زمنية من عمره . ويقوم العلماء بعد ذلك بتحليل هذه التسجيلات ومحاولة استخلاص القواعد اللغوية التى يتبعها الطفل فى كلامه .

ويحقق الأطفال انجازا كبيراً فى تعلم قواعد اللغة فيما بين سن الثانية والخامسة من العمر . وهناك عدة فروض تحاول تفسير نمو وارتقاء استخدام الطفل لقواعد اللغـــة :

١ — أن الطفل يقوم بربط الـكلمات مع بعضها عشوائيا ، وتتدعم طرق الربط السليمة نحويا وبذلك تميل للاستمرار .

٢ — أن الطفل يقلد عبارات والديه ، وكلما زاد التقليد تزايد ظهور العبارات النحوية لديه .

٣ — أن الطفل يبنى عباراته على أساس قواعد بدائية تتطور إلى قواعد أكثر تعقيداً .

ويوحى الفرض الأخير بأن الطفل يولد مزوداً بالقدرة على عمل تمييزات بدائية لاستخدام الـكلمات .

وتبين التسجيلات التى تمت للكلام التلقائى للأطفال أنهم يبدءون فى نطق عبارات من كلمتين عند حوالى سن الثانية . ومن البداية نجد أن الكلمتين ليستا مجرد كلمتين عشوائيتين ، بل أن هناك نوعا من القواعد المنظمة لكلام الطفل . ومن أمثلة التسجيلات لأحاديث الأطفال :

اثنين جزمة

العروسه دى

هنا عربية

فهذه العبارات تعبر عن فكرة ، وليست مجرد سلسلة عشوائية من الكلمات . ولذلك نستبعد الفرض الأول الذى يقول بأن الطفل يضع الكلمات بجانب بعضها بطريقة عشوائية . والواقع ان لغة الطفل فى هذه السن أشبه ما تكون بلغة الراشدين فى البرقيات التلغرافية أى أنه يكثر حذف الأدوات ، وحروف الجر والأفعال المساعدة . كما يلاحظ أنه تظهر لدى الطفل بناءات لغويه غير نحوية لا يستعملها الراشد . وهى عبارات لم يسمعها الطفل من الراشدين حوله ، أى أن الطفل لايقلد ببساطة ما يسمعه . بل توحى هذه العبارات بأن الطفل يكونها على أساس نحو بدائى . ويلاحظ من دراسة أحاديث الأطفال أنهم يستخدمون بعض الكلمات بتكرار أكبر مثل كلمات : حلو ، كبير ، بص . هذه الكلمات تستعمل بتكرار أكبر وتنوع أكثر بالمقارنة بكلمات مثل حذاء وعروسة وعربية .

ومع نمو الطفل يزداد طول عبارته وعدد كلماتها كما يزيد تعقيد قواعد نحوه . وهناك موضوعات كثيرة يتناولها علماء اللغويات النفسية عند دراستهم لارتقاء لغة الأطفال ، مثل دراسة القدرة البيولوجية اللازمة لتعلم اللغة ونمو قدرة الطفل على استخدام التحويرات اللغوية كاسلوب النفى ، وكذلك دراسة دور الوالدين فى تعليم الطفل اللغة ، إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة فى دراسة ارتقاء اللغة لدى الطفل .

المراجع

(١) الثعالبى (أبى المنصور عبد الملك بن محمد) فقه اللغة وسر العربيـة ، القـاهرة ، المكتبـة التجارية ، ١٩٢٧ .

(٢) سويف، مصطفى، الأسس النفسية للتـكامل الاجتماعى : دراسة إرتقائية تحليلية ، القـاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

(3) Anastasi, A. Psychological Testing, (3 ed.) New York, Macmillan, 1968.

(4) Brown, R. &. Gilman, A.

(5) Hilgard, E. R. Introd. to Psychology (3 rd. ed.) New York : Harcourt, Brace & co. 19:3.

(6) Krech , D. Crutchfield , R. S. & Ballachey , E. L. Individual in Soiety , Tokyo : Mc Graw Hill, 1962.

(7) Miller, G. A. & Mc Neil, D. Psycholinguistics, in : (Eds : G. Lindzy & E. Aronson. The Handbook of Scial Psychology (3 rd ed), Masachusetts : Addison-Wesley, 1969.

(8) Mc Reachie, W. J. & Doyle, C. L. Psychology, London : Addison - Wisley, 1966.

(9) Ogden, C. K. & Richords, I. A. The Meaning of Meaning, London, Routledge & Kegan Paul, LTD., 1949.

(10) Platonov, K Psychology as you May Like It , Mosko : Progress Publishers, 1695.

(11) Portinov, A. A. & Fedotov, D. D. Psychiatry , Moscow: MIR Publishers, 1969.

الفصل الثانى

العملية الإبداعية(*)

مقدمة :

فى تلك الفترة — من السبعينيات لم يعــد هناك محل للخوف ، أو التردد من مناقشة النشاط العلمى السيكلوجى لموضوع الإبداع . وهما الخوف أو التردد اللذين أبداهما العالم الأمريكى « جيلفورد » Guilford [10] فى حــديثه أمام الجمعية النفسية الأمريكية فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ . يقول « جيلفورد » .

« أناقش — أمامكم — موضوع الإبداع بتردد شديد ، لأنه يمثل مجالا كان علماء النفس — على اختلافهم — يخشون الأقدام على دراسته ....

ويستمر « جيلفورد » قائلا :

« وإن من المروع حقاً هذا الإهمال لهذا الموضوع من قبل علماء النفس. ولا احتاج إلى دليل لكى أثبت به هذا الإهمال . يكفى أن أذكر أننى قمت بفحص فهرس مجلة الملخصات السيكلوجية ، كل عام منذ ظهورها فوجدت أن المجلة قد تضمنت ١٢١٠٠٠

(*) Creative Process

عنوان بحث — فى خلال الأعوام الثلاث والعشرين السابقة — كان من بينها ١٨٦ عنوانًا فقط تتعلق بموضوع الإبداع . أما المجالات التى أمكن استخلاص تلك العناوين منها فقد توزعت على : الإبداع — التخيل — الأصالة — والتفكير » ٠

كان هذا حتى عام ١٩٥٠ ، أما بعدها فقد تغيرت الصورة ٠ وأصبحت بحوث الإبداع تلقى اهتماماً نشطاً لازال مستمراً حتى الآن. وقد أمكننى شخصياً أن أحصى فى سنة ١٩٦٧ وحدها ما يقرب من ١٣٢ بحثاً فى الموضوع ، وقد ازداد العدد إلى ما يقرب من ٢٣٠ بحثاً عندما ضممت إليه بعض البحوث القريبة كبحوث الأدب ، والإبداع الموسيقى ، والتفكير ، والجماليات[١٧]. وأستطيع أن أقرر بأن هذا الاهتمام فى تلك السنة (١٩٦٧) قد سبقه اهتمام مماثل — وربما أكثر — فى خلال الأعوام السبع عشرة التى انقضت منذ خطاب « جيلفورد » ٠

وفى مصر لقى الموضوع أيضاً اهتماماً مماثلا٠ وتقوم كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكلية التربية بجامعة عين شمس بالنصيب الأكبر فى تغذية هذا الاهتمام . وفى كلية الآداب وحدها يمكن أن نحصى منذ سنة ١٩٥١ حتى الآن ما يقرب من ثلاث عشرة بحثاً ، انتهى ونشر بعضها ، ولازال البعض الآخر فى طور الإعداد ، أو الانتهاء ٠

تصنيف اتجاهات الاهتمام ببحوث الإبداع :

ويمكن من خلال استقصاء البحوث الإبداعية — على المستوى العالمى والمحلى . أن نحصر الاهتمام بها فى الجوانب الآتية :

١ — الاهتمام بالعملية (*) الابداعية، كما تحدث فى مجالات الإبداع المختلفة سواء فى العلم ، أو الفن ، أو الأدب ، بهدف تحديد العناصر أو المراحل الأساسية التى يمر بها التفكير حتى يصل إلى الحلول الابداعية المتكاملة (كما تظهر إما فى رسم لوحة ، أو كتابة قصة أو رواية ، أو تأليف قصيدة من الشعر، أو وضع نظرية علمية ، أو حل مشكلة عسيرة ... الخ . .) ٠

(*) Process

وهذا الاهتمام يتفرع بدوره إلى اتجاهين :

(ا) تحليل دينامى للعملية الابداعية ؛ كما تتبدى فى المراحل التى تمر بها العملية الابداعية ويؤثر هذا الاتجاه النظر إلى العملية الابداعية بصفتها عملية كلية ، تبـدأ كشكل كلى ، وتنتهى إلى شـكل كلى . وينظر الباحث وفق هـذا التصور إلى الجزئيات المـكونة للعملية لاعلى أنها وحدات منفصلة قائمة بذاتها ولـكن على أنها أعضاء فى الـكل . ولـما كان هناك تصور لدى أصحاب هـذا الاتجاه — بأن « الـكل » دينامى ، أى أنه عملية وليس شيئاً ثابتاً جامداً ، فإنهم ينظرون إلى جزئياته بصفتها احداث داخل تلك العملية تؤثر وتتأثر بها [٤] .

(ب) تحليل بنائى للعملية الابداعية؛ينظر أصحابه بمقتضاه إلى العملية الإبداعية، بصفتها مجموعة من السمات ، أو العوامل التى تميز الفـكرة الابداعية . والنمط الإبداعى وفق هـذا التصور يظهر فى السلوك الابداعى كما يتبين فى بعض نواحى النشاط كالتأليف الموسيقى ، أو التخطيط ، أو التصميم ، أو الابتـكار . ويسمى الشخص مبدعاً إذا ما ظهرت فى سلوكه الفـكرى تلك الأنماط من السمات المتميزة [١٠] .

٢ — الاهتمام بالشخصية الإبداعية ؛ ويتبلور اهتمام الباحثين فى هـذا النوع من الدراسة بتناول الإبداع وفق تنظيم أشمل من الاستجابة والافتراض العام فى هذا أن العملية الإبداعية ليست فعلا مبتوراً،بل إنها ذات تاريخ أعم فى حياة الشخص [٧]. وهى بهذا المعنى شكل من أشكال الاستجابات التى تتدعم فى حياة الشخص ،وتتحول إلى عادة(*) فى سلوكه، ويساعد على تدعيمها سمات الشخصية(**)وأساليبها ودوافعها.

وتعتمد بحوث هذا الاتجاه على استخراج معاملات الارتباط بين مقاييس الابداع وسمات الشخصيه ، وأساليب الشخصية. ومن خلال تلك العاملات يمكن أن نستنتج بسهولة أهم سمات الشخصية ووظائفها المميزة للمبدعين .

٣ — تدريب القدرات الابداعية ؛ وقد نما هذا الاهتمام فى أحضان المدرسة السلوكية ببحوث « لا كينز Luchins »، وماير « Maier » ورابينوفيتز « Rabinowitz » منذ

(*) habti (**) Personolity traits

الأربعينات، والتى اتجهت جميعها إلى ابتكار عدد من الأساليب التى من شأنها القضاء على التصلب الفكرى(*) فى حل المشكلات العقلية . وقد استطاعت تلك التجارب أن تحدد التصلب الفكرى بأنه العجز عن ابتكار حلول مناسبة لموقف جديد نتيجة للتأثر بعادات عقلية سابقة ، وثابتة فى مواجهة المشكلات الجديدة . وقد ازداد الاهتمام بتدريب الإبداع وتنميته خاصة بعد سنة ١٩٥٥ عندما بدأ « مالتزمان »Maltzman يبتكر أساليباً تجريبية جديدة لتدريب الأصالة . ويمكن أن نقرر — من خلال الإطلاع على البحوث التى تنشرها مجلة الملخصات السكيلوجية — أن الاهتمام بتدريب القدرات الإبداعية قد بدأ الآن يحتل المكانة الأولى من اهتمام علماء النفس الإبداعى. فإذا كان العقد الخامس وأوائل العقد السادس يمثلان فترة الجمو الحقيقية فى بحوث العملية الابداعية ، وكما أن العقد السادس وأوائل العقد السابع يمثلان فترة مماثلة فى بحوث الشخصية الابداعية ، فإن العقد السابع ، وهذا العقد يمثلان بحق فترة حافلة بالاهتمام بتدريب الابداع ، وتنميته .

تلك هى أهم جوانب الاهتمام التى يصب فيها نشاط الباحثون السيكلوجيون المعاصرون فى تناولهم للابداع . وتوجد أيضاً جوانب أخرى من الاهتمام ، ولكنها تصب فى هذا المجال بإيحاء من اهتمامات أخرى تشد الباحثين . صحيح أنها تثرى بحوث الابداع ، وتساعد على تنميتها تنمية خلاقة .. لكنها فى كل الأحوال لا تصب مباشرة فى هذا الموضوع . ومن أمثال تلك الاهتمامات :

١ — الاهتمامات السيكومترية : حيث يولى الباحثون نشاطهم لإبتكار مقاييس جيدة للابداع ، واكتشاف محكات مناسبة لتقدير صدق تلك المقاييس .

٢ — الاهتمامات النظرية : حيث يتجه الاهتمام بمسألة الصياغة النظرية لبعض العمليات الإبداعية ، ولعلاقاتها بأنماط الشخصية الأخرى .

وسنتجه الآن إلى استقصاء النشاط العلمى كما يصب فى الاهتمامات بالعملية الابداعية. ويعتبر الفصل الرابع من الجزء السابق مركزا على الاهتمام بالشخصية الإبداعية أما الاهتمامات بتدريب القدرة الابداعية والجوانب السيكومترية ، والاهتمامات النظرية فستعرض لها خلال عرضنا للاتجاهات الثلاثة الأولى ، دون حاجة لأن نفرد لها فصولا مستقلة.

(*) Rigidity

العملية الإبداعية

أولا : التحليـــل الدينامى للعملية الإبداعية :

هل هناك نمط منتظم فى عملية الإبداع ؟ وهل هناك مراحل محددة تتوزع عليها العملية الإبداعية ؟ وما هى تلك المراحل ؟ وهل المراحل الإبداعية التى تحدث فى ميدان كالموسيقى هى نفس المراحل التى يمر بها الفكر الإبداعى فى ميدان آخر كالفن التشكيلى ، أو الشعر ، أو الرواية ؟

هذه هى أهم الأسئلة التى تنطلق منها محاولات علماء النفس فى مجال التحليل الدينامى للعملية الإبداعية . وقد استطاع الجهد المنظم منذ فترة مبكرة أن ينجح بالفعل فى وضع إجابات حاسمة على الكثير من تلك الأسئلة ، ولعل أهم الإجابات تلك التى تتعلق بتحديد المراحل التى يمر بها التفكير الإبداعى ، وتميز أشكالها فى كل ميدان من ميادين النشاط الانسانى الإبداعى .

مراحل الإبداع :

يمر النشاط الأساسى للعمل الإبداعى فى حل المشكلات الفعلية فى عدد محدد من المراحل . حددها جراهام والاس G. Wallas (١٩) من خمسين عاما فى أربع مراحل هى :

١ — التهيؤ أو الاستعداد *

* Preparation

٢ — الاختمار*

٣ — الإلهام**

٤ — التحقيق والتعديل***

البذرة الأولى أو التهيؤ والاستعداد :

وتتمثل فى تلك المرحلة بذرة الإبداع الأولى . فيها يتفتح المبدع فجأة على البدايات الأولى لعمله . . وغالبا ما تأتى تلك البدايات بشكل مفاجىء وغامض . يذكر نيتشة Nietzsche (١٥) أن أفكار كتابه « هكذا أيضا تكلم زرداشت » + جاءته فى لحظة مفاجئة بين غابات بحيرة « سيافابلانا » فى ايطاليا ، ولكنه لم يبدأ فى الكتابة إلا بعد مرور ثمانى عشرة شهرا من تلك اللمحة الأولى .

وفى هذه المرحلة أيضا يتجه المبدع إلى تنمية تلك البذرة الأولى بالقراءة ، وأخذ الملاحظات ، وإدارة الحوار والمناقشات ، وإلقاء الأسئلة ، وجمع الشواهد، وتسجيلها. لقد قرأ كولريدج Coleridge فى أدب الرحلات كثيرا قبل أن يضع قصيدتيه «اللاح القديم» ++ و « كوبلاخان » +++ . وكذلك فعل «توماس مان» T.mann قبل أن يضع أشهر رواياته. وفى هذا المعنى يقول الفنان الراحل «بابلو بيكاسو » Picasso (١٦)

« الفنان وعاء ملىء بالانفعالات التى تأتيه من كل المواقع ؛
من السماء ، ومن الأرض ، ومن نفاية الورق ، ومن شكل عابر ،
أو نسيج عنكبوت . . . والفنان يرسم ليخفف عن نفسه وطأة
تلك الانفعالات ، وازدحام عقله بالرؤى » .

---

* incubation ** illumination
++++ Verificationor revision + Thus speak zarathustra
++ The Ancient Mariner +++ kubla khan

على أن اتجاه المبدع إلى هذا النوع من التنمية يختلف عن أى اتجاه آخر . فعملية الاستعداد لديه تأخذ غالبا شكلا منظما ، فقراءاته ، وملاحظاته ، وإدارته للحوار ، وإلقاءه للأسئلة . . كل هذا لا يتم بشكل عشوائى ، إنما يتم بإيجابية من قوة الفكرة الأولى وسيطرتها . يقارن فناننا توفيق الحكيم فى إحدى كتبه[٦] بين طريقة قراءته للأدب ، وبين الطريقة التى كانت تقرأ بها بطلة إحدى قصصه نفس تلك القراءات :

« إنها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة . وأنا الذى أقرؤها فى يومين أو ثلاثة . ولكن هناك فرقا هائلا بين قراءتى وقراءتها ، إنها تقرأ للحكاية فى ذاتها، أما أنا فلا تعيننى حكاية الكاتب بل يعنينى منه ، وسر صناعته وطريقة أسلوبه فى البناء وخلق الشخصيات ونسج الجو وإحداث التأثير . إنى أحيانا أعيد قراءة الفصل الواحد بل الصفحة الواحدة مرات »[٢]

ولعل أشد ما فى تلك الرحلة من مخاطر على العمل الإبداعى هو سيطرة الخبرات السابقة (القراءات والمناقشات والملاحظات وغيرها على أفكار الأديب أو الفنان أو العالم . فيأتى عمله متأثرا بتلك الخبرات . هذه الظاهرة ليست نادرة ، ويتحدث عنها نقاد الأدب — خطأ على أنها نوع من السرقات الأدبية . يحكى عن إبراهيم عبد القادر المازنى أن صفحات كثيرة من رواياته تأتى من أعمال أخرى ، كذلك قصائده الشعرية . ويقال عن الشاعر المصرى صلاح عبد الصبور أن عبارات كاملة من قصائده الشعرية خاصة فى ديوانه « الناس فى بلادى » جاءت من قصائد للشاعر الانجليزى « اليوت » خاصة من قصيدته الطويلة : « الأرض الخراب » * . ويذكر سويف عن الشاعر الإنجليزى « جون كيتز »Keats أن شكسبير يسيطر عليه ويوجهه، وأن خطاباته — أى كيتس — لأصدقائه تنتشر فيها عبارات شكسبيرية كثيرة . ويحصى له فى خطاب واحد خمس عبارات متفرقة من مسرحيات شكسبير « سيدن من فيرونا » و « العاصفة » و « حلم ليلة فى منتصف الصيف » .

ويدل هذا فى الحقيقة على اهتمام المبدع باستيعاب أكبر قدر من المعلومات فى

---

* Waste Land

مجال تخصصه ، لكن هذا يوقع المبدع فى ضرورة خلق التوازن بين قدرته على الإبداع الطليق الأصيل ، والألفة بأفكار الآخرين : ويقترح بعض علماء النفس حلا أمثل هو أن يبدأ المبدع بإعداد نفسه من خلال الإطلاع على الأعمال الأخرى ، لكن يجب عليه فى نفس الوقت أن يكون قادراً على طرح تلك الأعمال بعيدا ليعطى أفكاره حرية النمو . وبهذا يحسن ألا يندمج فى الكتابة بعد الإطلاع مباشرة على الأعمال الأخرى . لأن من شأن هذا أن يوقعه فى التكرار بفعل التداعى للعمل السابق .

ويتحدث علماء النفس أيضا عن ظاهرة لها سيطرة على كثير من الأعمال الأدبية ويطلقون عليها اسم ظاهرة « التحول الفكرى » * . ومجمل هذه الظاهرة أن حل المشكلة حلا إبداعيا ، لا يأتى إلا عندما يبتعد الذهن عن التركيز كثيراً فى المشكلة — ولو إراديا — ويتم ذلك بأن يشغل الشخص نفسه بأى عمل أو نشاط حركى ، أو أن يستلقى للاسترخاء والراحة . ويمكن أن نستنتج من هذه الظاهرة نصيحة علمية نعطيها لمن يخشون التداخل بين ابداعاتهم الخاصة ، وإبداعات غيرهم بأن يكونوا قادرين على تحقيق هذا التحول وممارسته عمداً .

لكن بعض النتائج التجريبية الأخرى تبين لنا أن القيام بعملية التحول الفكرى عمل يجب أن ننصح به من قطعوا شوطا كبيراً فى ممارسة العمل الإبداعى ، أى المبدعين الذين تمرسوا بالكتابة ، وأصبحت لهم عاداتهم التى تساعدهم على مواصلة السير سريعاً فى تحقيق أفكارهم . أما الناشئين أو المبتدئين الذين لم يعتادوا بعد على الكتابه ، فإنهم يحتاجون لأشياء أخرى بجانب الابتكار والأصالة منها تكوين عادات الكتابة نفسها ، لهذا فيجب أن يكتبوا كلما اشتعلت رغبتهم إلى ذلك ، فبفعل الدافع ، وسيطرة النماذج السابقة قد يستطيع المبدع من خلال الممارسة الفعلية أن يشق لنفسه طريقته الخاصة بدلا من الانتظار . ولحسن الحظ تبين التجارب على التفكير الأصيل ، أن الأفكار الأولى التى يتفتق عنها ذهن المبدع نادراً ما تكون أصيلةبالمعنى

(*) Serendipity

الدقيق ، ولا تبدأ الأفكار الأصيلة فى الظهور إلا بعد مرحلة طويلة من الإستمرار والممارسة . وفى هذا المعنى كتب الكاتب الألمانى « لوذميج بورن » L.Börn مقالا بعنوان « فن التحول إلى كاتب أصيل فى ثلاثة أيام » يقول فيه :

« وها كم أيها الأصدقاء تطبيقا عمليا للقاعدة التى اقترحها . تناول بعض الصفحات الورقية البيضاء ، واكتبوا عليها كل ما يعنو لكم خلال تلك الأيام الثلاثة اكتبوا من غير تصنع ، أو نفاق . أكتبوا آرائكم فى أنفسكم ، وفى زوجاتكم ، وفى الحرب التركية ، وفى « جينته » ، وفى المحاكمات السياسية ، وفى رؤسائكم . وبعد انقضاء تلك الأيام الثلاثة ستنتابكم الدهشة من كثرة ما قد أنجزتم من أفكار . ذلك هو فن التحول إلى كاتب أصيل فى أيام ثلاثة »(٨).

وكلما استمر الكاتب فى عمله كلما . أصبح قادراً على تكوين العادات التى ستساعده فيما بعد على خلق الأفكار الإبداعية . . وكلما أصبح قادراً على ضبط قلمه ، أو ريشته . فالأصالة والأفكار الإبداعية قد تظلان حبيستان فى العقل ما لم تكن هناك قدرة على التحكم فى الوسائل التعبيرية وفى ضبطها . وينطبق هذا على الأديب المبدع كما ينطبق على أى عمل ابداعى فى أى مجال آخر فى الرسم ، والشعر ، والرقص ؛ والموسيقى ، والتعليم والإعلام ، والعلم كل هؤلاء . . وغيرهم ممن يجعلون ممارسة الإبداع جزءاً من حقائق وجودهم الإنسانى .

الاختمار :

أما فى المرحلة الثانية من مراحل العملية الإبداعية ، فإن الفكرة الإبداعية تطفو بين الحين والأخر على الذهن . ويشعر الفرد بأنه يدنو ويتقدم من غايته تمهيداً لتبلور الشكلة فى مرحلة تكاملها عن طريق الإلهام ، أو إخطاء الطريق فى الوصول إليها تماما.

وفى تلك الفترة يعانى الشخص من أقصى درجات القلق والتوتر خلال عملية الخلق الإبداعى

على الإطلاق . وتؤدى، فوضى الانفعالات — فى حالة الأعمال الفنية — أو الأفكار — فى الأعمال الإبداعية — إلى شعور بعدم الاستقرار ، أو الهدو . ويصبح المبدع كما عبر عن ذلك فإن جوخ :

« شخصا تيأ كل قلبه من فعل ظمئه الشديد للعمل ؛ الذى لا يستطيع أن يقوم به فعلا ، لأن من المستحيل عليه أن يتحرك وهو سجين شئ ما »[1] .

ويكتب « توماس مان » T. Mann فى قصته « جوزيف » عن شكل مماثل من الشعور بعدم الاستقرار لدى الفنان عند بحثه عن لحظة الإلهام[81] .

وبالرغم من الاختلاف المنطقى بين مرحلتى الإعداد ، والاختمار فإن تمايزهما ليس قاطعا . فنى أثناء التقاط المبدع لأفكاره يتجه أيضا لبلورة بعضها ، وفى أثناء اختمار الأفكار ، وتبلورها لا يتوقف المبدع عن القراءة ، وجمع الملاحظات ، والمعلومات ، وقد يقوده هذا إلى تغيير مساره الفكرى تماما .

الإلهـام :

أما فى الإلهام فتصل العملية الإبداعية إلى قمتها . وتشرق الفكرة كاملة فجأة على ذهن المبدع . وفى تلك اللحظة تنتظم الأمور كل فى مواقعها الصحيحة . لقد انشغل ذهن « اينشتين » بقضية النسبية منذ أن كان فى السادسة عشر ، قبل أن يلهم إطار نظريته بعد ذلك بعدد من السنين . ومن قبله فى سنة ١٦٨٥ ، لم يستطع « أسحق نيوتن » I. Newton أن يكتشف بأن التفاحة التى سقطت من شجرتها فى حديقته « بوولثورب » قد سقطت بفعل الجاذبية الأرضية إلا بعد سنين طويلة من التهيؤ والإعداد . وكذلك عاش « تشارلز داروين » C.Darwin أعواما عدة يجمع المعلومات قبل أن يلهم نظريته فى تطور الأنواع ، ويقول فى هذا « إننى أستطيع أن أذكر بكل دقة ذلك الموقع من الطريق ، وأنا مستلق فى عربتى عندما قفز الحل إلى ذهنى ، وقد سررت لذلك سرورا بالغـاً (١٣) .

ويتحدث كثير من المبدعين عن الطبيعة الباغتة لالهام الفكرة . ويسميها (دى لا كروا) بأنها صدمة كالانفعال، يختل ساعتها إتزانه، فيحاول أن يمضى إلى اتزان جديد، وتتولد فى الذهن حال وجدانية ، عنيفة حتى لتبلغ الحماسة ، وينساب فى الذهن سيل من الأفكار والصور[٩] . أما « نيتشة »فيصرخ من تلك النشوة بسبب روح البهجة التى تملكته عند كتابته (هكذا أيضا تكلم زرادشت) .

ويعتبر تفسير الإبداع بالإلهام من أقدم التفسيرات على الإطلاق وتشير الملاحظات إلى أن مفهوم الإلهام فى أذهان النقاد والشعراء على مر التاريخ على درجة كبيرة من الغموض ، وعدم التحديد حتى ليبدو التفسير به ـــ لسوء الحظ ـــ مجانباً للصواب ولقد كانت غالبية الأفكار تجمع على تصور الإلهام على أنه قوة لا شعوريه تلقائية تسود لدى بعض الأشخاص فى حالات غريبة وتجعلهم قادرين على الإبداع والخلق . أما التفسير الحديث للإلهام ـــ إذا شئنا أن نبقى على هذا المفهوم وان لانبدله بمفهوم آخر لايثير الشك ـ فيرى أنه سلوك إنسانى،وهو كأى سلوك آخر له شروط تحدده وأفضل تصور له أن نتصوره بصفته عملية عقلية تحدث على نحو مفاجىء تنتظم من خلالها ـ وبفضلها مجموعة من العناصر المشتتة ، فى سياق جـــديد له معناه ، ويساعد على مواجهة المشكلة بطريقةجديدة .

وقد تثير كلمة « مفاجىء » غموضاً مماثلا للتفسيرات السابقة للالهام . غير أننا نعنى « بالمفاجىء » هنا ، أن السلوك يحدث بعد عمليات من الكف(*) المستمر للنشاط العقلى ، فيتحرر الذهن من هذا الكف (أو التصلب) من خلال الأفكار (التى نسميها بالأفكار الابداعية) . معنى هذا أن الإلهام مشروط بالتحرر المفاجىء من الكف . فما الذى نقصده بالكف ؟

نقصد بالكف ـ فى مجال الابداع ، التوقف عن القيام بالنشاط الابداعى بفعل الاستمرار فى نشاط محدد ؛ وهو هنا شبيه بالكف الحركى ، الذى يصيب أيدينا

(*) Inhibition

عندما نقوم بأداء عمل روتيني مستمر ، وفى اتجاه واحد ، فنتوقف عن أدائه لا إرادياً (مثال هذا أن استمرار الضغط بالقلم على سطح معين ينتهى بنا إلى تراخى اليد تلقائياً ، ولا نستطيع الاستمرار فى استئناف العمل لحظة ثم يستأنف بعدها الضغط) . وهو شبيه أيضاً بالكف الذى يصيب عيوننا إذا حملقنا بشدة فى أى منبه خارجى ، إذ ستأتى لحظة تتوقف فيها عيوننا عن إدراك هذا المنبه لحظة ، تستأنف بعدها الرؤية.

كذلك الحال بالنسبة للنشاط الإبداعى ، فان الانشغال المستمر ، الإرادى وإجهاد الذهن فى الوصول إلى حل ، قد يعوقا فى الغالب الفكرة الإبداعية من الإنطلاق ، بسبب توقف النشاط الإبداعى نتيجة للكف .

ومن الغريب أن هذا الكف يزداد حدوثه إذا جاهد الشخص نفسه إراديا على القيام بالنشاط ، فأنت قد تجلس الساعات بقاعة السينما تشاهد مناظرها المتحركة دون أن يفلت منك فيها مشهد واحد ، لكنك إذا قصدت ببصرك إراديا إلى صورة معلقة فسرعان ما ستجد عيناك تغمضان تلقائياً. وأنت قد تكتب الصفحات دون أن يتوقف قلمك ، لكنه سرعان ما يتوقف إذا ما حاولت أن تجاهد نفسك إراديا على الإحساس بحركته ، وأنت تسير الساعات تتحرك خطواتك فى إيقاعات منظمة ولكن ما أن تحاول أن تشعر بكل حركة تقوم بها فى إحدى قدماك ، حتى يضطرب هذا الانتظام ، وقد تسقط أثناء سيرك .

وهكذا أيضاً بالنسبة للنشاط الإبداعى فان انشغال المبدع إراديا بايجاد الحل قد يوقعه فى هذا الكف فيتعثر الوصول إلى الحل ولا ينجح المفكر فى الوصول إلى الحل إلا بعد تبدد هذا الكف . أما كيف يتبدد هذا الكف ؟ فان هذا يتوقف فيما يبدو على طبيعة الشخص ، وعلى أنواع التشريط المختلفة ، التى من شأنها أن تجعل القيام بفعل معين ، أو سلسلة محدودة من الأفعال معجلا لحدوث العملية العارضة . للكف وهى ما يمكن أن نطلق عليها اسم التيسير العقلى (*) .

ولكل شخص أسلوبه فى إحداث هذا التيسير ، ويتكون هذا الأسلوب نتيجة

---

* menta facilitation

لسلسلة طويلة من التوافقات العقلية للوصول بالذهن سريعا إلى العمل . (فشيلر) مثلا كان يملأ أدراج مكتبه بالتفاح المعطوب . (وبروست) كان يعمل فى حجرة مبطنة بالفلين ؛ (وموتسارت) كان يقوم بتمارين رياضية . ويبين لنا التاريخ الشخصى لحياة المبدعين والمفكرين أن كل واحد منهم تقريبا كان يلجأ لطريقة خاصة تيسر له إثارة قدراته الإبداعية . بعضهم مثلا تعود الأصغاء للموسيقى السيمفونية ، وبعضهم يدخن وهو يكتب ، وبعضهم يشرب القهوة أو الشاى طوال فترات العمل . وكان « بودير » يتعاطى الحشيش عندما يريد أن يكتب .

وقد كتب طه حسين فى خطاب له لتوفيق الحكيم « أنت تعلم أن السيجارة تلهمنى كما يلهمك الجلوس على القهوة » (الأهرام ١٩٧٣/١١/١٦) . وقد اعتاد « كانت » kant [١٣] أن يعمل فى أوقات معينة بالنهار وهو فى سريره ، ويحيط نفسه بالأغطية المختلفة بطريقة تسمح له أن يكتب وهو فى هذه الحالة . وقد اعتاد أثناء كتابته لكتاب « نقد العقل الخالص » أن يشخص ببصره — من خلال نافذته — على برج قائم على مسافة قريبة من منزله . وقد أحبط عندما نمت الأشجار فحجبت عنه البرج ، ولم يستطع أن ينهى عمله إلا بعد أن قامت البلدية بإزالة تلك الأشجار حرصاً على فيلسوفها .

والحقيقة أن الأمثلة لا تعد على تلك الوسائل التى يبتكرها الشخص لتحقيق الطرق المناسبة فى التقاط أفكاره . ويبــــدو أن الوظيفة التى تحققها تلك الوسائل لا تزيد عن مجرد تحقيقها لقدر من الاسترخاء ، مما قد يساعد على إعادة تصور الموقف، وصياغته صياغة عقلية جديدة ، ولعل هذا ما يفسر عجز الشخص عن الوصول إلى حلول عقلية خلاقة وهو فى حالة من التوتر العصبى ، والنفسى الشديد . كذلك يفسر عجز العصابيين ، والمرضى النفسيين عن الإبداع الخلاق فى لحظات مرضهم .

وقيمة هذا التفسير أنه يجعل عمليه الإلهام مشروطة ، بشروط بعضها شخصى ، وبعضها بيئى . وبهذا يمكن للشخص أن يفهم الشروط الخاصة به ، والتى تساعده على تحقيق موقع أفضل بالنسبة لإمكانياته الابداعية فيدعمها ، ويؤكدها بشكل متعمد .

إن اضفاء لمحة من السحر،والغموض على عملية الإلهام قد أوقع المفكرين لفترات طويلة فى كثير من ألوان الحرج ، والارتباك ، ولقد دعا البعض على مر تاريخ النقد الأدبى إلى التهوين من شأن كثير من الجوانب الضرورية للعمل الابداعى ، فليس من المطلوب بالضرورة قراءات متعددة ، وتمرس بالفكر ، ومجاهـدة للنفس على التحصيل الثرى طالما أن عملية الإلهام تحدث بذلك الشكل القدرى . لكن الإلهام وفق التصور العلمى لا يمكن أن يحدث دون وجود تلك العناصر الأولى للفكر . وعلى سبيـــل المثال فإن الشخص الذى عاش عمره متصلا بالأدب ، والشعر ، قراءة وممارسة ، فإنه سيلهم كثيراً من الأفكار الأصيلةفى الأدب ، لكن إلهاماته العلمية لن تزيد عن تصورات طالب بالمدرسة الإعدادية ، أو الثانوية على أحسن تقدير. وبالمثل فإن الشخص الذى يعيش عمره مشغولا بالبحث العلمى ، وكتب الطبيعة والكيمياء دون تمرس بفنون الشعر والأدب فإنه من المستحيل أن يلهم بمقاييس الاصـــالة الأدبية والفنية ما يمكننا من وضعه فى زمرة المجودين . وهناك بعض الأشخاص قد استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات فى كلا الجانبين ، غير أن حياة هؤلاء ـ على ندرتهم ـ تكشف عن نهم للتحصيل فى كثير من فروع المعرفة البشرية . وبمقتضى هذا التناول يمكن أن نتصور المعرفة التى يحصلها المبدع بمثابة الخيوط التى يستحيل نسج الثياب دونها . أما اكتشاف الطراز ، أو النموذج الذى تحاك الخيوط وفقه فهذا هو الإلهام .

التحقيق والتعديل :

تدخل العملية الابداعية ـ بهذه المرحلة طورها النهائى . لقد أمكن من خلال الإلهام وضع المادة الخامة فى صياغة محددة المعالم نسبياً أما تحول تلك المادة إلى أشكال متكاملة ونهائية فهذا من شأن ما يقوم به المبدع فى هذه المرحلة . إن على قدراتنـا العقلية من ذكاء وحكم ، وتقييم ، أن تأخذ دورها بجوار فاعلية الخيال الملهم . يقول هنرى أيرنج « H. Eyring » « ليس الابداع مجرد لمحةحدس مفردة ، إنه عادة يتطلب تحليلا دائماً لعزل العوامل الهامة من العوامل العارضة » .

ويجب على المبدع — بالطبع — أن يولى عمله اهتماما أساسيا فى تلك المرحلة ،

فبعد إلهام الفكرة ورصدها تأتى كتابتها ، ومحاولة نشرها متكاملة بعد ذلك . غير أن هذا يتطلب منه وقتاً طويلا . وعلى هذا فقد يستغرق العمل الابداعى من مرحلة الإلهام إلى مرحلة التحقيق الفعلى سنوات عدة ويعتبر « داروين » نموذجاً طيباً لهذا فقد قضى السنوات تلو السنوات ، وهو يعدل من إلهاماته ، ويجمع الشواهد والأدلة قبل أن يجرؤ على نشر بحوثه الأولى .

ويبدو أن أهمية تلك المرحلة تتفاوت بتفاوت الميدان النوعى الذى تصب فيه الطاقة الإبداعية ففى مجال العلم تزداد حاجتنا لتحقيق الفكرة، وتعديلها . ولو أن البحوث تبين أنها مرحلة من مراحل الإبداع الفنى أيضاً . غير أن طبيعة الابتكار العلمى ، وعدم اعتماده على الخيال وحده ، وحاجته للتوثيق ، وجمع الأدلة ، والشواهد ، ووضعها فى نسق مترابط ، وكل هذا يزيد من أهمية عمليات الحكم ، والتقويم فى العمل العلمى . وتقوم تلك العمليات — فى الابتكار العلمى — بدور عظيم الشأن ، بل إنها قد تؤدى إلى تغيير اللمحة الإلهامية الأولى تغييراً كاملا . أما فى مجـــال الفن فإن الاعتماد على الرؤية الذاتية للواقع ، يجعل من الخيال ذى دور رئيسى ، وبالرغم من أن القصيدة الشعرية — مثلا — كما تنشر قد تكون مختلفة عن المسودة الأولى التى كتبها الشاعر ، فان صدى تلك المسودة لا يختفى تماما ، وقد تظهر عباراتها فى كثير من عبارات القصيدة المنشورة .

وتتبدى فى تلك المرحلة أهمية كثير من خصائص الشخصية والعوامل العقلية فالقدرة الذكائية ، والقدرة على تغيير الاتجاه العقلى والمرونة ، والقدرة على التقويم والحكم والاستنتاج ، ومواصلة النشاط العقلى كلها تتضافر معاً فى نسق منتظم من أجل أن يصل العمل الإبداعى إلى بلورته الكاملة .

التفاعل الدينامى بين المراحل الإبداعية :

يهاجم كثير من المفكرين فكرة تقسيم العملية الإبداعية إلى مراحل مميزة لأن هذا من شأنه أن يحول العملية إلى أجزاء متعسفة . ويستشهد المعارضون على ذلك

بأنك لو سألت أحد المبدعين عن تفكيره لحظة الإبداع فانه لايستطيع أن يحدد لك مراحل بهذا الشكل . وسينظر إلى ذلك على أنه تصور متعسف لعملياته العقلية المتفردة . غير أن هذه الحقيقة لا يغفل عنها أنصار هذا الاتجاه ، إذ يدركون أن تلك المراحل هى من أجل تبسيط الدراسة فحسب ، وأن العملية الإبداعية عملية كلية ، بل إنها تبدأ كشكل كلى ، وتنتهى إلى ذلك أيضا . وتدل تجارب (باتريك) و « سويف » فى مجال الابداع الفنى والشعرى ، أن المبدع عادة ما يبدأ من الكل ، وتكون لديه فكرة إجمالية منذ البداية . وأن الشاعر لا ينتقل من بيت إلى بيت ، لكنه ينتقل من وثبة إلى وثبة كإشارة على أن القصيدة الشعر هى مجموعـــة من الوحدات المتكاملة .

ولا عيب منطقياً فى تحليل العملية الابداعية إلى مراحل .. فإن ما يحدث فى زمن ، يمكن تقسيمه إلى أزمان أصغر . أما من ناحية الخبرة ، فيجب أن لا نغفل عن هذا التكامل . فضلا عن هذا فإن التكامل يتطلب أن ننتبه إلى أن قدراً من التداخل بين المراحل لايمكن إغفاله . وقد أشرنا من قبل إلى صعوبة العزل بين مرحلتى الاختمار، والإعداد . وبالمثل فإنه لا يمكن أن نفصل بين الاعداد والإلهام ، أو التحقيق،غير أن الوعى بتلك المراحل من شأنه دون شك — أن يخلق وعياً مماثلا لدى الشخص لضبط طاقاته الابداعية.ووعى المبدع بأنه فى مرحلة معينة من مراحل العملية سيجعله قادراً على تحقيق كل إيجابيات المرحلة وضبط توتره .

نماذج لهذا النوع من التحليل

هل تحدث المراحل الابداعية بكاملها فى أى عمل إبداعى على الاطلاق ؟ أى هل يمر وضع النظرية العلمية الأصيلة فى مراحل الاعداد ، والاختمار والإلهام ، والتحقيق مثلها فى ذلك مثل قصيدة الشعر ، أو لوحة الفنان ، أو رواية الأديب وقصته ؟

هناك عدد من البحوث حاولت أن تضع أيدينا على إجابة لتلك الأسئلة .. وهى توحى عموماً بأنه يمكن تمييز عـدد من المراحل الاضافية ، غير أن أى عمل إبداعى لا يخلو من تلك المراحل الأساسية . وقد تتداخل تلك المراحل وقد تحدث جوانب أخرى . غير أن أى عمل إبداعى يحدث كعملية لها مراحل محددة ، وفيما يلى بعض النماذج

في الشعر :

ففي ميدان الشعر والفن قامت باتريك كاترين P. Catherine[١٥] بتجربتين أحداها على مجموعة من الشعرا ،والأخرى على مجموعة من الفنانين . وفي تجربة الشعرا أخذت مجموعتين : إحداها تجريبية والأخرى ضابطة ، وتتكون المجموعة التجريبية من ٥٥ شاعراً ، والمجموعة الضابطة من ٥٨ شخصاً من غير الشعراء . وطلبت من المجموعتين أن يكتبوا قصائد شعرية بعد النظر إلى صدورة معروضة أمامهم . ثم طلبت منهم بعد ذلك كتابة تقارير استبطانية عن المراحل التي مرت بها العملية الابداعية بداية من النظر إلى الصورة حتى كتابة القصائد وقد استطاعت ـ بعد تحليل تلك التقارير ـ أن تميز أربع مراحل هي نفس تلك المراحل التي أشرنا إليها .

وقد وجدت باتريك فضلا عن هذا أنه كانت لدى أغالبية الأشخاص فكرة عامة منذ بداية مرحلة الاختمار ، ولو أن البعض كانت لديه فكرة أكثر تفصيلا منذ هذه المرحلة . وقد تأكدت أسبقية الكل على الأجزاء بشكل خاص في المرحلتين الأخيرتين . فعندما تصبح الفكرة محدده في مرحلة إلهام تكون عامة ، وتضاف إليها التفاصيل والتعديلات في المرحلة الأخيرة . أما في مرحلة الاختمار فقد تأتى الفكرة الكلية ، أولا ثم الأجزاء دون فروق تذكر، ولو أن التفكير الكلي فيها يكون أكثر شيوعاً . وتذكر التجربة أن ما بين ٤٥ : ٦٠ ٪ من التعليقات في مرحلة الاختمار كانت كاية في مقابل ما بين ٦٦ : ٨٤ ٪ من هذه التعليقات كانت في مرحلة الإلهام .

وقد قام مصطفى سويف[٤] بمحاولة مماثلة لتحليل العمليـة الابداعية في بداية الخمسينيات . وتعتبر تلك المحاولة من أكثر المحاولات عمقاً وشمولا في تحليل العملية الابداعية الشعرية ، وفي تحليل العملية الابداعية بوجه العموم . فمن الناحية النظرية تضمنت تلك الدراسة مجموعة قيمة من الوثائق، والقراءات ، والتقارير النظرية. ومن الناحية التجريبيه قامت محاولته على رصد وتحليل الوثائق الشخصية كالرسائل الخاصة ، ومسودات القصائد ، فضـــلا عن تحليل الإجابات على الاستخبارات والاستبارات الشخصية .

أجرى سويف دراسته على ما يقرب من عشرة شعرا من مصر وسوريا، والعراق من بينهم محمود أمين العالم ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وأحمد رامى ، وعادل الغضبان ، ومحمد الأسمر ، ورضا صافى .. وغيرهم فضلا عن قيامه بتحليلات متعمقة للعشرات من الوثائق الشخصية ، والكتابات لمختلف الشعراء والأدباء فى الشرق والمغرب . ومن خلال تلك التحليلات استطاع أن يلهم كثيراً من الأفكار عن عملية الابداع فى الشعر ، يهمنا منها ما يتعلق بتحديد المراحل .

الأطوار المختلفة للعملية الابداعية فى الشعر — فى رأى سويف — تتمثل فى وجـــود تجربة حاضرة يمر بها الشخص تلتقى بآثار تجربة ماضية قديمة . وتتبادل التجربتان التأثر والتأثير . ويستثير هذا التفاعل بين التجربة الحديثة ، والقديمة نوعاً من التوتر وعدم الاتزان النفسى ، وعدم الاستقرار . وفى مثل هـــذه الحالة يحاول الشخص أن يحقق لنفسه الاتزان ، فيندفع فى نشاط يهدف منه إلى خفض التوتر ، وإعادة الاتزان . ويكون هذا النشاط منتظماً بفعل الإطار الخاص للشخص (وهو عند الشاعر قراءاته الشعرية ، وحصيلته اللغوية والأدبية ، ودافعه الشخصى وغير ذلك) فيكون الاندفاع لكتابة قصيدة . ويمضى الشاعر فى قصيدته . وبناءا على فحص مسودات الشعراء لاحظ سويف أن اندفاع الشاعر لإنهاء القصيدة يمر فى مجموعة من الوثبات . فهو لا يتقدم من بيت لبيت ، بل من وثبة إلى وثبة . ففى لحظات الابداع الشعرى يبزغ أمام الشاعر عدة أبيات دفعة واحدة ، مما يدفعه إلى الإسراع فى كتابتها خشية أن يضيع أحدها ، وقد يكتب أخرها قبل أولها . ويقف الشاعر عند تلك الوثبات يعيدها ويقرأها مرات ومرات لكى يمضى إلى وثبة أخرى خلال الاطار الكلى الذى ينظم الفكرة العامة للقصيدة .

ويمكن للمدقق أن يلاحظ أيضاً هنا بذور المراحل كما أشرنا إليها من قبل . غير أن المرحلة الجديرة بالاهتمام فى هذا التحليل هى فكرة الوثبة بصفتها مميزة للعمل الشعرى بشكل خاص . ويؤكد سويف أهمية الإطار الكلى والتداخل بين المراحل فى تصوره للوثبة ، بصفتها عملية تطلع الشاعر على مشاهد لم يرها من قبل : فيرى الأشيا وقد

تغيرت دلالتها . بمعنى أن دلالة أجزاء العملية تتغير بتغير الكل ، فالتصور العام (البناء والكلى) للقصيدة يوجه الوثبات ، كما أن الوثبات ، بدورها قد توجه بناء القصيدة فى وجهة خاصة وغنى عن الذكر ما فى هذا التحليل من تشابه مع ما بينته « باتريك » من أن الكل يكون سابقاً على الجزء فى عملية الابداع .

فى التصوير والرسم :

وفى مجال التصوير والرسم ميزت باتريك فى تجربتها الثانية على الرسامين نفس المراحل السابقة التى وجدتها فى حالة الشعراء لكن من أطرف الدراسات فى هذا المجال دراسة رودلف أرنهايم R. Arnheim [٣] التى أجراها على تطور لوحة «الجرنيكا»(*) Guernica لبيكاسو Picasso تلك اللوحة التى يعتبرها كثير من الفنانين الملحمة البشرية لإنسان القرن العشرين. فقد رسم بيكاسو فى إطارها الذى لا يقل عن عشرين متراً المآسى التى سببها الألمان بقصفهم لمدينة الجرنيكا فى أسبانيا سنة ٣٧ ١٠

ولكى يقوم « أرنهايم » بهدفه قام بدراسة المسودات أو الاسكتشات المختلفة التى كان يقوم بها « بيكاسو » قبل الدخول فى الرسم ، وبعده وأثناءه . وقد استطاع أرنهايم أن يحصل على ٦١ اسكتشا لتلك اللوحة منها ٥٤ لبعض جزئيات اللوحة ، أما الاسكتشات السبعة الباقية فقد كانت تمثل الرسم كاملا فى مراحل مختلفة . كذلك أورد ٧ لقطات فوتوغرافية للوحة فى حالات نموها المختلفة . وقد أجاب أرنهايم فى دراسته تلك عن عدد من الأسئلة ، بشكل يؤكد صحة الافتراضات السابقة فى بحثى « باتريك » و « سويف » . من هذا مثلا أنه يبين أن بيكاسو قد بدأ برسم اللوحة مرة واحدة ، محتوية على جميع العناصر وفى نفس الأماكن تقريباً ، أى أن الكل سبق الجزئيات . لكنه لاحظ أن كثيراً من الأجزاء قد أخذت أشكالا ، وأبعاداً جديدة فيما بعد ، وأن هذا التغير قد ارتبط من خلال العلاقة بين اللوحة ككل وجزئياتها .

ويستطيع القارىء ممن تتاح له فرصة قراءة تحليل « أرنهايم » « للجرنيكا »

(*) Geurnica

أن يتبين بناءاً للعملية يشابه إلى حد بعيد البناء فى العمليات الابداعية الأخرى بشكل عام ، فالبذرة أو التهيؤ تبدأ منذ أن بدأت المأساة فى المدينة الأسبانية . وتبدأ الفكرة بشكل غير مستقر الأبعاد ، أو محدد المعالم ، ويحاول الفنان الرنو منها شيئاً فشيئاً ، وتنبثق فى ذهنه اللوحة فى إطار متكامل ، ويندفع إلى الرسم ، وأثناء ذلك يستمر فى عمليات التعديل والتجويد ، وتأخذ تلك العمليات شكل وثبات ـ شابهة لما يحدث فى الشعر ـ جزئيات متبلورة ، توضع ، وتؤثر بدورها فى تكوين إطار الصورة . والاطار نفسه يؤدى بدوره إلى تعديل فى الجزئيات . وهكذا فى عدد من المحاولات إلى أن يتم للفنان إنهاء عمله .

فى الرواية :

وفى ميدان الرواية أجرى مصرى حنورة[٢] دراسة حديثة على عـــدد من الروائيين المصريين منهم ١٢ روائى من الأدباء الكبار ، ١٢ روائى من الأدباء الشباب . وقد اشتملت الدراسة أيضاً على مجموعة ضابطة ليس لها اتصال بالأعمال الفنية الابداعية . وقد اشتملت عينة الروائيين على عدد من الأسماء المعروفة من أمثال نجيب محفوظ ، ويوسف السباعى ، ويوسف إدريس ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وعبد الحميد السحار ، وسعد مكاوى ، ونوال السعداوى وغيرهم . لهذا فإن اختيار للعينة جاء ممثلا للروائيين المصريين .

وفى تحليله لإجابات المتطوعين على استخبار قام بإعداده لقياس ديناميات العملية الإبداعيه أثناء التأليف الروائى ، إستطاع أن يضع عددا من التصورات أضاءت بحق كثيرا من جوانب الإبداع الفنى الروائى .

وبالرغم من أن الباحث لم يستخدم هذا النظام التقليدى فى متابعة مراحل العملية الإبداعية فى الرواية ، فإن المراحل التى اقترحها يمكن مضاهاتها بنفس المراحل التى حددناها . لكن الباحث أولى اهتمامه لجانب آخر من مراحل تلك العملية نعتقد أنه يظهر فى الرواية بشكل أقوى . يتعلق هذا الجانب بما يسمى بالقدرة على مواصلة الاتجاه(*)

(*) maintaining of direction

ومن المعتقد أن القدرة على مواصلة الإتجاه من القدرات الأساسية التى تساهم فى تشكيل أداء المبدع لعمله . ويقصد بها تركيز الأنتباه تركيزا شديدا لفترات طويلة فى طريق الوصول إلى الهدف . وعلى سبيل المثال يذكر فيرتهيمر عن أينشتاين[٢٠] أنه ظل معنيا بمشكلاته العلمية الرئيسية لمدة سبع سنوات . غير أن قدرة المبدع على مواصلة الاتجاه لا تكون بشكل متصلب ، . بل إنه فى أثناء مواصلته لتحقيق اتجاهاته يعدل ويبدل من أفكاره لكى يحقق أهدافه الإبداعية بأفضل صورة ممكنه . لكنه فى كل الأحوال لا يتنازل عن هدفه ويظل محتفظا لنفسه بالمرونة المناسبة التى تتيح له اكتشاف السبل الهادية .

وفى الرواية تزداد أهمية هذا العامل ، لأنه يحمى الفنان من التشتت ، وعدم الإتزان. ويتيح له العودة بين كل فينة وأخرى لاستكمال العمل. ومن المتعذر على الروائى، أن ينمى أفكاره ويمتحن صلاحيتها دون قدر مرتفع من القدرة على مواصلة الاتجاه . ويعبر الروائيون عن ذلك بقولهم أنهم يستمتعون بمعايشة فكرية لعملهم ،ولا يستبعدونه من أذهانهم ، أو خيالهم متى حينما يكونون فى غير مواقف الكتابة .

وتتخذ مواصله الإتجاه لدى الروائى أشكالا مختلفة منها :

١ — المواصلة الزمنية والتاريخية : وتبتدى فى احتفاظ المبدع على مدى تقدمه فى العمل بسياق منظم من الأحداث فى اطار واضح المعالم . ومن هنا تظهر أهمية ميل بعض الروائيين إلى قراءة كل ما كتبوه فى روايتهم قبل أن يستأنفوا الكتابة الجديدة فى الجلسة التالية .

٢ — المواصلة الادراكية : فى موضوع فعل يستغرق حيزا مكانيا وزمانيا طويلا يكون الادراك عاملا حاسما .

٣ — المواصلة الخيالية : أى القدرة على تنمية الصور الخيالية دون تناقض أو

شطط . فالروائى يبنى معظم أحداثه فى الخيال ، حتى ما يستمده منها من الواقع يصير محكوما بعد ذلك بالخيال . لهذا فن الضرورى أن يتمتع المبدع الروائى بقدرة هائلة على مواصلة خيالاته وتنميتها .

٤ — المواصلة المنطقية والتقييمية : فالنتائج يجب أن تتفق مع المقدمات ، وعلى الكاتب أن يقوم بجهد كبير للاحتفاظ بلغة خاصة لكل شخصية ، وأن يجاهد نفسه على خلق روابط معنوية بين أفكار القصة ، وأن يكون لكل فكرة دور وظيفى له معناه . ولا شك أن هذا الجانب يعتبر من اهم الجوانب المميزة للأعمال الروائية المتميزة عن غير المتميزة . فالعمل الروائى الجيد هو الذى يستطيع صاحبه أن يحتفظ لنفسه قصصه بنسق منطقى محدد ذى بئرة وجبرانية واحدة .

٥ — المواصلة الايقاعية والمزاجية : فالمبدع الروائى يستطيع أن يستأنف حالته الوجدانية السابقة عندما يبدأ فى الكتابة ، بالرغم من أن حالته قبل ذلك تكون مختلفة عنها فى غيرها من المواقف . ويجاهد الروائيون أنفسهم كثيرا على بذل الجهد للاحتفاظ بحالة مزاجية مختلفة عن حالته الطبيعية فى غير جلسات الكتابه .

٦ — المواصلة الفيريقية والأدائية : فن المطلوب أن يحتفظ المبدع بقدر من الطاقة البدنية والنفسية يساعده على الاستمرار فى عمله . وعلى سبيل المثال يذكر « جورج سيمنون » أنه يبد أقبل كتابة قصة فى إستدعاء الطبيب للتأكد من عدم توقع منغصات لمدة ١١ يوم على الأقل . فيقيس الضغط ، ويفحص أعضاءه ، ثم يوافق بعد ذلك على البدء فى العمل .

* * *

نكتفى بهذا القدر من التحليل الدينامى للعملية الابداعية بشكل عام ، ثم فى مجالات الشعر ، والتصوير ، والرواية . . ونتتقل الآن إلى ما يسمى بالتحليل البنائى للعملية الإبداعية .

(ب) بناء العملية الإبداعية والقدرات الرئيسية

هناك أسلوب أخر فى تحليل العملية الإبداعية . وبمقتضاه ننظر إلى الإبداع بصفته مجموعة من السمات ، أو العوامل التى تميز الشخص المبدع . ويسمى الشخص مبدعا إذا ما ظهرت فى سلوكه الفكرى تلك السمات أو العوامل .

ولاكتشاف العوامل الرئيسية فى العملية الإبداعية تتجه عادة إلى وضع فروض نظرية نحلل بمقتضاها العملية الكلية إلى عدد من السمات التى ترتبط فيما بينها ارتباطا مرتفعا ، وترتبط بمجموعة من السمات الأخرى ارتباطا سلبيا . وتسمى تلك المجموعة المرتبطة من السمات باسم : العامل * . ويسمى الأسلوب المستخدم فى تحديد هذا العامل : التحليل العاملى**.

ويعتبر جيلفورد — العالم الأمريكى الذى سبق أن اشرنا إلية فى أكثر من موضع — هو أول من بدأ البحث عن العوامل الرئيسية للابداع مستخدما المنهج الاحصائى السابق للتحليل العاملى (١٠ ، ١١ ، ١٢) .

وقد افترض جيلفورد أن التفكير الإبداعى — فى الفن أو العلم — هو التفكير الذى يظهر فى المجالات التى لاتتطلب إجابة واحدة صحيحة — كما هو الحال فى الذكاء — بل هناك فقط إجابات أفضـــل من الأخرى . فنحن لا نستطيع أن نقول بأن تلك الرواية أصبح من تلك الرواية ، أو أن تلك القصيده ، أو القصة ، أو النظرية أصح من مثيلاتها من القصائد ، أو القصص ، أو النظريات إنما نقول إنها أفضل ، أوأنسب. وقد استخدم جيلفورد التحليلات الاحصائية العاملية لتحديد العوامل الأساسية المميزة لأى فكر إبداعى .

وبمقتضى التحليل العاملى يتجه الباحث إلى تحديد معاملات الارتباط بين عدد من الإختبارات لقياس السمات أو المتغيرات التى يفترضها الباحث . ويكون ذلك بأن

* Factor ** Factor analysis

نطبق تلك الإختبارات على مجموعة من الأفراد (يحسن ألا تقل عن مائتين) ، وأن نستخرج معامل الإرتباط بين تلك الاختبارات وهـــو عبارة عن معادلة إحصائية تمكننا من الوصول إلى قيمة عددية تحدد لنا مقدار التداخل بين المقاييس أو الترابط بينها . ويجرى على تلك المعاملات الارتباطية المستخلصة بعض الاجراءات الرياضية لاكتشاف مجموعة الإختبارات التى ترتبط فيما بينها ارتباطا مرتفعا ، ولكنها لا ترتبط باختبارات المجموعة الأخرى . وتسمى كل مجموعة من تلك باسم العامل ، والعامل بهذا المعنى مفهوم يبتكره الباحث لكى يعطى ، ويفسر الاتساق والترابط الموجود فى مجموعة من المقاييس دونا عن المقاييس الأخرى .

وبفضل التحليل العاملى أمكن مثلا أن نكتشف وجود عامل عام للذكاء أى أن اختبارات مثل : الاستدلال ، وإدراك العلاقات المكانية ، والتجريد ، والفهم اللفظى وغيرها ترتبط فيما بينها . بمعنى أن الشخص الذى يحصل على درجة مرتفعة فى اختبار للاستدلال — بصفته عينة من السلوك الاستدلالى العقلى — سيميل للتصرف بطريقة ماهرة أيضا فى استخلاص العلاقات المكانية ، أو القدرة على التجريد ، أو الفهم اللفظى. وبفضله أمكننا أن نحددمثلا أن اختبارات الذاكرة لا ترتبط بتلك الاختبارات ما يدل على أن الذاكرة مستقلة عن الذكاء . أى أن قوة الذكرة أو ضعفها ليس دليلا على ارتفاع الذكاء أو انخفاضه . وبفضل التحليل العاملى أمكننا أن نتبين مثلا أنه لا يوجد اتساق أو عامل عام للأمانة بمعنى أن الشخص الذى يظهر درجة مرتفعة من الأمانة فى موقف لن يتصرف بالضرورة بمنتهى الأمانة فى المواقف الأخرى . فالغش فى الامتحان ليس مقياسا لخيانة الأصدقاء ، أو السرقة أو غير ذلك . والحقيقة أن التحليل العاملى فيما لا يزيد عن ½ قرن قد استطاع أن يمكننا من اكتشاف الشىء الكثير عن تحليل السلوك الانسانى تحليلا علميا فى مجالاته المختلفة .

أما بالنسبة لاستخدام التحليل العاملى فى مجال الإبداع ، فقد أمكن بفضله اكتشاف أن هناك عوامل أساسيه مستقلة للقدرة الإبداعية ، بدونها لانستطيع أن نتحدث عن وجود ابداع . من هذه العوامل ما يأتى :

الطلاقة * : ويقصد بها القدرة على انتاج أكبر عدد من الافكار الابداعية . فالشخص المبدع شخص متفوق من حيث كمية الأفكار التى يقترحها عن موضوع معين فى وحدة زمنية ثابتة بالمقارنة بغيره . أى أنه على درجة مرتفعة من القدرة على سيولة الأفكار ، وسهولة توليدها . وتتوافر هذه القدرة فى بعض الأشخاص بقدر مرتفع . مثال ذلك ما يذكر « كايمنت آتلى » عن ونستون تشرشل أنه كان يستطيع دائما أن يقدم على الأقل عشر أفكار لأى مشكلة . كذلك يذكر نقاد الأدب أن « شكسبير » يمتاز بقدر مرتفع من هذه القدرة . فليس ثمة مسرحية فيها ذكر للحيوانات والجوارح كما فى « الملك لير » . وقد ملأ شكسبير مسرحيته تلك بكثير من رموز الرعب . فهو يذكر أربعة وستين حيوانا مختلفا ١٣٣ مرة . كما أن معرفته فى تلك المسرحية وغيرها بالنباتات ، وأسمائها ، ومزاياها تكاد تكون مذهلة(٥) .

وتتخذ مقاييس القدرة على الطلاقة أشكالا عدة منها مثلا : سرعة التفكير بإعطاء كلمات فى نسق محدد (تبدأ مثلا بحرف معين أو مقطع ، أو تنتهى بحرف معين أو مقطع) ؛ ومنها التصنيف السريع للكلمات فى فئات خاصة ، أو تصنيف الأفكار حسب متطلبات معينة (مثلا القدرة على ذكر أكبر عدد من أسماء الجمع ، أو أسماء الحيوانات ، أو الأشياء الصلبة ، أو البيضاء . أو أكبر قدر من الاستعمالات لقالب الطوب ، أو علبة ، أو أكبر قدر من العناوين لقصة . . الخ) ؛ ومنها القدرة على اعطاء كلمات ترتبط بكلمة معينة (كذكر أكبر عدد من التداعيات لكلمة كلب ، أو ليل ، أو حرب . . الخ) ؛ ومنها القدرة على وضع الكلمات فى أكبر قدر ممكن من الجمل والعبارات ذات المعنى . . وهكذا .

٢ — المرونة : (**) ويقصد بها الاشارة إلى القدرة على تغيير الحالة الذهنية بتغير الموقف . أى أن المرونة هنا تعتبر عكس ما يسمى بالتصلب العقلى الذى يتجه الشخص بمقتضاه إلى تبنى أنماط فكرية محددة يواجه بها مواقفه الفعلية المتنوعة . ومن المطلوب بالطبع أن يكون الشخص المبدع على درجة مرتفعة من المرونة ، والتلوين

---

* Fluency ** Flexibility

العقلى ، حتى يكون الشخص قادرا على تغيير حالته العقلية لكى تتناسب مع تعقد الموقف الإبداعى . ولاشك أن جزءا كبيرا عن أمراض العملية الإبداعية فى مجال الفنون فى مجتمعنا يكمن فى انخفاض هذه القدرة لدى كثير من فنانينا . ففى مجال الغناء نجد للأسف بعض الفنانين يميلون إلى تبنى لون واحد من الغناء ، وفى الموسيقى شكل واحد من الايقاع ، وفى الرسم . . وفى القصـــة وغير ذلك . ومن شأن هذا التبنى لأسلوب واحد تقليدى أن يقضى على كثير من مظاهر الثراء الإبداعى ، والتنوع .

ويتخذ التعبير عن المرونة مظهرين . أولها قدرة الشخص على أن يعطى تلقائيا عددا متنوعا من الاستجابات لا تنتمى إلى فئة ، أو مظهر واحد ، وإنما تنتمى إلى عدد متنوع . أى الإبداع فى أكثر من إطار أو شكل . ويسمى هذا النوع منه المرونة التلقائية* . وهى التى يمكن تحديدها لدى الفنانين ؛ والأدباء الذين ينجحون فى اعطاء منتجات إبداعية متنوعة ولا تنتمى لإطار واحد .

أما الشكل الأخر من المرونة فيتعلق بالسلوك الناجح لمواجهة موقف أو مشكلة معينة ، فإذا لم يظهر هذا السلوك يفشل الشخص فى حل المشكلة أو مواجهة الموقف . ويسمى هذا النوع من المرونة باسم المرونة التكيفية** لأنها تحتاج لتعديل مقصود فى السلوك ليتفق مع الحل السليم . فإذا علقنا خيطين فى طرفى الحجرة بحيث يكون كل منهما بعيد عن الآخر ، وطلبنا من مجموعة من الأشخاص كل منهما على حده أن يقف فى وسط الحجرة ، وأن يحاول أن يجد حلا يستطيع أن يساعده على الإمساك بالخيطين فى وقت واحد ، فان الشخص المرن سيستطيع أن يسلك سلوكا ناجحا يمكنه من مواجهة هذه المشكلة فيقترح مثلا القيام بأرجحة أحد الخيطين عند تناول الخيط الآخر . أما الشخص غير المرن عقليا فإنه لن يستطيع أن يجد حلا لتلك المشكلة لأنه لن يستطيع أن يواجه الموقف المتغير بحالة عقلية جديدة ومناسبة . قس على هذا كافة المشكلات التى تواجهنا وتحتاج منا لحلول مرنة من هذا النوع .

---

* Spontaneous flexibility ** adaptive Rlexibility

٣ — الحساسية للمشكلات* :(١٢) الشخص المبدع يستطيع رؤ يةالكثير من المشكلات فى الموقف الواحد . فهو يعى الأخطاء ، ونواحى النقص والقصور ، ويحس بالمشكلات إحساسا مرهفا .

ولا شك أن الأشخاص الذين تزداد حساسيتهم لادراك أوجـــه القصور ، والمشكلات فى المواقف العقلية والاجتماعية تزداد فرصتهم لخوض غمار البحث والتأليف فيها . فإذا قاموا بذلك فإن الإحتمال سيزداد أمامهم نحو الإبداع الخلاق . وتبين دراسات العلماء والأدباء ، والفنانين أنهم بالفعل من ذوى الإحساس المرهف فى إدراك الثغرات ، ونواحى القصور ، وبداية من هذا الإحساس تنطلق امكانياتهم نحو سد الثغرات ، أو فهم الغموض المحيط ، إما بزواية ، إو نظرية علمية ، أو بقصة . . الخ .

ويتحدث بعض العلماء عن هذه القدرة بمصطلحات أخرى كارتفاع الوعى ويقول Kneller فى هذا المعنى ان الشخص المبدع أ كثر حساسية لبيئته من المعتاد . فهو يرقب الأشياء التى لايرقبها غيره ، كالألوان ، وملمس الأشياء ، واستجابات الآخرين ، وبعض الفقرات فى الصحف اليومية ، وبعض الثغرات فى الأفكار الشائعة وغيرها . وهو بهذا المعنى أ كثر تفتحا على بيئته . ويقوم من خلال مجهوداته الإبداعية بعد ذلك بدافع من تلك الأشياء إلى محاولة فهمها ، ووضعها فى إطار آخر .

الأصالة** : الشخص المبدع ذو تفكير أصيل أى أنه لايكرر أفكار المحيطين به ، فتكون الأفكار التى يولدها جديدة إذا ما حكمنا عليها فى ضوء الأفكار التى تبرز عند الأشخاص الآخرين : ويمكن الحكم على الفكرة بالأصالة فى ضوء عدم خضوعها للأفكار الشائعة ، وخروجها عن التقليدى ، وتميزها . والشخص صاحب التفكير الأصيل هو الشخص الذى ينفر من تكرار أفكار الأخرين ، وحلولهم التقليدية للمشكلات .

* Sensetivty to Problems

** Originality

وإذا نظرنا إلى الأصالة فى ضوء عاملى الطلاقة والمرونة والحساسية للمشكلات . نجد أنها تختلف عن كل منهما فهى :

(١) لا تشير إلى كمية الأفكار الإبداعية التى يعطيها الشخص ، بل تعتمد على قيمة تلك الأفكار ، ونوعيتها ، وجدتها وهذا ما يميزها عن الطلاقة .

(٢) ولا تشير إلى نفور الشخص من تكرار تصوراته ، أو أفكاره هو شخصيا (كما فى المرونة) بل تشير إلى النفور من تكرار ما يفعله الآخرون وهذا مايميزها عن المرونة .

(٣) وهى لا تتضمن شروطا تقويمية فى النظر إلى البيئة ، كما لا تحتاج إلى قدر كبير من الشروط التقويمية المطلوبة لنقد الذات حتى يستطيع الفكر المبدع أن ينهى عمله على خير وجه (كما هو الحال فى الحساسية للمشكلات) ، وهذا ما يميزها عن الحساسية للمشكلات التى تحتاج لقدر مرتفع من التقويم سواء فى تقويم البيئة ، أو الذات .

٥ — <u>مواصلة الإتجاه أو الاحتفاظ بالاتجاه*</u> : الشخص المبدع — كما أشرنا من قبل — يمتاز بطريقة خاصة فى إطلاق طاقاته تتمثل فى التركيز على العمل الذى هو بصدده لفترات لاحد لها . وهو بعبارة أخرى على قدر مرتفع من التركيز المصحوب بالانتباه طويل الأمد على هدف معين ، وبالرغم من المشتتات أو المعوقات التى تثيرها المواقف الخارجية ، أو التى تحدث نتيجة للتغير فى مضمون الهدف . وتظهر هذه القدرة فى إمكانية الشخص ، وقدرته على متابعة هدف معين وتخطى أية مشتتات ، والالتفاف حولها ، بأسلوب يتسم بالمرونة .

هذه هى أهم العوامل التى أمكن استخلاصها كمميزة للتفكير الإبداعى حتى الآن . وبالطبع من الممكن اكتشاف عوامل أخرى ، ويحتاج هذا بدوره إلى قدرة ابتكارية لتكشف عالم الابتكار .

---

* Maintainirg direction

ولعل من أهم النتائج التي يعطينا إياها هذا التحليل أن كل عامل من تلك العوامل له مقاييسه الخاصة التي تساعد على تمييز الأشخاص المرتفعين في هذه القدرة أو تلك . ومن شأن هذه المقاييس أن تؤدى بدورها — عند تطبيقها على أفراد في أى مجموعة إلى تشخيص المرتفعين ، أو المنخفضين لأغراض مهنية أو ا كلينيكية .

وعلى سبيل المثال فإذا وجدنا مثلا أن طلاب كليات العلوم يحتاجون لقدرة مرتفعة من الحساسية المشكلات لكي يكونوا باحثين علمين مبدعين فإننا يمكن باستخدام مقاييس الحساسية للمشكلات لهذا الغرض . وبالمثل إذا وجدنا أن طلاب أقسام اللغات الأدبية بكلية الآداب قد يحتاجون إلى قدرات مرتفعة في الطلاقة ، أو المرونة العقلية ، فإننا نستطيع باستخدام تلك المقاييس أن نختار أفضل المتقدمين لهذا الغرض بناءا على درجاتهم على تلك المقاييس .

وفي مجال الأمراض العقلية يتبين أن بعض القدرات الإبداعية تكون سريعة التأثر بالمرض العقلي فتتدهور لدى الشخص ، بينما بعضها الآخر لايتأثر . فحالات الفصام تتأثر لديهم القدرة على المحافظة على الإتجاه تأثرا بالغاً ، ولكن القدرة على الطلاقه لا تتأثر كثيرا . وعلى هذا فمن الممكن استخدام مقاييس محافظة الإتجاه كأسلوب من أساليب تشخيص بعض الحالات العقلية .

وسنجد كذلك عند حديثنا عن تدريب القدرات الإبداعية أن من الممكن تنشيط القدرة الإبداعية وتنميتها لذلك فإن استخدام مقاييس لقياس العوامل السابقة أمر ضروري لتحديد البرامج المناسبة لتدريب القدرات المختلفة ، وكذلك ضرورية لتقويم برامج التدريب والكشف عن جوانب التقدم والنمو .

الخلاصة

يتجه الاهتمام بتحليل القدرات الإبداعية في اتجاهين :

(١) التحليل الدينامى للعملية الابداعية بتحديد مراحل العمل الابداعى . ويتجه السيكلوجيون إلى النظر للعملية الابداعية وفق هذا التصور بصفتها عمليه كلية يمكن تحليلها — لغرض البحث والتفحص العلمى — إلى مراحل أربـــع هى : التهيؤ ، والاختيار ، والإلهام ، والتحقيق والتعديل . ويكشف الباحثون الفنيون أن هناك مراحل أخرى يمكن تحديدها وتمييزها وفق الميدان الذى تحل فيه تلك العملية فهناك مرحلة الوثبة فى الشعر ، وهناك مواصلة الاتجاه فى الرواية وهكذا .

٢ — التحليل البنائى : باستخدام التحليل العاملى . يحدد السيكلوجيون عددا من العوامل الرئيسية التى تميز أى عمل ابداعى . ومن العوامل التى أمكن تحديدها : الطلاقة ، المرونة ، الحساسية للمشكلات ، الأصالة ، مواصلة الاتجاه ، والاحتفاظ به .

ويجد السيكلوجيون أن تحليل العملية الابداعية عمل على دجة كبيرة من الأهمية من حيث أنه يساعد على تشخيص جوانب الابداع التى يحتاجها كل ميدان إبداعى بالمقارنة بالميادين الأخرى . كما أنه يساعد على تحديد الفروق الفردية لاغراض الاختيار ، والتشخيص ، والتدريب .

المراجع العربية

(١) إبراهيم . عبد الستار . الأصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية . رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٢ (غير منشورة) .

(٢) توفيق الحكيم . زهرة العمر . (عن مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفنى ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩ .

(٣) حنورة ، مصري ؛ الأسس النفسية للابداع الفني : في الرواية . رسالة ماجستير . مقدمة لكلية الآداب ـ جامعة القاهرة . ١٩٧٣ (غير منشورة) .

(٤) سويف . مصطفى . الأسس النفسية للابداع الفنى : فى الشعر . القاهرة : دار المعارف . ١٩٥٩ .

(٥) شكسبير . الملك لير . ترجمة وتقديم جبرا إبراهيم جبرا . القاهرة : روايات الهلال .

(٦) فريج . صفوت . الأداء الإبداعى لدى القصاصين . رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب ـ جامعة القاهرة . ١٩٧١ (غير منشرة) .

المراجع الأجنبية

(7) Barron, F., Creativity & Psychological Health, New York: Nostrand, 1963.

(8) Beharriell, F. J., Freud Debts to literature, in Psychoanalysis & the Future; New York : National Psychological Association for Psychoanalysis 1957.

(9) Delacroix, H., Psychologie de lârt (Quoted by Soueif, op. cit; 1959).

(10) Guilford; C. P.; Creativity. Presidentni al Address. in Sidney Parnes & Harold Harding (eds.) A Source Book for Creative Thinking. New York : Scribner. 1962.

(11) Guilford. J. P.. Originality : Its measurement & developm-ent. in Parnes et. al. des. Ibid.

(12) Guilford. J. P.. Creative Abilities in tn Arts. in M. T. Mednick & S. Mednick. (eds.) Research in Personolity. New York : Holt. 1963.

(13) Kneller. G. F.. The Art & Scien ce of Creativity. New York : Holt. 1965.

(14) Keats. J.. The letters of John keats. Quoted by Soueif. op. cit.. 1959.

(15) Nietzshe. Also Sprach Zarathustra. Quoted through Kneller op. cit.. 1965 (p. 55).

(16) Patrick. C.. Creative Thought in Poets. in Parnes et al. (eds.) op. cit. 1962.

(17) Picasso. pablo. Quoted by kneller. op. cit. 1965 (P. 49).

(18) Psychologi cal Abstracts. index of 1967 volume.

(19) Thomas Mann.. Joseph. Quoted by kneller. op. cit.. 1965.

(20) Wallas. C.. The Arts of thought. Quoted through Youtz Psychological Foundations of Applied Imagination. in Parres. op. cit.. 1962.

(21) Wertheimer. M.. The Productive Thinking. London ; Social Science Paperbacks. 1966.

(22) Van Gogh. Quoted by Brewster Ghisellin (ed.) The Creative Process. Calif : University of California. 1952.

الفصل الثالث

سيكولوجية التذوق الفنى

تذوق الجمال(*) خبرة مألوفة لنا جميعاً ، نرى الأشياء الجميلة فتثير فينا أسمى المشاعر وتجعلنا نستغرق فى محاولة استكشاف ما تنطوى عليه من روعة وتناسق وجدة وعبقرية . ولقد شغلت قضايا الجمال اهتمام الفلاسفة ونقاد الفنون والآداب منذ أقدم العصور وحاولوا أن يصلوا إلى معرفة كنه الجمال أو ما يجعل الشيء الجميل جميلا ، وأن يحددوا شروطاً لابد من توفرها فى الشيء الجميل . وعندما جاء علم النفس التجريبى منذ أكثر من مائة عام أعطى قدراً كبيراً من الاهتمام لتذوق الجمال . وأجرى فخنر Fechner التجارب الدقيقة على التذوق ونشر سنة ١٨٧٦ كتابه « مبادىء التذوق الفنى » . ومنذ ذلك الوقت أجرى علماء النفس الكثير من الدراسات والتجارب المتصلة باستكشاف هذه الظاهرة الإنسانية . وشهدت السنوات القريبة نشاطاً كبيراً فى دراسة التذوق ، واستفادت هذه الدراسة مما وصل إليه علم النفس من نمو كبير فى أساليب البحث ومناهجه ، وأساليب القياس والتحليل الإحصائى . فأعان كل ذلك على تحقيق إنجازات كبيرة تساعد على تحقيق مزيد من الفهم للتذوق الفنى .

ويتركز اهتمام الدراسة السيكولوجية لتذوق الفنى على محاولة التعرف على خصائص الشيء الجميل سواء كانت عناصر جمالية معينة أو تآلفاً متناسقاً من هذه العناصر . وما هى طبيعة الخبرة النفسية التى يمر بها المتذوق عند استغراقه فى تأمل شيء جميل ؟ . وما هى سمات الشخصية المرتبطة بالتفضيل الفنى ؟ أو هل هناك مثلا

(*) التذوق الفنى (علم الجمال) : Aesthetics

فروق فى سمات الشخصية بين من يفضل الموسيقى الكلاسيكية على موسيقى الجاز أو الموسيقى الشعبية ؟ أو من يفضل الشعر القديم على الشعر الحديث ؟ . وهل هناك اتفاق أو تشابه بين الأفراد والجماعات فى النظرة الجمالية ؟ وهل هناك فروق حضارية فى تذوق الجمال .. يهتم علم النفس بدراسة هذه المشكلات وغيرها دراسة موضوعية دقيقة .

ونقطة البداية فى الدراسة السيكولوجية هى ملاحظة التقديرات الجمالية التى يصدرها الأفراد على الأشياء المختلفة سواء كانت هذه الأشياء ترابطات من الأشكال والألوان كما هو الحال فى الفنون التشكيلية أو كلمات كما هو الحال فى الشعر أو أصوات كما هو الحال فى الموسيقى . فالذى يتناوله عالم النفس بالدراسة هو العلاقة « بين منبه (صورة أو شعر أو قطعة موسيقى) ، وشخص يستجيب لهذا المنبه بطرائق مألوفة معينة . وتكون الاستجابة — فى العادة — استجابة لفظية ، ولكن من الممكن أيضاً .. تسجيل الأرجاع الفزيولوجية التى تدل على الانفعال مثل ضربات القلب ، ومعدل النبض ، وحرارة الجسم أو التغيرات فى جودة التوصيل الكهربائى للجلد ! ! (٩) فهذه الأرجاع تدل على وجود انفعال لدى الشخص بما يشاهده أو يسمعه . ونستطيع أن نحلل التذوق الفنى إلى النقاط التالية :

١ — العناصر الجميلة ، وتآلف هذه العناصر فى صيغ مركبة من الألوان أو الكلمات أو الأصوات .

٢ — خبرة التذوق من إحساس وإدراك واكتساب معلومات وما يترتب على ذلك كله من استثارة للدوافع والانفعالات المحببة التى يحرص الشخص على الوصول إليها .

٣ — علاقة التذوق بمتغيرات الشخصية وسماتها .

٤ — أوجه التشابه والاختلاف بين الأفراد والجماعات فى التذوق .

وسوف نتناول كل نقطة من هذه النقاط محاولين أن نلقى الضوء على أهم ما توصلت إليه الدراسات النفسية للتذوق فى كل منها .

عناصر الجمال :

إذا أخذنا الفنون التشكيلية أو الموسيقى أو الشعر نستطيع أن نحلل كلا منها إلى عناصره الأساسية ، كالألوان مثلا أو الأصوات أو الكلمات ثم نحاول التعرف على استجابة الأفراد لها ، وهل تثير لديهم الاحساس الجمالى أم لا . كذلك يمكن أن نتعرف على الاثر الذى تتركه الصيغ المركبة من هذه العناصر . كتصاحب ألوان معينة مع بعضها ، أو أشكال مركبة أو ألحان موسيقية متكاملة .

الألوان الجميلة :

كلنا نعرف أن الألوان تختلف فيما بينها فى درجة ما تثيره فينا من إحساس جمالى . ويتضح لنا جمال الألوان فى الطبيعة أو فى اللوحات الفنيه أو الأشكال الاخرى ، كما يتضح جمال الالوان حتى ولو لم تكن هناك أشكال تحملها كأن نعجب مثل بلون الجدران الجميل .

وقد اعتقد البعض أن تأثير الالوان يمكن أن يكون راجعا للخبرات السابقة للفرد . فنحن مثلا نحس بأن اللون الاحمر واللون الاصفر لونان دافئان لانها ارتبطا غالبا بضوء الشمس وحرارة النار ، ويبدو اللون الاخضر مريحا لانه ارتبط بهدوء الريف وسلامه . (15) غير أن الدراسات التجريبية التى أجريت على عينات مختلفة من الاشخاص الراشدين من الجنسين والافراد المنتمين لجنسيات مختلفة ، وسلالات عنصرية متباينة ، تشير هذه الدراسات إلى أن هناك اتفاقا كبيراً بين هؤلاء الافراد فى ترتيبهم للألوان الاساسية حسب مقدار ما تثيره لديهم من إحساس جمالى . (1)

وقد جمع عالم النفس أيزنك Eysenck نتائج الدراسات التى أجريت على عدد ضخم من الافراد (٢١٦٠٠ شخصاً) من الذكور والاناث البيض والسود ومن مختلف بلاد العالم . وكان ترتيب الالوان حسب درجة تفضيلها تنازليا كالآتى (الازرق — الاحمر — الاخضر — البنفسجى — البرتقالى — الاصفر) . (من خلال : عبد السلام الشيخ ، ١٩٧٣) .

ويوحى هذا الاتفاق الكبير بين كل هؤلاء الأفراد بوجود أساس فزيولوجى فى الجهاز العصبى يجعلنا نفضل الألوان التى لها موجات ذات طول معين على غيرها من الألوان .

هذا بالنسبة للألوان المفرده ، فماذا عن تناسق أو تآلف الألوان ؟ إن خبرتنا اليومية توضح أن هنالك ألواناً تتمشى مع بعضها وألواناً أخرى لا تتمشى مع بعضها إطلاقاً ، فما هو الأساس السيكولوجى لتآلف الألوان وتنافرها ، وما يترتب على ذلك من إحساس جمالى ؟

يعتمد تفضيل الألوان المترابطة على عاملين : أولهما يتعلق بتفضيل الألوان المفردة التى يشتمل عليها الترابط . فلو كان اللونان اللذان يترابطان معا كلاهما محببان إلينا كان الترابط الناشئ عن اجتماعها محبباً إلينا . أما إذا كان كلاهما مكروها يكون الترابط الناشئ مكروها . أما إذا كان أحدهما محبباً والآخر مكروها أو كان كلاهما محايداً فالترابط الناشئ يكون محايداً . ويتعلق العامل الثانى بتقارب الألوان وتباعدها فى اللون . فكلما تقاربت الألوان فى صبغتها اللونية كلما كان الترابط الناشئ أقل جمالا ، وكلما تباعدت كلما كان ترابطها أكثر جمالا . وأكثر أزواج الألوان تفضيلا تلك المكملة لبعضها .

الخطوط والأشكال المفضلة :

من المشوق حقا ، ومن المدهش أن نعرف أن الخطوط البسيطة بينها تفاوت فى مدى ما تثيره من إحساس جمالى . وقد استخدمت فى تجارب التذوق خطوط بسيطة مستقيمة أو منحنية ، دائريه أو بيضاوية ، متفاوته فى سمكها وأطوالها . فوجد أن الأفراد يحسون بجمال خطوط معينة . غير أنه لوحظ أن هنالك فروقاً بين الأفراد فى الاحساس بجمال الخطوط ، كما أن الفرد الواحد يتغير إحساسه بجمال الخط البسيط من وقت لآخر ، والعامل المؤثر هو ما يوحى به الخط للشخص . ويلاحظ أن الخطوط البسيطة التى تشتمل عليها الصور واللوحات الفنية تأخذ دلالتها من الشكل الكلى

ولذلك يحدد الشكل الكلى إلى حد كبير معنى ودلالة العناصر الجزئية(1) . كذلك يلاحظ أن الأشكال المائلة أو المنحنية أو المتموجة توحى بالحركة ، ومثل هذه الأشكال إذا انطوت على الإيحاء بحركة سلسلة متناسقة أشاع ذلك لدى الناظر إحساساً بالمتعة والارتياح .

القطاع الذهبى :

لوحظ منذ العصور القديمة أن تقسيم الأطوال أو الأشكال حسب نسبة معينة يعطى إحساساً كبيراً بالجمال . وقد أطلق اقليدس على هذه النسبة اسم « النسبة المتوسطة والمتطرفة » ، وفى العصور الوسطى أطلق عليها اسم النسبة المقدسة . فعندما نريد تقسيم خط أو مساحة أجمل قسمة ممكنة يجب أن تكون نسبة الجزء الأصغر إلى الجزء الأكبر مساوية لنسبة الجزء الأكبر إلى الخط الكلى (مجموع الجزئين) . وقد شاع نسبة معادلة القطاع الذهبى إلى عالم الجماليات زايسنج **zeising** الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، إلا أن ذلك ليس دقيقاً كل الدقة (5) .

ويتضح قانون القطاع الذهبى فى الأعداد التالية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٨ ، ١٣ ، ... فكل عدد هو عبارة عن مجموع العددين السابقين عليه . وقد أوضح علماء الجماليات أن هذه النسبة الذهبية تتوفر فى كثير من الأشياء الجميلة من حولنا ، كأوراق النباتات والزهور والجسم البشرى . فمثلا يقال إن الوجوه الجميلة تتميز بأن النسبة بين المسافة من الذقن إلى الرموش والنسبة من الرموش حتى قمة الرأس تتمشى مع قانون القطاع الذهبى . كما اتضحت النسبة الذهبية فى الأهرامات والمعابد القديمة ، ورسوم عصر النهضة وغيرها . وفى العصر الحديث استخدمت النسبة الذهبية فى اضفاء الجمال على الأشياء المصنوعة كبطاقات اللعب وبطاقات الدعوة والكتب وغيرها .

معانى الخطوط والأشكال والألوان :

هل تثير الالوان والاشكال والخطوط لدينا معانى ودلالات وانفعالات ؟ . وهل هذه المعانى عامة يتشابه فيها معظم الناس أم أنها ترجع لخبرة كل فرد على حدة ؟ .

إذا نظرنا إلى لوحة تجريدية أو سريالية نجد أنها لاتشتمل على أشكال مألوفة ، فهى لا تحاول أن تصورشيئاً موجوداً فى الواقع ، ومع ذلك نجد أنها بألوانها وأشكالها المجردة تثير فينا احساسات ومعانى وانفعالات . فما هو مصدر هذه الاحساسات وما هو منشأ هذه المعانى ؟

إن اللوحة التجريدية تتركب من عدد كبير وضخم من عناصر االون والخط والشكل ، وإذا أمكن لنا أن نعرف معانى كل عنصر على حدة فقد يتيح لنا ذلك فهما وادراكا لطبيعة الاحاسيس التى تثيرها االوحة المجردة . ومنذ حوالى نصف قرن بدأت فى علم النفس دراسة معانى الخطوط البسيطة . فى احدى هذه الدراسات كان يتم عرض خطوط بسيطة (خط واحد فى كل مرة) على الافراد ، ويطلب منهم أن يذكروا الحالة الانفعالية التى يعبرعنها الخط المعروض عليهم .وكانت الخطوط متنوعة بعضها أفقى وبعضها رأسى ، وبعضها صاعد وبعضها هابط ، بعضها منحنى وبعضها يمثل زاوية . . الخ . كما كان أمام المفحوصين قائمة بالانفعالات المختلفة التى عليهم أن يختاروا أحدها على أنه أكثر تمشيا مع الخط المعروض عليهم . ومن بين النتائج التى توصل إليها البحث أن ٨٩ ٪ من الافراد اختاروا صفة « غاضب » ونسبوها للزاوية ولم ينسبوها للخط المنحنى ، بينما اختار ٨٦ ٪ نسبة الصفة « حزين » إلى الخط المنحنى (7) .

وفى دراسة أخرى على الانفعالات المرتبطة بالالوان ، كان يعرض على الافراد مجموعة من الالوان ويطلب منهم اختيار اللون الذى يتمشى مع انفعال معين . ووجد مثلا أنه بالنسبة للصفة « مرح أو مبتهج » اختار حوالى نصف عدد الافراد اللون الاصفر . واتضح من دراسة اخرى أن اللون البنى كان يختار للتعبير عن الحزن(7) .

وتشير هذه الدراسات فى جملتها إلى وجود قدر من الاتفاق بين الافراد حول الدلالات أو الانفعالات المرتبطة بالالوان ، ولكن هذا الاتفاق لا يصل إلى درجة الاتفاق الكامل .

تذوق الموسيقى :

للموسيقى قدرة فذة على تحريك وجدان الإنسان ، وتحليقه فى عالم سـام من الانغام . والموسيقى لغة عالية يمكن أن تـكون أداة لتواصل الانفعالات والاحاسيس والمشاعر . والعناصر الاساسية فى الموسيقى محدودة إذا قارناها بتلك العناصر والمواد المتنوعة التى تتميز بها الفنون التشكيلية . ومع ذلك فإن إمكانيات الانطلاق والابداع فى الموسيقى لا يحدها حد . وعناصر الموسيقى التى ينوع فيها الفنان ويغير هى الإيقاع * ، واللحن ** ، والهارمونى ، واللون النغمى + والطبقة الصوتية ++ .

وقد اهتم العلماء بمعرفة تأثير هذه العناصر على الخبرة التذوقية للمستمع . فما هو تأثير الإيقاع ؟ وما هو تأثير التغير الذى يحدث فى الإيقاع أو إبطاء السرعة أو زيادتها أو ما هو تأثير ارتفاع الطبقة الصوتية أو انخفاضها ؟ . . . الخ . . . اهتم العلماء بدراسة تأثير هذه العناصر وما يطرأ عليها من تغيرات على تذوق المستمع ، وعلى حالته الشعورية ، وعلى خيالاته ، وما يتداعى إلى ذهنة من صور سمعية أو بصرية أو ذكريات قريبة أو بعيدة . والهدف من ذلك إلقاء الضوء على ما نستشعره وما نحس به وما نحلق فيه من خيالات عندما نستمع مثلا إلى سمفونية لبتهوفن أو كونشرتو لريمسكى كورساكوف ، أو مقطوعة من التراث العربى الاندلسى .

الاتجاهات نحو الموسيقى :

يختلف الافراد عن بعضهم فى نوع الاتجاهات التى يحسون بها نحو الموسيقى أو نحو الالوان والاشكال والصور . ويذكر فالنتين Valentine أن هناك أنماطاً من الاتجاهات نحو الموسيقى ، وينبه إلى أنه لا يقصد أنماطا من الافراد وذلك لاننا نجد لدى الفرد الواحد عددا من هذه الاتجاهات جنباً إلى جنب . فهى أنماط للاتجاهات نحو الموسيقى وليست أنماطاً للأفراد .

(*) الايقاع : rythm — (+) اللون النغمى : timbre

(**) اللحن : melody — (++) الطبقة الصوتية : pitch

١ — النمط الموضوعى: وهذا الاتجاه يحكم على الموسيقى المسموعة حكما موضوعياً بناء على قواعد موضوعية .

٢ — النمط الذاتى : ويتضح هذا الاتجاه لدى الافراد الذين يركزون على تأثير الانغام عليهم ، مثلا : الموسيقى تجعلنى أشعر بالخدرة أو تجعل المرء يأخذ أنفاسا عميقة ، أو مثيرة أو تثير الشجن .

٣ — النمط المشخص : الذى يقرأ فى الموسيقى بعض خصائص الشخصية . فيصف الموسيقى بأنها قوية أو مرحة أو متفائلة أو سعيدة .

٤ — النمط الترابطى : وهذا الاتجاه فى استماع الموسيقى يتضح لدى الأشخاص الذين تستثار لديهم الذكريات ، وتتداعى الخواطر عند الاستماع ... فهذا لحن يذكر بمسيرة على شاطىء البحر وصوت الأمواج يملأ الأفق ، وصوت أجراس الكنيسة يأتى من بعيد .. فهنا تتداعى خواطر وذكريات مترابطة فى تفكير المستمع من خبراته السابقة (15) .

الإيقاع والتذوق :

للايقاع أهميته الكبيرة فى تذوق الموسيقى والشعر، وكذلك فى حياتنا النفسية.. مثال ذلك فى دقات القلب والنوم والمشى والجرى ..الخ . وكثير من الناس يدفعه الايقاع إلى الحركة استجابة لضربات الموسيقى . ونحن نميل عادة عند سماعنا لأصوات متكررة — كصوت القطار مثلا — إلى تجميع هذه الأصوات فى وحدات إيقاعية . فندرك الصوت على أنه يتكون من وحدات إيقاعية متتالية ، وقد لوحظ أن لهذا التنظيم الإدراكى أهميه فى قراءة الشعر والنثر ، فهو يسهل من فهمنا لسلسلة طويلة من الوحدات . ويتم ذلك بتجميع الوحدات فى مجموعات صغيرة ، ثم تجميع الوحدات الصغيرة فى كليات أكبر (15) .

وهناك ما يشير إلى أن الإيقاع الموسيقى له تأثيره على سرعة النبض والتنفس وضغط الدم . وقد أجريت بعض التجارب التى كان يتم فيها قياس سرعة التنفس

وسرعة النبض وضغط الدم قبل الاستماع لمقطوعات موسيقية وأثناء الاستماع وبعده . وكانت هذه المقطوعات الموسيقية متنوعة بين كلاسيكية وحديثة وجاز . وقد أظهرت هذه الدراسات أن هناك تغيرات فى هذه الوظائف الجسمية تصاحب الاستماع الموسيقى، حيث تزيد سرعة دقات القلب ويقل انتظام التنفس .

ويصاحب الاستماع إلى الموسيقى أيضاً حركات جسمية منتظمة فى اليدين أو القدم أو تأرجح الجسم أو انقباض وانبساط فى بعض العضلات . على أن هناك فروقاً بين الأفراد بحيث نجد أفراداً يتخيلون فى أذهانهم هذه الحركة ، بينما نجد أفراد آخرين يقتصر استمتاعهم بالموسيقى على التحليل العقلى ، وهؤلاء يكونون غالباً خبراء فى الموسيقى . وبالنسبة لكثير من الناس تساعد الحركة على سهولة تركيزهم على الصفات الأساسية للموسيقى نفسها ، ومن ثم على الاستمتاع بالموسيقى .

تأثير السرعة وطبقة الصوت على الحالة المزاجية :

أجرى أحد الباحثين دراسة تجريبية قدم فيها خمس مقطوعات موسيقية متفاوتة فى سرعاتها ، فقدم كل مقطوعة منها ٦ مرات كل مرة بسرعة مختلفة . وقد أوضحت هذه الدراسة أن زيادة سرعة الموسيقى تجعل الموسيقى تبدو سعيدة ، أما بطء الموسيقى فيحدث الأثر العكسى . « فالحركة البطيئة جداً غالباً جادة ، ولا تكون مرحة أو بها استثارة إطلاقاً ، أما الحركة السريعة جداً فإنها تكون غالباً مرحة بها استثارة ولا تكون جادة على الاطلاق »(١٥).

كذلك ترتبط طبقة الصوت(*) المرتفعة بالسعادة والتألق ، بينما ترتبط الطبقة الصوتية المنخفضة بالجدية والعظمة ، إلا أنه يلاحظ مع ذلك أن إدراك الموسيقى يمكن يتم بطريقة إجمالية بحيث يغلب على الشخص أن يتأثر بالخصائص الإجمالية للموسيقى كصيغة متكاملة بدلا عن أن يتأثر بعنصر واحد منعزل على حدة .

(*) طبقة الصوت Pitch

معنى الموسيقى :

سميت الموسيقى منذ القدم « لغة الانفعالات والعواطف » . فالموسيقار تضطرم فى نفسه الانفعالات ، وتفور العواطف ، فيعبر عن ذلك كله بالألحان والأنغام محاولا أن يوصل « للآخر » ما أحس به ، وأن ينقل إليه بعضاً مما عاناه من المشاعر والأحاسيس . ويتلقى المستمع « أو السميع » الألحان والأنغام فيحلق مع الموسيقى ، وينفعل بها ، وتمتلىء نفسه بقبس مما أحس به الموسيقار من قبل من انفعالات ومشاعر ومعان . وبذلك فى نفس الوقت الذى يحس فيه المستمع بالمتعة ، تنتقل إليه الرسالة التى بعث بها الفنان بلغة الأنغام .

ولكن أى نوع من التعبير تستطيعه الموسيقى ، وأية معان يمكن لها أن تنقلها؟

كان هذا السؤال وما يزال موضوعاً لاهتمام علماء الموسيقى ، وعلماء النفس ، فأجروا الدراسات والتجارب محاولين فض النقاب عن هذا الموضوع الشائق .

ولقد ناقش أحد علماء الموسيقى [١٥] وهو ادموند جيرنى Edmund Gurney هذا الموضوع ، وصاغة فى عبارتين :

أولا : أن التعبير بمعناه الحرفى والملموس لا وجود له فى الموسيقى أو إن وجد فبقدر ضئيل جداً .

ثانياً : أن الإيحاء بصور وصفات ومشاعر ، رغم تكراره فى الموسيقى لا يشكل جزءاً أساسياً من وظيفتها .

السؤال الآن : ما هى تلك المشاعر والمعانى التى يمكن تناقلها عبر الموسيقى ؟ ولمن من الناس ؟

إن المقطوعة الوسيقية ليست مجرد حدث طبيعى بل هى حدث سيكولوجى [٧] ولذلك فإذا أردنا أن نعرف طبيعة هذا الحدث ومعناه لا بد لنا أن نرجع إلى الخبرات النفسية للفرد المستمع ، ونحاول التعرف على ما يحس به ويفكر فيه ويشعر به عند

سماعه للموسيقى . فبعض الموسيقى تبدو حزينة وبعضها فرحة وبعضها قوية كجلجلة الرعد وبعضها رقيقة حالة كنسمات عابرة .

على أن هناك بعض علما الموسيقى « الموسيقولوجيا » يرون أن معنى الموسيقى يكمن فى إدراك بنائها وتكوينها syntax وأن المستمع الخبير تكون المعانى لديه عبارة عن سلسلة من التوقعات حول النغمة التالية ، وتحقق هذه التوقعات أو عدم تحققها . أما المستمع غير الخبير فلا يشغله البناء الموسيقى ، أو لا يدركه بوضوح ، بل يدركه كسلسلة من المشاعر والانفعالات . أى أن الادراك الانفعالى عند المستمع العادى بديل عن الادراك الواعى للتوقعات والحلول عند الخبير (٠) .

وقد أسهم علم النفس فى محاولة التعرف على معانى الموسيقى ، وطبيعة الخبرة النفسية للمستمع بعمل دراسات تجريبية عديدة . وفى هذه التجارب يتم تقديم مقطوعات موسيقية لعينات من الأفراد ، ويطلب منهم ذكر الانفعالات والمشاعر التى أحسوا بها أثناء الاستماع .

وفى بعض التجارب الأخرى كان يتم تقديم نفس القطوعة فى عدة صور ، يتم فى كل صورة تغيير بعد واحد مع الابقاء على بقية الأبعاد ، فتتغير طبقة الصوت مثلا أو يغير المفتاح الكبير (*) إلى المفتاح الصغير (**) ، أو تغير السرعة ويسجل أيضاً أثر التغيير على المعانى والانفعالات التى تستثيرها الموسيقى .

وفى بعض الأحيان كان يقدم للأفراد نغمة بسيطة على الكمان مثلا ، ويطلب منهم ذكر الصور أو الخيالات التى ترد على خواطرهم عند سماعها .

على أنه يلاحظ أن معظم هذه الدراسات قد أجرى فى نطاق الموسيقى الاوربية وقليل منها أجرى على موسيقى المجتمعات الاخرى ، أو على أفراد من مجتمعات أخرى . ولذلك فهناك حاجة إلى اجراء مثل هذه الدراسات عبر الحضارية حتى يمكن الوصول

(*) Major
(**) Minor

إلى تعميمات غير متحيزة وغير متأثرة بالثقافة السائدة فى المجتمعات الاوربية . ومثل هذه الدراسات تعد بتقديم فهم أعمق لمعنى الموسيقى ودلالتها وتأثيرها السيكولوجى فى الفرد .

تذوق الشعر :

يحتاج تذوق الشعر والاستمتاع به إلى عدد من المتطلبات أو الخصائص لدى الشخص المتذوق . فلا بد أن يكون المتذوق على درجة من الذكاء تسمح له بفهم الشعر وما به من عناصر جمالية. وما يحتاجه تذوق الشعر من الذكاء أكثر مما يحتاج إليه تذوق التصوير أو الموسيقى . ونلمح ذلك فى الأعداد الكبيرة من الناس الذين يتذوقون الموسيقى ويستمتعون بها ، وهى أعداد أكبر بكثير من أعداد من يتذوقون الشعر ويستمتعون به . ولعل أهم القدرات العقلية فى هذا الصدد تلك القدرات اللفظية كفهم المفردات اللغوية ومعرفة ما بينها من ترادف أو تضاد، وإدراك لطائفها ودقائقها. كما يتطلب تذوق الشعر تعليماً جيداً ، وثقافة مناسبة لكى يستطيع الشخص إدراك عناصر الجمال فى الشعر . وقد اتضح ذلك من البحوث والدراسات التى حسبت فيها معاملات الارتباط بين تذوق الشعر من ناحية والقدرات العقلية من ناحية أخرى .

هذه المتطلبات من الذكاء والثقافة والتعليم ضرورية ، لكنها ليست كافية وحدها وفى حد ذاتها . . بل لابد من توفر « القدرة على تذوق الشعر » . وهذه القدرة على تذوق الشعر والاستمتاع به قدرة تنمو مع نمو الفرد ، ومع الإطلاع والقراءة التى تشحذ هذه القدرة . وقد اوضح أحد البحوث أن الاهتمام بالشعر يتزايد فى مرحلة المراهقة . وإذا لم يتدعم هذا الميل بمواصلة الإطلاع والاهتمام فإنه قد يبدأ فى التناقص بعد ذلك فى سنوات العمر التالية . فهذه القدرة على تذوق الشعر تحتاج — إذن إلى مواصلة رعايتها ، وتغذيتها بالاطلاع والممارسة حتى لايصيبها الصدأ.

الفروق الجنسية فى تذوق الشعر :

اهتمت بعض البحوث بمحاولة التعرف على الفروق بين الجنسين فى نوع الشعر

المفضل . وتشير هذه البحوث إلى أن البنات يفضلن الشعر الذى يصف الطبيعة ، وكذلك الشعر الذى يتناول العاطفة . كما يفضلن الشعر الذى تكون فيه المرأة هى المحور أو الشخصية الرئيسية فى القصيدة . أما الأولاد فهم أكثر تفضيلا لأشعار القتال والشجاعة والمغامرة .

وتشير البحوث التجريبية التى أجريت على تذوق الشعر إلى أن من المألوف أن نجد اختلافاً أو تعارضاً فى الرأى حول جمال قصيدة من القصائد . وبينما نجد أن أحد الأفراد يشيد بجمالها نجد آخر ينتقدها بشدة .(15) كذلك لوحظ بالنسبة للقصائد التى تعبر عن رأى معين أنه إذا خالف رأى القارىء ما يراه الشاعر ، فقد يعوقه ذلك عن تذوق القصيدة ورؤية ما فيها من مواطن الجودة . ولذلك فلكى يستطيع القارىء أن يتذوق الشعر عليه أن يتبنى — مؤقتاً — وجهة نظر الشاعر واتجاهه . حتى ولو كان مختلفاً معه فى الاتجاه . وإن كانت هناك بعض الشواهد التى تشير إلى أن الاختلاف الشديد فى وجهات النظر بين الشاعر والقارىء قد تعوق بدرجة شديدة تذوق القارىء أو استمتاعه بقصائد الشعر . وفى هذا الصدد نذكر ما يقرره إليوت T.S. Elliot من أن آراء شيلى Shelley كانت تثير لدية الحنق بدرجة جعلته لا يستطيع قراءة شعره من أجل المتعة (15) .

الايقاع والصوت :

فى الشعر كما هو الحال فى الفنون الأخرى نجد أن الموضوع الجمالى هو البناء أو التركيب المعقد الكلى . ولكننا نلجأ إلى دراسة العناصر الجمالية على انفراد أملا فى أن تلقى الضوء على سر الجمال فى الصور الكلية المعقدة . وقد اهتم الباحثون بدراسة عناصر الشعر المختلفة كالأصوات والايقاعات أو الأوزان ، والخيالات التى يستثيرها سماع الشعر . واستهدفوا من ذلك التعرف على أهمية كل منها بالنسبة لجمال الشعر .

وللصوت فى حد ذاته أهمية كبيرة بالنسبة لتذوق الشعر . فأصوات الكلمات فى شكلها الموزون يمكن أن تكون مصدراً للمتعة لدى السامع بصرف النظر عن

معانيها . فقد يسمع المرء شعراً يقرأ بلغة لا يعرفها ، ومع ذلك يحس بجمال الأصوات الموزونة .

ويختلف تأثير الإيقاع على السامع فهو آنا يملؤه بحافز إلى الحركة ، أو الرقص ، وآناً آخر يشيع فى جسده الاسترخاء . ولذلك يبدو أن تأثير الإيقاع يختلف من وقت لآخر ، ومن بحر* شعرى إلى بحر آخر ، كما يختلف حسب ملاءمته لموضوع القصيدة ، بل وحسب سرعة قراءتها (1ii) .

ونظراً لأهمية الصوت وايقاعاته بالنسبة لتذوق الشعر ، يصبح من المفضل سماعه مقروءاً قراءة جيدة ، أو أن يقرأه الشخص نفسه بصوت مرتفع . وفى حالة القراءة الصامتة للشعر تنشط المخيله السمعية ، فيتخيل القارىء الصوت المرتفع لكى يستطيع أن يحسن الاستماع بما يقرأ . وهذه القدرة على التخيل الصوتى قد لا تتوفر عند كثير من الناس ، وبذلك فهم يحتاجون إلى قراءة الشعر بصوت مرتفع أو سماعه مقروءاً .

الخيال وتذوق الشعر :

للخيال دوره الهام فى الابداع . فالخيالات السمعية والبصرية تظل تملأ ذهن الفنان ، وتنمو وتتطور ، حتى تخرج فى النهاية عملا من أعمال الفن . وفى حياة أعلام الموسيقى والشعر نجد أذهانهم تحلق مع خيالات الأنغام ، والألفاظ ، والصور لتكون معينا لا ينضب للابداع ، ولا يستريح الفنـــان إلا إذا أخرجه عملا فنياً متكـاملا .

وللخيال دوره أيضا بالنسبة للتذوق . وقد أجريت بعض الدراسات التجريبية أوضحت أن هناك فروقاً بين الأفراد فى هذه الناحية . فبعض الأفراد يوحى لهم الشعر بصور وخيالات تجعلهم يستمتعون بسماع الشعر . بينما نجد أفراداً آخرين لا يستغرقون فى مثل هذه الخيالات البصرية ، ومع ذلك نجدهم يستمتعون أيضاً بالشعر . ولذلك

---

* البحر metre

يمكن القول بأن الخيال ليس شرطاً لازماً لتذوق الشعر فى جميع الحالات . وإن كنا نلاحظ مع فالنتين Valenine أن هناك علاقة وثيقة بين الخيال والاستمتاع بالشعر . وذلك بشرط أن تكون الخيالات التى يستثيرها الشعر سارة أو جميلة بالنسبة للفرد . أما إذا كانت هذه الخيالات منفرة أو غير سارة فقد تفسد على الفرد استمتاعه بالشعر . كأن يتخيل الشخص قبوراً أو جثثاً مثلا . . فمثل هذا الخيال لا يساعد على الاستمتاع بل يفسده . فالخيالات الجميلة أو السارة التى تتداعى إلى ذهن الفرد عند قراءته للشعر هى التى تساعده على الاستمتاع به .

هل هناك عامل عام للتذوق فى الفنون الثلاث ؟

رأينا أن هناك دراسات تناولت التذوق فى كل فن من الفنون الثلاث على حدة: الفنون التشكيليه ، والموسيقى ، والشعر . . . ونتسا ل الآن عما إذا كان هناك عامل عام أو قدرة عامة للتذوق فى كل هذه الفنون . فإذا كانت هناك قدرة تذوقية عامة فسنجد أن من لديه احساس جمالى جيد فى الموسيقى مثلا سيكون لديه احساس جيد أيضاً فى تفاوق الشعر وتذوق الفنون التشكيلية . أى أن الشخص المرتفع فى الاحساس الجمالى يحسن التذوق فى كل فن من هذه الفنون الثلاث ، والشخص المنخفض فى الحسى الجمالى العام سيكون منخفضا فى كل منها .

ولقد اتضح من بعض الدراسات التى تتصل بهذا السؤال أن هناك ارتباطاً بين أحكام الفرد فى مجالات الفن المختلفة بما يوحى بوجود عامل عام للتذوق فى الفنون الثلاث . ففى دراسة أجراها بيرت Burt على عينة تزيد على ٢٠٠ طفلا تتراوح أعمارهم بين ١١ سنة ،١٧ سنة ، اتضح أن هناك ارتباطاً ايجابياً جوهرياً بين اختبارات التذوق الأدبى وتذوق الموسيقى وتذوق الصور .

وتأيدت هذه النتيجة فى دراسة أخرى أجراها بيرت أيضاً ، حيث استخلص من التحليل العاملى : عاملا عاما للتذوق ، وذلك إلى جانب عوامل طائفية خاصة بتذوق الأدب والموسيقى وتذوق الفنون البصرية (15) .

وهذ العامل العام مستقل عن تأثير الذكاء أو التربية أوالتعليم أو التقاليد . ويرى أيزنك أن لهذا العامل أساس بيولوجى ، ويدلل على ذلك بأمثلة من تذوق الألوان البسيطة تشير إلى دور الجهاز العصبى فى عملية التذوق ، فالألوان ذات الموجات القصيرة كاللون الأزرق تعتبر أجمل من الألوان ذات الموجات الطويلة . والارتباط بين طول الموجة والتفضيل ارتباط تام تقريبا (؟) وهناك ما يدل على أن تفضيلات الألوان لا تعتمد على الخبرات السابقة للشخص ، ولا تتأثر بالفروق الحضارية (3) فالزنوج مثلا لا يختلفون عن البيض ، كما لا يختلف فى ذلك المنتمون لجنسيات مختلفة . وبذلك فإن العامل العام للتذوق له أساس بيولوجى (فى الجهاز العصبى) ، ومستقل عن المعايير الاجتماعية ، والتعلم والذكاء إلى حد كبير . ونوضح ذلك فنقول بأن هناك قدر من الاتفاق بين مختلف الناس حول ما هو جميل ، إذا توفر لدى هؤلاء الناس العامل العام (قد نسميه تجاوزاً بالذكاء الجمالى مثلا) . فهناك خصائص أساسية تميز ما نتفق جميعا على أنه جميل ، هذه الخصائص الأساسية تستثير لدينا الاحساسات التذوقية . ومع ذلك تظل هناك تفضيلات أخرى بالنسبة لعوامل التذوق نناقشها فى النقطة التالية التى تدور حول التفضيلات الفنية .

أنماط التفضيل الجمالى :

نتناول هنا أنماط التفضيل الجمالى مثل الموسيقى الكلاسيك على الحديثة مثلا ، أو تفضيل الشعر الحر ، أو العكس ... الخ . فهنا نجد أن كل هذه أشياء جميلة ، كل من الموسيقى الكلاسيك والموسيقى الحديثة ، والشعر العمودى والحر ، والفن التأثيرى أو السيريالى أو التقليدى .. كلها جميلة بحسب متطلبات أو أحكام العامل التذوقى العام .

ولكن السؤال هنا هو : لماذا يفضل بعض الناس الجمال الكلاسيكى ، ويفضل بعض الآخر الجمال الحديث ؟ أو لماذا يفضل البعض خصائص جمالية أكثر من خصائص جمالية أخرى ؟

فإذا كان عامل التذوق العام يفسر لنا الاتفاق بين الناس حول اعتبار كل هذه الأشياء جميلة ، فكيف نفسر ميل بعض الناس إلى أشياء دون أخرى ، واستمتاعهم بأشكال دون أخرى رغم أنها كلها تعتبر جميلة ؟

اهتم علماء النفس ببحث هذه التساؤلات وبإجراء التجارب التى تحاول الإجابة عليها . والنموذج الشائع فى هذه التجارب هو عرض عدد كبير من النماذج الفنية والجمالية المتنوعة على الفرد وفى نفس الوقت نحصل على معلومات أخرى تتعلق بشخصية الفرد ، وسماتها المختلفة . وهذه النماذج الفنيـة التى تعرض على الشخص تشتمل على أشكال فنية مختلفة : مثلا صور كلاسيكية وصور حديثة ، وصور لتماثيل من عصور مختلفة ، وصور لمناظر طبيعية . تعرض هذه النماذج كلها على أفراد عينة البحث ، ويطلب من كل فرد أن يذكر تفضيلاته الفنية . وبعد ذلك يتم الحصول على معلومات أخرى عن سمـات الشخصية لدى الفرد ، كالانطواء والانبساط ، وكالعصابية .. إلى غير ذلك من السمات . ثم تحلل النتائج احصائياً لمعرفة العلاقة ما بين التفضيل الفنى من جهة وسمات الشخصية من جهة أخرى .

وقد وجدت هذه البحوث علاقات واضحة بين التفضيل الفنى كتفضيل الفن الكلاسيكى أو الحديث ، أو تفضيل الشعر العمودى أو الشعر الحر ، أو الايقاعات السريعة أو البطيئة .. ربطت البحوث بين هذه التفضيلات من ناحية وبين سمات الشخصية من ناحية أخرى .

ومن بين سمات الشخصية التى اتضح أن لها علاقة بالتفضيل الفنى : الانطواء والانبساط ، وكذلك تفتح الذهن وانغلاقه ، والايقاع الشخصى للفرد (أى سرعة العمل والنشاط المفضلة لديه) . وسوف نعرض فيما يلى لبعض ملامح هذه العلاقات .

التفضيل الفنى لأنماط الجمال المعقد أو البسيط :

أجرى أيزنك تجارب متعددة استخدم فيها مواد متنوعة من الصور الفوتوغرافية ، والرسوم الفنية ، والشعر ، والروائح العطرية ، ووجد أن هناك عامل أو بعد يتفاوت

عليه الأفراد . فنجد من ناحية أفراداً يفضلون الصور البسيطة ، ذات الألوان البهيجة، والمتصفة بالبساطة والوحدة ، والصور الحديثة الطراز ، وكذلك الشعر الواضح الأوزان ، والايقاع البسيط الثابت ، والروائح القوية الواضحة .

ونجد من ناحية أخرى أفراداً يفضلون الصور المعقدة ، المتنوعة ذات الألوان غير الفاقعة ، والشعر الأقل وضوحاً فى إيقاعاته ، والأكثر تنوعاً فى أوزانه ، والرائحة الأكثر غموضاً .

أوضحت درجات هؤلاء الأفراد على استخبارات الشخصية أن الشخص الانبساطى أكثر تفضيلاً للنمط الفنى البسيط والواضح والقوى والحيوى . أما الشخص الانطوائى فهو أكثر تفضيلاً للنمط الفنى المعقد والغامض (8) .

وهذا يوضح لنا أن أحد عوامل التفضيل الفنى يمكن تفسيره ببعد الانطواء والانبساط . فالشخص المنطوى له تفضيلاته الفنية والجمالية والشخص المنبسط له تفضيلاته الفنية والجمالية .

تفضيلات الفنون التعبيرية والواقعية والمجردة :

ربط بعض العلماء بين تفضيلات الفن التعبيرى أو الواقعى أو المجرد ، وبين قيم الشخص الفلسفية أو الخلقية أو الدينية . وقد أجرى الفيلسوف موريس Morris دراسة عاملية للقيم واستخلص ثلاثة أبعاد أسماها : الاعتماد والسيطرة والابتعاد . وتشبه هذه الأبعاد الثلاثة مفاهيم كارين هورنى Karen Horney التى أسمتها : التحرك نحو الناس ، والتحرك ضد الناس والتحرك بعيداً عن الناس . والطريف أن موريس ربط بين هذه الأبعاد الثلاثة وبين التفضيلات الفنية (7) .

وقد أجرى باحث آخر هو Knap دراسة توصل منها إلى نتائج مشابهة لنتائج موريس . ووصف ناب ثلاثة أبعاد كمصادر للخيال البصرى ولاحظ علاقتها بالتصنيفات التقليدية المألوفة للتاريخ الثقافى للحضارة الغربية . ووجد أن الميل إلى الفنون التعبيرية المجردة ترتبط بحرية التعبير الانفعالى ، وهو بعد يتصل بنسق القيمة الديونيسى Dionysian ، أما الميل إلى الفن الذى يصور الواقع فيتمشى مع النظرة العملية الواقعية

ويشبهه بقيم أبولو Appalonian . أما الميل إلى الرسوم الهندسية المجردة فيرتبط بخصائص الشخصية ذات النظرة العقلانية وهو يتصل بالتقليد الفيثاغورى Pythsgorean (7) .

ومعنى ذلك أن تفضيلات الفن التعبيرى أو الواقعى أو المجرد ترتبط بطراز القيم لدى الشخص وبنظراته الفلسفية والخلقية للعالم والمجتمع .

تفضيل التجديد أو التقليد:

من أهم ملامح الحياة الفنية أن تاريخها يشهد من وقت لآخر تجديدات وتطورات تحاول أن تغير القوالب والأساليب القديمة ، وتبتكر أساليب جديدة للتعبير الفنى . ويتفاوت موقف الناس من التجديد بين متقبل له متحمس لإسهاماته ولقيمة ، وبين معارض له مستنكر لبدعه واغرابه . فما الذى يحدد موقف الشخص ويجعله يختار موقفاً مؤيداً أو معارضاً للحركات التجديدية فى الفن ؟

هناك دراسة أجريت على تذوق الموسيقى المجددة تلقى الضوء على هـذا التساؤل . وتربط بين موقف الشخص من الجديد وبين طراز تفكيره وشخصيته .

وقد أجرى هذه الدراسة برنارد ميكول B.Mikol (12) . وهو يرى أن الشخص عندما يستمع إلى الموسيقى يقبل عليها وفى ذهنه مجموعة من الاعتقادات حول طبيعة الموسيقى ، وكيف يجب أن تكون ، وما هى الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة ... هذه الاعتقادات تحدد مدى تقبل الشخص للموسيقى وإنسجامه معها وفهمه وتذوقه لها . فإذا كانت الموسيقى تتمشى مع تصورات واعتقادات الشخص يسر له ذلك تذوقها . أما إذا كانت الموسيقى مجددة وغير مألوفة له من قبل ، فإن تذوقه لها يعتمد على خصائص تفكيره وهل هو شخص متفتح الذهن ، يسهل عليه تقبل الجـديد وفهمه ؟ أم أنه شخص مغلق التفكير يرفض ما لم يألفه من الأشياء ؟

والواقع أن هناك بعـداً هاماً من أبعاد الشخصية يسمى بتفتح الذهن (*)

(*) تفتح الذهن : Open - mindedness

وانغلاقه(**) . وهو بعد يتصل بالاتجاهات الاجتماعية للشخص . وقد افترض ميكول أن الأشخاص المتفتحى الذهن يتذوقون كلا من الموسيقى المألوفة والمجددة، أما الأشخاص المنغلقى الذهن فإنهم يتذوقون الموسيقى المألوفة ، ولكنهم لا يتذوقون الموسيقى المجددة . أى أن كلا من الأشخاص المتفتحين والمنغلقين يستمتعون بالموسيقى المألوفة أما الموسيقى الجديدة غير المألوفة فيستمتع بها المتفتح ، ولا يتذوقها المنغلق ذهنياً .

وقد استخدم ميكول فى التجربة مقطوعات موسيقية متنوعة تنتمى إلى النوعين التاليين :

١ — مقطوعات ذات بناء مألوف وتقليدى مستمدة من موسيقى برامز Brahms وسان سانس Saint - Saëns .

٢ — مقطوعات ذات بناء غير مألوف وتجديدى مستمدة من موسيقى شونبرج Schönberg وبارتوك Bartok

وراعى الباحث أن تكون المقطوعات متساوية من حيث الوقت ، وكذلك من حيث عدم معرفة أفراد العينة بها من قبل .

وقد أيدت نتائج التجربة الفرض ، حيث اتضح أن الأشخاص المتفتحى الذهن يستمتعون بكل من الموسيقى التقليدية وغير التقليدية ، أما الأشخاص المنغلقى الذهن فيستمتعون بالموسيقى التقليدية ولكنهم لا يستسيغون الموسيقى المجددة ولا يتذوقونها .

وهناك دراسة أخرى أجريت فى مصر واهتمت بدراسة سمات الشخصية المتصلة بتفضيل الفن المألوف أو الفن الحديث فى مجال الفنون التشكيلية (٢) واستخدم الباحث فى هذه الدراسة مقياساً يقيس مدى تفضيل الفرد للفن التقليدى أو للفن الحديث . كما استخدم مقاييس أخرى تقيس سمات الشخصية لدى عينة البحث .

وقد تبين من هذه الدراسة أن تفضيل الفن التقليدى يرتبط بدرجة أكبر من الاتزان

(**) انغلاق الذهن : Close - mindedness

الوجدانى ، وبدرجة أكبر من الميل للسيطرة . أما تفضيل الفن الحديث فيرتبط بدرجة أكبر من القلق ومن الميل إلى التفكير الأصيل .

أما من يفضلون كلا من الفن التقليدى والحديث فهم أكثر ميلا للسيطر والمجاراة الاجتماعية .

وإذا تأملنا هذه النتائج ، فلعلها توحى إلينا بأن القلق المرتبط بتفضيل الفن الحديث هو من نوع القلق الوجودى الذى تكلم عنه الفلاسفة ولعله يعكس رفض الفرد للمألوف وصراعه من أجل التجديد .

هل هناك عامل لسرعة الإيقاع المفضلة ؟

أجريت دراسة فى مصر (٣) لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة بين الإيقاع المفضل فى الشعر من حيث السرعة (التمبو) وبين سرعة أداء الشخص على عدد من الاختبارات الإدراكية والحركية . وقد استخدمت فى هذا البحث مجموعة من القصائد الشعرية للشاعر أحمد شوقى ، وهى عباره عن خمس قصائد يتراوح عدد أبيات كل منها بين أربع أو خمس أبيات شعرية . وتختلف هذه القصائد من حيث سرعة الإيقاع الشعرى ، فهى تنتمى إلى خمسة بحور شعرية مختلفة فى السرعة .

كذلك طبق الباحث عدداً من الاختبارات التى تقيس السرعة الحركية والسرعة الإدراكية على أفراد العينة .

وكان الباحث يطلب من الأفراد ذكر تفضيلاتهم الشعرية بالنسبة للقصائد الخمس التى كانوا يسمعونها فى جلسة التجربة .

وقد وجد الباحث أن الاختبارات الإدراكية والحركية تقيس عاملا عاماً للسرعة مشتركاً بينها (ظهر ذلك سواء بالنسبة للسرعة المعتادة أو السرعة القصوى لأداء الأفراد) .

غير أن الباحث لم يجد ارتباطات جوهرية كبيرة بين الاختبارات التى تقيس

السرعة الحركية والادراكية ، وبين تفضيل الايقاع السريع فى الشعر (التمبو السريع فى الشعر) .

ويلاحظ أن هذا البحث استخدم عينة من الطلبة فى دراسة العلاقة بين تمبو الشعر المفضل وبين سرعة الأداء على الاختبارات وقد نتساءل هنا هل ستحصل على نفس هذه النتيجة لو أننا استخدمنا عينة من المهتمين بالشعر ، ممن لديهم تفضيلات ثابتة (يعتمد عليها) فى مجال الشعر . وذلك لأن الاهتمام بالشعر ، وتذوقه محدود الانتشار إلى حد ما ، ولذا فإن استخدام عينة من ذواق الشعر قد يختلف عن استخدام عينة عادية .

تعليق عام على الدراسات العاملية للتذوق :

تشير الدراسات العاملية (التي استخدمت أسلوب التحليل العاملي) إلى أن هناك عاملا عاماً للتذوق الفني ، مستقل عن مؤثرات البيئة والتعليم والجنس ، وهناك ما يوحي بأن هذا العامل العام يعكس أساساً بيولوجياً فى الجهاز العصبي ... وهذا العامل العام هو الذي يفسر تذوقنا للخصائص الجمالية الموضوعية (ألوان معينة مثلا) بصرف النظر عن خبراتنا السابقة . وهو عامل يفسر الاتفاق العام أو الاجماع على استحسان خصائص جمالية معينة .

وإلى جانب عامل التذوق الفنى العام هناك عوامل نوعية تتصل بتفضيل الأفراد لأشكال جمالية دون أخرى . أى أن هذه العوامل الفنية تجعل أحد الأفراد يفضل شكل جميل على شكل جميل آخر ، بينما يفضل شخص آخر الشكل الثانى على الأول. وقد أشارت البحوث إلى العوامل التالية :

١ — عامل تفضيل النماذج الجمالية البسيطة الواضحة فى مقابل النماذج الجمالية المعقدة الغامضة .

٢ — عوامل تفضيل الفنون التعبيرية والواقعية والمجردة .

٣ — عامل تفضيل التجديد أو التقليد .

الدراسات عبر الحضارية للتذوق الفنى :

هناك سؤال هام : هل تتفق آراء الناس الذين ينتمون إلى مجتمعات مختلفة حول ما يعتبرونه جميلا أو غير جميل ؟ ..

مثل هذا السؤال يحتاج للاجابة عليه إلى الاطلاع على الدراسات عبر الحضارية(*) التى تقارن بين التفضيلات الجمالية للأفراد المنتمين لمجتمعات متباينة ·

ومن الدراسات المبكرة فى هذا المضمار دراسات أيزنك (8) التى قارن فيها تفضيلات الألوان لدى أفراد منتمين لجنسيات مختلفة وقد وجد قدراً كبيراً من الاتفاق بين هؤلاء الأفراد مما حدا به إلى القول بأن هناك عامل للتقدير الجمالى ، وأن هذا العامل يحتمل أن يكون له أساس بيولوجى ·

وهناك بعض الدراسات الأخرى التى بحثت تفضيلات الأشكال البسيطة لدى عينات مختلفة حضارياً (من اسكتلندا وغرب أفريقيا) · وهى توحى بوجود الاتفاق بين الحضارات المختلفة (٦) .

وفى نفس الوقت نجد دراسات أخرى تناولت تذوق الفنون البصرية لدى الحضارات المختلفة (أستراليين أصليين ، وأستراليين أوربين وكذلك انجليز وفرنسيين وهنود وأفريقيين) · ووجدت هذه الدراسات أن هناك اتفاقاً داخل كل حضارة على حدة فى الأحكام الجمالية ، ولكن هذا الاتفاق لا يمتد بالضرورة إلى خارج حدود المجتمع الواحد ·

ومع ذلك فقد وجدت بعض البحوث درجة عالية من الاتفاق فى الحكم الجمالى على الرسوم الفنية . وقد قارن أحد هذه البحوث التفضيلات الفنية للأطفال الأمريكيين والفرنسيين باستخدام صور فنية · وقارن بحث آخر بين التفضيلات الجمالية لعينات من الصينيين والهنود الأمريكيين · وقد وجدت هذه البحوث درجة كبيرة من الاتفاق فى التفضيلات الجمالية(٧) .

(*) الدراسات عبر الحضارية : Crpss Cultnral studies

وهناك دراستان هامتان أجراها الدكتور مصطفى سويف بالاشتراك مع أيزنك (13 & 14) . وفى هاتين الدراستين تمت المقارنة بين التفضيلات الجمالية لعينات من المصريين وعينات من الانجليز . وكانت المنبهات المستخدمة فى هذه الدراسات عبارة عن أشكال مجردة تسمى بالمضلعات (*) كانت تعرض هذه المضلعات على المفحوصين أما بواسطة الفانوس السحرى أو مطبوعة فى كتيب ، ويطلب من المفحوص أن يقدر مدى تفضيله أو عدم تفضيله لكل شكل منها . ولم يؤيد البحث افتراض وجود فروق حضارية بين الانجليز والمصريين فى تفضيلاتهم الجمالية . كذلك فإن العوامل الأساسية للتفضيل الجمالى (للأشكال) كانت متشابهة جداً بين المجموعتين . ولذلك يستخلص البحث نتيجة مؤداها أن هناك تشابهاً عبر حضارى قوى يجعل الأشخاص يفضلون أشكالا معينة على غيرها . وهذا التشابه يتعارض مع تفسير الأحكام الجمالية بتفسيرات بيئية أو ثقافية خاصة ،ويوحى بإمكانية وجود سبب بيولوجى للاحكام الجمالية

ونستخلص من عرضنا للدراسات السابقة أن هناك ما يشير إلى وجود قدر من التشابه فى الأحكام الجمالية بين الحضارات المختلفة . ولذلك فنحن فى حاجة إلى مزيد من الدراسات عبر الحضارية للتذوق الفنى لكى نستطيع أن نحدد بوضوح دور العوامل البيولوجية ودور العوامل الحضارية فى تحديد الأحكام الجمالية .

(*) المضلعات : polygans.

المراجـــع

(١) إبراهيم (عبدالستار) التذوق الفنى والنشاط الإبداعى . مجلة الفكر المعاصر . ١٩٦٨ . العدد ٦٨ ، ٣٢ ـ ٣٩ .

(٢) أبو حطب (فؤاد) سمات الشخصية والتفضيل الفنى . المجلة الاجتماعية القومية . ١٩٧٣ ، ١ ، ٣ ـ ٣٠ .

(٣) الشيخ (عبدالسلام) الإيقاع الشخصى والإيقاع فى الشعر المفضل (دراسة نفسية لعملية التذوق الفنى) . رسالة ماجستير بجامعة القاهرة . ١٩٧٣ . (غير منشورة) .

(4) Arnheim, R. Art & Visual Perception. London : Faber & Faber, 1969.

(5) Berlyne, D. E. Aesthetics & Psychobiology . New York : Appleton — Century — Crots, 1971.

(6) Brengelmann, J. C. Personality & Aesthetic Perception. (unpublished lectures).

(7) Child, I. L. Esthetics. In: G. Lindzey & E. Aronson (eds.) The Handbook of Social Psychology . Reading : Addison — Wesley, 1969.

(8) Eysenck, H. J. Dimensions of Personality , London : Kegan Paul, 1947.

(9) Eysenck, H. J. Sesense & Nonsense in Psychology . London : Pelican, 1958.

(10) Hastie, R. & Schmidt, C. Encounter with Art. NewYork: Mc Graw — Hill, 1969.

(11) Hogg, J. Psychology & the Visual Arts, London : Penguin, 1970.

(12) Mikol, B. The Enjoyment of Musical Systems. in : M. Rokeach (ed.) The Open & Closed Mind . New York : Basic Books, 1960.

(13) Soueif, M. I. & Eysenck, H. J. Cultural Differences in Aesthetic Preferences. International Journal of Psychology, 1971, 6, 293 – 298.

(14) Soueif, M. I. & Eysenck, H. J. Factors in the Determination of Preference Judgments of Polygonal Figures : A Comparative Study. International Journal of Psychology , 1972, 3, 145 – 153.

(15) Valentine, C. W. The Experimental Psychology of Beauty. London : Methuen, 1962.

(16) Wallach, M. A. Art, Science & Representation : Toward an Experemental Psychology of Aesthetics. in : Harper, R. J. C., Anderson, C. C. , Christensen, C. M. , & Hunka, S. M. (eds.) The Cognitive Processes Englewood Cliffs : Prentice Hall, 1964.

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الأول : النظرة العلمية والسلوك

الباب الثانى : ديناميات السلوك

الباب الثالث : العمليات العقلية العليا

رقم الإيداع ٥٤١٧

دار الكتب الجامعية

الإدارة : ١٨ شارع سيزوستريس

٢٥ شارع طلعت حرب

تليفون : ٣٥٨٢٠ إسكندرية

توزيع القاهرة

١٣ شارع الدكتور عبد الحميد سعيد

تليفون : ٥٠٩٠٩ / ٤١٠٠٠٩

مكتبة لهواة الكتب

بالاسكندرية

٣٤ شارع سعد زغلول

تليفون : ٣٣٠٢٣

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلي)

